من التمدن الإسلامي[1]

آية الله العظمى
الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي
(قدس سره الشريف)

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

لقد ابتعد المسلمون عن الإسلام فكراً وسلوكاً، ولذا تسلَّم القيادة منهم الغربيون (وأعني بهم من أهل الغرب وأهل الشرق، إذ أن الشرقيين نسخة أخرى من الغربيين).

وما دام المسلمون مستمرين على الجهالة بدينهم وتاريخهم، وعلى خلاف العمل الذي يطلبه منهم الإسلام، فلا يُرجى لهم التقدم والازدهار، لكن المظنون أن نوم المسلمين أوشك على التمام، وبوادر النهضة تلوح في الأفق من بُعد، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

إن الغالب من شبابنا لا يعلمون أن الإسلام كانت له حضارة، أو قامت له مدنية، ومؤلف (تاريخ التمدن الإسلامي) أراد أن يتناول هذا الجانب . في كتابه . فكتب ما وصل إليه نظره.. وحيث إن الكتاب بطوله وتفاصيله يفتقر إلى السرعة التي يتوخّاها غالبية الشباب في درك الحقائق، رأيت أن أوجز الكتاب، مسمّياً له (من التمدن الإسلامي). ولا يخفى أنّا غيّرنا بعض الكلمات، حيثما رأيناها غير لائقة.

(١) ملاحظة: أخذنا نص هذا الكتاب من الانترنيت موقع الإمام الشيرازي قدس سره، ولابد من مطابقته مع الأصل المطبوع للتأكد من سلامته وعدم التغيير والحذف والتبديل فيه.

ثم أن من الضروري التنبيه على أن (تاريخ التمدن) بنفسه، ناقص ـ حتى في هيكله العام ـ نقصاً ذريعاً، إذ:

١ ـ لم يهتم الكتاب بنواحي الروح في الإسلام، ومن المعلوم أن ذلك له دخل كبير في التمدن والحضارة، فكأن الكاتب أسقط من حساب الواقع، نصف (التمدن).

٢ ـ إن الغالب ـ الذي يندر خلافه ـ أن المؤلف يذكر ما وجده من كتب السنّة فقط، ومن المعلوم أن ما في تلك الكتب لا يساوي حتى نصف التمدن الإسلامي، فإن كتب الشيعة التي احتوت على زهاء نصف التمدن، قد أهملت معلوماتها في (تاريخ التمدن).

إذن.. فأصل كتاب (زيدان) لم يحوِ إلا على ربع الهيكل العام ـ أو أقل ـ من تاريخ التمدن الإسلامي.

ولو قيّض الله سبحانه لجنة من الكتاب الناضجين، لكتابة تاريخ التمدن، لرأيت التفاوت الكبير بين كتاب (زيدان) وبين الواقع.

والله أسأل أن يوفّقنا جميعاً للعلم والعمل، وأن يأخذ بأيدينا لإقامة الإسلام ونشر الأحكام، وهو المستعان.

كربلاء المقدسة

محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي

الفصل الأول

التمدن والحضارة قبل الإسلام

البحث في تمدن الأمة يتناول النظر في ما بلغت إليه من سعة الملك والعظمة والثروة ووصف ما وافق تمدنها من أسباب الحضارة وثمارها. ويدخل في ذلك تاريخ العلم والأدب والصناعة ولوازمها كالمدارس والمكاتب والجمعيات، وبسط حال الدولة ومناصبها وما انتهت إليه من الرخاء. وما هو مقدار تأثير ذلك في هيئتها الاجتماعية، وذلك يستلزم وصف عادات الأمة وآدابها الاجتماعية ونواحيها السياسية وإسناد ذلك إلى أسبابه وبواعثه.

غير أن النظر في هذا التمدن على هذه الصورة لا يكون واضحاً وافياً إلا إذا تقدّمه البحث عن حال تلك الأمة في بداوتها وكيف تدرّجت إلى الحضارة وما هي العوامل التي ساعدتها على ذلك. والبحث المشار إليه ضروري خصوصاً في تاريخ التمدن الإسلامي لأن فيه عوامل خاصة به، لا وجود لها في تمدن الأمم الأخرى.

وبناءً على ذلك لم نرَ بدّاً من تصدير هذا الكتاب بمقدمات تمهيدية نبسط فيها حال العرب قبل الإسلام ونسبتهم إلى التمدن وما تقدّم الدعوة الإسلامية من أحوال تلك الأمة. وكيف كانت جزيرة العرب عند ظهور الدعوة وكيف كان حال الروم والفرس يومئذ. وما الذي ساعد هؤلاء العرب على فتح تينك المملكتين مع قلّة عددهم وضعف معدّاتهم. فإذا فرغنا من ذلك عمدنا إلى الكلام في سعة المملكة وتاريخ دوائرها ومناصبها وغير ذلك. فنبدأ بوصف حال العرب قبل الإسلام:

قدماء العرب

المشهور عند المؤرخين أن العرب يقسمون إلى قسمين كبيرين: العرب البائدة كعادٍ وثمود، والعرب الباقية، وأن العرب الباقية يقسمون إلى القحطانية سكان بلاد اليمن وما

جاورها وهم ينتسبون إلى قحطان أو يقطان بن عابر وينتهي بأدفخشاد إلى سام، والإسماعيلية أو العدنانية وهم سكان الحجاز ونجد وما جاورهما من أواسط جزيرة العرب، وينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل من امرأته هاجر، ويسمون أيضاً مضرية ومعدية لمثل ذلك السبب.

أما الإسماعيلية وهم أهل الحجاز ونجد فأكثرهم أهل بادية وقد ظهرت منهم دول قبل الميلاد وبعده، أشهرها دول القبائل أصحاب الوقائع التي جرت بينهم قبيل الإسلام وتعرف بأيام العرب.

عرب اليمن

أما عرب اليمن القحطانية فقد تمدّنوا تمدناً لا تزال آثاره مطمورة تحت الرمال في حضرموت ومهرة واليمن، وأشهرهم عند العرب حمير وسبأ وكهلان، وتاريخ هذه الدول أقرب عهداً من عاد وثمود. وقد اكتشف السوّاح بعض آثارهم وأكثر ما اكتشفوه أنقاض بعض الأبنية في صنعاء وعدن وحضرموت. فاستخرجوا منها ألواحاً مكتوبة بالقلم الحميري (المسند) أكثرها دعاء ديني أو نحوه. ولم يتمكّنوا من التنقيب عن الدفائن المهمة في داخل البلاد لمشقة الوصول إليها، وقد ذكر مؤرّخو العرب شيئاً عن أبّهة تلك الدول وكانت قد انحلّت قبل الإسلام، لكن أخبارها كانت إلى ذلك العهد لا تزال مألوفة وفيها ما يدل على تمدن قديم لا يقلُّ عن تمدن الآشوريين والمصريين والفينيقيين فقد أنشأوا المدن وعمّروا القصور وغرسوا الحدائق ونحتوا التماثيل وحفروا المناجم ونظّموا الجند وفتحوا البلاد ووسّعوا التجارة وأتقنوا الزراعة.

وقد ذكرهم هيرودوتس الرحّالة اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد فقال:

(إن في جنوبي بلاد العرب وحدها البخور والمر والقرفة والدارسيني واللاذن) وعدَّها من أغنى ممالك العالم في زمانه.

ومن آثار العرب في اليمن ما لا يزال التاريخ يلهج بذكره، ويعدُّ من عجائب الأبنية، نعني به السد المشهور بسد مأرب، بنوه نحو القرن الثاني قبل الميلاد كما بنى محمد علي باشا القناطر الخيرية في رأس الدلتا. وكما بنت الحكومة المصرية منذ بضع عشرة سنة خزان أسوان.

سد مأرب

وسد مأرب هذا عبارة عن حائط موصل بين جبلين يحجز الماء الذي يسيل بينهما فيرتفع ويروي السفحين إلى أعلاهما، وقد جعلوا فيه شعباً وقنوات وساقوا إليه سبعين وادياً تصبّ مياهها فيه. فمثل هذا السد العظيم يحتاج إلى مهارةٍ في الهندسة وهمّة عالية وهو أقدم خزان للماء ذكره التاريخ، وعرب اليمن أسبق الأمم إلى هذه الهندسة. كان بناؤه متيناً حيث قاوم صدمات الماء وتأثيرات الهواء بضعة قرون ولما ضعفت الدولة عن تجديده وأحسّوا بقرب تهدّمه أخذوا بالمهاجرة من جواره في أواسط القرن الثاني للميلاد وتفرّقوا في البلاد، (والمشهور عند العرب أن الغساسنة في الشام والمناذرة في العراق والأوس في المدينة والأزد في منى وخزاعة بجوار مكة منهم)، ثم انفجر السد وطافت المياه فهاجر مَن بقي، وذلك ما يعبّرون عنه بسيل العرم.

وذكر استرابون الرحّالة اليوناني في القرن الأول قبل الميلاد أن مأرب كانت في زمانه مدينة عجيبة سقوف أبنيتها مصفّحة بالذهب والعاج والحجارة الكريمة، وفيها الآنية الثمينة المزخرفة بما يبهر العقول، وذلك يهوّن علينا سماع ما ذكره العرب عن إرم ذات العماد.

التمدن اليوناني والفارسي

على أننا لا ننكر أن التمدن الإسلامي قام على أنقاض التمدن اليوناني والفارسي. لكن شأن العرب في ذلك مثل شأن اليونان والرومان والفرس وسائر الدول العظمى، لأن اليونان اقتبسوا أكثر عوامل تمدّنهم من المصريين وزادوا فيها ووسّعوها على مقتضى مؤثرات الطبيعة حتى صار تمدناً معروفاً بهم، فأخذه عنهم الرومان وعدّلوا فيه تعديلاً طفيفاً جداً، وكذلك الفرس فإن تمدّنهم قام على أنقاض تمدّن الآشوريين والبابليين والكلدانيين قبلهم وأخذوا أيضاً عن اليونان.

على أن تلك الأمم لم تستطع الظهور في عالم الحضارة إلا بعد أجيال متوالية. أما العرب فلم يمض على نشوء دولتهم قرن، حتى ظهر تمدّنهم وبانت ثمار عقولهم، وفي القرنين الثاني والثالث ملأوا الأرض علماً وأدباً ومدنية وحضارة.

الآداب الدينية والجاهلية

وكان لليهود تأثير على عرب الحجاز بأمور كالكهانة والاحتفال بالأعياد ونحوها. وعلّموهم بعض أقاصيص التوراة وفصولاً من التلمود ونشروا بينهم كثيراً من تقاليدهم وعاداتهم. وقد يكون بعض تلك الآداب أو الطقوس متسلسلاً إليهم مما كان عند أسلافهم في الجاهلية الأولى، فضلاً عمّن هاجر إلى الحجاز من أهل اليمن وغيرهم من الأمم التي كانت تحيط بجزيرة العرب كالكلدانيين والمصريين والأحباش وغيرهم، فأصبح أهل الحجاز بعد ذلك الاختلاط فئتين هما: أهل البادية الباقين على الفطرة وهم العرب الرُحّل، وأهل المدن المقيمين في مكة والطائف والمدينة وهم الحضر، وكانت مكة أشهر مدن الحجاز لاتخاذها حجّاً يؤمّه الناس من أقاصي البلاد لزيارة الكعبة، فأصبحت بتوالي الأجيال مركزاً للتجارة لما يتوافد إليها من الحجاج في المواسم كل عام. فطمحت إليها أنظار أهل السلطة من القبائل القوية، وكانت في أوائل أزمانها في حوزة الحجازيين بني إسماعيل وهم سدنة الكعبة (أي حجّابها)، ثم نزح إليها بنو خزاعة من اليمن بعد سيل العرم نحو القرن الثاني للميلاد وتسلّطوا عليها، وغلبوا الحجازيين عليها بما تعوّدوه من السيادة في عهد دولتهم باليمن، والإسماعيليون (أو العدنانيون) يومئذ ضعاف لا يقوون عليهم ولكن ناموس الاجتماع قضى عليهم كما قضى على سواهم فدارت الدائرة بعد عدة أجيال على بني خزاعة وضعف أمرهم وقوي أمر العدنانيين فتفرّع منهم كنانة قريش.

الكعبة والتجارة وقريش

كانت قريش كما قدّمنا حضراً أهل تجارة وتجارتهم قائمة أكثرها بالحجاج الذين يزورون مكة في المواسم، فكان من مقتضيات مصلحتهم تسهيل طرق القدوم وترغيب الناس في الحج. ومن جملة ما بعث القبائل على زيارة الكعبة أنه كان لكل قبيلة منها صنمٌ خاص بها تأتي في الموسم لزيارته والذبح له حتى زاد عدد الأصنام في الكعبة على ثلاثمائة صنم وفيها الكبير والصغير، ومنها ما هو على هيئة الآدميين أو هيئة بعض الحيوانات أو النباتات.

وكان رجال قريش يرحلون للتجارة رحلتين في العام رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى بصرى في حوران بضواحي الشام، فكانت مكة واسطة عقد التجارة بين اليمن والشام، وكانت طرق التجارة خطرة إلا عليهم لاعتقاد العرب حرمتهم لأنهم ولاة الكعبة، وكانوا كثيراً ما يسافرون إلى بلاد فارس أو إلى الحبشة فيأتون من الشام بالأنسجة والأطعمة ويحملون من فارس السكر والشمع وغيرهما.

فالكعبة كانت مصدر ارتزاق أهل مكة ولولاها لم يستطيعوا المقام في ذلك الوادي وهو غير ذي زرع، على أن أسفارهم ومخالطتهم العالم المتمدّن في أطراف العراق والشام جعلتهم أوسع العرب علماً وأكثرهم خبرة ودراية. ونظراً لعلاقة الكعبة بأسباب معايشهم بذلوا العناية في إدارة شؤونها، وسهّلوا على الناس القدوم إليها. فأنشأوا فيها أماكن للسقاية وأخرى للإطعام وجعلوا ما يجاورها حرماً لا يجوز فيه القتال وتولّى بعضهم السقاية وبعضهم الإطعام وبعضهم غير ذلك، ومازالت تلك المناصب تتعدّد حتى أصبحت قبيل الإسلام بضعة عشر منصباً وهي عبارة عن مناصب الدولة في ذلك العهد اقتسمتها قريش في بطونها وأشهرها عشرة أبطن: هاشم، وأمية، ونوفل، وعبد الدار، وأسد، وتيم، ومخزوم، وعدي، وجمح، وسهم.

الدعوة الإسلامية

نشأة النبي (صلّى الله عليه وآله) الأولى

تلك كانت حالة العرب في الحجاز لما ظهر النبي (صلّى الله عليه وآله) صاحب الشريعة الإسلامية ودعا الناس إلى التوحيد، فأظهر دعوته سنة ٦٠٩ للميلاد وعمره أربعين سنة، ولا يسع المقام تفصيل سيرته وإنما نذكر هنا ما يتعلّق منها بالموضوع لبيان الأسباب التي رافقت ظهور الدعوة وساعدت على انتشارها.

ولد صاحب الدعوة الإسلامية وقد مات أبوه، وبعد ست سنوات ماتت أمه فكفله جده عبد المطلب وكانت له السقاية والرفادة من مناصب الكعبة وله مقام رفيع في قريش، لكنه توفي بعد سنتين فكفله عمه أبو طالب وكان وجيهاً محترماً فشبّ محمد (صلّى الله عليه وآله) في بيته كأحد أولاده، وكان أبو طالب صاحب تجارة مثل سائر قريش فكان إذا خرج في تجارة اصطحبه في أسفاره فاشتهر منذ حداثته بالحصافة والذكاء وصدق السريرة حتى لقّبوه بـ(الصادق الأمين) واشتهر في مكة بهذا اللقب، فعرفت به خديجة بنت خويلد وكانت ذات ثروة وتجارة فعهدت إليه الاتجار بمالها فاتّجر وربح فازدادت إعجاباً به فعرضت عليه الزواج بها فتزوّجها وتمتّع بمالها، فوسعت حاله وأصبح من أهل الرخاء واليسار والكل يحبونه ويحترمونه.

الدعوة

ولما بلغ الأربعين من عمره مال إلى الخلوة والاعتزال عن الناس فأوى إلى الجبال والشعب كما يفعل النسّاك، وأول ما ابتدأ به الرؤيا الصالحة، وفي رمضان من تلك السنة كان في جبل حراء على ثلاثة أميال من مكة وخديجة معه، وأسرع يوماً إليها وأخبرها أنّ جبرائيل ظهر له وأمره أن يقول: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)(١) فقرأها، وأنه خرج إلى وسط الجبل

فسمع صوتاً من السماء يناديه: (يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل) فذعر وأسرع إلى خديجة فأخبرها، وكان لها ابن عم اسمه ورقة بن نوفل كان قد قرأ الكتب ونظر فيها وخالط أهل التوراة والإنجيل وسمع أقوالهم، وكان مشهوراً في مكة بسعة العلم في الدين والنبوات، فذهبت إليه وأخبرته بما كان فقال: (والذي نفس ورقة بيده لأن صدقتني يا خديجة لقد جاء الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه نبيّ هذه الأمة).

فرجعت خديجة إليه وأخبرته بقول ورقة ورجع إلى مكة وهو لا يجسر على إظهار دعوته لعلمه بما سيكون لها من ثقل الوطأة على قريش لما فيها من تعييب آلهتهم وتحقير أصنامهم، وفي ذهاب تلك الأصنام ذهاب تجارتهم وأموالهم وكل آمالهم، ومن جهة أخرى لم يكن يتوقع إذا أنبأهم برسالته أنهم يصدّقونه فعمد إلى بث دعوته سراً بين أقرب الناس إليه. قضى في ذلك ثلاث سنين فاجتمع حوله نفرٌ قليل في جملتهم ابن عمه علي بن أبي طالب (عليه السلام) وكان لا يزال غلاماً، وأبو بكر وأبو عبيدة بن الجرّاح وغيرهم، فهمّ بدعوة الناس جهاراً وبدأ بعشيرته الأقربين فكلّف ابن عمه علياً أن يصنع لهم طعاماً يدعو أهله إليه وفيهم عمومته بنو عبد المطلب وأولادهم وهم نحو أربعين رجلاً، فدعاهم إلى بيت أبيه أبي طالب، فلما فرغوا من الطعام همّ محمد بالكلام وكان أهله قد سمعوا بدعوته سراً واستخفّوا بها، فلما همّ بالكلام علموا أنه سيدعوهم إلى ترك الأصنام وعبادة الله، فابتدره عمه أبو لهب وكان أشدهم وطأة عليه فأسكته فسكت وتفرّقوا ولم يقل شيئاً.

لكنه لم يفشل ولا ضعفت عزيمته فأعاد الوليمة ثانية وقد صمّم على التصريح بما في ضميره فلما فرغوا من الطعام قال: (ما أعلم أن إنساناً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني في هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم) فظلّوا ساكتين وجلُّ سكوتهم استخفافاً، فتقدم علي ابن عمه وقال: (أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليهم) فأخذ النبيّ برقبته وقال: (هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا) فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: (قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيعه) ثم انصرفوا.

النبي وقريش

على أن استخفافهم هذا لم يقعده عن عزمه ولا أبعده عن قومه، وبدلاً من وقوفه عند ذلك الحد تهيّباً وحذراً جاهر بسبِّ الأصنام ونسب أهله وآباءهم إلى الكفر والضلال، فلما علموا بمجاهرته بسبّ الأصنام أجمعوا على عداوته ومقاومته وتعمّدوا أذيته لكنهم لم يروا سبيلاً إلى ذلك وهو في كفالة عمه أبي طالب. فجاءوا عمه وفيهم أبو سفيان فقالوا له: (يا أبا طالب إن ابن أخيك عاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلّل آباءنا فانهه عنا أو خلّ بيننا وبينه) فردّهم أبو طالب ردّاً حسناً ووعدهم خيراً، ثم رأوه لا يزال عاملاً على سبّ آلهتهم فعادوا إلى أبي طالب وقد اشتدَّ بهم الغيظ وقالوا له: (إن لم تنه ابن أخيك وإلا نازلناك وإياه حتى يهلك أحد الفريقين) فعظم ذلك على أبي طالب وأدرك عاقبة الأمر فلما عادوا من عنده قال لابن أخيه: (يا بن أخي إنّ قومك قالوا كذا وكذا).

فظن النبي (صلّى الله عليه وآله) أن عمه يخذله فشقّ عليه ذلك وقال: (يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر) وبكى وهمَّ بالانصراف فناداه عمه وقال له: (قل ما أحببت فوالله لا أُسلمك أبداً).

وكانت دعوته في أثناء ذلك تذيع على مهل وقد أسلم جماعة كان لهم شأن في التاريخ الإسلامي منهم أبو بكر وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وحمزة بن عبد المطلب (عمه) وعمر بن الخطاب. أما سائر أعمامه وأهله فلما يئسوا من وساطة عمه أبي طالب رأوا أن يحتالوا في استرضائه بالحسنى فبعثوا إليه وقد اجتمع كبارهم في ندوة فجاء فاستقبلوه بالترحاب وقالوا له: (يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلّمك وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعِبت الدين وشتمت الآلهة وسفّهت الأحلام وفرّقت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيّاً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك).

فقال لهم: (ما بي ما تقولون وما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً

ونذيراً، فبلّغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم) فلما لم يروا سبيلاً إليه جعلوا يعذّبون الذين أسلموا وصدّقوا دعوته والمسلمون صابرون على ذلك العذاب، حتى إذا اشتد أذى قريش وضاقوا ذرعاً عن تحمل ما كانوا يسومونهم من سوء العذاب والإهانة أشار النبي (صلّى الله عليه وآله) على الذين ليس لهم عشيرة تحميهم أن يخرجوا من مكة إلى أرض الحبشة، فهاجروا إليها تباعاً فبلغ عدد المهاجرين (٨٣) رجلاً ما عدا النساء والأولاد وهي الهجرة الأولى، ولا يخفى ما تقتضيه الأسفار من مكة إلى الحبشة من المشقّة لما في ذلك من ركوب البحر وخصوصاً في تلك الأزمان مع ما حملوه معهم من النساء والأطفال، فيدلّ ذلك على ما كان عليه هؤلاء من الاعتقاد المتين بالإسلام، أما النبي (صلّى الله عليه وآله) فقد ناله ما ناله من الاضطهاد وضروب العذاب، وقد رأيت أنه كان قبل إعلانه للدعوة موضع احترام أهل مكة كافة وأهله يحبونه ويكرمونه وهو في عيشٍ هنيء لما اكتسبه من اليسار بزواجه بخديجة واتجاره بأموالها، فأصبح بعد إظهاره للدعوة وقد ناصبه أهل مكة العداء وساموه أنواع العذاب وأهانوه، حتى نقموا على بني هاشم لأنهم أهله فتعاقدوا عليهم أن لا يُنكحوهم ولا يبايعوهم وكتبوا بذلك صحيفة أودعوها في جوف الكعبة، فاضطر بنو هاشم أن ينفردوا إلى الجبال فأقاموا في الشعب ثلاث سنين لا ينزلون مكة إلا خفية . إلا من جاهر منهم بعداوته كأبي لهب ونحوه.

ولا يقال أنه (صلّى الله عليه وآله) لم يثبت إلا لاحتمائه بعمه أبي طالب. لأننا رأيناه بعد وفاة عمه أكثر ثباتاً منه في حياته، مع أن الناس أصبحوا أكثر اضطهاداً له مما كانوا قبل وفاته، وخصوصاً بعد وفاة خديجة وقد ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين، فتتابعت بموتهما المصائب عليه واستبدّت به قريش ولاسيما عمه أبو لهب والحكم بن العاص وعقبة بن أبي معيط لأنهم كانوا جيرانه في مكة بمنزله، فكانوا يلقون الأقذار في طعامه ويرمونه بها وقت صلاته، حتى إذا لم يعد يستطيع صبراً على هذا الضيم فرّ إلى الطائف لعله يلقى فيها مَن ينصره ويؤمن بدعوته، فلم يلقَ إلا الإعراض والإهانة، فعاد وقد يئس منهم ولكنه لم يرجع عن حرفٍ من دعوته، ولم يكتفِ أهلُ الطائف بإعراضهم عنه بل أغروا بعض سفهائهم وعبيدهم أن يسبّوه ويصيحوا به ففعلوا حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى الحائط وأخيراً ردّوا

السفهاء عنه فرجعوا، فأحسّ عندئذٍ بما هو فيه من الضيق فشكا أمره إلى الله وعاد إلى مكة ولم يغيِّر ذلك شيئاً من عزيمته، فلقيه قومه هناك وهم أشدّ وطأة عليه مما كانوا من قبل.

فاعتبر حاله بعد ذلك الرجوع وقد نبذه الناس قريبهم وبعيدهم مع علمه أنه إذا رجع عن دعوته لقي منهم ترحاباً وإكراماً كما صرّحوا له جهاراً لكنه لم يكترث بشيء من ذلك ولا همّهُ أمر الدنيا.

أهل المدينة والدعوة

ولما يئس من أهله ومواطنيه جعل يعرض نفسه على القبائل في أيام الحج لعله يلقى فيهم من يصغي إليه، وأهله يعترضونه ويقفون في سبيله، وخصوصاً عمه أبو لهب فإنه كان إذا رآه في جماعة يخاطبهم في شأن الإسلام اعترضه وقال للناس: (إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء من البدعة والضلال فلا تطيعوه) ولكن ذلك لم يقعده عن دعوته للناس وما زال يعرض نفسه عليهم في المواسم حتى بايعه نفر من أهل يثرب كانوا وسيلة لنشر الإسلام في تلك المدينة في برهة قصيرة، فهاجر إليهم سنة (٦٢٢) للميلاد، وهاجر معه من بايعه من قبيلته وهم (المهاجرون) تمييزاً لهم عن الفئة الأخرى من الصحابة وهم (الأنصار) أهل المدينة، سمّوا بذلك لأنهم نصروا النبي في مدينتهم وبهذه الهجرة يؤرّخ المسلمون وقائعهم إلى الآن.

ولقي المسلمون في المدينة ترحاباً عظيماً فاشتدّ أزرهم وتحولوا إلى محاربة أهل مكة فجعلوا يناوئونهم في أثناء مرورهم بتجارتهم بين الشام ومكة وفي أماكن أخرى وهي الغزوات المشهورة، أعظمها بدر الكبرى التي انتصروا فيها وكانت فاتحة انتصاراتهم في الغزوات الأخرى حتى أخضعوا جزيرة العرب كلها وفتحوا مكة وأسلم القرشيون كافة، فوجّه النبي التفاته إلى العالم الخارجي وخاطب الملوك يدعوهم إلى الإسلام كما سيأتي.

١. سورة العلق: ١.

الروم والفرس عند ظهور الإسلام

الروم

تأسّست روما سنة ٧٥٣ قبل الميلاد وتأسست معها الدولة الرومانية وظلت روما كرسي تلك الدولة عشرة قرون ونصف قرن، ففي سنة (٣٢١م) نقل كرسي الملك إلى بيزانتيوم وانتقل إليها قسطنطين الكبير وسماها القسطنطينية وهو اسمها إلى اليوم. وبعد وفاته سنة (٣٣٧م) اقتسم المملكة أولاده الثلاثة ثم أفضت إلى واحد منهم توفي سنة (٣٦٠م) فخلفه يوليان ثم جوفيان سنة (٣٦٤م) ثم توفي هذا بعد بضعة أشهر فانتخب الرومان إمبراطوراً اسمه فالنتيان. وبعد قليل نصب فالنتيان أخاه فالنس إمبراطوراً على روما، وتم انفصال المملكة الرومانية على أثر ذلك إلى مملكتين إحداهما شرقية عاصمتها القسطنطينية والأخرى غربية عاصمتها روما، وكانت الأولى أسعدهما حظاً وأطول عُمراً فأصبحت القسطنطينية مبعث العلم ومركز السلطنة ومرجع الدين، وكانت حدود المملكة الرومانية الشرقية في القرن الخامس للميلاد تنتهي في الغرب بالبحر الأدرياتيكي وفي الشرق بضفاف دجلة، وتمتد حدودها الشمالية إلى أعالي بلاد التتر، وتنتهي في الجنوب إلى بلاد الحبشة، وأرقى عصور هذه المملكة بعد قسطنطين الكبير عصر يوستنيان (من سنة ٥٢٧ . ٥٦٥م) تولاها (٣٧) سنة قضى الخمس الأولى بمحاربة الفرس الساسانيين وانتهت الحرب بمعاهدة سموها (معاهدة الصلح الدائم) لكنها لم تدم، ومن حسن حظ هذا الإمبراطور أنه مُني بقائد من أشهر قادة العالم اسمه (بليزاريوس) فتح له إيطاليا ورفع أعلامه فوق أسوار روما وفتح شمالي أفريقيا وغيرها، وكان عوناً له في سائر فتوحه وساعده الأقوى في توسيع نطاق مملكته.

الفرس

والعداوة بين الفرس والروم (اليونان) قديمة ربما تجاوزت القرن الخامس قبل الميلاد، وسببها نزاع بينهما على السيادة في العالم لأنهما كانتا أعظم دول الأرض في تلك العصور،

فأرادت كل منهما الاستئثار بالسلطة دون الأخرى، واستمرت تلك العداوة إلى زمن الإسكندر الكبير ثم رومان إلى أيام الإسلام.

وأفضى عرش الفرس في أيام يوستنيان المذكور إلى كسرى أنوشروان المشهور بالعادل فلم تعجبه مصالحة الروم فحمل عليهم بخيله ورجله، ففتح سوريا وأحرق أنطاكية ونهب آسيا الصغرى، فبعث يوستنيان إليه (بليزاريوس) فحاربه وردّه على أعقابه، ثم عاد وعادوا وتوالت الحروب بين الدولتين نحو عشرين سنة (سنة ٥٤١ . ٥٦١م) وقد مَلّ الملكان وشاخا فتوافقا على صلح قضي فيه على يوستنيان بجزية سنوية مقدارها ٣٠,٠٠٠ دينار، وظلت حدود المملكتين كما كانت قبل الحرب.

وللإمبراطور يوستنيان ذكر مجيد في تاريخ المملكة الشرقية لما اكتسب في عصره من النفوذ وما أتاه من الأعمال التي أحيت ذكره مدى الدهور بما سنّه من القوانين والشرائع التي كانت أساساً لما وضع بعدها إلى اليوم، وقد أدخل صناعة الحرير إلى أوربا وبنى الكنائس والمعاقل والقصور، وأشهر ما يذكر به كنيسة (أيا صوفيا) التي جعلها العثمانيون عند فتح القسطنطينية جامعاً لا يزال معروفاً بهذا الاسم إلى اليوم. ولكن الدول المطلقة إنما يكون حظها من السعادة أو الشقاء كما يكون ملكها، فإن كان عظيماً عظمت وإن كان حقيراً حقرت.

فلما توفي يوستنيان خلفه أناس لا يليقون بالملك فلم تعُد السعادة بعده، وخلَّفه ابن أخيه يوستين الثاني ثم طيباريوس ثم الإمبراطور موريس (موريقوس) وقد ضعف أمرُ الدولة، فأراد هذا الإمبراطور أن يقوّيها بفتح الشرق فناصب الفرس وحاربهم سبع سنين وقد توفي كسرى انوشروان سنة (٥٧٩م) وخلّفه ابنه هرمز الرابع وكان عاتياً فثار عليه رعاياه فاشتغل بإخماد ثورتهم والروم يوغلون في بلاده من العراق، والتركمان يسطون عليها من الشمال والشرق حتى كادت تذهب طعمة للفاتحين لو لم يقيض الله قائداً شهيراً يُعرف ببهرام فحارب العدوَّين وأنقذ البلاد منهما، فمال الفرس إليه فأنزلوا هرمز وسملوا عينيه وملّكوا عليهم ابنه كسرى برويز، فلم يقبل بهرام به وأذلّه ففرّ برويز إلى القسطنطينية واستنجد الإمبراطور موريس فأنجده بجيش تغلّب به على بهرام وأعاد الملك لنفسه فعرف برويز ذلك الفضل لموريس ومازال على ولاء الروم إلى وفاة موريس.

أما هذا فقد مات مقتولاً سنة (٦٠٢م) وخلفه الإمبراطور فوقاس وكان فوقاس جاهلاً فأبغضته الرعية والتمسوا من ينقذهم منه. وكان من جملة ولاة الروم يومئذ والٍ على أفريقية اسمه هراكليوس (هرقل) فاستنجده أهل قسطنطينية، فأنفذ إليهم عمارة بحرية، فقتل فوقاس وتربّع هو في دست الإمبراطورية مكانه سنة (٦١٠م) وفي أيامه ظهر الإسلام.

فرأى برويز باباً لمناوأة الروم فادعى أنه يريد الانتقام من قتلة صديقه موريس فزحف بجنده على سوريا سنة ٦١٤م واليهود أنصاره فيها، ففتحها وفتح مصر واستولى على أنطاكية ودمشق وبيت المقدس ومدن أخرى من سوريا وفلسطين، ثم أباح لجنده نهب أُورشليم فنهبوها وأحرقوا القبر المقدس وكنيسة القيامة وسلبوا خزائنها وحملوا بطريركها والصليب الحقيقي إلى بلادهم وواصلوا القتل والنهب في سوريا إلى سنة ٦١٦م فكان عدد الذين قتلوا من المسيحيين (٩٠,٠٠٠) نفس وأرسلوا جنداً آخر إلى آسيا الصغرى ففتحوها والنصر رفيقهم حيثما حلّوا حتى كادوا يطئون شواطئ البوسفور.

كل ذلك والإمبراطور هرقل معتزل في قصره وقد انغمس في اللهو والترف لا يبالي بما يهدّد مملكته، وكأنه لما تحقّق من وقوع الخطر نفض غبار الخمول عن عاتقه وخرج للدفاع، ولم يكن عنده مال ينفقه في التجنيد فاقترض أموال الكنائس على أن يعيدها بعد الحرب مع رباها، وحشّد جنده وركب البحر إلى كليكيا في آسيا الصغرى واحتل أيسوس فلقيه الفرس هناك فحاربهم وغلبهم سنة ٦٢٢م. وفي هذه السنة هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة. .

قضى هرقل في محاربة الفرس ثلاث سنين متوالية حتى أوغل في بلادهم واضطر برويز أن يسحب جنده للدفاع عن قلب مملكته، أما هرقل فإنه حاربه مرة أخرى سنة ٦٢٧م فأجهز على قواته وانكسر الفرس انكساراً عظيماً، وبلغت جنود الروم إلى نينوى عاصمة الآشوريين القديمة وهي أول مرة تطأ الروم تلك المدينة، وكان برويز قد أصبح شيخاً طاعناً في السن فأوصى بالملك لابنه مُردز، وكان له ابن آخر اسمه شيرويه حسد أخاه وعمد إلى الكيد به وبأبيه فاستعان ببعض الناس حتى قبض على من بقي من أولاد برويز وهم ثمانية عشر ولداً فقتلهم جميعاً بين يدي أبيه وزجّ أباه في السجن حتى مات. وبموت كسرى برويز انقضى مجد الدولة الساسانية ولم يعش ابنه شيرويه بعده إلا ثمانية أشهر فأصبحت حكومة الفرس فوضى

وادّعى الملك تسعة ملوك في أثناء أربع سنوات، فساد الفساد وتمكّن الاحتلال فيها فجاءها المسلمون وهي في تلك الحال.

الانقسامات الدينية

ولم يكن الاختلال قاصراً في الروم والفرس على الوجهة السياسية والإدارية ولكنه كان يتناول الأحوال الاجتماعية والدينية بما تفاقم فيها من الانقسامات المذهبية مما هو مشهور، فقد كان الروم حوالي القرن السادس للميلاد في منتهى التضعضع لتعدد الفرق وتشعب المذاهب وخصوصاً في ما يتعلق بالطبيعة والطبيعتين والمشيئة والمشيئتين . وأكثر اختلافهم على الألفاظ والجوهر واحد . .

وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد في السياسة لاختلاط السياسة عندهم بالدين، حتى آل ذلك أحياناً إلى خروج أمم بأسرها من حوزة الروم إلى الفرس، كما حصل بالأرمن فإنهم لما حرّم المجمع القسطنطيني بدعة الطبيعة الواحدة جعل الإمبراطور يشدّد النكير على متبعيها والأرمن منهم فأفضت بهم الحال إلى تسليم بلادهم إلى الفرس، وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص فقد كانوا عوناً له في فتحها للسبب عينه.

التباغض بين الروم واليهود

هذا بالإضافة إلى ما كان من التباغض القوي بين اليهود والروم بنوع خاص لما اقتضاه تعصّب تلك الأيام، وقد بلغ هذا التباغض حدّه في أيام هرقل فثار اليهود في أنطاكية فقتلوا بطريركها ومثّلوا بجثته تمثيلاً قبيحاً، فأرسل إليهم هرقل فقتل منهم جمعاً غفيراً، وثاروا في (صور) عاصمة فينيقية وقتلوا واليها، وتآمر يهود صور ويهود فينيقية وفلسطين على أن يدخلوا مدينة صور ليلاً ويقتلوا النصارى، فاطّلع مطران صور على المكيدة فأخبر الوالي بها فنبّه الوالي الحامية والبوّابين والحرّاس أن يكونوا تلك الليلة على حذر.

ولما جنّ الليل هجم اليهود من خارج السور فردّهم الجند على أعقابهم فرجع اليهود إلى الأديرة والكنائس بجوار المدينة فهدّموها وسلبوا آنيتها، وفعلوا مثل ذلك في ما جاورها من القرى، فعاقبتهم الحكومة فقتلت كل يهود صور.

ولم يكن التباغض محصوراً بين اليهود والروم لكنه كان بينهم وبين النصارى على الإجمال، وكانت حكومات النصارى إذا سنّت قانوناً خصّصت بنوداً منه بشأن اليهود لمعاملتهم بالاحتقار.

فهل نستغرب بعد ذلك إذا كان اليهود عوناً للعرب المسلمين على حكامهم المسيحيين..؟

حالة الفرس الداخلية

أما الفرس فقد كانت هيئتهم الاجتماعية في غاية الانحطاط قبل الإسلام بمدة طويلة لانشقاق جمعهم بتشعّب المذاهب عن ماني ومزدك، ومن غريب دعوى هذا الأخير أن إلهه بعثه ليأمر بشيوع النساء والأموال بين الناس على السواء لأنهم أخوة أولاد أب واحد، وتبع هذا المذهب قباذ أحد ملوكهم فجاء بعده من نقضه وقام غيره وتشعّبت الآراء هناك وفسدت الأخلاق.

انتشار الإسلام ودوله الثلاثة

يبدأ تاريخ الإسلام بالهجرة فقد هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة فراراً مما كان القرشيون يسومونهم إياه من التعذيب والإهانة وهم قليلون لا يقوون على دفعهم، ورأوا من أهل المدينة مؤازرة ونصرة بما أظهروه من البيعة المعروفة ب(بيعة العقبة)، فأمرهم النبي (صلّى الله عليه وآله) بالهجرة إلى المدينة فلاقاهُ أصحابه هناك بالترحاب وأنزلوه وأنزلوا الذين هاجروا معه على الرحب والسعة.

التعاهد بين الأنصار والمهاجرين

وأول عمل باشره النبي (صلّى الله عليه وآله) بعد نزوله هناك المعاهدة بين أصحابه المسلمين (المهاجرين والأنصار) وبين اليهود من أهل يثرب على الاتحاد والتكاتف في الدفاع عن المصالح العامة.

الغزوات

فلما فرغوا من ذلك فكّروا في ما بينهم وبين أهل مكة من العداء، فعمدوا إلى مقاتلتهم(١) لنصرة الإسلام فحدثت الغزوات المشهورة وهي أول الحروب الإسلامية.

ثم أرسل الرسول (صلّى الله عليه وآله) كتباً بيد رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ومنها كتابه إلى المقوقس والي مصر، وبعث جنداً لمحاربة الروم في الشام فحاربوهم في قرية من قرى البلقاء في حدود الشام بما يلي حوران اسمها (مؤتة) وتلك أول حروبهم مع الروم.

محاولة فتح الشام

فلما اعتز المسلمون ودانت لهم جزيرة العرب كلها تقريباً عادوا إلى توسيع دائرة الفتح فأمر النبي (صلّى الله عليه وآله) سنة ٩هـ بالتجهّز لإعادة الكرّة على الروم، فجهّزوا جنداً

عدده ثلاثون ألفاً فيهم عشرة آلاف فارس، وتلك أكبر حملة استطاعها المسلمون إلى ذلك الحين بذلوا فيها كل ما في وسعهم من المال والرجال، ولكنهم لقوا في الطريق شدة عظيمة من العطش فنزلوا قرية بين المدينة والشام اسمها (تبوك) وهم يظنّون أن الروم يجتمعون إليها ومعهم عرب لخم وجذام، فجاءهم صاحب أيلة (وهي مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام في رأس خليج العقبة) فصالحهم على الجزية.

وفي السنة الحادية عشرة للهجرة توفي صاحب الشريعة الإسلامية والإسلام لا يزال حديثاً فسعى الذين حطّ الإسلام من نفوذهم أو وقف في سبيل أغراضهم للنيل منه فارتدّت معظم قبائل العرب عنه، إلا أهل المدينة ومكة والطائف وأصبح الإسلام في خطر شديد.

أما وجه مبايعتهم أبا بكر دون سائر المهاجرين وفيهم العباس عم النبي وعلي بن أبي طالب ابن عمه وغيرهما من بني هاشم أهل بيته ففيه نظر، والظاهر من أقوال عمر وغيره في مواقف مختلفة أن السبب في هذه المبايعة أنهم رأوا بني هاشم قد اعتزّوا بالنبوة لأن النبي منهم فلم يستحسنوا أن يضيفوا إليها الخلافة.

وتوفي أبو بكر وقد أوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب وليس هو أكبر سائر المهاجرين سناً لكن الصحابة لم يكونوا مخيَّرين في خلافته لأن أبا بكر أوصى له بها.

وفي أيامه فتح بيت المقدس واشترط أهلها أن يأتي عمر بنفسه لعقد الصلح على يده وفتحت المدائن عاصمة الفرس سنة ١٦هـ ثم أوغلت جنود المسلمين في فارس وفتحت الجزيرة وأرمينيا سنة ١٧هـ وفتحوا مصر على يد عمرو بن العاص، ثم فتحوا طرابلس الغرب، وقتل عمر سنة ٢٣هـ وخلفه عثمان بن عفان ونظراً لكثرة الفتوح في أيامه نذكر الأسباب التي ساعدت عليها.

الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام

للكتّاب وأهل النقد بحث طويل وجدال عنيف في الأسباب التي ساعدت العرب على فتح بلاد الروم والفرس وقهر القياصرة والأكاسرة برجال يكاد لا يزيد عددهم على عدد حامية مدينة من مدن أولئك، مع ما كان عليه العرب يومئذ من سذاجة المعيشة وقلة

التدريب في فنون الحرب وضيق ذات اليد وضعف العدّة، والروم والفرس أعظم دول الأرض يومئذ وعندهما العدّة والرجال والحصون والمعاقل.

ولنبحث أولاً في الأسباب التي جرّأت العرب على مهاجمة تينك المملكتين وهم أهل بادية ما برحوا من أجيال متطاولة ينظرون إلى الروم والفرس نظر الاحترام والتهيّب. والجواب على ذلك أن العرب . أصبحوا بعد الإسلام غير ما كانوا عليه قبله . كانوا قبائل مشتّتة متباغضة فأصبحوا أمة واحدة متحدة بقلب رجل واحد، واعتقدوا صدق الدعوة بأن الله ينصرهم حيث توجّهوا، هذا الاعتقاد هو الذي جرّأ العرب على ركوب هذا المركب الخشن، غير ما ذاقوه من حلاوة النصر في غزواتهم وسراياهم في أيام النبي (صلّى الله عليه وآله)، والإنسان إذا خدمه التوفيق في تجارة هان عليه المخاطرة بكل ما له في سبيل تلك التجارة، بالإضافة إلى ما ألفت أنظارهم من خصب البلاد المفتوحة.

ولنذكر ذلك بشيء من التفصيل:

١ . الاتحاد بالإسلام

أما الاتحاد بالإسلام فإنه ظاهر في كل أعمالهم ويؤيده أن الإسلام عنوان التوحيد كما يتّضح من مراجعة القرآن والحديث ولا تكاد تخلو خطبة من خطب الخلفاء أو الأمراء في صدر الإسلام من الإشارة إلى تلك الوحدة وتذكير المسلمين بما كان عليه آباؤهم في الجاهلية من التفرّق والتشتّت وما يدعوهم إليه الإسلام من نزع العصبية وتوحيد الكلمة، وقد زاد متانة تلك الوحدة اجتماعهم خمس مرات في اليوم للصلاة خلف الإمام أو من يقوم مقامه.

٢ . اعتقادهم صدق الدعوة

وأما اعتقاد العرب صدق الدعوة وأنهم كانوا يعملون لآخرتهم لا لدنياهم فظاهر من أقوالهم وأعمالهم في أثناء الفتح، كقول المغيرة . لما قال له رستم القائد الفارسي في أثناء واقعة القادسية: (إنكم تموتون فيما تطلبون) . : (يدخل من قتل منّا الجنة ومن قُتل منكم النار ويظهر من بقي منّا على من بقي منكم).

٣ . خصب البلاد المفتوحة

وقد زاد العرب رغبةً في حرب الشام والعراق ومصر ما علموه من خصب تلك الأرضين، وكثرة خيراتهما وبلادهم قاحلة لا تفي بحاجاتهم بعد تلك النهضة الدينية.

ذلك ما جرّأ العرب على الفتح، أما ما ساعدهم عليه فهاك تفصيله:

١ . نشاطهم وخفة أحمالهم

لأنهم أهل بادية تعوّدوا خشونة العيش فأصبحوا لا يبالون بالجوع ولا العطش، إذا سافر أحدهم إلى حرب لا يحمل معه شيئاً يثقل كاهله أو يشغل بعيره، وقد لا يحملون طعاماً وإنما يقتاتون بما يكسبونه بالغزو في أثناء الطريق.

وأما الرومي أو الفارسي فلا يستطيع الانتقال إلى الحرب إلا بالأحمال والأثقال من المؤونة والذخيرة مما لا يقوى على حمله إلا المركبات، والمركبات تحتاج في جرّها إلى دواب والدواب تحتاج إلى طعام ومياه.

٢ . اعتقادهم بالقضاء والقدر

وإن الإنسان لا يموت إلا إذا جاء أجله فإذا أتت ساعته مات ولو كان على فراشه وإذا تأخّر فلا يُصاب بسوء ولو كان تحت حدّ السيوف.

٣ . مهارتهم في ركوب الخيل ورمي النبال

فقد كانوا أمهر من الروم والفرس فيهما، وخيل العرب أنجب من خيول أولئك وكانت أكثر وقائعهم بالمبارزة بين الأفراد على جري العادة في تلك العصور.

٤ . رجال صدر الإسلام

وقد اختص صدر الإسلام برجال توفّرت فيهم شروط النصر وقد امتاز ذلك العصر بنبوغ الرجال العظام. فنبوغ الرجال في أوائل الإسلام كان من أكبر العوامل في سرعة نجاحه، وكان المسلمون يعلمون ذلك.

٥ . الصبر والمطاولة

أصبح العرب بعد فشلهم في واقعة مؤتة، وقد عرفوا قوة الروم وخبروا كثرتهم وعلموا أن قتالهم غير قتال أهل البادية الذين كانوا يغزونهم ببلاد العرب، فلما تحقّقوا ذلك جعلوا عدّتهم في حروبهم الصبر والمطاولة، والصبر هيّن عليهم لاكتفائهم بالشيء اليسير من الطعام واللباس كما تقدم.

٦ . نجدة العرب

كان الإسلام في أول أمره نهضة عربية والمسلمون هم العرب حتى أصبح اللفظان مترادفين في كثير من الأحوال، وكان العرب أقرب الأمم للدخول في الإسلام لما اختصّهم به دون غيرهم من الافتخار. فكان العرب الموجودون في مختلف البلاد أقرب سائر الأمم إلى نجدة الإسلام لما قدمناه، ولأسباب أخرى تختص بكل قبيلة على حدة، كحقد عرب اليمن على الفرس منذ فتحوا بلادهم وحكموهم قبل الإسلام، وكانت ربيعة تقيم في الجزيرة ببلاد الفرس وكانوا عوناً للعرب المسلمين على الفرس نكاية في هؤلاء.

وكثيراً ما كان هؤلاء العرب وغيرهم من أهل الشام الأصليين يساندون المسلمين على الروم فراراً من أداء الجزية.

٧ . خط الرجعة

ثم إن العرب كانت قاعدتهم في حروبهم هناك المحافظة على خط الرجوع فلا يقاتلون الفرس أو الروم إلا وهم في حيطة، وكان حفظ ذلك الخط هيّناً عليهم لأنهم كانوا يجعلون الصحراء وراءهم وهي ملجأهم، فإذا اندحروا لا يستطيع الروم أو الفرس اللحاق بهم ولا يهمّهم ذلك اللحاق، ومتى عاد الروم إلى مساكنهم عاد العرب عليهم.

٨ . واقعة اليرموك وواقعة القادسية

تلك كانت القاعدة في حروب العرب بالشام والعراق الشهيرة فقاتلوا قتالاً شديداً حتى أن النساء كنّ يقاتلن بالعصي، فانتصر المسلمون وكان هذا النصر مقدّمة سائر ما نالوه في الشام، وكذلك واقعة القادسية في العراق فقد كانت فاتحة نصرهم على الفرس، وقد صبروا في هذه الواقعة صبراً جميلاً وطال أمرها كثيراً.

٩ . نقمة الرعايا على حكّامهم

كما أن من أسباب نصر المسلمين ما كان من انقسام الروم والفرس فيما بينهم وانحطاط الهيئة الاجتماعية فيهم، فضلاً عما كان من الشحناء بين الرعية أهل البلاد الأصليين وحكامهم وخصوصاً في مصر والشام

١٠ . اليهود

وكان الروم مع انقسامهم إلى طوائف وأحزاب قد أجمعوا على اضطهاد اليهود كما تقدم، ولما جاء المسلمون لفتح الشام كانت البغضاء قد بلغت أوجها ويودّ اليهود أن يخسروا

أموالهم ـ مع رغبتهم في الأموال ـ في سبيل الانتقام من الروم، وفي الواقع كثيراً ما كانوا عوناً للعرب عليهم وكانوا يدلّونهم على عورات المدن ويدخلونهم إليها.

١١ ـ عدل المسلمين ورفقهم وزهدهم

وكان لهذه المناقب تأثير عظيم في من يدخل سلطان المسلمين من رعايا الروم أو الفرس، وتلك كانت الوصية الأولى التي يتزودون بها إذا خرجوا للفتح.

١٢ ـ التسوية بين الناس

ومن هذا القبيل التسوية بين طبقات الناس رفيعهم ووضيعهم.

١٣ ـ استبقاء الناس على أحوالهم

وكان العرب إذا فتحوا بلداً أقروا أهله على ما كانوا عليه من قبل لا يتعرّضون لهم في شيء من دينهم أو معاملاتهم أو أحكامهم المدنية أو القضائية أو سائر أحوالهم.

فلم يكن استيلاء المسلمين ثقيلاً على الناس بل كان الأهالي كثيراً ما يفضّلونهم على حكّامهم الأصليين، والجزية التي كانوا يتكلّفون بدفعها إلى المسلمين أقل بكثير من مجموع الضرائب التي كانوا يؤدونها إلى الروم أو الفرس.

الخلاصة

وجملة القول أن المسلمين لم يجرّئهم على الفتح ويساعدهم عليه إلا الدين وشدة الاعتقاد بالنصر، مع ما كان من مهارتهم في الفروسية ورمي النبال وقوة أبدانهم ونشاطهم من عيشة البداوة مع المطاولة في الحرب ونبوغ أفراد منهم في الرأي والشجاعة، فضلاً عن عدلهم ورفقهم واختلال أحوال الروم والفرس.

الفتنة

وفي زمن عثمان حدثت الفتنة، حيث أدّت إلى مقتلة سنة ٣٥هـ فتغيّر طور التاريخ الإسلامي.

علي (عليه السلام) وطلحة والزبير

فلما قُتل عثمان اختلفوا في مَن يخلفه من كبار الصحابة، وكان غرض أهل مصر في علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وغرض أهل البصرة في طلحة بن عبيد الله، وغرض أهل الكوفة في الزبير بن العوام، وكان أكثر مسلمي الشام من بني أمية وهم يريدونها لعثمان أو مَن يخلفه منهم، وأما أهل المدينة فكانوا يريدونها لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) جرياً على عادتهم في نصرة أهل بيت النبي (صلّى الله عليه وآله) منذ هاجر النبي (صلّى الله عليه وآله) إليهم.

فلما قُتل عثمان رأى معاوية سبيلاً لالتماس الخلافة فعرض قميص عثمان الملطَّخ بالدم في مسجد دمشق ودعا الناس للمطالبة بثأره لأنه من رهطه واتّهم علياً وأصحابه بقتله وقد وقعت بين علي (عليه السلام) من جانب وبين طلحة والزبير وقعة الجمل، وبينه وبين معاوية وقعة صفين وانتهى الأمر بأن قتل علي (عليه السلام) على يد الخارجي ابن ملجم.

بنو أمية

وانتقلت الخلافة إلى بني أمية وأوّلهم معاوية بن أبي سفيان، والخلافة في عهد بني أمية سلطنة دنيوية يحكم فيها الخليفة بالدهاء والسياسة، ويستدني الناس بالإرهاب ويؤيد سلطانه ببذل الأموال.

واقتبس معاوية من الروم أسباب البذخ ودواعي الترف وقلّدهم في أُبّهة الملك، فأقام الحرس يحملون الحراب بين يديه إذا مشى أو قام للصلاة، وبنى لنفسه قصراً نصب فيه السرير وأوقف الحاجب ببابه وبنى مقصورة في المسجد إذا جاء للصلاة صلّى فيها.

والأسباب التي أعانت معاوية على إخراج الخلافة من أهل بيت النبي (صلّى الله عليه وآله) وحصرها في قبيلته . وهو وكل الذين بايعوه يعتقدون أن أهل البيت أحقُّ بها منه . عديدة:

منها: أن معاوية استخدم في شدّ أزره رجالاً هم أشهر دهاة الإسلام، استدناهم إليه بالأطماع كعمرو بن العاص وغيره، ومما ساعد معاوية على الفوز أن علياً لم يكن يرى الاحتيال في الملك، وهناك عامل ذو تأثير عظيم استخدمه معاوية وسائر بني أمية في تأييد سلطانهم هو (المال) فقد كانوا يصطنعون به الأحزاب ويستدنون به الأعداء.

وكثيراً ما كان عبد الملك يرُدّ أذى الأحزاب عنه بالمال ينثره على الناس فيشتغلون به عنه.

ومن الأسباب التي أيّدت سلطان بني أمية أنهم كانوا يعوّلون في تأييده على الدهاء والسياسة والحزم ولو كان فيها خرق لحرمة الدين أو إهانة لأهله، فإنهم قتلوا ابن بنت النبي (صلّى الله عليه وآله) وضربوا الكعبة بالمنجنيق ولعنوا ابن عم النبي (صلّى الله عليه وآله) وصهره على المنابر وقتلوا من لم يلعنه.

خلفاء بني أمية

ومعاوية جعل الخلافة وراثية في نسله لكنها لم تتعدّ أولاده ولم يخلفه منهم إلا يزيد الذي بويع بولاية العهد بحياته، ولم يحكم إلا بضع سنين ارتكب في أثنائها أموراً كباراً في جملتها مقتل الحسين بن علي (عليه السلام)، ولما مات يزيد اختلف الناس على البيعة وكان له ابن اسمه معاوية (الثاني) ولّوه وهو لا يرى الخلافة حقاً لهم، ومات بعد قليل فبايع بنو أمية شيخاً أموياً من غير بيت معاوية اسمه مروان بن الحكم سنة ٦٥هـ تولّى الخلافة بضعة أشهر ومات ثم انحصرت الخلافة في نسله وكل خلفاء بني أمية بعده من ولده، أشهرهم عبد الملك بن مروان، وكان عامله على العراق الحجاج بن يوسف المشهور بدهائه وغلظته، وكان نصيراً له على تأييد دولته فحارب عبد الله بن الزبير وكان هذا يدعو الناس إلى بيعته دون بني أمية فحصره الحجاج في مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق ثم قتله واستخلص الخلافة لعبد الملك.

قال ابن الأثير: (وهو ـ أي: عبد الملك ـ أول من غدر بالإسلام وأول من نهى عن الأمر بالمعروف فإنه قال في خطبته بعد قتل ابن الزبير: ولا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلاّ ضربت عنقه).

ومنهم الوليد بن عبد الملك (سنة ٨٦ ـ ٩٦هـ). ومن أشهر خلفاء بني أمية عمر بن عبد العزيز بن مروان، وخلفه ابن عمه يزيد بن عبد الملك وكان من أهل اللهو والطرب فشغل عن مصالح الدولة بجاريتين اسم إحداهما سلاّمة والأخرى حبابة، وتسلّطت حبابة على عقله وقلبه فأصبحت المملكة طوع إرادتها تولّي من شاءت وتعزل من شاءت وهو لا يعرف من أمور الدنيا شيئاً.

وتولّى الخلافة بعده أخوه هشام (من سنة ١٠٥ . ١٢٥هـ).

وخلفه الوليد بن يزيد وكان قبل الخلافة منهمكاً في اللهو والشرب والغناء مثل أبيه وله أشعار فيها، فلما أفضت الخلافة إليه زاد انهماكاً في اللذات واستهتاراً بالمعاصي، وزاد على ذلك أنه أغضب أهله وأساء إليهم فهجموا عليه مع أعيان رعيته فقتلوه وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وقد استفحل الأمر واضطرب حبل بني أمية وبدأت الدعوة العباسية.

وفي أيام خلافة مروان بن محمد بن مروان خرجت الخلافة من أيديهم سنة ١٣٢هـ. فلما ظهر ضعف بني أمية واضطرابهم هان على الناس الخروج من طاعتهم وذلك لأنهم لم يخضعوا للأمويين إلا طمعاً أو خوفاً وأكثرهم يعتقدون أن بني هاشم أولى بالخلافة.

العباسيون

ووفِّق العباسيون يومئذ إلى رجل فارسي من أهل خراسان ذي بطش وبسالة اسمه أبو مسلم الخراساني فأنفذوه في طلب البيعة لهم في خراسان لبعدها عن مركز الخلافة الأموية فوفّق إلى ذلك توفيقاً عجيباً.

وأول خلفائهم أبو العباس السفاح وكان له عدة أخوة وأعمام استخدمهم في تأييد سلطانه، وكان مقر السفاح في الأنبار على الفرات غربي بغداد وما زال فيها حتى مات ولم يحكم إلا بضع سنين.

فخلفه أخوه أبو جعفر المنصور سنة ١٣٦ . ١٥٧هـ. وكان يخاف أهل الكوفة لأنهم قتلوا علياً والحسين، فخرج منها وبنى مدينة بغداد.

ثم رأى أن بقاء أبي مسلم يجعل مركزه في خطر لأنه أقدر الناس على إخراج الملك من أيدي العباسيين كما سلّمه إليهم، فقتله غيلة.

وخلفه ابنه محمد الهادي فهارون الرشيد ثم ابنا الرشيد الأمين فالمأمون، قتل المنصور أبا مسلم الخراساني خوفاً من طمعه بالسلطة وهو فارسي. لكنه استخدم في بلاطه رجالاً من الفرس، وفعل خلفاؤه مثله وقدموهم في مصالحهم ومنها الوزارة وهي أرفع مناصب الدولة عندهم، فآل ذلك إلى استفحال أمرهم في أيام الرشيد وهم البرامكة. فلما رآهم الرشيد يستبدون بمصالح الدولة دونه نكب بهم كما هو مشهور.

المعتصم والأتراك

وخلف المأمون المعتصم بالله سنة ٢١٨هـ فأكثر من استخدام الأتراك فآل ذلك إلى ضعف الخلفاء واستبداد العمال في الولايات واستقلالهم وأخذت سلطة الخلفاء تتقلّص حتى وسعها السواد بين الفرات ودجلة.. ولم يكد يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم في مدينة بغداد.

فما زالت الخلافة العباسية في بغداد حتى جاءها التتر من مفازة الصين فافتتحوها وقتلوا خليفتها سنة ٦٥٦هـ ففرّ من بقي من أهلها إلى مصر والتجأوا إلى سلاطينها المماليك فأنزلوهم على الرحب والسعة إلى أن فتح السلطان سليم العثماني مصر سنة ٩٢٣هـ فأخذ الخلافة منهم، وبلغ عدد الخلفاء العباسيين جميعاً نيفاً وخمسين خليفة منهم ٣٧ في العراق أولهم السفاح وآخرهم المعتصم والباقون في مصر.

١.كان الابتداء في ذلك من الكفار .كما في التواريخ . ٣.

الدولة الإسلامية وسعة المملكة

أول مَن دخل بلاد الأندلس من المسلمين طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة ٩٢هـ في عهد الدولة الأموية بالشام، فافتتحها وتولاّها الأمراء باسم الخلفاء الأمويين، فلما أفضت الخلافة إلى بني العباس وأعمل أبو السفاح السيف في بني أمية قتلهم جميعاً إلا شاباً اسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك نجا وفرّ إلى بلاد المغرب واجتاز البحر إلى الأندلس، وكان عليها أمير اسمه عبد الرحمن بن يوسف الفهري فامتلكها منه وخطب فيها للسفاح زمناً قصيراً ثم عزله العباسيون فقطع الدعوة عنهم ودعا لنفسه سنة ١٣٨هـ وأقام في قرطبة عاصمة الأندلس في ذلك الحين، وخلفه حكّام كثيرون كانوا يلقّبون أنفسهم بالأمراء إلى آخر القرن الثالث، فتولاّها عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر فسمّى نفسه خليفة سنة ٣١٧ وهو أعظم خلفاء بني أمية في الأندلس، حارب الإفرنج مراراً وردّهم على أعقابهم، فلما مات خلفه بضعة عشر خليفة ليس فيهم عادلاً.

وفي أوائل القرن الخامس انقسمت الأندلس إلى ممالك يتولاها رؤساء أو أمراء أشهرهم الحمودية في مالقة من سنة ٤٠٧ ـ ٤٩٩هـ والعبادية في أشبيلية من سنة ٤١٤ ـ ٤٨٤هـ. والزيدية في غرناطة من سنة ٤٠٣ ـ ٤٨٣هـ والجهودية في قرطبة من سنة ٤٢٢ ـ ٤٦١هـ وذو النونية في طليطلة من سنة ٤٢٧ ـ ٤٧٨هـ والعامرية في بلنسية من سنة ٤١٢ ـ ٤٧٨هـ والهودية في سراقوسة من سنة ٤١٠ ـ ٥٣٦هـ وملوك دانية من سنة ٤٠٨ ـ ٤٦٨هـ ويعرف هؤلاء الرؤساء بملوك الطوائف، وتنازعوا فيما بينهم وحاربهم الإفرنج حيث طمعوا بهم على أثر ذلك الانقسام.

ثم عاد المرابطون بعد بضع سنين وفتحوا الأندلس كلها وجعلوها ولاية تابعة لمملكتهم في المغرب، ولما صارت المغرب إلى الموحّدين صارت إليهم أيضاً الأندلس سنة ٥٤٠هـ.

ونشأت في أثناء ذلك ممالك صغيرة في بلنسية ومرسية أهمها الدولة النصرية في غرناطة أصحاب الحمراء حكموا من سنة ٦٢٩ ـ ٨٩٧هـ.. وزهت الأندلس في أيامهم وظهر فيها الشعراء والأدباء على نحو ما كانت عليه في أيام عبد الرحمن الناصر، لكن الأسبان ما زالوا يهاجمون المسلمين ويناوئونهم والمسلمون يدافعون عن أنفسهم إلى أواخر القرن التاسع للهجرة فهاجمها فردينان وايزابلا سنة ١٤٩٢ (٨٩٧هـ) ففرّ ملكها أبو عبد الله وهو محمد الحادي عشر من تلك الدولة، فانقضت بفراره دولة المسلمين في الأندلس.

وللأندلس شأن عظيم في التاريخ الإسلامي فقد نبغ فيها العلماء والشعراء وأُنشِئت فيها المدارس والمكاتب وشيِّدت الأبنية والقصور وسنأتي على ذكر كل شيء في موضعه.

الدولة الفاطمية

نشأت هذه الدولة في بلاد المغرب، وهي تنتسب إلى فاطمة (عليها السلام) بنت النبي (صلّى الله عليه وآله) بواسطة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، وأول من ظهر بالدعوة منهم عبيد الله المهدي في أواخر القرن الثالث للهجرة، ولذلك فهي تسمى أيضاً العبيدية، وقد أعانهم في نيل الخلافة رجل اسمه أبو عبد الله الشيعي نحو ما فعل أبو مسلم مع العباسيين، فلما استتب لهم الأمر قتلوه كما فعل المنصور بأبي مسلم، وامتد سلطانهم في أواسط القرن الرابع إلى مصر على يد القائد جوهر، وكانت مصر في حوزة العباسيين ففتحها جوهر وبنى فيها مدينة القاهرة نحو سنة ٣٦٠هـ ولا تزال إلى اليوم، وسموها القاهرة المعزية نسبة إلى المعز لدين الله أول من جاء مصر من الخلفاء الفاطميين وتناوبها خلفاؤه بعده حتى أصابهم ما أصاب الدولة العباسية في بغداد من اصطناع الأعاجم والأكراد والأتراك وغيرهم فأفضى أمرها سنة ٥٦٧هـ إلى صلاح الدين الأيوبي، وللدولة الفاطمية آثار عظيمة لا تزال ظاهرة في مصر ومنها مدينة القاهرة نفسها والجامع الأزهر، وتولاّها بعد صلاح الدين أبناؤه وأخوته، وجاء بعدهم السلاطين المماليك حتى فتحها السلطان سليم العثماني سنة ٩٢٣هـ.

سائر الدول الإسلامية في أنحاء العالم

ولو أردنا ذكر الدول الإسلامية التي نشأت في العالم لطال بنا الكلام، وخلاصة ذلك أن الدول الإسلامية التي ظهرت من أول الإسلام إلى الآن نيف ومائة دولة عدد رؤسائها نحو (١,٢٠٠) رئيس فيها الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والأتابكة والإخشيدية والخديويون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم من العرب والفرس والأتراك والشراكسة والأكراد والهنود والتتر والمغول والأفغان وغيرهم، ومن عواصمهم: المدينة والكوفة والشام وبغداد ومصر والقيروان وقرطبة والأستانة وصنعاء وعمان ودهلي وغيرها.

المملكة الإسلامية سعتها وأعمالها

تأسست المملكة الإسلامية في المدينة في السنة الأولى للهجرة والمسلمون قليلون وكل أرضٍ خارج أسوار المدينة ليست أرضهم، وحدود تلك المملكة محصورة بيثرب وبعض ضواحيها، وكانت دار الإمارة والقضاء يومئذ المسجد أو بيت النبي (صلّى الله عليه وآله) أو بيوت الصحابة، ومازال ذلك شأنها إلى السنة الرابعة للهجرة فأضافوا إليها أرض بني النضير، وفي السنة التالية أرض خيبر ثم فدك فوادي القرى فتيماء ثم فتحوا مكة فالطائف فتبالة فجرش ثم شمالاً إلى تبوك وأيلة وجنوباً إلى نجران فاليمن فعمان فالبحرين فاليمامة.

ولما توفي النبي (صلّى الله عليه وآله) سنة (١٠) للهجرة كانت سطوة الإسلام قد أظلّت كل جزيرة العرب، وشاهد النبي (صلّى الله عليه وآله) مملكته تمتد من تبوك وأيلة شمالاً إلى شواطئ اليمن جنوباً ومن خليج العجم شرقاً إلى بحر القلزم غرباً، ولما وضع معاوية يده على أزمة الخلافة كانت رايات المسلمين تخفق على الشام ومصر والنوبة والعراق وفارس وأرمينية وأذربيجان وجرجان وطبرستان والأهواز وغيرها.

وكان الخليفة يقيم في (المدينة) أو (الكوفة) ويرسل عماله إلى الأعمال (الولايات) وأكبر أعمال المملكة الإسلامية يومئذ الشام وتحتها أجناد حمص وقنسرين والأردن وفلسطين والثغور، ثم العراق وأعظم أعماله السواد وهو ما بين دجلة والفرات وعاصمته الكوفة على الفرات وما عدا السواد البصرة وقرقيسية والري وأصفهان ونهاوند وأذربيجان وحلوان وهمدان وغيرها. وفي بلاد العرب مكة والطائف والبحرين وعمان وصنعاء، وفي قارة أفريقيا مصر وما يتبعها من أفريقية في بلاد المغرب والنوبة في أعالي وادي النيل.

وكان الخلفاء يرسلون عمّالهم إلى هذه الأعمال رأساً من المدينة أو الكوفة إلا الشام فقد كان يقيم عاملها في دمشق وهو يولي عمالاً على ما تحتها من الأجناد، وكذلك مصر كان عاملها في الغالب يرسل العمال من تحت إمرته إلى أفريقية والنوبة.

وفي أيام بني أمية زادت المملكة الإسلامية اتساعاً ففتحوا الأندلس وسائر المغرب غرباً، وأوغل بنو أمية في أوروبا من وراء إسبانيا فقطعوا جبال البيرينيه ودخلوا فرنسا وأوغلوا فيها إلى نهر الراون سنة ١١٤هـ، فارتعد الإفرنج لذلك وخافوا أن يصيبهم ما أصاب إسبانيا، فتكاتفوا لدفعهم بكل جهودهم فحصلت بين الفريقين وقائع دموية في مكان قرب ثورس دامت بضعة أيام والحرب سجال، ولم يذكر العرب من أخبار هذه الوقائع إلا إشارات مختصرة، وأما الإفرنج فإنهم فصّلوها مع ما يقتضيه المقام من إعجابهم بالعرب وبسالتهم، وكان ذلك بقيادة شارل مارتل القائد الفرنسي الشهير جدّ الإمبراطور شارلمان، فذكروا حروباً هائلة جرت بين شارل هذا وبين العرب سنة ٧٣٢م انتهت بتقهقر العرب إلى إسبانيا وقتل قائدهم عبد الرحمن.

ومما يستدعي الاعتبار والتأمل أن العرب لو فازوا في هذه الواقعة لانتشر الإسلام في فرنسا ثم في سائر أوربا . لأن الفرنسيين كانوا أقوى أمم الإفرنج على مدافعة العرب يومئذ . ولانتشرت اللغة العربية في تلك القارة كما انتشرت في قارتي آسيا وأفريقيا وسائر العالم الإسلامي.

واتسع نطاق المملكة الإسلامية على عهد العباسيين حتى صارت إلى أوسع ما بلغت إليه في زمن الإسلام حتى الآن.

ومهما اختلفت الدول فالمملكة إسلامية وحكامها مسلمون، وقد بلغت حدود هذه المملكة من الشمال إلى أعالي تركستان في آسيا، وجبال البيرينيه في شمالي إسبانيا، ومن الجنوب إلى بحر العرب والمحيط الهندي وصحراء أفريقيا ومن الشرق إلى بلاد السند والبنجاب من بلاد الهند، ومن الغرب المحيط الأطلسي. وتزيد مساحتها على ضعفي مساحة أوروبا.

وكان لكل عمل من أعمال دولتهم والٍ أو عامل يوليه الخليفة أو وزيره أو نائبه كما سترى فبلغ عدد هذه الأعمال . أو الولايات في اصطلاح هذه الأيام . ٤٤ ولاية لكل منها بيت مال وديوان خراج وقاض أو أكثر، وسكّانهم معظم أمم العالم المتمدن في ذلك الحين

وفيهم العرب والفرس والأتراك والأكراد والمغول والتتر والأفغان والهنود والأرمن والسريان والكلدان والروم والقوط والقبط والنوبة والبربر وغيرهم، وكانوا يتكلّمون العربية والفارسية والبهلوية والهندية والرومية والسريانية والتركية والكردية والأرمنية والقبطية والبربرية وغيرها. فمنهم من أصبحت اللغة العربية لغتهم وضاعت لغاتهم الأصلية كأهل الشام ومصر والمغرب والعراق، ومنهم من اختلطت العربية بلغاتهم الأصلية كأهل فارس وتركستان والهند والأفغان وغيرها، ولا يزال كثيرٌ من أمم آسيا وأفريقيا تكتب لغاتها بالحروف العربية إلى الآن أثراً لذلك التمدن العظيم.

فكثيرٌ من المدن الإسلامية أصبحت الآن خراباً بالنظر لما كانت عليه في عهد الدولة الإسلامية وخصوصاً العراق أو السواد، وعلى الأخص بغداد والبصرة والكوفة وسائر مدن العراق فقد وصف الإصطخري مدينة البصرة وصفاً يمثّل ما كانت عليه أرض العراق من العمارة في ذلك العصر قال:

البصرة

(البصرة مدينة عظيمة لم تكن في أيام العجم وإنما مصرها العرب.. وليس فيها مياه إلا أنهاراً، وذكر بعض أهل الأخبار أن أنهار البصرة عُدّت أيام بلال بن أبي بردة فزادت على مائة ألف نهر وعشرين ألف نهر تجري فيها الزوارق وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الأنهار في أيام بلال حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع فربما رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار صغاراً تجري في كلها زوارق صغار ولكل نهر اسم ينسب به إلى صاحبه الذي حفره أو إلى الناحية التي يصبّ فيها، فجوّزت أن يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها).

فاعتبر المسافة التي يحفر فيها (١٢٠,٠٠٠) نهر أو ترعة كم يمكن أن يكون عدد سكانها؟ وهذا مستغرب عند أهل هذا الزمان لكنه يدل في كل حال على عمران تلك الأرض.

بغداد

وناهيك عن بغداد مدينة الخليفة ودار السلام فقد ذكر الإصطخري أيضاً في وصفها كما شاهدها في أيامه في القرن الرابع للهجرة قال: (وتفترش قصور الخلافة وبساتينها من بغداد إلى نهر بين فرسخين على جدار واحد حتى تتصل من نهر بين إلى شط دجلة ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعاً على دجلة إلى الشمّاسية نحو خمسة أميال وتحاذي الشمّاسية في الجانب الغربي الحربية فيمتد نازلاً على دجلة إلى آخر الكرخ.. إلخ).

ثم قال: (وبين بغداد والكوفة (أو بين دجلة والفرات) سواد مشتبك غير مميَّز تخترق إليه أنهار من الفرات) ثم عدّد الأنهر التي تمتد من الفرات إلى دجلة.

فأين هذه العمارة مما عليه بغداد اليوم؟ فإن إحصاء ولاية البصرة كلها الآن ٢٠٠,٠٠٠ نفس، وتعداد نفوس ولاية بغداد ٨٥٠,٠٠٠ ونظن أن إحصاء الولايتين جميعاً أقل كثيراً مما كانت تحويه مدينة بغداد وحدها، وقس على ذلك مدينة دمشق وغيرها من المدن التي ضعف أمرها اليوم. وهناك مدن أخرى كانت يومئذ إبان مجدها فأصبحت الآن اسماً بلا مسمى مثل الفسطاط في مصر والكوفة في العراق والقيروان في أفريقيا وبصرى في حوران وغيرها مما لا محل للكلام فيه هنا.

مصر

وأما مصر فيؤخذ من كلام مؤرخي العرب أنها لما فتحها المسلمون كان عدد الذكور فيها ممن بلغ الحلم إلى ما فوق ذلك (ليس فيهم صبي ولا امرأة ولا شيخ) ثمانية ملايين) منهم في الإسكندرية وحدها ثلاثمائة ألف فإذا أضفنا إلى ذلك عدد الإناث والأطفال والشيوخ أصبح عدد سكانها أكثر من ثلاثين مليون نسمة وهو نحو ثلاثة أضعاف عدد سكّانها اليوم.

وقد يطعن في صحة هذه الرواية ولكن يستدل من مجمل أقوالهم في مصر أنها كانت في رغد ورخاء وكان عمرانها بالغاً حد النهاية.

وذكر ياقوت في معجم البلدان: (إن المقوقس قد تضمن مصر من هرقل بتسعة عشر ألف ألف دينار وكان يجبيها عشرين ألف ألف دينار وجعلها عمرو بن العاص عشرة آلاف ألف دينار أول عام، وفي العام الثاني اثني عشر ألف ألف ولما وليها في أيام معاوية جباها

تسعة آلاف ألف دينار وجباها عبد الله بن سعد بن أبي سرح أربعة عشر ألف ألف دينار) وقد أجمع المؤرخون المحدثون تقريباً على تقدير سكانها في تلك الأيام بنحو عشرين مليون نفس.

قال المقريزي: (إن هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٧هـ) أمر عبد الله بن الحجاب عامله على خراج مصر أن يمسحها، فمسحها بنفسه فوجد مساحة أرضها الزراعية مما يركبه النيل ثلاثين مليون فدان، مع أن مساحة الأرض الزراعية في وادي النيل اليوم مع ما تبذله الحكومة من العناية في إخصابها وتعميرها لم تتجاوز ستة ملايين فدّان كثيراً، ومساحة وادي النيل كلها أي الوجه البحري والصعيد على جانبي النيل لا تزيد على هذا القدر إلا قليلاً، فيستحيل أن تكون مساحتها في أوائل الإسلام خمسة أضعاف ذلك ولكن يظهر أن العرب زرعوا ما يجاور هذا الوادي من الشرق نحو البحر الأحمر ومن الغرب إلى وادي النطرون، لأن مساحة مصر بما فيها الواحات في صحراء ليبيا والأرض بين النيل والبحر الأحمر وبينه وبين بحر الروم إلى العريش تزيد على ٤٠٠,٠٠٠ ميل مربع وذلك يساوي نحو ١٨٧ مليون فدّان، فلا غرابة إذ ذاك أن يكون العامر منها ٣٠ مليون فدان، وأن يكون سكانها ٢٠ مليون نفس.

ويؤيد ذلك أن مؤرخي العرب كانوا يقدرون مساحة مصر نحو ما تقدم تقريباً.

قال المقريزي: (وآخر ما اعتبر حال أرض مصر فوجد مدة حرثها ستين يوماً ومساحة أرضها ١٨٠,٠٠٠,٠٠٠ فدان يزرع منها في مباشرة ابن المدبر (في أواسط القرن الثالث للهجرة) ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ فدان، وأنه لا يتم خراجها حتى يكون فيها ٤٨٠,٠٠٠ حراث يلزمون العمل بها دائماً.. إلخ).

واعتبر نحو هذا العمران أيضاً في مدن الإسلام الكبرى في الأندلس مثل قرطبة وغرناطة وطليطلة، وفي العراق والشام بلاد لا تحصى كانت في تلك الأيام مدناً كبرى وأصبحت الآن قرى حقيرة.

مناصب الدولة الإسلامية

انتهينا من الكلام في نشوء الدولة الإسلامية وتكونها فنتقدّم إلى الكلام في مناصبها أو دواوينها أو دوائر حكومتها وتاريخ كل منها، ونقدّم الكلام في كيفية نموّها وتفرّعها إلى تلك المناصب.

نمو الدولة الإسلامية

نشأت الدولة الإسلامية في المدينة في السنة الأولى للهجرة والمسلمون يومئذ الصحابة الذين لا يزيد عددهم على بضع عشرات بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الأنصار، فجعلوا أساسها المساواة والمؤاخاة والتعاون، فقد ذكرنا أن النبي (صلّى الله عليه وآله) آخى بين المسلمين (المهاجرين والأنصار) بأن جعل أموالهم واحدة ومصالحهم واحدة كما يستدلّ من قوله: (من ترك كلاً فإلينا ومن ترك مالاً فلورثته)(١) وقد كان ذلك الاشتراك في المصالح داعياً إلى زيادة الاتحاد، وأعمال الدولة يومئذ محصورة في النبي (صلّى الله عليه وآله) وتشمل السياسة والإدارة والدين، ففرضت الصلاة والزكاة وغيرهما من الفروض التي تعَدُّ من قبيل الدين، ولا نبحثُ فيها إلا من حيث دخلها في تأسيس الدولة. أما الصلاة في الجماعة ففائدتها في الدنيا الاتحاد والطاعة للإمام، وأما الزكاة فإنها قوام الدولة وأساس مصالحها، فهي أصل بيت المال الذي نعبّر عنه بوزارة المالية.

ولا يخفى أن للدول أنظمة مختلفة وفيها الملكي والجمهوري والمطلق والمقيد ولكل دولة قوانين تختلف عما للأخرى مما لا يحصره وصف ولكنها ترجع كلها إلى أمرين أساسيين تشترك فيهما جميعاً وهما (المال والجند). وما من دولةٍ مهما كان نوع نظامها إلا وفيها الجندية والمالية إذ لا قوام لها بدونهما وربما كانت الحاجة إليهما في أوائل الدولة أشد مما بعدها. والمسلمون هم الجند واتحادهم بالصلاة والركوع والمؤاخاة هو نظام الجند.

والزكاة عبارة عن المال اللازم لبقاء الجند، فأساس الدولة الإسلامية هذه الآية: (وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)(٢).

الزكاة

والزكاة توطِّد عرى الاتحاد وهو أساس الإسلام، بأن يؤخذ من أغنياء المسلمين ما يزيد من أموالهم ويعطى للفقراء منهم فيؤخذ زكاةً ويعطى صدقةً، ويمثل ذلك جلياً قول النبي (صلّى الله عليه وآله) لمعاذ لما بعثه إلى اليمن إذ قال له: (إنك تأتي قوماً أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلواتٍ في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)(٣).

وكانت الأموال التي ترد عليهم وتفرّق فيهم على السواء الصغير والكبير، الحر والعبد، الذكر والأُنثى. وإذا كانت من الغنائم أخذوا نصيبهم منها على ما يأتي، وإذا جاء المدينة مالٌ من بعض البلاد أُحضر إلى المسجد وفرّق على ما يراه النبي (صلّى الله عليه وآله) أو الخليفة بلا قيدٍ ولا شرط ولا يبقى منه باقٍ.

الديوان

ولما فتحت البلاد في زمن عمر بن الخطاب واختلط العرب بالروم والفرس واتسع سلطان المسلمين وكثرت وارداتهم وتعدّدت مصادر الفيء اضطروا إلى ضبط ذلك وتقييده وتعيين ما يدخل وما يخرج منه، فرأى عمر أن يضبط الوارد في الدفاتر فيدفع منه رواتب معينة في العام إلى كلٍ منهم على قدر استحقاقه، والذي يبقى من الأموال يحفظ للانتفاع به عند الحاجة، فشرّع بذلك في السنة العشرين للهجرة (وقيل: في الخامسة عشرة) وهو ما يعبر عنه بالديوان اقتداءً بما كان عند الفرس والروم.

فلما أفضت الخلافة إلى بني أمية وأصبح الأمر ملكاً سياسياً وكثرت مخالطة المسلمين للأعاجم أصبحت تلك الدوائر تتفرّع وتتوسّع عملاً بناموس الارتقاء العام وأضافوا إليها

مناصب اقتبسوها من الروم والفرس، وقضى عليهم الترف وأُبهة الملك أن يتخذوا الخدم والحشم والحاشية والحُجّاب والحراس فحدث في عهد بني أمية الحرس وديوان الخاتم والبريد وديوان الخراج.

ولما آل الأمر إلى بني العباس زادت عوامل الاختلاط وزاد ميل الخلفاء إلى الترف والرخاء فاستنابوا من يقوم مقامهم في مباشرة الأعمال فاستحدثوا منصب الوزارة والحسبة وغيرهما وتفرّعت المناصب الأولى وتشعّبت على مقتضيات الأحوال. ثم أحدثت كل دولة من دول الإسلام مناصب اقتضتها أحوالها فاختلفت في بغداد عما في قرطبة وفيهما عما في القاهرة.

كان الخليفة في عهد بساطة الدولة هو الذي يراقب أعمال الدواوين بنفسه، فلما اتسع سلطانهم وتبدّلت وجهة الخلافة من الدين إلى السياسة، ومال الخلفاء إلى التقاعد وتقليد القياصرة والأكاسرة استخدموا من يقوم بتلك الأعمال، فأقاموا من يباشر أمور الدولة عنهم وهم الوزراء، ومن يراقب تصرّف العمال في الأمصار وهو صاحب ديوان البريد، ومن يتولى ختم الرسائل وتقييدها وهم أصحاب ديوان التوقيع أو الخاتم، ومن يتولى النظر في ضياعهم وأملاكهم وهم عمال ديوان الضياع، ومن ينظر في حسابات حاشيتهم وخدّامهم وهم عمال ديوان الخاص، واقتضت حضارتهم أن يضربوا النقود ويتّخذوا الطراز فأنشأوا دار الضرب وديوان الطراز، ودواوين أخرى بعضها لعرض الرسائل وبعضها لغير ذلك مثل ديوان الترتيب وديوان العزيز. وهذا كان يشبه الباب العالي. وكان الكاتب في عهد الخلفاء الراشدين هو الذي يتولى الديوان على ما وضعه عمر فيدوّن ما يرد من أموال الخراج والجزية وغيرهما، وما ينفق على الجند والعمال والقضاة وغيرهم ويتولى مكاتبة العمال، فلما اتّسعت أعمال الدولة تشعّب ذلك الديوان إلى ما يختص بحسابات الخراج والجزية وهو ديوان الخراج، وإلى ما يختص بالنفقة على الجند وغيرهم وهو ديوان الزمام والنفقة، وإلى ما يتعلّق بغير ذلك مثل ديوان الإقطاع وديوان المعادن، وإلى ما يختص بتدوين أسماء الجند وطبقاتهم ورواتبهم وهو الجند، وتفرّع من ديوان الجند ديوان الأُسطول وديوان الثغور وغيرهما، وأفردوا لمراسلات العمال وغيرهم ديواناً خاصاً هو ديوان الرسائل أو الإنشاء.

وكان بيت المال مخزناً عاماً لكل أموال المسلمين فتفرّع في أيام الأمويين والعباسيين إلى عدّة فروع بعضها لأموال الصدقات وبعضها لأموال المظالم وبعضها لأموال الورثة وبعضها لغير ذلك، وعلى هذا النمط تشعّبت المناصب الأخرى فتفرّع من القضاء ديوان المظالم والحسبة والشرطة ونحو ذلك مما لا يمكن حصره.

الخلافة

ماهيتها وشروطها وحقوقها

الخلافة ضرب من الملك خاص بالإسلام لم يكن في سواه من قبل. وهي من قبيل السلطة الملكية المطلقة ولكنها تمتاز عن سلطة القياصرة والإمبراطوريين والأكاسرة أن الخلافة تشمل السلطتين الدينية والدنيوية فتحمل الجميع على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها. وأما تلك فتختصر في حمل الجميع على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية.

وقد يظهر الفرق بين السلطتين كبيراً.

البيعة

البيعة هي العهد على الطاعة، فإذا بايع الرجل أميراً كأنه عاهده وسلّم إليه النظر في أمر نفسه لا ينازعه في شيء من ذلك وأن يطيعه في ما يكلفه به من الأُمور، وكان العرب إذا بايعوا أميراً جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد بما يشبه فعل البائع والمشتري فسمّيت (بيعة) مصدر باع، وصارت البيعة مصافحة الأيدي وهو مدلولها بعرف اللغة أيضاً، وأقدم بيعة في الإسلام بيعة العقبة.

يمين البيعة

يختلف نصّ يمين البيعة باختلاف الدول والأحوال وإن كان مرجعه واحداً. فلما بايع الأنصار النبي (صلّى الله عليه وآله) بالعقبة قالوا: (يا رسول الله إنّا براء من ذمامك حتى

تصير إلى دارنا، فإذا وصلت فإنك في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا). وهناك نص آخر للبيعة في العقبة يُعرف ببيعة النساء وهو: (بايعنا بأن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف).

وبعد أن صارت وراثية كان الخلفاء يبايعون لأولادهم بولاية العهد أو لغيرهم من ذوي قرابتهم. وكانوا يحتفلون بذلك مثل احتفالهم بمبايعة الخلفاء.

والعهد كتاب يكتبه الخليفة أو من يكتب له ويختمه بخاتمه وخواتم أهل بيته ويدفعه إلى ولي العهد أو من يتولّى أمره فيحفظه إلى حين الحاجة ويدعى لولي العهد على المنابر بعد الدعاء للخليفة فيقولون بعد الدعاء للخليفة: (اللهم وبلّغه الأمل في ولده فلان ولي عهده في المسلمين، اللهم وال من والاه من العباد وعاد من عاداه في الأقطار والبلاد وانصر من نصره بالحق والسداد واخذل من خذله بالغيّ والعناد، اللهم ثبّت دولته وشعاره وانبذ إلى من نابذ الحق وأنصاره).

علامات الخلافة وشاراتها

وعلامات الخلافة ثلاث: البردة والخاتم والقضيب.

أما البردة فهي بردة النبي ومازال النبي (صلّى الله عليه وآله) يلبسها حتى أعطاها إلى كعب بن زهير بن أبي سلمى الشاعر المشهور.

وأما الخاتم فقد اتخذه الخلفاء تشبّهاً بالنبي (صلّى الله عليه وآله)، لأنه لما أراد أن يكتب إلى قيصر وكسرى يدعوهما إلى الإسلام قيل له: إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً. فاتخذ خاتماً من فضة ونقش عليه: (محمد رسول الله) وانتقل هذا الخاتم إلى أبي بكر ثم إلى عمر ثم إلى عثمان ووقع من يد عثمان في بئر أريس ولم يعثروا عليه بعد ذلك، فاصطنع عثمان خاتماً مثله وكان كل من ولي الخلافة بعده يصطنع له خاتماً يختمون به الكتب في أسفل الكتابة أو في أعلاها بالطين أو المداد.

أما القضيب فهو ثالث علامات الخلافة وإذا تولى الخليفة جاءوه بالبردة والخاتم والقضيب، وظل الأمر على ذلك في بني أمية وبني العباس.

وشارات الخلافة أيضاً ثلاث: الخطبة والسكة والطراز.

أما الخطبة فهي الدعاء للخلفاء على المنابر في الصلاة وأصلها أن الخلفاء كانوا يتولون إقامة الصلاة بأنفسهم فكانوا يختمون فروض الصلاة بالدعاء للنبي (صلّى الله عليه وآله) والرضى عن الصحابة.

ومن شارات الخلافة ـ أو هي شارات الملك على الإطلاق ـ الختم على النقود بطابع من حديد ينقش فيه اسم الخليفة أو السلطان ويقال لها السكّة، وهي لازمة للدولة.

ومازال العرب يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية حتى ظهر الإسلام وافتتحوا البلاد وأسّسوا الدولة الإسلامية فعمدوا إلى إنشاء تمدّنهم، فكان في جملة عوامله السكة، فضربوا الدراهم والدنانير.

على أن هذه المسكوكات لم تكن تعتبر رسمية في الدول الإسلامية بل كانت أكثر معاملاتهم بالنقود الرومية والفارسية، فاتفق في أيام عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ ـ ٨٦هـ) أن هذا الخليفة أراد تغيير الطراز من الرومية إلى العربية فشقّ ذلك على ملك الروم فبعث إليه يهدده بأن ينقش على دنانيره شتم النبي (صلّى الله عليه وآله) فعظم هذا الأمر على عبد الملك فجمع إليه كبار المسلمين واستشارهم فأشار عليه أحدهم بمحمد الباقر (عليه السلام) أحد الأئمة الاثني عشر من الشيعة وكان يقيم في المدينة، فلم يشأ عبد الملك أن يستنجد أحد أئمة بني هاشم وهم مناظروه في الملك لكنه لم ير بدّاً من استقدامه فكتب إلى عامله في المدينة أن (أشخص إليّ محمد بن علي بن الحسين (عليهم السلام) مكرماً ومتّعه بمائة ألف درهم لجهازه ٣٠,٠٠٠ لنفقته وأرح عليه في جهازه وجهاز من يخرج معه من أصحابه) فلما قدم محمد إلى دمشق استشاره عبد الملك في ما ينويه ملك الروم من الإساءة بالإسلام فقال محمد (عليه السلام): (لا يعظم هذا عليك. ادع في هذه الساعة صنّاعاً فيضربون بين يديك سككاً للدراهم والدنانير وتجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله (صلّى الله عليه وآله) أحدهما في وجه الدرهم أو الدينار والآخر في الوجه الثاني، وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير، وتعمد إلى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الأصناف الثلاثة التي العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرون منها وزن ستة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل فتكون أوزانها جميعاً واحداً وعشرين

مثقالاً، فتجزئها من الثلاثين فتعيّر العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان فتضرب الدراهم على وزن عشرة مثاقيل والدنانير على وزن سبعة مثاقيل).

ففعل ذلك عبد الملك وبعث نقوده إلى جميع بلدان الإسلام وتقدّم إلى الناس في التعامل بها وهدّد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير. ونقش نقود بني أمية على أحد الوجهين في الوسط: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له)، وحول ذلك: (بسم الله ضرب هذا الدرهم في بلد كذا سنة كذا) وفي الوجه الآخر بالوسط: (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) وحولها: (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون). وكانت هذه الكتابة تنقش على الدينار والدرهم على السواء.

وأما مقدار ما كانت الدولة تضربه من النقود فيختلف كثيراً.

فقد ورد في (نفح الطيب) أن دخل دار الضرب في الأندلس بلغ من ضرب الدراهم والدنانير على عهد بني مروان في القرن الرابع للهجرة ٢٠٠,٠٠٠ دينار في السنة وصرف الدينار ١٧ درهماً، فإذا اعتبرنا هذا الدخل باعتبار واحد في المائة عن المال المضروب بلغ مقدار ما كان يُضرب في الأندلس وحدها من ممالك الإسلام ٢٠ مليون دينار أو نحو عشرة ملايين جنيه، وذلك نحو ضعفي ما تضربه بريطانيا اليوم وهي في عظمة مجدها، فإذا أضيف إليها ما كان يضرب في القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية وفي بغداد عاصمة الدولة العباسية وفي غيرها من المدن الإسلامية يومئذ كان مبلغ ذلك شيئاً كثيراً.

الطراز

ومن شارات الخلافة أيضاً الطراز وهو قديم في الدول من عهد الفرس والروم وذلك أن يرسم الملوك أو السلاطين أسماءهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدّة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم كأنها كتابة خطت في نسيج الثوب، وأول من نقل الطراز إلى العربية من ملوك المسلمين عبد الملك بن مروان الأموي.

وأنشأ الخلفاء للطرّاز دوراً في قصورهم تسمى دور الطرّاز لنسج أثوابهم وعليها تلك الشارة، وكان القائم على النظر فيها يسمى (صاحب الطراز) ومازالت دور الطراز في الدول الإسلامية على نحو ما تقدم حتى ضاق نطاق تلك الدولة وضعف أمرها وتعددت فروعها فتعطّلت هذه الوظيفة من أكثرها.

ولاية الأعمال

الولايات قبل الإسلام وبعده

يراد بالولاية الإمارة على البلاد فيولي السلطان أو الملك من يقوم مقامه في حكومة الولايات وهي الأعمال في اصطلاحهم، وهذا النوع من الحكومة قديم، وكانت الشام لما فتحها المسلمون ولاية واحدة من ولايات الروم يسمّونها ولاية الشرق وتقسّم إلى (١١) إقليماً تحت كل إقليم عدة بلاد، وكان لكل إقليم حاكم أو عامل والغالب أن يكون بطريقاً، فلما ظهر الإسلام ونهض المسلمون للفتح كانوا إذا أرسلوا قائداً إلى فتح بلد ولّوه عليه قبل خروجه لفتحه أو شرطوا عليه إذا فتحه فهو أمير عليه، وكان ذلك شأنهم من أيام النبي (صلّى الله عليه وآله) فإنه أرسل في السنة الثامنة للهجرة أبا زيد الأنصاري وعمرو بن العاص ومعهما كتاب منه يدعو الناس إلى الإسلام وقال لهما: (إن أجاب القوم إلى شهادة الحق وأطاعوا الله ورسوله فعمرو الأمير وأبو زيد على الصلاة وأخذ الإسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن) وكان كذلك. وكانت ولاية الأعمال في بادئ الرأي أشبه بالاحتلال العسكري منه بالتملّك، وكان العمال أو الولاة عبارة عن قواد الجند المقيم بضواحي البلاد المفتوحة بما يعبرون عنه بالرابطة أو الحامية، وكانت الجنود الإسلامية منقسمة إلى قوات تقيم في محطات عسكرية بأماكن أقرب إلى طريق الصحراء منها إلى السواحل.

فكان العمال في عهد الخلفاء قوّاد الجند الذين افتتحوا تلك الأعمال وواجباتهم على الأكثر هي مراقبة سير الأحكام في البلاد التي افتتحوها وإقامة الصلاة واقتضاء الخراج، وأما أعمال الحكومة في البلاد المفتوحة في مصر والشام والعراق فقد ظلت سائرة على ما كانت عليه قبل الفتح إلى أواسط أيام بني أمية.

الإمارة العامة

١ . إمارة الاستكفاء

فإمارة الاستكفاء أو إمارة التفويض هي التي كان يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الأكفاء فيفوّض إليه إمارة الإقليم على جميع أهله ويجعله عام النظر في كل أموره ويشتمل نظره فيه على سبعة أمور:

١ . تدريب الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم (إلا إذا كان الخليفة قدّرها).

٢ . النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام.

٣ . جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منهما.

٤ . حماية الدين والدفاع عن الحريم.

٥ . إقامة حدود الشرع.

٦ . الإمامة في الصلاة.

٧ . تسيير الحج.

وإذا كان الإقليم المشار إليه متاخماً لعدوّ ترتّب على العامل أمرٌ ثامن هو جهاد ذلك العدو وقسمة الغنائم في المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس كما هو مفصّل في باب الجند والمال.

وكثيراً ما كان الخلفاء يفوّضون إلى بعض خاصتهم عملاً من الأعمال فيرسل هذا من يقوم مقامه في ذلك العمل ويبقى هو في بلاد الخليفة، وأكثر ما كان يقع ذلك في الدولة العباسية.

٢ . إمارة الاستيلاء

ويراد بإمارة الاستيلاء أن يعقد الخليفة للأمير على الإقليم اضطراراً بعد أن يستولي الأمير على ذلك الإقليم بالقوة، وكان الخليفة يثبته في إمارته ويفوض إليه تدبير سياسته

فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير والخليفة بإذنه منفّذاً لأحكام الدين. ولهذه الإمارة شروط تفرض على الأمير في مقابل ذلك وهي:

١ . حفظ منصب الإمامة في خلافة النبوة وتدبير أمور الملّة.

٢ . ظهور الطاعة الدينية.

٣ . اجتماع الكلمة على الألفة والتناصر ليكون للمسلمين يدٌ على من سواهم.

٤ . أن تكون عقود الولايات الدينية جائزة والأحكام فيها نافذة.

٥ . أن يكون استيفاء الأموال الشرعية بحق تبرأ به ذمة مؤديها.

٦ . أن تكون الحدود مستوفاة بحق وقائمة على المستحق.

٧ . أن يهتم الأمير في حفظ الدين. ولأمير الاستيلاء أن يستخدم الوزراء وغيرهم.

الإمارة الخاصة

وأما الإمارة الخاصة فهي أن يكون الأمير فيها مقصوراً على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية بيضة الإسلام والدفاع عن الحريم ضمن حدود معينة، وليس له أن يتعرّض للقضاء أو الأحكام ولجباية الخراج أو الصدقات في شيء حتى الإمامة في الصلاة فربما كان القاضي أولى بها منه، والخليفة يعين لهذه الإمارة قضاة وجباة من عنده، فالجباة يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزي وهم يؤدون أعطيات الجند وغيرها مما يجمعونه، والإمارات الخاصة كانت قليلة إبان الدولة العباسية.

الوزارة وما يتبعها

١ . الوزارة

الوزارة أسمى الرتب السلطانية وليست من محدثات الإسلام بل هي فارسية الأصل اتخذها المسلمون في عهد الدولة العباسية، أما إذا أريد بالوزارة استعانة الخليفة بمن يشد أزره أو يعاونه في الحكم فهي تتصل بعهد الإسلام، لأن النبي (صلّى الله عليه وآله) نفسه كان يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة. وأخذ نفوذ الوزارة في بني العباس

يتقلّص بتقلّص نفوذ الخلفاء حتى استبدّ العمال في الأعمال وتفرّعت المملكة العباسية فأصبحت الوزارة كالخلافة اسماً بلا مسمى فأسقطوها وأبدلوها بإمرة الأمراء.

٢ . أمير الأمراء

هو لقب منحه الخلفاء العباسيون لأمراء بعض الدول الإسلامية الصغرى التي ظهرت في القرن الرابع للهجرة وما بعده من بني حمدان وبني بويه، وقد يكون أمير الأمراء ملكاً أو مثل الملك، وأول من لُقّب به ابن رائق من بني حمدان وكان أمير البصرة وواسط، فجعله الراضي أمير الأمراء سنة ٣٢٤هـ وفوّض إليه تدبير المملكة وأمر أن يُخطب له على المنابر، وخلع عليه وأعطاه اللواء وكانوا يسمّونه أيضاً ملك بغداد أو سلطان بغداد، وما زال هذا اللقب في بني بويه إلى سنة ٤٤٩هـ.

٣ . وزارة التفويض

كانت الوزارة وزارتين وزارة تفويض ووزارة تنفيذ مثل إمارة الأعمال، فوزارة التفويض أن يستوزر الخليفة رجلاً يفوّض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضائها على اجتهاده، فيتولى الوزير كل شيء يمضيه عن الخليفة إلا ثلاثة أشياء:

١ . ولاية العهد فإن الخليفة هو الذي يعهد إلى من يرى وليس ذلك للوزير.

٢ . للخليفة أن يعزل من قلّده الوزير وليس للوزير أن يعزل من قلّده الخليفة.

٣ . للخليفة أن يستعفي الأمة من الإمامة وليس ذلك للوزير، وكثيراً ما كان الخلفاء يقلّدون وزراءهم مع الوزارة منصباً آخر مهمّاً كما تقلّد الفضل بن سهل رئاسة السيف مع الوزارة فسمّوه ذا الرئاستين.

٤ . وزارة التنفيذ

أما وزارة التنفيذ فالنظر فيها مقصورٌ على تنفيذ ما يراه الخليفة فيكون الوزير واسطة بين الخليفة وبين الرعية فيمضي ما يأمره الخليفة به من تقليد الولاة وتجهيز الجيوش ويعرض عليه ما ورد من مهم وتجدّد من حدث ملمّ، خلافاً لوزير التفويض فإنه يولي ويعزل كما يشاء

ويقضي ويمضي بلا حد ولا قياس، ويجوز للخليفة أن يستوزر وزيرين للتنفيذ أحدهما للحرب مثلاً والآخر للخراج ولكنه لا يستوزر إلا وزيراً واحداً تفويضياً.

السلطان

كان هذا المنصب في أوائل أمره لقباً لوزراء الدولة العباسية يلقّبون به على سبيل التفخيم بأمر الخلفاء، وذكر ابن خلدون أن جعفر بن يحيى دعي سلطاناً. ويظهر من مجمل ما نقرأه في كتبهم أنهم يطلقون لفظ السلطان على والي بغداد أو والي الشام ولعله رئيس الشرطة أو ما يشبه المحافظ اليوم. وقد يريدون بالسلطان الخليفة نفسه، وكل ذلك على سبيل المجاز، ولم تصبح السلطنة رتبة رسمية إلا في أيام محمود الغزنوي بن سبكتكين وهو أول سلطان في الإسلام، سمي به في أواخر القرن الرابع للهجرة.

وكانوا يلقّبون السلاطين . يوم الاحتفال بتوليتهم . ألقاباً تشيرُ إلى تأييد الخلافة لهم مثل ناصر الدولة وسيف الدولة وعضد الدولة ونحو ذلك.

١- كنز العمال: ج١١، ص١٣ مثله. بحار الأنوار: ج٢٧، ص٢٤٣ مثله.

٢- سورة البقرة: ,٤٣

٣- كنز العمال: ج٦، ص٢٩٥.

الجند وتوابعه

كان الناس في أوائل أدوار تمدّنهم قبائل جندها رجالها، إذا احتاجت إلى قتال اجتمع الرجال من كل قبيلة بلا نظام ولا ترتيب.

وأول دولة نظّمت الجند الدولة المصرية الفرعونية. فقد جنّدت جيشاً من الزنوج والأحباش حوالي القرن العشرين قبل الميلاد أخضعت بهم سواحل البحر الأحمر لسيطرتها.

أما العرب قبل الإسلام فقد كانوا أهل بداوة لا نظام للجند عندهم، وإنما كانوا قبائل إذا أرادت إحداها حرباً جردت رجالها وفيهم الفرسان والمشاة ومعهم الأسلحة المعروفة في الجاهلية كالقوس والرمح والسيف.

فلما ظهر الإسلام انفرد المسلمون من العرب وغيرهم واتحدوا بجامع الدين يداً واحدة في محاربة أعدائهم فكانوا كلهم جنداً كبيرهم وصغيرهم، وكان أول جنود المسلمين المهاجرين فلما جاءوا المدينة اتحدوا مع الأنصار وصاروا جميعاً جنداً واحداً قائدهم النبي (صلّى الله عليه وآله) بنفسه ورابطتهم المعاهدة والمؤاخاة وعددهم يومئذ قليل جداً.

تنظيم جند المسلمين في أيام بني أمية

أما تنظيم الجند فئة خاصة دون سائر فئات المسلمين، فقد بدأ في أيام عمر عند تدوين الدواوين وتم في أيام بني أمية، ويظهر أن التجنيد الإلزامي بدأ في أواسط هذه الدولة، وكان الناس من قبل يذهبون إلى الحرب جهاداً في سبيل الدين فيصيبون الغنائم والفيء فلما قامت الفتنة بعد مقتل عثمان (سنة ٣٥هـ) اشتغلوا بالحرب فيما بينهم مدة وكل طائفة تندفع إلى ذلك دفاعاً عن رأيها واعتقادها بأنها تدرأ عن الحق. فلما أفضى الأمر إلى بني أمية وصار المسلمون دولة واحدة وضعفت قوة الأحزاب بتغلّب العنصر الأموي لم يعد الناس يرون ما يدفعهم إلى الحرب طوعاً فأخذوا يتقاعدون فاضطر الخلفاء إلى التجنيد بالإلزام.

ولعل أول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف على عهد عبد الملك بن مروان.

جند الأعاجم في الإسلام

١ . في الدولة العباسية

لما تولّى بنو العباس واحتاجوا إلى مؤازرة الأعاجم في تأييد سلطانهم دخل في جند العرب جماعات منهم، وأول من دخل في الجند الإسلامي منهم آل خراسان لأنهم هم الذين نصروا العباسيين في دعوتهم وسلّموا إليهم أزمة الخلافة بقيادة أبي مسلم الخراساني، فكانت فرق الجند في أيام المنصور ثلاثاً: اليمنية والمصرية والخراسانية. ثم أضيف إليها فرقة رابعة هي فرقة الحرس الخاص اتخذها الخلفاء خوفاً مما كانوا ينصبونه لهم من الحبائل أو يقيمونه عليهم من الثورات، ومن غريب هذه الأعمال أن الأمر الذي أراد الخلفاء أن يحفظوا سلطانهم به كان علّة خروج ذلك السلطان من أيديهم.

٢ . جند السلاطين المماليك بمصر

كان جند المماليك أخلاطاً من الأتراك والجركس والروم والأكراد، وأكثرهم من المماليك المبتاعين وهم طبقات أعلاها الأمراء ومن يليهم إلى الجندي البسيط، وأما الأمراء فهم كالضباط في هذه الأيام ومنهم من له إمرة مائة فارس أو أكثر إلى ألف فارس.

٣ . الجند العثماني . الانكشارية

وللجند العثماني تأريخ طويل يبدأ منذ تأسيس الدولة العثمانية وقد بني على نظام جند السلاجقة. ثم نشأ جند الانكشارية المشهور أنشأه (قرة خليل) أحد كبار رجال الدولة العثمانية في زمن السلطان أورخان، وقد نظر في تنظيمه إلى خلوّه من عصبية تبعثه على التمرّد وكان العثمانيون يومئذ يفتحون البلاد وأكثر أهلها مسيحيون فيدخل في حوزتهم جماعة من غلمان النصارى الذين قتل آباؤهم وأصبحوا لا نصير لهم ولا مرجع لآمالهم فارتأى أن يربّي أولئك الغلمان تربية إسلامية ويدرّبهم على الفنون الحربية ويجعلهم دائماً جنداً لا يخشى منه التمرد، لأنه لا يعرف عصبية غير الدولة ولا عملاً غير الجندية ولا ديناً غير

الإسلام، فجنّدهم وسار بهم إلى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية بأماسية ليدعو لهم فدعا لهم وسماهم (يكي جري) أي الجند الجديد.

أعطيات الجند

ويراد بأعطيات الجند رواتبهم التي يستولون عليها في أوقات معينةٍ من العام، وكانت تلك الأعطيات في أيام النبي (صلّى الله عليه وآله) غير محدودة فتتبع ما يقع في أيديهم من الغنائم أو الفيء، فكان يفرد خمسه للنبي (صلّى الله عليه وآله) ويفرّق الأربعة أخماس الباقية في الصحابة على السواء بلا تمييز في السابقة أو النسب، وجرى على ذلك أبو بكر، فلما تولى عمر ووضع الديوان ميّز الناس في العطاء باعتبار النسب والسابقة فرتّبهم طبقات.

فلما طمع بنو أمية بالملك واحتاج معاوية إلى استنجاد العرب كان في جملة ما استخدمه في سبيل استنجادهم المال. فزاد في أعطيات الجند وكان جنده ستين ألفاً ينفق عليه ستين مليون درهم في العام. فيلحق كل رجل ألف درهم، ولم يكن معاوية يعتمد على المال في استرضاء الجند فقط بل كان يستخدمه في اصطناع الأحزاب وتخفيف ويلات المتعصبين عليه، فكان كثيراً ما يأمر عماله بزيادة أعطيات أناس لتأليبهم على الإمام علي (عليه السلام).

وظل هذا شأن العطاء أيام يزيد ومروان وعبد الملك، وكان عبد الملك يبالغ في الإنفاق تأييداً لأحزابه في مقاومة دعاة الخلافة في أيامه.

وفي أواخر دولة بني أمية قلّت الرواتب حتى صارت في آخرها خمسمائة درهم.

أعطيات الجند في الدولة العباسية

فلما آلت الخلافة إلى بني العباس جعل السفاح رزق الجندي ثمانين درهماً في الشهر أي (٩٦٠ درهماً في السنة) فكأنه أرجعه إلى ما كان عليه في أوائل بني أمية، وكان للفارس ضعفا هذا الراتب لينفق نصفه على فرسه.

عطاء الجند في الدولة التركية

ومازال العطاء يدفع نقداً إلى أيام الدولة السلجوقية فصار يعطى إقطاعاً. وأول من فعل ذلك نظام الملك الطوسي وزير آل سلجوق (توفي سنة ٤٨٥هـ) وزاد للدولة السلجوقية وأدخل فيها إصلاحات جمّة، وهو أول من أنشأ المدارس في بغداد وله فيها المدرسة التي تعرف باسمه (المدرسة النظامية) وكان وزيراً لألب أرسلان ثم لابنه ملك شاه المشهور، فصار أمر الدولة كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت والصيد، فأقام على ذلك عشرين سنة.

واختلفت غلات الأمراء من إقطاعاتهم، فقد بلغت غلة إقطاع بعض أكابر الأمراء في دولة المماليك نحو ٢٠٠,٠٠٠ دينار ويليهم من غلتهم نصف ذلك أو ربعه.

وأما أمراء العشرات فنهايتها سبعة آلاف دينار إلى ما دون ذلك أما جند الخليفة فمنهم من يبلغ إقطاعه ١٥٠٠ دينار وما دون ذلك إلى ٢٥٠ ديناراً.

عدد الجند

قلنا إن المسلمين كانوا في صدر الإسلام كلهم جنداً فعددهم يومئذ هو عدد الجند الإسلامي، فالجند كان في السنة الأولى للهجرة لا يزيد على بضع عشرات يقيمون في المدينة ثم ازدادوا بمن اعتنق الإسلام من قبائل العرب، وفي حديث أخرجه البخاري أن النبي (صلّى الله عليه وآله) قال (اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام فكتبنا له ألف وخمسمائة).

وفي غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة . وهي آخر الغزوات . بلغ عدد المسلمين ثلاثين ألفاً ومعهم عشرة آلاف فرس، فذلك عدد الجند في أواخر أيام النبي (صلّى الله عليه وآله) ثم تزايد عددهم في أيام أبي بكر وعمر حتى زادوا على مائةٍ وخمسين ألفاً، وتضاعف ذلك العدد في أواخر أيامهم.

وفي أوائل بني أمية بلغ عدد من في البصرة والكوفة من الرجال فقط ١٤٠,٠٠٠ منهم ٨٠ ألفاً في البصرة و٦٠ ألفاً في الكوفة، ومعهم من العيال ٢٠٠,٠٠٠ بين نساء وأولاد، وكان في مصر أربعون ألفاً ما عدا العيال، وكان جند الشام نحو ذلك، غير من في فارس وغيرها.

روى ابن خلدون أن المعتصم نازل عمورية في جند عدده ٩٠٠,٠٠٠ ولا غرابة في ذلك إذا اعتبرنا عدد الحامية في الثغور الدانية والقاصية شرقاً وغرباً، فضلاً عن المصطنعين والموالي والخاصة، فقد أحصيت خاصة المأمون من بني العباس وحدهم فبلغوا (٣٣) ألفاً.

مساكن الجند

كان المسلمون في صدر الإسلام (وهم الجند) إذا فتحوا بلداً جعلوا مساكنهم في بعض ضواحيه، وكانوا لا يقيمون في مكانٍ بينه وبين المدينة بحر أو نهر.

وبعد ذلك بقرنٍ وبعض القرن سنة ٢٥٧هـ تولى مصر أحمد بن طولون وأكثر من الجند والحاشية والآلات فضاقت الفسطاط دونه فأنشأ معسكراً بجوار جبل المقطم وبنى لنفسه فيه قصراً وميداناً وأمر غلمانه وأتباعه أن يبنوا فبنوا حتى اتصل البناء بالفسطاط وصار المكان مدينة سميت القطائع. وفعل مثل ذلك جوهر قائد الفاطميين لما جاء لفتح مصر بعد قرن وبضع سنة ٣٦٥هـ فإنه أنزل جنده بفسح المقطع خارج القطائع والفسطاط، ولما فتح البلاد أنشأ في ذلك المعسكر مدينة القاهرة الباقية إلى الآن.

اللواء أو الراية

اللواء والراية شيء واحد وربما كان اللواء أصغر من الراية، أو أن الراية تسمى لواءً إذا عقدت للحرب وهي الأعلام أو البنود أو البيارق في اصطلاح هذه الأيام.

وفي السيرة الحلبية أن المسلمين في غزوة بدر الكبرى كانت لهم ثلاث رايات إحداها بيضاء دفعها النبي (صلّى الله عليه وآله) إلى مصعب بن عمير والأُخريان سوداوان إحداهما حملها علي بن أبي طالب (عليه السلام) ويقال لها العقاب، والأخرى مع رجل من الأنصار.

ولما جاء الإسلام وانتشر العرب في أنحاء الشام وفارس ومصر وتعددت دولهم وقبائلهم كثرت ضروب الألوية عندهم وتنوعت أشكالها وتعددت ألوانها وأطالوها وسموها بأسماء مختلفة.

عقد أبو مسلم الخراساني عند قيامه بالدعوة العباسية لواء بعث به إليه إبراهيم الإمام يدعى (الظل) على رمح طوله أربعة عشر ذراعاً. وعقد راية كان قد بعث بها إليه اسمها (السحاب) على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعاً إرهاباً للناس.

ألوان الرايات

لا نعرف ما هي ألوان الرايات في الجاهلية سوى راية العقاب فقد تقدم أنها كانت سوداء وكذلك كانت راية النبي (صلّى الله عليه وآله). وذكر صاحب (آثار الأُوَل) أنه كانت له أيضاً ألوية بيضاء، أما الرايات الإسلامية فقد كانت ألوانها تختلف باختلاف الدول فكانت أعلام بني أمية حمراء، وكل من دعا إلى الدولة العلوية فعلمه أبيض، ومن دعا إلى بني العباس فعلمه أسود والسواد شعار العباسيين على الإطلاق اتخذوه حزناً على شهدائهم من بني هاشم ونعياً على بني أمية في قتلهم ولهذا سموا المسوّدة.

عقد اللواء

كان الخلفاء في صدر الإسلام إذا وجّهوا جيشاً إلى حرب عقدوا له الألوية وسلّموها إلى الأمراء لكل أمير راية قبيلته ويدعو لهم بالنصر ويوصيهم بالصبر والتجلّد.

الموسيقى

واتخاذ الموسيقى في الجند قديم والأصل في اتخاذها تشجيع الجند أثناء الحرب أو شغل أذهانهم عن التفكير بالأخطار. وكان المسلمون في صدر الإسلام يتجافون عن اتخاذ الأبواق والطبول تنزّهاً عن غلظة الملك ورفضاً لأحواله.

السلاح

أشهر أسلحة العرب في الجاهلة السيف والرمح والقوس والترس.

وكان لهم بالقوس مهارة عظمى لحدة أبصارهم بسبب سكناهم للبادية ولأنهم أحوج إليها من سائر الأسلحة، فقد كانوا يستخدمونها في صيد الغزلان فضلاً عن الحرب والطعان،

وبلغ من مهارتهم في النزع بالقوس ما يكاد يفوق حد التصديق حتى لو أراد أحدهم أن يرمي إحدى عيني الغزال دون العين الأخرى لرماها.

وكان النبي (صلّى الله عليه وآله) يقول: (اركبوا وارموا أحب إليّ من أن تركبوا)(١)، ومن أقواله (صلّى الله عليه وآله): (كل لهو المؤمن في ثلاث: تأديبه فرسه، ورميه عن كبد قوسه، وملاعبته امرأته فإنه حق، إن الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله المحتسب، والرامي في سبيل الله)(٢)، ومن أقواله (صلّى الله عليه وآله) . وهو قائم على المنبر .: (أعدوا ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي)(٣).

وكان العرب يعدون السيوف أشرف الأسلحة، وكانوا يستجلبونها من الخارج وأشهرها السيوف اليمانية والهندية والسليمانية والشامية والخراسانية وتعرف كلها بالسيوف العتيقة. غير أن هذه السيوف أكثر قطعها في الليّن فإذا صادفت الحديد أو اليابس تقصفت، وكانت أسياف الروم أمتن منها لأنهم كانوا يجيدون صنعها حتى تبري الحديد، ولذلك كان العرب إذا أصابوا سيفاً قاطعاً تناقلوا خبره وأطروه، وقد اشتهر في أوائل الإسلام سيف ذي الفقار لعلي بن أبي طالب (عليه السلام).

وأكثر ما يكون استخدام الرمح على الخيل، ولكنهم لم يكونوا يأمنون له، خوف انكساره.

وكان الترس عند العرب على أصناف كل منها يصلح لشيء، فمنها المسطّح، والمستطيل المحفّر الوسط، والمقبب، فالمقبب منحني الأطراف، ولكل ترس فائدة. وتفنّن المسلمون في اصطناع التروس ونقشوا عليها الآيات والحكم والأشعار.

والدروع كثيرة عند العرب ومنها الحديد والفولاذ والكتان، ويسمون درع الكتان (دلاص) ولم يكن يقتني الدروع من العرب غالباً إلا الفرسان، وهي من صنع الروم أو الفرس على الغالب.

تلك كانت أسلحة العرب في أوائل الإسلام ثم أضافوا إليها شيئاً من أسلحة الأعاجم كالخنجر والطبر والفأس وغيرها، وتفننوا في صنعها تبعاً للزمان والمكان.

آلات الحصار

ولم يكن للعرب آلات للحصار لأنهم لم يكونوا يحاصرون، وإنما كانت منازلهم الخيام طلقة لا يحميها سور ولا خندق، وأول خندق بناه العرب خندق المدينة يوم حرب الأحزاب (سنة ٥هـ) أشار به سلمان الفارسي.

المنجنيق

هي آلة قذّافة استخدمها الفينيقيون قديماً وأخذها عنهم اليونان، وقد رأينا في السيرة الحلبية أن المسلمين استخدموها في حصار الطائف أرشدهم إليها سلمان الفارسي في جملة ما أرشدهم إليه من فنون الحرب الفارسية ويقال أنه صنعه لهم بيده، وذكر صاحب هذه السيرة أيضاً أن المسلمين لما فتحوا الحصن الصعب في خيبر وجدوا فيه مناجيق ودبابات.

فكانوا يستخدمون المنجنيق لهدم الحصون بالحجارة الضخمة، أو لرمي الأعداء بالنبال، أو لإحراق أماكن العدو بالنفط ونحوه فيرسلون به نفطاً مولعاً بالنار يقذفونه بواسطة كفة من الزرد يجعلون بها الأوعية المملوءة بالنفط كالقدور ونحوها أو يرسلونها بمنجنيق رمي الحجارة أو غيرها.

الدبابة

هي آلة سائرة تتخذ من الخشب الثخين المتلزز وتغلّف باللبود أو الجلود المنقّعة في الخل لدفع النار. وهي أقدم من المنجنيق استخدمها المصريون القدماء والآشوريون فاليونان فالرومان والفرس فالمسلمون، وهي عبارة عن قلعة سائرة على العجل يهجمون بها على الأسوار لمحاربة المحاصرين من أعلى السور.

الكبش

هو كالدبابة لكن رأسه في مقدمه مثل رأس الكبش ويتحصّن الرجال في داخله ويستخدمون الكبش لهدم الأسوار.

واستخدم المسلمون الدبابة والكبش في كثير من حروبهم لتسلّق الأسوار وهدمها أو خرقها، وكانوا يجعلون في الجيش عدة دبابات أكثرها صغير الحجم تَسع الواحدة بضعة رجال

تتفرق حول الأسوار، واستخدم الخليفة المعتصم بالله الدبابات في فتح عمورية فعمل منها دبابات تسع كل واحدة عشرة رجال.

النار اليونانية

ومما اقتبسه العرب من الروم النار اليونانية وهي في الأصل من اختراع المشارقة، فقد كان هؤلاء يستخدمون في حروبهم مزيجاً سريع الاشتعال لم يعرفه أهل أوربا إلا في القرن السابع عشر للميلاد.

وفي المكتبة الأهلية بباريس مسودة خطية قديمة عليها صور رجال من العرب بعضهم على الخيول والبعض مشاة وفي أيديهم خرق مشتغلة بالنار اليونانية يرمون بها الأعداء وكانوا يسمون النار اليونانية (النفط القاذف).

اختراع البارود

وهناك اختراع ذو بال يُنسب فضله إلى الإفرنج وهو للعرب، والصحيح أن العرب أسبق الناس إلى استخدام البارود، وفي مكتبة بطر سبورج مسودة عربية فيها صورة رجلين من العرب يشتغلان في الأسلحة النارية أحدهما يحمل ما يشبه البندقية والبارود داخلها وقد أدناها من لهيبٍ أمامه حتى يولع البارود ويقذف القنبلة.

المدافع

هي أنابيب ترسل بها المقذوفات كما ترسل بالمنجنيق، لكنها في هذا ترسل بحركات ميكانيكية كالمقاليع والأوتار ونحوها، وأما في المدافع فإنها تقذف بالبارود.

وأول من أتقن استخدام المدافع في الدول الإسلامية الدولة العثمانية، وبها استعانوا على فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وفي كثير من الفتوح والحروب.

تعبئة الجيوش

إن نظام الجند كان عند الأمم المتمدنة الصفوف والكتائب وأما العرب في جاهليتهم فقد كانوا على غير نظام.

فلما ظهر الإسلام كان في جُملة أوامره ترتيب الناس صفوفاً في الحرب عملاً بالآية: (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)(٤)، وفي الحديث: (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشُدُّ بعضه بعضاً)(٥). وبناءً على ذلك كانت حروب المسلمين في أيام النبي (صلّى الله عليه وآله) صفوفاً وهو ما يعبرون عنه بالزحف، فكانوا يسوّون كما تسوّى الصفوف للصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدماً واحدة.

وكان الجند في أيام النبي (صلّى الله عليه وآله) يترتّب صفاً أو صفين تبعاً للكثرة والقلة، فلما تكاثر المسلمون في أيام الخلفاء صاروا يجعلونه صفوفاً يرتبونها باعتبار أسلحتها والأحوال المحيطة بها، وإليك وصية علي بن أبي طالب (عليه السلام) لجنده يوم واقعة صفين (سنة ٣٧هـ) فإنها تنطوي على خلاصة نظام الجند في الحرب قال:

(فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدّموا الدارع وأخّروا الحاسر وعضّوا على الأضراس فإنه أنبى للسيوف عن الهام، والتووا على أطراف الرماح فإنه أصون للأسِنّة وغضّوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب، وأخفتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل وأولى بالوقار، وأقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر)(٦).

وبعد رسوخ المسلمين في المدينة تفننوا في تعبئة الجيوش بما اقتبسوه من فنون الحرب عند القدماء بعد ترجمة كتبهم أو دراستها، وتعدّدت ضروب التعبئة عندهم حتى صارت سبع تعبئات وإن كانوا لا يستعملونها كلها ولكنهم أدخلوها في فنونهم الحربية.

المعسكر

أما تنظيم المعسكر فلم يكن له علم خاص في أوائل الإسلام بل كان العرب يجرون في نصب خيامهم وترتيبها على ما كانوا في جاهليتهم، فيكون فسطاط الأمير في الوسط وحوله فساطيط الأمراء والخاصة، وإذا كانت النساء والأولاد معهم جعلوهم وراء المعسكر ولما أبطلوا حمل العيال معهم جعلوا يقلّدون الروم والفرس في مضاربهم وتفننوا في ذلك على ما اقتضته

الأحوال، فلما تعدّدت فرق الجند وكثرت الحاشية والمماليك والخدمة صار المعسكر أشبه ببلدٍ فيه الكتّاب والفقهاء والأطباء والكحالون وأصحاب الطبول والأتباع وغيرهم فضلاً عن أصناف الجند.

مناداة الجند

كانوا في أوائل الإسلام إذا تهيّأ الجيش للقتال نادى قوّاده: (النفير النفير) ولما تمدّن المسلمون وتعدّدت أجزاء جندهم وتنوّعت حركاتهم جعلوا لكل حركة نداء خاصاً يدل لفظه على المراد به وهذه أسماؤها: ١ ـ الميل. ٢ ـ الانقلاب. ٣ ـ الانفتال. ٤ ـ تسوية الانفتال. ٥ ـ استدارة صغرى. ٦ ـ استدارة كبرى. ٧ ـ تقاطر. ٨ ـ اقتران. ٩ ـ رجوع إلى الاستقبال. ١٠ ـ استدارة مطلقة. ١١ ـ أضعاف. ١٢ ـ أتباع الميمنة. ١٣ ـ أتباع الميسرة. ١٤ ـ جيش مخوف. ١٥ ـ جيش مستقيم. ١٦ ـ جيش مؤرب. ١٧ ـ أرض. ١٨ ـ تقدم. ١٩ ـ حشو. ٢٠ ـ رادفة. ٢١ ـ ترتيب بعد ترتيب.

شعار الجند

كان للعرب في جاهليتهم ألفاظ يتعارفون بها في أثناء الحرب يسمّونها الشعار، وجعل النبي (صلّى الله عليه وآله) لكل من المهاجرين والأنصار شعاراً فكان شعار المهاجرين (يا بني عبد الرحمن)، وشعار الأوس (يا بني عبيد الله)، وشعار الخزرج (يا بني عبد الله) وسمى خيله (خيل الله) وكان المسلمون بعد ذاك يجعلون لجنودهم شعاراً يتعارفون به على نحو ما تقدم.

الثغور والعواصم

الثغور يراد بها حدود المملكة الإسلامية براً وبحراً، وكان المسلمون يخرجون منها كل سنةٍ للغزو في البحر والبر جهاداً في سبيل الإسلام، وكان الجهاد فرضاً على المسلمين يحرّضهم الخلفاء عليه.

فإن الخلفاء لم يقتصروا على حفظ مملكتهم بل جعلوا غزو الممالك الملاصقة لها فرضاً واجباً عليهم وهو من قبيل الجهاد في سبيل الله كما قدّمنا، وكان من أكثر الخلفاء رغبةً في

ذلك بنو العباس، فإنهم لما استتب لهم الأمر ودانت لهم المملكة الإسلامية تحولوا إلى الغزو فكانوا في أوائل دولتهم يرسلون بعض القواد لغزو الروم كل سنة كما يرسلون من يحج بالناس ثم صاروا يغزون بأنفسهم.

ركوب البحر

لم يركب العرب البحر قبل الإسلام إلا ما كان من سفن حمير وسبأ في أيام التبابعة لأنهم كانوا أهل تجارة في البر والبحر، وأما عرب الحجاز فإنهم كانوا يخافون البحر ولا يجسرون على ركوبه، وذلك شأن البدو إلى هذا اليوم، فلما ظهر الإسلام وخفقت أعلام المسلمين على سواحل الشام ومصر رأوا سفن الروم وشاهدوا حروبهم فيها فتاقت أنفسهم للغزو في البحر، وأول من ركب البحر منهم العلاء بن الحضرمي وكان عاملاً على البحرين.

الأساطيل في الإسلام

ولم يكن للعرب معرفة في الملاحة فاستخدموا أولاً من كان في حوزتهم من الروم وفيهم أهل الصناعة والنواتية فأنشأوا لهم السفن وشحنوها بالرجال والسلاح وملأوها بالعساكر والمقاتلة لغزو ما وراء البحار، وسمّوا مجموع السفن أُسطولاً وهو لفظ يوناني (Stolos) عرّبوه، وجعلوا مقر أساطيلهم بحر الروم خاصة، واشترك في ملاحة البحر منهم أهل الشام وأفريقية والأندلس وأنشأوا دور الصناعة (الترسانة) في تلك البلاد لبناء السفن وإعداد معدّاتها.

الفداء

وأول من افتدى أسرى المسلمين بالمال هارون الرشيد العباسي سنة ١٨٩هـ وكان الفداء قبله يقع بالمبادلة النفر بالنفر. وأشهر الأفدية ١٣ وكلها في أيام بني العباس آخرها جرى في أيام المطيع لله سنة ٣٣٥هـ وبلغ عدد الذين افتداهم الخلفاء في هذه المدة نحو ٥٠ ألف نفس.

الأساطيل المصرية

ولما دخلت مصر في حوزة العبيديين (الفاطميين) ملوك أفريقية بذلوا عنايتهم في إنشاء الأساطيل في الإسكندرية ودمياط ومصر وبلغت الجنود البحرية في أيامهم خمسة آلاف لهم الرواتب المعينة.

وكانوا يحتفلون في إخراج الأسطول إلى الغزو احتفالاً شائقاً يحضره الخليفة فيجلس في منظرة معدّة له على ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة لوداع الأسطول، فيجيء القواد بالمراكب إلى هناك وهي مزّينة بأسلحتها وبنودها وفيها المناجيق فيرمي بها فتخدر المراكب وتقلع وتفعل ما تفعله لو كانت في حرب وهو ما يعبرون عنه اليوم بالمناورة.

فتوح المسلمين البحرية

وكان للأساطيل تأثير كبير في توسعة المملكة الإسلامية لأنهم فتحوا بها أشهر جزر بحر الروم ومنها سردانية (سردينيا) وصقلية (سيسيليا) ومالطة واقريطش (كريد) وقبرص وغيرها، وفتحوا كثيراً من شواطئ هذا البحر مما يلي أوربا وسارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبة وعليها العساكر الإسلامية تجوز البحر من صقلية إلى بر إيطالية في الشمال فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن في ممالكهم، وخصوصاً في أيام بني الحسن ملوك صقلية القائمين فيها بدعوى الفاطميين.

١. الكافي: ج٥، ص,٥٠

٢. المصدر السابق.

٣. كنز العمال: ج٤، ص,٣٤٩

٤. سورة الصف: ,٤

٥. بحار الأنوار: ج٥٤، ص,١٥٠

٦. نهج البلاغة: ج٢، ص٣ مثله.

الموارد المالية

دار الصناعة

يراد بدار الصناعة عندهم ما نعبر عنه اليوم بالترسانة أو الترسخانة وهما منقولتان عن تلك، وكانت تصنع في هذه الدور المراكب على أنواعها ومنها النيلية والحربية، فالنيلية كانوا ينشئونها لتمر في النيل من أعلى الصعيد إلى مصاب النيل تحمل الغلال وغيرها، والحربية هي مراكب الحرب لحمل المقاتلة للجهاد وهي التي يقال لمجموعها الأُسطول.

الصدقة

الصدقة والزكاة لفظان مترادفان، وهي تؤخذ من أغنياء المسلمين وتفرق في فقرائهم وقد ذكرنا أصلها في ما تقدم، وللصدقة ديوان في مركز الخلافة له فروع في سائر الولايات والبلدان، ويستقل ولي الصدقة في كل بلد بالاستيلاء على أموال الصدقة من أغنياء ذلك البلد وتفريقها على فقرائه.

الجهات التي تصرف فيها الزكاة

وأما الجهات التي تصرف فيها أموال الزكاة فقد جاء ذكرها صريحاً في القرآن وهو (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ)(١).

الغنيمة

الغنيمة ما يكسبه المسلمون بالقتال وتشتمل على أربعة أقسام: أسرى وسبي وأرضين وأموال. فالأسرى هم الرجال المقاتلون الذين يقعون في الأسر، ولهم في الشريعة الإسلامية شروط وأحكام.

وأما السبي فهم النساء والأطفال الذين يقعون في أيدي المسلمين فلا يجوز قتلهم وإنما هم من جملة الغنائم ويجوز قبول الفدية عنهم.

أما الأموال المنقولة فهي ما يمكن نقله كالماشية والمال وهي تفرق في المقاتلة، وكانت تفرق في أول الإسلام بلا قاعدة فكان النبي يقسمها على ما يراه.

وأول غنائمهم غنائم بدر في السنة الثانية للهجرة فتنازع المهاجرون والأنصار في اقتسامها ففرقها النبي (صلّى الله عليه وآله) فيهم على السواء وهو كواحد منهم. ثم جاء الأمر بالتخميس في الآية: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)(٢).

وأول غنيمة خمِّست على هذه الصورة غنيمة غزوة بني قينقاع بتلك السنة فقسّمت أموالها إلى خمسة أقسام تفرقت أربعة منها في المقاتلة، والخمس الخامس كان للنبي (صلّى الله عليه وآله).

ويعدُّ من قبيل الأموال أيضاً الأسلاب وهي ثياب القتلى أو أسلحتهم فهذه كانوا يفرقونها بين المقاتلين فيأخذ كل رجل أسلاب الذي قتله.

وأما الأراضي التي كانت تقع في أيديهم عنوة أو صلحاً فلها أحكام خاصة مذكورة في كتب الفقه.

الفيء

هو سائر ما بقي من أموال بيت المال، وفي الشرع: (الفيء كل مال وصل من المشركين عفواً من غير قتال ولا بإيجاف خيل ولا ركاب) وقد بيّن في القرآن أنه لله والرسول.

الجزية

الجزية والخراج متشابهان بأنهما يؤخذان من غير المسلمين وهما من جملة أموال الفيء ويجبيان بأوقات معينة كل سنة، ولكنهما يختلفان بأن الجزية موضوعة على الرؤوس وتسقط بالإسلام وأما الخراج فهو موضوع على الأراضي فلا يسقط.

والجزية ليست من محدثات الإسلام بل هي قديمة من أول عهد التمدن القديم، وقد وضعها يونان أثينا على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد مقابل حمايتهم.

أما مقدار الجزية في الإسلام فقد كان النبي (صلّى الله عليه وآله) يقدّرها بحسب الأحوال وعلى مقتضى التراضي الذي كان يقع بين المسلمين وأعدائهم.

وتقبل الجزية من غير المسلمين أيّاً كانوا إلاّ إذا كانوا من العرب عبدة الأوثان أو من المرتدّين، فهؤلاء لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف. أما النصارى واليهود والمجوس وعبدة الأوثان من العجم فيقبل منهم الإسلام أو الجزية أو السيف، له تفصيل مذكور في الفقه.

الخراج

والخراج ما يوضع من الضرائب على الأرض أو محصولاتها وهو أقدم أنواع الضرائب، والأصل في وضعه أن الناس كانوا يعتبرون الأرض ملكاً للسلطان أو الملك وهذا الاعتقاد قديم جداً.

وعلى هذا المبدأ كان الرومان يضعون الضرائب على أراضي مملكتهم، وفي جملتها مصر والشام وغيرهما مما فتحه المسلمون من بلادهم.

فلما ظهر المسلمون وفتحوا الشام ومصر والعراق وغيرها أقروا الدواوين على ما كانت عليه من قبل ولم يغيّروا فيها شيئاً، وظل كتّاب الدواوين من أهل البلاد أنفسهم من النصارى والمجوس كما كانوا في عهد الدول السابقة.

وينقل مما ذكره المقريزي أن جباية خراجهم كانت بالتعديل وهو ما يعبّرون عنه بالمقاسمة، إذا عمرت القرى وكثر أهلها زيد خراجهم وإن قل أهلها وخربت نقصوه.

أما ملكية الأرض فظلّت كما كانت عليه في أول الإسلام أي أن الأرض ملك للإمام، وأن الناس يستغلّونها وللحكومة حق من غلتهم. هذا في المفتوح عنوة وهي ملك المسلمين أما سائر الأراضي فلأربابها.

ارتفاع الخراج

ويراد به مقدار ما يجتمع من خراج البلاد في كل عام. وهو أمر يعسر تعيينه لاختلافه باختلاف الزمان والمكان.

فالسواد بلغ ارتفاع خراجه في أيام عمر بن الخطاب (سنة ٢٠هـ) ١٢٠ مليون درهم. وفي أيام عبيد الله بن زياد (نحو سنة ٦٢هـ) ١٣٥ مليون درهم. وفي أيام الحجاج بن يوسف (سنة ٨٥هـ) ١٨٨ مليون درهم. وجباه عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠٠هـ) ١٢٠ مليون درهم. وكان ابن هبيرة بعده يجبيه ١٠٠ مليون درهم سوى طعام الجند وأرزاق المقاتلة. ثم كان يوسف بن عمر يحمل منه إلى دار الخلافة ٦٠ مليون درهم إلى ٧٠ مليون درهم وينفق على من معه من جند الشام ١٦٠ مليون وعلى البريد: أربعة ملايين وعلى الطوارق مليوني درهم ويبقى عنده للنفقة على بيوت الأحداث والعواتق عشرة ملايين فكان مجموع جباية السواد على أيامه نحو مائة مليون درهم.

ضرائب أخرى

وكان من موارد الأموال في الدولة الإسلامية غير خراج الأراضي وعشورها والصدقات والجزية أعشار والسفن وأخماس المعادن والمراعي وغلة دار الضرب والمراصد والضياع وأثمان الماء وضرائب الملاحات والآجام وغيرها مما يعد من قبيل الخراج.

ومن الضرائب التي كانت تؤخذ (المكوس)، فلما ظهر الإسلام أقره عمر بن الخطاب وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلادٍ أخرى، ولم يرج المكس في الإسلام لأن أهل الورع كانوا يكرهونه.

الإقطاع

ومما يلحق بالخراج أيضاً مال القطائع، والإقطاع قديم في الدول، وأصله أن الملك إذا فتح بلاداً وأراد استبقاءها واستغلالها فرّقها على قوّاده في مقابل حربهم وأتعابهم كأنها أُجرة لهم، ويؤيد ذلك أن أصل لفظ الإقطاع في الإفرنجية معناه الأجرة، والقواد يفرقون تلك الأرض في ضباطهم وهؤلاء يفرقونها في العساكر أو من يقوم مقامهم.

أما في الإسلام فالإقطاع كان على كيفية أخرى، وينقل مما كتبه أبو يوسف أن الأرض التي تقع في أيدي المسلمين وليس لها مالك يطالب بها، كالأرض التي تكون لحاكم البلاد قبل فتحها أو تكون لرجل قتل في الحرب أو أن تكون من مغيض ماء أو نحو ذلك، فهذه الأصناف من الأرض كان الخلفاء يجيزون إقطاعها لمن شاءوا على أن يؤدي عُشر مالها لبيت المال أو أكثر أو أقل على ما يتراءى للخليفة.

١. سورة التوبة: ,٦٠

٢. سورة الأنفال: ٤١.

البريد ووسائله

يراد بالبريد في الدول الإسلامية غير ما يراد به الآن، فقد كان صاحب البريد أو صاحب الخبر أشبه برئيس البوليس السري أو رقيب أصحاب الأعمال، أو هو عبارة عن جاسوس الخليفة أو الأمير أو عينه الباصرة وأذنه السامعة ينقل إليه أخبار عماله أو مساعي أعدائه، فالبريد من هذا القبيل أشبه بقلم المخابرات في وزارة الحربية.

وكان الخلفاء لا يولّون البريد إلا ثقتهم من أهل التعقل والدراية لأن على ما ينقلونه من الأخبار تتوقف علاقات الخلفاء بعمالهم أو بمعاصريهم، وكان كسرى لا يولي البريد إلا أولاده.

مصلحة البريد

وأول من اتخذها من المسلمين معاوية بن أبي سفيان اقتداءً بمن كان قبله في الشام أو ما أشار عليه به عماله في العراق، وكان الغرض منه في أول وضعه سرعة إيصال الأخبار بين الخليفة في الشام وعماله في مصر والعراق وفارس. ثم توسّعوا فيه حتى جعلوه عيناً للخليفة على عماله وسائر رجال دولته، فأصحاب الأخبار هنا بمعنى جواسيس هذه الأيام، ولم يكن صاحب البريد يُطلع أحداً على أي خبرٍ قبل إنهائه إلى الخليفة ليكون هو الذي يشيعه أو يكتمه على ما يراه، وكان من جملة واجبات صاحب البريد حفظ الطرق وصيانتها من القطّاع والسرّاق وطرق الأعداء وانسلال الجواسيس في البر والبحر، وإليه كانت تُرد كتب أصحاب الثغور وولاة الأطراف وهو يوصلها في أسرع ما يمكن من اختصار الطرق واختيار المراكب.

طرق البريد

وكان للبريد طرق تتشعّب من مركز الخلافة إلى أطراف المملكة حتى تتصل بطرق الممالك الأخرى، وينقسم كل طريق إلى محطات أو مواقف فيها أفراس أو هجن، وبلغ عدد سكك البريد إبان الدولة العباسية ٩٣٠ سكة ونفقات الدواب وأثمانها وأرزاق رجالها ١٥٩١٠٠ دينار في السنة. وفي أيام بني أمية كان ينفق على البريد أربعة ملايين درهم أي نحو ضعفي ذلك. وتختلف سرعة البريد باختلاف الطرق وأنواع المراكب.

ومن طرق المخابرة بالبريد إرسالها مع السعاة. وأول من أنشأ السعاة في الدولة العباسية معز الدولة أنشأهم في بغداد لإعلام أخيه ركن الدولة بالأحوال سريعاً، ونبغ في أيامه ساعيان اسم أحدهما فضل والآخر مرعوش فاقا سائر السعاة، وكان كل واحد منهما يسير في اليوم نيفاً وأربعين فرسخاً أي نحو ١٤٠ ميل.

حَمام الزاجل

ومن وسائل المخابرة بالبريد حمام الزاجل فقد كان له شأن عظيم عندهم والمخابرة به قديمة جداً عند الأمم القديمة، ولكن المسلمين كانوا أكثر عناية فيه من سواهم فإنهم بذلوا في ذلك عناية كبرى ولا سيما في مصر. فقد كان للمخابرة بالحمام أبراج في قلعة القاهرة على عهد الأيوبيين في القرن السابع للهجرة، وقد بلغ عدد الحمام المستخرج لهذه الغاية فيها ألف وتسعمائة طائر لها عمال يناط بهم أمر العناية بها، وكانت الطيور المذكورة لا تبرح الأبراج بالقلعة، وكان بكل مركز حمام في سائر نواحي المملكة بمصر والشام والعراق من أسوان إلى الفرات، فلا يحصى عدد ما كان منها في الثغور والطرقات الشامية والمصرية وجميعها تدرج وتنقل من القلعة إلى سائر الجهات.

طرق أخرى للمخابرة

ومن طرق المراسلة عندهم أن تكتب ورقة تعلّق بقصبة وتغرس القصبة في باقة حشيش وتلقى في الماء فيعوم الحشيش ولا يزال جارياً بمجرى النهر حتى يراه المرسَل إليه، ومنها أن تكتب الأخبار على السهام وترمى إلى المكان المراد إرسال الخبر إليه وغالباً يكون ذلك في أيام الحصاد وانقطاع السبل.

ومن طرق المخابرة بناء المناظر أو المنائر كالأبراج العالية على المرتفعات ونقل الإشارات عليها بإشعال النار أو نحوه فينتقل الخبر بها من منظرة إلى منظرة حتى تبلغ المكان المطلوب.

القضاء

القضاء . ويراد به منصب الفصل بين الناس في الخصومات . قديم، لأن الإنسان لم يستغن عمن يفصل في قضاياه من أول زمان وجوده، وأما في الإسلام فأول من تولى القضاء النبي (صلّى الله عليه وآله) صاحب الشريعة الإسلامية نفسه ثم تولاه خلفاؤه، لأن القضاء من المناصب الداخلية تحت الخلافة، فكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلونه إلى سواهم حتى إذا اتسع سلطانهم وكثرت مهام منصبهم اضطروا إلى استنابة من يقوم عنهم بالقضاء في مركز الخلافة وفي الأعمال.

وكان القضاة في أول الأمر يولون على الأقاليم، على كل إقليم قاض، فلما عمرت المملكة واتسعت تعدد القضاة حتى صاروا يولون في المدن الكبرى عدة قضاة، كل قاض في جانب من جوانبها والخليفة هو الذي يولي كلاً منهم بنفسه إلى زمن الرشيد وقد اتسعت بغداد في أيامه، ونبغ يومئذ القاضي أبو يوسف الشهير وكان الرشيد يكرمه ويجلّه فدعاه (قاضي القضاة) وهو أول من دعي بذلك.

عمل القاضي

وكانت وظيفة القاضي في صدر الإسلام محصورة في الفصل بين الخصوم ثم أُضيف إلى أعمال القاضي استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين كالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء، ثم امتدت سلطتهم إلى النظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصفح الشهود والأمناء والنوّاب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح.

وكان القضاة يجلسون في المساجد للحكم بين الناس، فإذا جاءهم الخصوم حكموا بينهم هناك، وكانوا يعدون القضاء من الأعمال الشاقة الخطرة بالنظر إلى الدين لما فيه من

تحمل التبعة فيما قد يخطئ به القاضي فيحكم على صاحب الحق فيظلمه وهو مسؤول عنه، فكثيراً ما كان العلماء ورجال التقوى يأبون ولايته.

الفصل الثاني

ديوان المظالم والإنشاد

وهو من توابع القضاء ويشبه ما نسمّيه اليوم (مجلس الاستئناف) بعض الشبه، والغرض منه استماع ظلامات الناس من القضاة أو غيرهم. وكان العرب في جاهليتهم يلتفتون إلى هذا الأمر فيتحالفون على ردّ المظالم كما فعلت قريش قبيل الإسلام.

ولم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الأربعة لأن الناس في الصدر الأول كانوا بين من يقوده التناصف إلى الحق أو يزجره الوعظ عن الظلم، إلا علياً (عليه السلام) فإنه احتاج إلى النظر في المظالم ولم تكن في الحقيقة كما صارت إليه بعدئذ. على أنه لم يفرد لسماع الظلامات يوماً معيناً أو ساعة معينة وإنما كان إذا جاءه متظلم أنصفه، ثم أفردوا يوماً خاصاً للنظر في أقوال المتظلمين وتصفح قصصهم، وكانوا يسمعون ظلامات الناس وينصفونهم وفيهم من يتظلم من الولاة أو من العمال أو من جباة الأموال أو من كتاب الدواوين في تقصيرهم بشيء من رواتبهم أو من أحد أبناء الخلفاء أو الأمراء أو نحوهم من أهل الوجاهة ممن يغتصبون الأموال أو الضياع، أو من القضاة لأنهم لم ينصفوهم في أحكامهم أو من أي إنسان كبيراً كان أو صغيراً، فهو أوسع دائرة من مجلس الاستئناف وأطول باعاً وأشد وقعاً وأسرع نفوذاً.

دار العدل

ولما أفضت الحكومة في مصر إلى السلاطين الأيوبيين بنوا داراً للنظر في المظالم سموها (دار العدل) وكان قد سبقهم إلى بناء مثل هذه الدار في دمشق الملك العادل نور الدين زنكي. وكان الأيوبيون يجلسون في دار العدل للنظر في المظالم، وجرى سلاطين المماليك بعدهم على ذلك، وكانت لهم عناية كبرى في إنصاف الناس وكانوا يحترمون مجلسهم للمظالم

فلا يقعدون فيه على تخت الملك. وكان لسلاطين المسلمين وأمرائهم عناية كبرى في النظر في مظالم الرعية، وكانوا يبذلون الجهد في رفعها، ولو كان التظلم منهم أو من أولادهم، وأمثلة هذه الحوادث كثيرة في تاريخ الإسلام، فتعوّد الناس أن يرفعوا شكواهم إلى خلفائهم وسلاطينهم في أيام معينة وصاروا يحسبون ذلك فرضاً واجباً.

الحسبة

هي منصب ديني من قبيل القضاء، وصاحب الحسبة (المحتسب) يبحث عن المنكرات ويعزّر ويؤدّب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدن مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين ومنع أهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب إذا بالغوا في ضربهم للتلامذة، وله النظر في الغش والتدليس في المعايش وغيرها وفي المكاييل والموازيين مما يُعد من واجبات مصلحة البلدية في هذه الأيام، والأصل في الأمور التي ذكرناها أن تكون من واجبات القاضي لكنهم جعلوها عملاً مستقلاً تنزيهاً للقاضي عن استقصاء هذه الأمور بنفسه، على أنها كثيراً ما كانت تجعل في جملة أعمال القضاة في عهد الفاطميين بمصر والأمويين في الأندلس.

الشرطة

والشرطة في الأصل من توابع القضاء لأن المراد بها تنفيذ أحكام القضاة أو فرض العقوبات الزاجرة للجرائم وإقامة التعزير والتأديب في حق من لم ينتهِ عن الجريمة، فكانت الشرطة خادمة للقضاء تساعد القاضي في إثبات الذنب على مرتكبه وتساعد الحكومة على تنفيذ الحكم، ويتولى صاحبها أيضاً إقامة الحدود على الزنا وشرب المسكر وكثير من الأمور الشرعية التي يجلون مقام القاضي عنها.

ثم صار النظر في الجرائم وإقامة الحدود في الدولة العباسية والأموية في الأندلس والفاطمية بمصر راجعاً إلى صاحب الشرطة وأفردوها من نظر القاضي.

ديوان الإنشاء

الكتابة

لم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون الكتابة إلا نفراً قليلين، ولما ظهر الإسلام لم يكن يكتب بالعربية إلا بضعة عشر إنساناً كلهم من الصحابة، فكتبوا للنبي (صلّى الله عليه وآله) سور القرآن والكتب التي خاطب بها الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكان بعضهم يكتب له في حوائجه والبعض الآخر يكتبون بين الناس في المدينة والبعض الآخر يكتبون بين القوم في مياههم وقبائلهم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء.

ولما انتقلت الخلافة إلى بني أمية وتعدّدت مصالح الدولة تعدّد الكتّاب فصارت الكتابة خمسة أصناف، كاتب الرسائل لمخاطبة العمال والأمراء والملوك وغيرهم، وكاتب الخراج يدوّن حساب الخراج داخله وخارجه. وكاتب الجند يقيّد أسماء الأجناد وصفاتهم وطبقاتهم وأعطياتهم ونفقات الأسلحة وغير ذلك، وكاتب الشرطة يكتب التقارير عما يقع من أحوال العقود والديات وغيرهما، وكاتب قاض يكتب الشروط والأحكام.

وأهم أصناف الكتّاب كاتب الرسائل وهو أقدمها وقد يسمى كاتب السر وهو يد الخليفة وكاتبه ومستودع أسراره.

التوقيع

يريدون بالتوقيع في دوائر الحكومة اليوم (الإمضاء) أما في أيام الخلفاء فكان يراد به ما يعلقه الخليفة على القصص أو الرقاع (العرضحالات) المعروضة عليه لطلب أو شكوى أو نحو ذلك فيكتب عليها بما يجب إجراؤه أو ما يفيد الجواب على فحواها بما يشبه التأشير أو التعليم في دوائر حكوماتنا.

وكان الخلفاء في صدر الإسلام هم الذين يوقعون في القصص والرقاع بأنفسهم أو يأمرون كتّابهم بتدوينها، والغالب في توقيعهم أن يكون اقتباساً من آية أو حديثٍ أو حكمة مشهورة أو شعر حكمي.

وكان لهم ولع غريب في اختصار الكتابة في المراسلات اختصاراً يصح أن يتخذ مثالاً للبلاغة.

مكاتبة الخلفاء

وكان من القواعد المرعية في مكاتبة الخلفاء أن يبدأوا بأسمائهم قبل اسم مخاطبهم ويكلّفوا مكاتبيهم أن يراعوا ذلك.

ومن تفنّنهم في المكاتبات الإشارة بحرف واحد إلى مقالة طويلة كما وقع للسلطان محمود الغزنوي بن سبكتكين بعد أن استقل بالسلطنة.

أدوات الكتابة

ومنها القلم الذي كانوا يصنعونه من القصب نحو ما نفعل اليوم، وأما الحبر وهو المداد فالظاهر أنهم كانوا يصنعونه من مسحوق الفحم أو من الهباب مدوفاً بسائل لزج كالصمغ أو نحوه.

وأما القرطاس فأقدم ما كتب فيه العرب من أول الإسلام الرق وهي الجلود، وكتبوا أيضاً على الأقمشة وأشهرها نسيج مصري كانوا يسمونه القباطي وعليه كتبت المعلقات السبع قبل الإسلام، وإذا تعذّر ذلك كتبوا على الخشب أو العظام أو على قطع الخزف أو على الأحجار أو نحو ذلك. فلما كانت أيام الدولة العباسية اتخذوا الورق (الكاغد) وقد أشار به الفضل بن يحيى البرمكي فاصطنعوه، وأنشأوا له المعامل في بغداد والشام وغيرهما من عواصم الإسلام، وكانوا هم أول من نشر صناعة الورق في العالم.

الحجابة

يراد بالحاجب في دول الإسلام ما يراد موظف التشريفات في هذه الأيام، وهو الذي يتولى طلب الاستئذان للناس في الدخول على الملك أو السلطان أو الأمير ولابد منه في الدولة حفظاً لهيبة الملك، وكلّما أغرقت الدولة في المدنية واستغرقت في الترف تكاثف الحجّاب بين مَلِكها ورعاياه، فكان الخلفاء الأربعة يفتحون أبواب مجالسهم لأيٍ كان ويخاطبون الفقير والغني والصعلوك والقوي بلا حجاب ولا كلفةٍ.

فلما تحوّلت الخلافة إلى الملك كان في جملة ما أدخلوه على الدولة التدقيق في الحجاب وترتيب الناس في الدخول على الخلفاء بحسب طبقاتهم وأنسابهم.

فلما جاءت دولة بني العباس وصارت إلى ما هو معروف من العزّ والترف زادوا في منع الناس عن ملاقاة الخليفة إلا في الأمور الهامة وهذا ما يسمّيه ابن خلدون بالحجاب الثاني، وصار بين الناس والخليفة داران دار الخاصة ودار العامة يقابل كل فئة في مكان على ما يراه الحجاب، وتطرقوا عند انحطاط الدولة إلى حجاب ثالث أحصن من الأولين.

النقابة

النقابة ونعني نقابة الأشراف سموها بذلك إشارة إلى أنها تتعلّق بأشراف المسلمين وهم أهل بيت النبي (صلّى الله عليه وآله)، وذلك أن عائلة النبي (صلّى الله عليه وآله) كانت في أوائل الإسلام محفوظة الحرمة لقرب عهدهم من النبوة فكانوا يجعلون على أهل بيت النبي (صلّى الله عليه وآله) رئيساً منهم يتولّى أمورهم ويضبط أنسابهم ويدوّن مواليدهم ووفياتهم وينزههم عن المكاسب الدنيئة ويمنعهم من ارتكاب المآثم ويطالب بحقوقهم ويدعوهم إلى أداء الحقوق وينوب عنهم في المطالبة بحقوقهم في سهم ذوي القربى من الفيء والغنيمة ويقسمه بينهم ويمنع أياماهم أن يتزوجن إلا من الأكفّاء وغير ذلك مما يشبه الوصاية العامة، وكان نقيب الأشراف وصيهم.

وكانت نقابة الأشراف من المناصب السامية ولها الشأن الأول من الشرف بعد الخلافة.

وكان الخلفاء يكتبون لنقباء الأشراف عهوداً وتقاليد تدلّ على جلالة قدرهم ورفعة منزلتهم، وكانوا كثيراً ما يعهدون إليهم بسقاية الحج وديوان المظالم من الخطط السامية، فنقيب الأشراف فيها يقدم في التشريفات الرسمية على سائر رجال الدولة العلية حتى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام.

مشيخة الطرق الصوفية

مشيخة الطرق الصوفية من المناصب الدينية التي حدثت بعد حدوث الصوفية ولصاحبها التكلم نيابة عن جميع الطرق الصوفية، والشأن في هذه الطرق أن لكل طريقة

شيخاً ولكل شيخ خلفاء في القرى والأمصار ولكل خليفة مريدين، فالشيخ يدير أمر الخلفاء والخليفة يدير أمر المريدين من حيث إرشادهم ومراقبتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتربيتهم ونحو ذلك.

ثروة الدولة الإسلامية

إذا كان المراد بثروة الدولة ما يزيد من دخلها على نفقاتها أو ما تختزنه بعد نفقاتها من الأموال ونحوها فالدولة الإسلامية في عصر النبي (صلّى الله عليه وآله) لم يكن عندها ثروة حقيقية لأنهم لم يكونوا يختزنون مالاً ولا كان عندهم بيت مال بل كانوا إذا أصابوا غنيمة فرّقوها فيما بينهم، وكذلك الصدقات فإنها كانت تفرّق في أهلها وإذا ظل منها شيء استبقوه لحين الحاجة إليه، وكان النبي (صلّى الله عليه وآله) يتولّى ذلك بنفسه وأكثر الصدقات من الماشية والإبل والخيل فكان يسِمُها بميسم خاص بها تمتاز به عن سواها.

بيت المال

توفي النبي (صلّى الله عليه وآله) والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ولم يكن عندهم بيت مال للأسباب التي قدّمناها ولم يكونوا يتطلبون المال إلا لقضاء الحاجات وكان أكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيل ونحو ذلك من أموال الصدقة والغنيمة وكانت النقود قليلة بين أيديهم، فلما فتحوا الشام وفارس ومصر ورَدَت عليهم الأموال ذهباً وفضة فأدهشتهم كثرتها وتنبّهوا لها.

يقال أن أبا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمالٍ فقال له عمر: (بما جئت؟) قال: (بخمسمائة ألف درهم) فاستكثره عمر وقال: (أتدري ما تقول؟) قال: (نعم مائة ألف خمس مرات) فصعد عمر المنبر وقال: (أيها الناس قد جاءنا مال كثير فإن شئتم كِلنا لكم كيلاً وإن شئتم عددنا لكم عدّاً) وكان ذلك من جملة ما دعاه إلى وضع الديوان وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين باعتبار السابقة والقرابة من النبي (صلّى الله عليه وآله) ولكنه نهى عن اختزان المال.

وقد باشر الناس في أيام عثمان بن عفان (سنة ٢٣ . ٣٥هـ) جمع الأموال لأنه لم يكن شديداً وكان مع ذلك أموياً فاعتز الأمويون به وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التي كانت لهم في الجاهلية وكان بنو هاشم قد سلبوهم إياها بعد الإسلام لأن النبي (صلّى الله عليه وآله) منهم، فأخذ عثمان يولي الأعمال رجالاً من أقربائه وفيهم من لم يعتنق الإسلام إلا يأساً من فوزه على المسلمين، وكثرت في أيامه الفتوح وفاضت الغنائم فكان يُخص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة، كما فعل بغنائم أفريقية سنة (٢٧هـ) فإن المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) فبلغت غنائمهم منها ٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار أعطى خمسها إلى مروان بن الحكم وزوّجه ابنته وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال، وأبطل عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله فازدادوا طمعاً في حشد الأموال لأنفسهم وخصوصاً معاوية بن أبي سفيان عامله على الشام وهو أكثر دهاءً وأبعدهم مطمعاً.

واقتدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة فاقتنوا الضياع والعقار وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد ويعلى وغيرهم وزادت أموالهم وظهر الغنى فيهم حتى عثمان نفسه فإنه اقتنى الضياع الكثيرة واختزن الأموال فوجدوا عند خازنه بعد موته ١٥٠,٠٠٠ دينار و١,٠٠٠,٠٠٠ درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما ١٠٠,٠٠٠ دينار وخلف خيلاً وإبلاً والظاهر أن عثمان اندفع إلى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال وإغراء أهله على ذلك وخصوصاً معاوية . ثم صار امتلاك العقار مألوفاً شائعاً. فلما قتل عثمان سنة ٣٥هـ وقامت الفتنة في الخلافة وأرادها معاوية لنفسه فقد رأى بين دعاتها من هم أحق بها منه نسباً وسابقة فاحتال إليها بالمال فازدادت رغبته في الاستكثار منه لبذله في إنشاء الأحزاب.

ولا غرو فإن المال قوة تتحول إلى ما يراد من القوى وهو منذ القدم مرجع المشروعات العظمى ولا يزال حتى اليوم المحور الذي تدور عليه سياسة العالم المتمدن، فما من حرب أو سلم، محالفة أو معاهدة، وما من فتح أو حصار إلا والمحرك عليه أو الداعي (المال).

وكذلك فعل معاوية فاستخدم بالمال جماعة من دهاة العرب نصروه بالدهاء والسيف حتى أفضت الخلافة إليه بعد واقعة صفين ولكنها لم تصْفُ له إلا بعد مقتل علي (عليه السلام) سنة (٤٠هـ) وتنازل الحسن (عليه السلام) له عنها والناس مع ذلك يعلمون أن

معاوية إنما فاز ببذل المال حتى قال زين العابدين (عليه السلام) حفيد الإمام علي (عليه السلام): (إن علياً كان يقاتله معاوية بذهبه).

وسار بنو أمية على خطوات معاوية في ذلك فجعلوا المال أكبر نصير لهم على دعاة الخلافة من بني هاشم وعلى الخوارج وغيرهم فجرّهم ذلك على الاستكثار منه بأي وسيلة كانت.

والسلطة تحولت في دولة بني أمية من الخلافة الدينية إلى الملك السياسي. وتمتاز عن الدولة العباسية بأنها عربية بحتة شديدة التعصّب للعرب كثيرة الاحتقار لسواهم، ولذلك فإن أهل الذمّة وغيرهم من سكان البلاد الأصليين قاسوا من خلفاء بني أمية ومن عمالهم الأمور الصعاب حتى الذين أسلموا منهم فإن العرب كانوا يعاملونهم معاملة العبيد وكانوا يسمّونهم (الموالي) ويعدّون أنفسهم ذوي إحسان عليهم لأنهم أنقذوهم من الكفر وإذا صلوا خلفهم في المسجد حسبوا ذلك تواضعاً لله، وكان بعض العرب إذا مرّت به جنازة مسلمة قال: (من هذا؟) فإذا قالوا: (قرشي) قال: (واقوماه) وإذا قالوا: (عربي) قال: (وابلدتاه) وإذا قالوا: (مولى)، قال: (هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء). وكانوا يحرمون الموالي من الكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب، ولا يمشون في الصف معهم، وكانوا يسمونهم العلوج.

وفي كتاب (الموالي) للجاحظ أن الحجاج لما قبض على الموالي الذين حاربوا مع ابن الأشعث أراد أن يفرقهم حتى لا يجتمعوا فنقش على يد كل واحد منهم اسم البلدة التي وجّهه إليها. وكان من جملة نتائج تعصّب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الأمم أنهم اعتبروا أهل البلاد التي فتحوها وما يملكون رزقاً حلالاً لهم، يدل على ذلك قول سعيد بن العاص عامل العراق: (ما السواد إلا بستان قريش ما شئنا أخذنا منه وما شئنا تركنا). وقول عمرو بن العاص لصاحب اخنا لما سأله عن مقدار ما عليهم من الجزية فقال عمرو: (إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثّرنا عليكم وإن خُفف عنا خففنا عنكم). فاتخذوا ذلك ونحوه ذريعة للاستيلاء على ما شاءوا من أموال الناس وقد جرّأهم على ذلك معاوية إذ جعل بعض الأعمال طعمة لبعض عماله والبعض الآخر ضمّنه بمال زهيد.

أجور العمال

وكان عمال بني أمية يجورون على أصحاب الأرضين من أهل الذمة في التحصيل ونحوه لا يهمهم بقي لهم من المحصول شيء أم لا. وكان الخراج يومئذ على المساحة فيؤخذ على الأرض مال معين زرعت أم لم تزرع. وكان من شروط الخراج أن يستبقى لأصحاب الأرضين ما يجبرون به من النوائب والجوارح.

ومما يحكى أن الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في أخذ تلك البقية منهم فأجابه: (لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وابق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً).

والظاهر أن الضغط على أهل القرى وأصحاب الأرضين حمل بعضهم على الإسلام احتماءً به فأصبحوا من الموالي فلم يمنع ذلك تحصيل الخراج والجزية منهم فألزمهم الحجاج الخراج مع أنهم تنازلوا عن مغارسهم لأهلهم وغادروا القرى وسكنوا الأمصار فراراً من تلك الضرائب، فأمر الحجاج بردّهم وطالبهم بالخراج. وكتب الحجاج إلى الأمصار: (إن من كان له أصل في قرية فليرجع إليها لتؤخذ منه الجزية والخراج) فعل ذلك في أيام ابن الأشعث فخرج الناس وهم يبكون وينادون: (يا محمداه يا محمداه) ولا يدرون إلى أين يذهبون فاضطروا إلى الانضمام للأشعث على الحجاج.

ولم تكن تلك المعاملة خاصة بالحجاج من عمالهم فقد فعل مثله أيضاً يزيد ابن أبي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك على أفريقية، وكذلك فعل الجراح في خراسان وغيره في ما وراء النهر، وكان أهل سمرقند قد أسلموا على أن تُرفع الجزية عنهم فظلوا يأخذونها منهم فعادوا إلى دينهم.

أما النصارى وغيرهم من أهل الذمة الذين ظلوا على دينهم فيكفي في تمثيل حالهم اعتبار ما تقدم من معاملة الذين أسلموا منهم، فكانوا يسومونهم العذاب في تحصيل الجزية، ورأى هؤلاء أن اعتناق الإسلام لا ينجيهم من ذلك فعمد بعضهم إلى التلبّس بثوب الرهبنة لأن الرهبان لا جزية عليهم، فأدرك العمال غرضهم من ذلك فوضعوا الجزية على الرهبان، وأول من فعل ذلك منهم عبد العزيز بن مروان عامل مصر فأمر بإحصاء الرهبان وفرض على كل راهب ديناراً وهي أول جزية أخذت من الرهبان. وأمثال هذه الحوادث كثيرة في تاريخ بني أمية.

ومن أمثلة ما اقترفه بنو أمية من زيادة الخراج والجزية أن أهل الجزيرة بالعراق كانت جزيتهم ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلاً في العام فلما تولى عبد الملك بن مروان استقل ذلك فبعث إلى عامله فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدامه وكسوته وطرح أيام الأعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير فألزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة.

ولم تكن ضرائبهم مقتصرة على أهل الذمة والموالي ولكنها شملت العرب المسلمين أنفسهم وذلك أن محمداً أخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة وظلم الرعية وأخذ أراضي الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجاً سماه (الوظيفة).

وكان من أساليبهم في الاستكثار من الأموال ضرب الضرائب على الأرض الخراب.

وكانوا يفرضون على الأهالي هدية في عيد النيروز بلغت في أيام معاوية ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وفرضوا مالاً على من يتزوج وعلى من يكتب عرضاً. وكانت مشاطرة عمر عماله حجة اتخذها معاوية بعد ذلك في مشاطرة العمال فلم يكن يموت له عامل إلا شاطر ورثته وهو يقول إنها سنّة سنّها عمر ثم تدرّج إلى استصفاء أموال الرعية وهو أول من فعل ذلك.

وفي كلام القاضي أبي يوسف في عرض وصيته للرشيد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها قال: (بلغني.. ثم إنهم يأخذون ذلك كله فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدي.. ويقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلّقون عليهم الجرار ويقيّدونهم بما يمنعهم من الصلاة.. وهذا عظيم عند الله شنيع في الإسلام). وكان بنو أمية قد انغمسوا في الترف واللهو والخمر وأصبحوا لا ينظرون إلى ما يؤيد سلطانهم ولا يبالون في انتقاء عمالهم وربما ولّوا العامل عملاً بإشارة جارية أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجنيد بن عبد الرحمن. وكان الجنيد قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر فأعجبت هشاماً فأهدى هشاماً قلادة أخرى فولاه هشام على خراسان سنة ١١١هـ وبلغ ثمن الجارية في أيام بني أمية ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم وهي الزلفاء وأصبح العمال لا همّ لهم إلا حشد الأموال والاستكثار من الصنائع والموالي. وكان العمال

يبذلون جهدهم في اختزان الأموال لأنفسهم لعلمهم أن الولاية غير ثابتة لهم، فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم فبلغت غلة خالد القسري أمير العراق في أيام هشام ١٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم أي نحو مليون دينار.

واختلفت جباية العراق والشام ومصر باختلاف السنين والعمال وقد فصّلنا ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب وخلاصته أن متوسط جباية العراق في أيامهم نحو ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وجباية مصر ٣,٠٠٠,٠٠٠ دينار (أو ٣٦,٠٠٠,٠٠٠)، وجباية الشام ١,٧٠٠,٠٠٠ دينار أو (٢٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم يضاف إليه أموال البلاد الأخرى مما لا نعرف مقداره.

وخلاصة ما تقدم أن الأموال كانت تستخرج في أيام بني أمية بكثرة ولكنها لا تسمى ثروة لأنها كانت تصرف في الحروب ولتأييد شوكتهم.

حدود الدولة العباسية وثروتها ونفقاتها

للدولة العباسية عصران يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً عظيماً:

العصر الأول: وفيه بلغت الدولة العباسية قمة مجدها وأنشأت التمدن الذي نحن في صدره وفيه أدركت ثروة الدولة الإسلامية أعظم ما بلغت إليه في عصر من العصور وعليها مدار الكلام في هذا الكتاب.

والعصر الثاني: ويعبّرون عنه بعصر التقهقر أو الانحطاط يبتدئ بخلافة المعتصم سنة ٢١٨هـ وينقضي بانقضاء الدولة العباسية من بغداد.

العصر العباسي الأول من سنة ١٣٢ إلى سنة ٢١٨هـ

سبب قيام هذه الدولة

رأيت فيما تقدم أن العصر الأموي يمتاز بتعصّب أهله للعرب واحتقارهم سائر الأمم وخصوصاً الشعوب التي كانت تحت سلطانهم في البلاد التي دانت لهم في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان وغيرها وفيهم القبط والنبط والروم والسريان والكلدان والفرس والترك والسودان وغيرهم حتى الذين أسلموا منهم، فأصبحت تلك الأمم تئن من معاملتهم وزادها نفوراً ما كانوا يتخذونه من العنف في تحصيل الخراج وأصبحوا يودون الخروج من حوزتهم وينصرون كل من دعا إلى خلعهم وخصوصاً الموالي فإنهم باعتناقهم الإسلام خسروا أراضيهم ومنازلهم، وأصبحوا مطالبين بالذهاب إلى الحرب لحماية الدولة، فكان بنو أمية يخرجونهم إلى القتال مشاة بلا رزق ولا فيء، فقام الدعاة ضدهم وأكثرهم من أهل بيت النبي (صلّى الله عليه وآله) وفيهم العلويون من نسل الإمام علي (عليه السلام) ابن عم النبي (صلّى الله عليه وآله) والعباسيون من نسل العباس عمه، وكان الخراسانيون من أكثر الناس نقمة على بني أمية

للأسباب التي قدمناها، فأخذوا بيد العباسيين وقائدهم أبو مسلم الخراساني، ولما نهضوا نهض معهم كل المسلمين غير العرب في كل أنحاء المملكة الإسلامية فضلاً عن أهل البلاد غير المسلمين، فدارت الدائرة على بني أمية وتأيّد العباسيون فجعلوا عاصمتهم في العراق بالقرب من نصرائهم. وعرف العباسيون علّة سقوط بني أمية فتجنّبوا الوقوع في مثلها، فاتخذوا الجند والأعوان من الفرس واستبقوا الجند العربي أيضاً من ربيعة ومضر رغبة في المحافظة على العصبية العربية لأنها عماد الإسلام، ولم يكونوا يستطيعون التوفيق بين العنصرين لأنهم سيقوا بطبيعة الأمور إلى الاختلاط بالفرس والتزيي بألبستهم من القلانس ونحوها جعلوا ذلك فرضاً واجباً عليهم، وأول من أخذ الناس بلبسه المنصور سنة ١٥٣ فأمرهم بلبس القلانس الطوال المفرطة الطول فقال أبو دلامه:

وكنا نرجو من إمام زيادة***فزاد الإمام المصطفى في القلانس

نراها على هام الرجال كأنها***دنان يهودٍ جللت بالبرانس

على أن غضب العرب لم يغير شيئاً من مجاري الأمور فاتخذ الخلفاء أمهات أولاد من الفرس أولدوهن أولاداً تولوا الخلافة وفيهم ميل فطري إلى العنصر الفارسي، وازداد هذا العنصر تغلّباً في بلاط الخلفاء بما اتخذوه من الوزراء ورجال الشورى منهم كالبرامكة وغيرهم، وكان الفرس يبذلون جهدهم في خدمة الدولة العباسية بنصح وصدق نية لأن في قيامها صلاح بلادهم لكن هؤلاء أيضاً انحرفوا عن الإسلام حتى أن المنصور أراد أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها في العراق وتكون حجاً للناس فبنى بناءً سمّاه القبة الخضراء تصغيراً للكعبة وقطع الميرة في البحر عن المدينة فاتخذ العرب ذلك حجة على العباسيين وأظهروا البيعة لمحمد بن عبد الله من آل علي (عليه السلام) وخلعوا بيعة المنصور وقد أفتى لهم بذلك مالك بن أنس الإمام الشهير، وكان بنو أمية في الأندلس قد قطعوا دعوة بني العبّاس بعد أن دعوا لهم مدة قصيرة عند دخول عبد الرحمن بن معاوية. واستقل عبد الرحمن بالأندلس لبعدها عن دار الخلافة. ثم استولى محمد بن عبد الله على المدينة فخافه المنصور وبذل قصارى همه في قتله ولم يستطع ذلك إلا بعد العناء الشديد.

فكان مما قاساه المنصور من عواقب إهماله الحرمين عبرة لخلفائه فلما تولى ابنه المهدي أكرم أهل الحرمين وكسا الكعبة كسوة جديدة وفرق هناك مالاً عظيماً جاء به معه من العراق

مقداره ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وجاءه وهو في المدينة ٣٠٠,٠٠٠ دينار من مصر و ٢٠٠,٠٠٠ دينار من اليمن ففرقها كلها وفرق ١٥٠,٠٠٠ ثوب ووسع المسجد واتخذ حرساً من الأنصار عددهم ٥٠٠ رجل حملهم معه إلى بغداد وأقطعهم الأرضين وأمر بحفر نهر الصلة بواسط وأحيا ما عليه من الأرضين وجعل غلته لصلات أهل الحرمين والنفقات هناك وأصبح إكرام الحرمين على هذه الصورة سُنّة في بني العباس في أثناء حجهم أو عند طلب البيعة لأولادهم فإن الرشيد حج سنة ١٨٦هـ ومعه أبناؤه الأمين والمأمون فلما وصل المدينة أعطى فيها ثلاثة أعطية عنه وعن ولديه. وفعل نحو ذلك في أهل مكة وبلغ ما فرّقه ١,٠٠٥,٠٠٠ دينار، وكتب هناك كتاباً بولاية العهد للأمين وآخر للمأمون ووضع الكتابين في الكعبة وأصبحت النفقة على الحرمين من جملة نفقات الدولة الضرورية.

وعاد شأن العرب إلى الظهور والخلفاء يرون ذلك ضرورياً لتثبيت أقدامهم في الملك، ولما تولى المعتصم سنة ٢١٨هـ واصطنع الأتراك والفراعنة ازداد العرب احتقاراً في عيون أهل الدولة وتقاصرت أيديهم عن أعمالها حتى في مصر فإن آخر عربي تولاها عنبسة بن إسحاق الضبي سنة ٢٣٨هـ وأراد المعتصم أن يستغني عن بلاد العرب جميعاً وكان قد بنى سامراء بقرب بغداد وأقام فيها جنده فأنشأ فيها كعبة وجعل حولها طوافاً واتخذ منى وعرفات، غرّ به أُمراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية أن يفارقوه فأصبح لفظ (عربي) مرادفاً لأحقر الأوصاف عندهم. ومن أقوالهم: (العربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه) وقولهم: (لا يفلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي ينصره الله به) وأصبح الأمراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالأجناد وبذل المال وقلّت العناية بالعرب وأحزابهم.

وفي عصر العباسيين استبدلوا العصبية العربية بالأعاجم واحتاجوا في اصطناعهم أو استخدامهم إلى المال وانخرطوا هم في سلكهم بواسطة الأمهات. ثم أصبح الأعاجم من الفرس والترك والديلم والصغد والفراعنة وغيرهم يتسابقون إلى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال كما سترى.

ثروة الدولة العباسية

في العصر العباسي الأول

الثروة الإسلامية لم تنضج إلا في هذا العصر وعليه سيكون مدار كلامنا. وتقاس ثروة الدولة المالية بما يبقى في بيت مالها من دخلها بعد النفقات.

الثروة في أوائل الدولة

فالخليفة الأول أبو العباس السفاح لم يحكم إلا أربع سنوات (من سنة ١٣٢ ـ ١٣٦هـ) قضاها في الحروب ولم يجمع مالاً، ولما مات لم يجدوا في بيته إلا تسع جباب وأربعة أقمصة وخمسة سراويل وأربعة طيالسة وثلاثة مطارف خز، وأما المنصور فإنه حكم ٢٢ سنة (١٣٦ ـ ١٥٨هـ) وكان رجلاً شديد الحرص على المال واختزانه، فلما مات خلّف في بيت ماله ٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم و ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار وبتحويل هذه الدنانير إلى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهي قيمته في ذلك العصر تقريباً كان مجموع ما خلّفه المنصور ٨١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم.

وقد كان يصرف المال في مصالح نفسه وأهله فإنه بذل لجماعة منهم في يوم واحد ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وثروة المنصور قد تعَدُّ قليلة بالنظر إلى ثروة الرشيد فقد خلّف في بيت المال عند وفاته (سنة ١٩٣هـ) ٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم ونيفاً ومدة حكمه نحو مدة حكم المنصور غير ما أنفقه الرشيد وما بذله وأسرف فيه.

وجاء الهادي ولم يحكم إلا سنة وبعض السنة ويروى من فرط سخائه أنه أعطى عبد الله بن مالك أربعمائة بغل موقرة دراهم وغيرها. ولما مات الرشيد سنة ١٩٣ تنازع ولداه الأمين والمأمون على الخلافة وتحاربا، وكان الأمين في بغداد وقد أتته أمه زبيدة بخزائن الرشيد أبيه، والمأمون في خراسان ودامت الحرب بينهما بضع سنوات أنفق الأمين في أثنائها كل ما كان في بيت المال مع ما أنفقه في خاصته، لأنه انقطع في أثناء خلافته إلى اللهو والخمر وبذل الأموال في طلب الملهين وضمّهم إليه وأجرى عليهم الأرزاق واحتجب عن أخوته وأهل بيته وقسم الأموال والجواهر في خواصه من الخصيان والنساء.

على أن ادخار المال أصبح بعد الخلفاء الراشدين من الأمور المألوفة عند ملوك المسلمين في الممالك والعصور. قيل إن عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس الشهير (تولى سنة

٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) جمع في بيت ماله إلى سنة ٣٤٠هـ نحو ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار وكانت جباية الأندلس في أيامه ٥,٤٨٠,٠٠٠ دينار ومن السوق والمستخلص ٧٦٥,٠٠٠ ديناراً لجملة ٦,٢٤٥,٠٠٠ دينار ما عدا أخماس الغنائم فإنها كانت كثيرة، وكان الناصر ينفق على جنده ثلث هذا المال فقط وقد بالغ ابن خلدون في مقدار ما خلفه الناصر في بيت المال فجعله ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ولم يذكر ذلك جزافاً ولا خامر كلامه شك بل هو حولها إلى الوزن فكانت على تقديره ٥٠٠,٠٠٠ قنطار.

جغرافية مملكة الإسلام في عصر المأمون

حدودها

يحدّها من الشرق أرض الهند وبعض الصين وبحر فارس، ومن الغرب مملكة الروم، ويعبر عن تلك الحدود الآن بالبحر الأسود وآسيا الصغرى وبحر الروم والروس والبلغار، ومن الشمال بلاد السرير والخزر واللان في آسيا وجبال البيرينيه في أوروبا، وفي خارطة هذه الأيام بلاد سيبيريا وبحر قزوين وبحر الروم، ومن الجنوب بحر فارس وما يلي مصر من بلاد النوبة وتقسم هذه المملكة إلى عدة أعمال تختلف مساحتها ونسبتها بعضها إلى بعض باختلاف الدول والأزمنة وسنُبيّن ما كانت عليه حوالي عصر المأمون نقلاً عن جغرافيي العرب في تلك الأيام وخصوصاً الاصطخري وابن حوقل وابن الفقيه. تقسم إلى سبعة وعشرين إقليماً منها سبعة في المغرب وعشرون في المشرق وهي:

أقاليم المغرب

ديار العرب

بحر فارس

ديار المغرب

الشام

بحر الروم

الجزيرة

أقاليم المشرق

العراق

خوزستان (الأحواز)

فارس

كرمان

مكران

طوران

السند

أرمينية

آذربيجان

بلاد الران

الجبال

الديلم

طبرستان

جرجان

قومس

مغارة خراسان

سجستان

خراسان

ما وراء النهر

خوارزم

وإليك وصف كل من هذه الأقاليم بما يمكن من الإيجاز:

ديار العرب

وهي جزيرة العرب يحيط بها بحر فارس من عباداني . وهو مصب ماء دجلة في البحر . فيمتد على البحرين حتى ينتهي إلى عمان ثم ينعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهي إلى سواحل اليمن إلى جدة ثم يمتد إلى مدين حتى ينتهي إلى أيلة، فهم يريدون ببحر فارس كل ما يحيط ببلاد العرب من المياه ولكنهم يعبرون عن الجزء الممتد من باب المندب إلى أيلة ببحر القلزم وهو البحر الأحمر.

ويحدّها من الغرب الشمالي براً بلاد الشام وفلسطين بخط منحن يمتد من أيلة إلى البحيرة المنتنة فالشراة فالبلقاء فأذرعات وسلمية فالخناصرة إلى الفرات إلى الرقة وقرقيسيا والرحبة فالكوفة إلى البطائح فواسط إلى عبادان.

وتقسم ديار العرب إلى الحجاز، وفيه: مكة والطائف والمدينة واليمامة وضواحيها. ونجد الحجاز المتصل بأرض البحرين، وبادية العراق، وبادية الجزيرة، وبادية الشام، واليمن المشتملة على تهامة ونجد اليمن وعمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر ضواحي اليمن.

بحر فارس

ويُراد به عندهم كل البحار المحيطة ببلاد العرب من مصب ماء دجلة في العراق إلى أيلة فيدخل فيه ما نعبر عنه اليوم بخليج فارس وبحر العرب وخليج عدن والبحر الأحمر وخليج العقبة ولا يهمنا وصفه في هذا المقام.

ديار المغرب

يراد بها في اصطلاحهم كل سواحل أفريقيا الشمالية وراء حدود مصر غرباً ويدخل في ذلك (١) برقة (٢) أفريقية وهي تونس (٣) تاهرت في الجزائر (٤) طنجة والسوس وزويلة في مراكش.

أما برقة فهي مدينة وسط واقعة في مستوى من الأرض خصبة يطيف بها البادية يسكنها طوائف من البربر وبينها وبين أفريقية مدينة طرابلس الغرب وهي من عمل أفريقية مبنية من الصخر ويليها المهدية ثم تونس وهي كبيرة خصبة ثم القيروان وهي عاصمة أفريقية

وأكبر مدينة فيها واقعة في البر. وكذلك تاهرت فإن عاصمتها تاهرت، ومن مدنها أيضاً سجلماسة وهي بعيدة في الصحراء، ويجعلون الأندلس جزءً من بلاد المغرب لأنها كانت تابعة لها عند فتحها والأندلس (اسبانيا) مملكة كبيرة عاصمتها قرطبة وحدودها معروفة، ومن أشهر مدنها جيان وطليطلة وسرقصطة ولاردة ووادي الحجارة وترجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلة وقرمونة واستجة ورية، وعلى سواحلها شنترين ومالقة وجبل طارق وغير ذلك.

مصر

وحدود مصر في تلك الأيام مثل حدودها اليوم تقريباً ويلحقون بها البجة والنوبة إلى حدود البحر الأحمر فالعقبة.

الشام

ويراد بها سوريا على العموم وتقسم إلى سبعة أقسام: ١. جند فلسطين. ٢ . جند الأردن. ٣ . جند حمص. ٤ . جند دمشق. ٥ . جند قنسرين. ٦ . العواصم. ٧ . الثغور.

فجند فلسطين أول أجناد الشام غرباً يحده من جهة مصر رفح ومن الشمال اللجون وفيه يافا وأريحا وبيت لحم وغزة وللشراة والبحيرة المنتنة وغوربيان ونابلس وكانت قصبة فلسطين الوصلة ويليها في الكبر بيت المقدس.

وجند الأردن قصبته مدينة طبرية.

وأما جند دمشق فقصبته مدينة دمشق وهي أعظم مدن الشام على الإطلاق وهي معروفة.

وأما جند حمص فقصبته مدينة حمص وهي مشهورة ويتبعها انطرطوس وسلمية بطرف البادية وشيزر وحماه وكانتا صغيرتين.

وجند قنسرين قصبته حلب وهي مشهورة إلى اليوم وكان لها شأن كبير لوقوعها في طريق العراق إلى الثغور والعواصم، ومن مدنها مدينة قنسرين وهي صغيرة ومعرة النعمان.

وأما العواصم فيراد بها أعالي الشام وراء حلب إلى الإسكندرونة وقصبتها أنطاكية وهي تلي دمشق بالنزاهة، وكانت عاصمة الشام على عهد الروم وكان عليها سور ضخم للغاية قيل إن دوره للراكب يومان، ومن مدن العواصم بالش على ضفة الفرات ومنبج في البرية.

أما الثغور فهي ما وراء العواصم إلى حدود جبل طورس في آسيا الصغرى ومن مدنها الشهيرة سميساط على الفرات وملطية وهي أكبر الثغور وحصن منصور ومنها الحدث ومرعش وزبطرة والهارونية والمصيصة وأذنة وطرسوس، وقد يدخلون الثغور في العواصم ويطبقون عليها جميعاً اسم العواصم، والمراد بالثغور عندهم المدن الواقعة على الحدود بينهم وبين الروم ولذلك كان عندهم ثغور شامية أي الحدود مما يلي الشام وحدود جزرية أي الحدود مما يلي الجزيرة.

والجزيرة بلاد خصبة جداً مثل بلاد العراق، ومن أشهر مدنها الموصل على دجلة من جهة الغرب وسنجار في وسط البرية بديار ربيعة ليس في الجزيرة بلد فيه نخل مثلها، ونصيبين وكانت أنزه بلد في الجزيرة، ودارا وهي صغيرة، ورأس عين مدينة مستوية الأرض في دار مضر وآمد في أعالي دجلة وجزيرة ابن عمر على دجلة أيضاً ومن مدنها على الفرات الرقة وقرقيسيا والحديثة وهيت، وفي أواسطها أيضاً حران وهي مدينة الصابئين، والرها وهي قديمة مشهورة بالمدارس والعلوم أيام السريان، وسروج مدينة خصبة كثيرة الأعناب.

وفي الجزيرة مفاوز يسكنها قبائل من ربيعة ومضر تقيم ربيعة في الشمال الشرقي ومضر في الجنوب الغربي وقد كانوا هناك قبل الإسلام، وهم أهل خيل وغنم وإبل على أنهم متصلون بالقرى والمدن فهم بادية حاضرة، وتكريت آخر حدود الجزيرة على دجلة وكان أكثر أهلها نصارى.

العراق

وهو القسم الجنوبي من بين النهرين وما يجاوره، طوله من تكريت على دجلة من الشمال إلى عبادان على بحر فارس في الجنوب وعرضه من قادسية الكوفة في الغرب إلى حلوان في الشرق، ومحيطه إذا بدأنا من تكريت نسير شرقاً إلى شهرزور ثم جنوباً شرقياً إلى حلوان فالسيران والصيمرة فحدود السوس إلى عبادان ثم ينعطف إلى البصرة ومنها صعداً نحو الشمال والغرب في البادية على سواد البصرة وبطائحها إلى الكوفة ثم على الفرات إلى الأنبار

ومن الأنبار شمالاً إلى تكريت، ويسمى ما بين دجلة والفرات السواد. هذه حدود العراق إبان التمدن الإسلامي وهي تختلف عن حدوده الآن وخصوصاً أن مجاري الأنهر تغيرت، وأشهر مدن العراق بغداد وهي قصبته وعاصمة المملكة الإسلامية إبان مجدها بناها المنصور. والبصرة وهي مدينة عربية بناها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب وللبصرة بطائح سيأتي تاريخها في موضع آخر. وواسط مدينة عربية أيضاً بناها الحجاج في وسط السواد، والكوفة غربي الفرات وهي من بناء العرب، ومن مدن العراق النهروان شرقي دجلة على نهر اسمه النهروان جفّ الآن، وحلوان في آخر حدود العراق شرقاً وكانت مدينة كبيرة بقرب الجبل، والحيرة قرب الكوفة والإبلّة قرب البصرة.

خوزستان

هي شرقي العراق بينها وبين فارس يحدها من الشمال كور الجبال ومن الشرق فارس وأصبهان ومن الغرب العراق ومن الجنوب خليج فارس عاصمتها مدينة الأحواز (الأهواز)وإليها تُنسَب خوزستان فيقال لها الأحواز (الأهواز) وتقسم إلى كور أولها كورة الأحواز، ثم جندي سابور والسوس وتستر ورامهرمز وسرق وعسكر مكرم، وقصبة كل كورة المدينة المسماة باسمها.

بلاد فارس

وهي واقعة بين خوزستان في الغرب وكرمان في الشرق ويحدها شمالاً أصفهان وبادية خراسان ومن الجنوب والغرب بحر فارس. وتقسم بلاد فارس إلى خمس كور أكبرها كورة اصطخر قصبتها اصطخر ثم كورة اردشير خرة وقصبتها جور وفيها أيضاً مدينة شيراز وهي عاصمة بلاد فارس وبها دواوينها ودار الإمارة، ثم كورة دار أبجرد وكورة ارجان قصبتها مدينة ارجان ثم كورة سابور وهي أصغر كور فارس وفيها مدينة كازرون، ومن بلاد فارس بقاع يقيم فيها قبائل من الأكراد يزيدون على مائة حي يتعيشون بالمرعى والحرث في بقاع يقال لها رموم، ويقدر عدد بيوت تلك القبائل في بلاد فارس وحدها بنحو ٥٠٠,٠٠٠ بيت ينتجعون المراعي في المشتى والمصيف على مذاهب الحرب، وقد يكون في البيت الواحد من

الأرباب والأجراء والرعاء نحو عشرة رجال فإذا اعتبرنا معدل الرجال في كل بيت خمسة كان عدد الرجال الأكراد ٢,٥٠٠,٠٠٠ رجل وباعتبار ما يلحقهم من النساء والأولاد يزيد عددهم على عشرة ملايين.

(كرمان) هي أكبر من فارس واقعة بين فارس في الغرب ومكران وسجستان في الشرق ويحدها من الشمال مفازة خراسان ومن الجنوب بحر فارس وأشهر مدنها الشيرجان وبم وجيرفت وهرموز.

(مكران) هي شرق كرمان وإلى شرقيها طوران وبعض بلاد السند وفي الشمال سجستان وبلاد الهند وفي الجنوب بحر فارس وهي أكبر من كرمان ومن مدنها التيز وكيز ودرك ورسك.

(طوران) هي أصغر من فارس واقعة بين مكران في الغرب وبلاد السند في الشرق والشمال وبحر فارس في الجنوب وأشهر بلادها محالي وكيز كانان وقصدار.

(السند) والسند آخر حدود مملكة الإسلام في الشرق وأشهر مدنها المنصورة وهي بلسان الهنود (برهمانا باذ) ومنها الديبل على شاطئ البحر والملتان وغيرها، أما المنصورة فإنها واقعة على خليج من نهر مهران يحيط بها في شبه الجزيرة وأهلها مسلمون.

ويطلق الاصطخري على مكران وطوران والسند اسم السند.

(أرمينية) هي في أعالي مملكة الإسلام فوق الجزيرة تحدها من الشرق آذربيجان والران ومن الغرب بلاد الروم (في آسيا الصغرى) ومن الشمال جبال القبق (القوقاس) ومن الجنوب الجزيرة قصبتها دبيل وفيها دار الإمارة والنصارى بها كثيرون، ومن مدنها خلاط وأرزن وقاليقلا وميافارقين ويعدها بعضهم من الجزيرة وهكذا فعلنا.

(آذربيجان) هي شرقي الجزيرة يحدها من الغرب الجزيرة وأرمينية ومن الشرق بحر الخزر وبلاد الديلم ومن الشمال بلاد الران ومن الجنوب كور الجبال، عاصمتها مدينة أردبيل وفيها العسكر ودار الإمارة طولها ميلان في ميلين ويلي أردبيل بالكبر مراغة وكانت قبلاً دار الإمارة وتليها أرومية على شاطئ بحيرة الشراة، ومن مدنها سلماس ومرند وشيز.

(بلاد الران) هي شمالي آذربيجان يحدها من الشرق بحر الخزر ومن الغرب أرمينية ومن الشمال جبل قبق ومن الجنوب آذربيجان أكبر مدنها مدينة برذعة ثم تفليس والباب ومنها بيلقان والشاوران وغيرها.

(الجبال) يراد بالجبال بلاد فارس وهي تقسم إلى كور أشهرها ماه الكوفة وهي الدينور وماه البصرة وتسمى نهاوند، ويحد الجبال من الشرق مفازة خراسان وفارس ومن الغرب العراق والجزيرة ومن الشمال آذربيجان والديلم والري وقزوين ومن الجنوب خوزستان والعراق، وهي تشتمل على مدن مشهورة أعظمها همدان والدينور وماسبذان وأصبهان وقم وقاشان ونهاوند واللور والكرج وقزوين وشهر زور وحلوان، مساحة همدان فرسخ وكان لها سور أبوابه من حديد، والدينور ماه الكوفة نحو ثلثيها، وأصبهان مدينتها بينهما ميلان، وماه البصرة واقعة على جبل بناؤها من طين، وحلوان مدينة في سفح الجبل المطل على العراق، وشهر زور قريبة من العراق، وقزوين في أعالي فارس وهي ثغر بلاد الديلم، وقم مدينة عليها سور وهي خصبة، وقاشان مدينة صغيرة.

(الديلم) هي جبال مطلة على بحر الخزر (بحر قزوين) يحدها من الجنوب قزوين وبعض آذربيجان ومن الشمال بحر الخزر ومن الشرق قرمس ومن الغرب آذربيجان. وأهل الديلم صنفان سكان الجبال وسكان السهول ومن توابعها الري وأبهر وزنجان والطالقان وقزوين والدويان.

(طبرستان) وهي تلي الديلم شرقاً واقعة على بحر الخزر أيضاً يحدها من الشرق جرجان ومن الغرب الديلم، أكبر مدنها آمل وهي مركز الولاية وسارية وهي بلاد كثيرة المياه ودماوند.

(جرجان) هي شرق طبرستان وشماليها يحدها من الشمال تركستان ومن الجنوب قومس ومن الشرق خراسان ومن الغرب بحر الخزر، أكبر مدنها مدينة جرجان وهي أكبر من آمل، ثم استراباد في الجنوب ودهستان على شاطئ البحر.

(قومس) هي جنوبي جرجان وطبرستان وهما يحدانها من الشمال، وأما من الجنوب والشرق فحدودها مفازة خراسان ومن الغرب تحدها بلاد الري قصبتها مدينة الدامغان.

(مفازة خراسان) هي بادية واقعة في أواسط بلاد المشرق يحدها من الشمال قومس ومن الجنوب بلاد فارس وسجستان ومن الشرق سجستان وخراسان ومن الغرب الجبال وهي أقل من بادية العرب سكاناً.

وبعض هذه المفازة تابع لخراسان والبعض الآخر تابع لفارس وكرمان وهي وعرة ويصعب سلوكها بالخيل لقلة الماء فيها.

(سجستان) هي واقعة في شمالي مكران يحدها من الشرق مفازة بينها وبين السند، ومن الجنوب مكران ومن الشمال أرض الهند ومن الغرب مفازة خراسان.

أكبر مدنها زربخ وبست والطاق وغيرها.

(خراسان) هي من أخصب بلاد المشرق وأوسعها يحدها من الشرق الشمالي ما وراء النهر ومن الشرق الجنوبي بلاد السند وسجستان ومن الشمالي خوارزم وبلاد الغز في تركستان، ومن الجنوب مفازة خراسان وفارس، ومن الغرب قومس، وتقسم خراسان إلى كور أعظمها نيسابور ومرو وهرات وبلخ يليها كورقوهستان وطوس ونساوابيورد وسوخس واسفزار وبوشج وبازغيس وكبخ دستاق ومرووذ وجوزجان وطخارستان وزم وآمل.

عاصمة خراسان مدينة نيسابور وهي أعظم مدنها جميعاً وتسمى أيضاً أبوشهر واقعة في أرض سهلة أبنيتها من طين سعتها فرسخ في فرسخ.

ومدينة مرو وتعرف بمرو الشاهجان وهي قديمة البناء، ومدن خراسان كثيرة وبلادها آملة وتربتها خصبة وقد كان للمسلمين فيها ارتفاع عظيم.

(ما وراء النهر) هي آخر بلاد الإسلام شمالاً شرقياً يحدها من الشمال بلاد تركستان وبلاد الهند ومن الغرب الجنوبي خراسان يفصل بينهما نهر جيحون ومن الشمال الغربي خوارزم ومن الجنوب طخارستان، وهو من أخصب أقاليم الإسلام وأنزهها وأكثرها خيراً، وأشهر نواحيها بخارى وسمرقند وكش ونخشاب وبيكند والساغانيان وفرغانة والسفد والشاش واشروسنة وخوجند.

(خوارزم) ويعدها الاصطخري تابعة لما وراء النهر فإنها مستطيلة الشكل تمتد على ضفاف نهر جيحون في الشمال، يحدها من الشمال بحر خوارزم ومن الجنوب خراسان وبلاد الصفد وتحدق بهذا الإقليم المفاوز من الشرق والغرب، قصبته مدينة خوارزم.

ومجموع جباية الدولة العباسية في أيام المأمون نحو ٤٠٠ مليون درهم ما عدا الأموال والغلات مما لا نعلم حقيقة قيمته وإذا أعدت النظر فيه رأيته شيئاً كثيراً، والعادة في تقدير الجباية أن تقدر هذه الغلات بما تساويه من النقد ويضاف مبلغها إلى مبالغ النقد كما فعل صاحب جراب الدولة في غلات السواد ومعظمها في الأصل من الحنطة وكما سترى في تفصيل خراج طساسيج السواد بقائمتي قدامة وابن خرداذبه.

وقد تقدم أن الجباية التي كانت ترد إلى بيت المال في بغداد إنما هي ما تحصل منها في الأقاليم بعد دفع أموال الجند ونفقات الجباية وإصلاح الري ونحو ذلك من نفقات الأقاليم ولم يبق على هذا المال إلا نفقات الدواوين في بغداد للخليفة ووزرائه وكتابه ورجال بطانته.

وهذا مما لم نسمع بمثله في الدول قديماً ولا حديثاً. إلا إذا اعتبرنا ما أورده بعضهم إجمالاً بطريق العرض عن دولتي الروم والفرس. فقد قال (جبن) مؤرخ الدولة الرومانية: إن جباية هذه الدولة إبان سطوتها ومعظم سعتها تساوي نحو ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم منها ١٣٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم من آسيا (الصغرى) وذكر ابن خروازبه أن جباية مملكة الفرس في أيام كسرى برويز بلغت ٤٢٠,٠٠٠,٠٠٠ مثقال أو نحو ٧٢٠ مليون درهم، فإذا سلمنا بصحة هذه الأرقام أعوزنا الاطلاع على طريقة الإنفاق عندهم إذ ربما كانت تستغرق معظم هذه الجباية بخلاف الدولة العباسية، أما ما خلا هاتين الدولتين فالفرق بين جبايتها وجباية هذه الدولة عظيم جداً، فالدولة العثمانية بلغت معظم سعتها في أيام السلطان سليمان القانوني في أواسط القرن العاشر للهجرة ولم يزد ارتفاع جبايتها في أيامه على ٨,٠٠٠,٠٠٠ دوكات أو نحو ٦٥٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك. فأين ذلك من جباية الدولة العباسية فإنها تزيد على أضعافه، وقس على ذلك دول هذه الأيام باعتبار ما يبقى في صندوقها كما سيأتي ولنتقدم إلى الكلام في الجهات التي كانت تنفق فيها هذه الأموال.

نفقات الدولة العباسية

لم نر في ما كتبه المؤرخون القدماء في العربية نصاً يتعلّق بهذا الشأن، على أننا توفّقنا بهمة البارون فون كريمر إلى قائمة تشمل ما اشترطه أحمد بن محمد الطائي على نفسه أن يقدمه من ضمانه إلى بيت المال، وفيه ما كان ينفقه بيت المال في بغداد في السنين الأولى من

خلافة المعتضد العباسي (سنة ٢٧٩هـ) وقد عين فيه مقدار المال اللازم لكل فئةٍ من فئات الموظفين الذين تدفع رواتبهم من بيت المال وجملة ذلك ٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار في السنة تدفع باعتبار كل يوم سبعة آلاف دينار تفرق في الجند وموظفي الدواوين والخدم وغيرهم، ولا يخفى أن النقود في أيام العباسيين كانت تساوي ثلاثة أضعاف ما تساويه اليوم على الأقل وكانت توضع في بيت المال تحت تصرف الخليفة واجتهاده يستخدمها في الجهات التي يريدها أو يتراءى له أن فيها مصلحة للدولة.

ومن القضايا البديهية أن مثل هذه الثروة لا تتأتى إلا إذا كان الدخل كثيراً وكانت النفقة قليلة.

مصادر الجباية

كانت الجباية في أوائل الهجرة قاصرة على الزكاة ثم حدثت الغنائم بعد واقعة بدر الكبرى ثم الجزية لمن صالح النبي (صلّى الله عليه وآله) من نصارى جزيرة العرب ويهودها وتوفي النبي (صلّى الله عليه وآله) ومصادر الجباية الزكاة والغنائم والجزية.

وما زالت مصادر الجباية ترتقي وتتفرّع حتى أصبحت في أيام العباسيين عديدة ترجع إلى أحد عشر وهي:

١ . الصدقة أو الزكاة.

٢ . الجزية.

٣ . الخراج.

٤ . المكوس (العزرة).

٥ . الملاحات والأسماك.

٦ . أعشار السفن.

٧ . أخماس المعادن.

٨ . المراصد (الكمارك).

٩ . غلة دار الضرب.

١٠ . المستغلات.

١١ . ضرائب الصناعة وغيرها.

أسباب كثرة الخراج

الخراج ما يوضع من الضرائب على الأرض أو محصولاتها ولكثرته في الدولة العباسية أسباب أهمها أربعة وهي:

١ . سعة المملكة العباسية

لما كان المعوّل في مقدار الجباية على الخراج فجباية المملكة تتعاظم بزيادة مساحة أرضها وخصب تربتها، والمملكة الإسلامية في العصر العباسي الأول كانت عظيمة الاتساع جداً بل هي أوسع ممالك التمدن القديم (وخصوصاً إذا اعتبرنا إسبانيا منها) إلا مملكة الاسكندر فربما قاربتها. فمجموع مساحة هذه المملكة ٣,٣٢٨,٠١٤ ميلاً مربعاً وذلك نحو مساحة أوربا كلها. فخراج أوروبا لو جباه المسلمون لم يزد على خراج مملكتهم فاعتبر عدد تلك الممالك وفيها أعظم دول الأرض اليوم، فلو كان اعتماد تلك الدول في جبايتها على الخراج لما استقام أمرها وإنما عمدتها على ضرائب المشروبات الروحية والجمارك.

٢ . اشتغال الناس في الزراعة

قلنا في كلامنا عن بيت المال في عصر الأمويين أن عمالهم كانوا يسيئون إلى أصحاب الخراج من الرعايا بما يستعملونه من العنف والتعسف في تحصيلها فتشاغل الناس عن الزرع فأهملت الأرض وزادها إهمالاً انتشار الفتن والحروب في العراق وفارس وسائر أنحاء المملكة الإسلامية ونقم الناس على حكومتهم وأبطلوا الزراعة نكاية فيها ولقلة انتفاعهم بها فأصبح معظم البلاد خراباً من الإهمال وفيها الضياع والمزارع، فلما تولى العباسيون عاد الناس إلى الاشتغال بالزرع وغيره.

ومما ساعد على عمران المملكة العباسية أن الخلفاء كانوا يبذلون جهدهم في تعمير ما تركه الأمويون خراباً من الضياع والمزارع بتسليمها إلى من يصلحها ويعمرها فضلاً عما كانوا يبذلونه من العناية في حفر الأنهر وإنشاء السدود وغيرها من مسهّلات الري.

(السواد) فعمرت بذلك البلاد وكثرت غلتها وخصوصاً السواد (العراق) فإنه من أخصب بقاع الأرض وإذا راجعت ما ذكرناه من جبايته رأيت خراجه ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم. والسواد كثير الجباية من أيام الفرس فقد جباه قباز بن فيروز ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وجباه كسرى بن قباز ٢٨٧,٠٠٠,٠٠٠ درهم وجباه غيرهم من ملوك الفرس ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم سوى ٣,٠٠٠,٠٠٠ من الوضائع لمواد الكسائرة، كانوا يجبون

ذلك على غير ظلم ولا عسف ولكنهم كانوا يعتنون بالري فيحفرون الترع ويبنون السدود والجسور، وقد جعلوا همهم إحياء أرضه بحفر الأنهر وإنشاء الجسور حتى تشبكت الترع في السواد وأصبح ما بين دجلة والفرات سواداً مشتبكاً غير مميز تخترق إليه أنهار من الفرات وقس على ذلك سائر أنحاء العراق، وهو لم يصر إلى هذا الخصب والرخاء إلا في أيام العباسيين لارتياح الناس إلى العمل ورغبة الخلفاء في تعمير البلاد مع قابلية الأرض لذلك، وخراج خراسان نحو ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وهكذا سائر البلاد.

٣ . ثقل الخراج المضروب

كان الخراج المضروب على الأرض في المملكة العباسية يختلف نوعه باختلاف البلاد فبعضها بالمساحة أي أن يضربوا على المساحة المعلومة من الأرض مالاً معيناً في العام سواء زرعت تلك الأرض أم لم تزرع، والبعض الآخر بالمقاسمة أي أن يكون الخراج جزءً من حاصل الأرض بعد زرعها واستغلالها، وما لم يزرع لا يطالب بالخراج وكل من خراج المساحة والمقاسمة درجات وفئات. فبينما أخذ عمر من خراج العراق أقل من السبع أخذ المهدي العباسي نصف غلته تقريباً وهو خراج ثقيل.

ويظهر أن الهادي أو الرشيد زاد على ذلك الخراج العشر فصار خراج العراق نصف غلته وعشرها أي ستة أعشارها وظل ذلك شأنها إلى سنة ١٩٢هـ فأسقط الرشيد العشر وأبقى النصف فقط وما زال أهل السواد يدفعون نصف غلتهم خراجاً إلى سنة ٢٠٤هـ فجعلها المأمون خمسين فكأنه أسقط عشرين في المائة من مقدار الخراج.

وخفض خراج بعض البلاد الأخرى غير السواد كالري فإنه جاءها سنة ٢١٠هـ فأقام فيها مدة وأمر بتخفيف الخراج عنها، فلما انصرف وبلغ أهل قم ذلك طلبوا إليه أن يحط خراجهم كما فعل بالري فأبى فتمرّدوا وامتنعوا عن أداء الخراج وكان مقداره ٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم فحاربهم المأمون وجباه في ذلك العام ٧,٠٠٠,٠٠٠ درهم تأديباً لهم، وقس على ذلك سائر البلاد.

وجملة القول أن الخراج كان في العصر العباسي الأول ثقيلاً ومع ذلك لم يكن يعسر اقتضاؤه وقلّما شكا الناس ثقله وربما استطاع العامل أن يجمع الملايين من الدراهم بسهولة في

بضعة أيام كما اتفق للمأمون لما مر بدمشق وكان أخوه المعتصم عاملاً له عليها وقد قلّ المال مع المأمون فشكا ذلك إلى المعتصم فقال: (يا أمير المؤمنين كأنك بالمال وقد وافاك بعد جمعه) فجاءه بثلاثين ألف ألف درهم (٣٠,٠٠٠,٠٠٠) من خراج ما يتولاه له ففرق معظمه وهو واقف.

سائر مصادر الجباية

على أننا لا نرى بأساً من الإشارة إلى ما بقي من مصادر الجباية في العصر العباسي الأول تتمة للموضوع منها:

١ . (أعشار السفن) هي ضريبة ذات بال كان يرد منها إلى بيت المال مبالغ وافرة لم نعثر على تفصيلها ولا وقفنا على مقدار ما كان يجبى في العصر العباسي ولكن يؤخذ مما نعلمه من اتساع التجارة في تلك الأيام بين العراق وسائر أقطار الدنيا حتى الهند والصين أن السفن كانت كثيرة وأحمالها ثمينة. وقد ذكروا تاجراً واحداً من تجار البصرة في القرن السادس للهجرة اسمه حسن بن العباس له مراكب تسافر إلى أقصى بلاد الهند والصين بلغ مقدار ما يتحصل من ضرائبها ١٠٠,٠٠٠ دينار في العام فاعتبر ذلك وقس عليه غيره.

٢ . (أخماس المعادن) كانت المعادن عندهم ضربين: ظاهرة وباطنة فالمعادن الظاهرة ما كان جوهرها المستودع فيها بارزاً كمعادن الكحل والملح والقار والنفط فهذه لا يجوز إقطاعها لأنها كالماء، الناس فيه سواء يأخذه من ورد إليه، وأما المعادن الباطنية فهي ما كان جوهرها مستكنّاً فيها فهذه كانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها ولها الخمس مما يخرج منها ونظراً لسعة المملكة العباسية فقد كانت المناجم فيها عديدة ومنها الذهب والفضة والنحاس والزئبق والفيروز والزبرجد وغيرها.

٣ . (الجزية والزكاة) كانت الجزية في صدر الإسلام كثيرة ثم تناقصت بدخول الناس في الإسلام. والزكاة كان لها شأن كبير في أول الإسلام ثم قلت أهميتها.

٤ . (المكوس والمراصد) وهما تقابلان الكمارك والعوائد في هذه الأيام وكانوا يأخذون ضريبة من كل تجارة واردة في البحر أو البر مهما يكن نوعها من الأنسجة أو المحصولات أو المصنوعات أو الرقيق أو غيره. وكان يحصل لهم من ذلك مال كبير.

فمثلاً ذكر ابن حوقل أنه كان يتحصل مما يخرج من آذربيجان إلى نواحي الري ولوازم على الرقيق والدواب وأسباب التجارات والأبقار والأغنام ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة.

٥ . (المستغلات وغلة دار الضرب) يراد بالمستغلات ما يجبى لبيت المال من أسواق أو منازل أو طواحين ابتناها الناس في أرض تربتها للسلطان فيؤدون عنها أجرة، وذكر ابن خرداذبه مبلغ غلات الأسواق والأرجاء ودور الضرب في مدينة السلام بغداد ١,٥٠٠,٠٠٠ درهم في السنة وبلغت غلات ومستغلات سامراء وأسواقها ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة.

فالدولة العباسية إبان زهوها كانت تجبي من هذه الضرائب شيئاً كثيراً ولكن العمدة كانت على الخراج كما تقدم.

٤. صدق العمال في إرسال المال المجموع

كان من جور عمال بني أمية أنهم كثيراً ما كانوا يستأثرون بالخراج لأنفسهم إما بإذن الخلفاء كما فعل عمرو بن العاص بمصر إذ جعلها معاوية طعمة له في مقابل نصرته إياه على علي (عليه السلام) أو بحجة الحاجة إلى المال في الحروب كما حصل في أيام الحجاج، أو استرضاء لعامل متمرد التماساً لقعوده أو أن يعصي العامل بالخراج لغير سبب كما فعل مسلمة بن عبد الملك في ولايته على العراق في أيام أخيه يزيد فإن يزيداً استحى أن يطالبه بالخراج ولعله خاف عصيانه، ناهيك بما كان يكتمه العُمال عن خلفائهم من أموال الفيء والغنائم وهو من حق بيت المال وقد يذكرونه ويطمعون فيه كما فعل يزيد بن المهلب بعد فتحه جرجان سنة ٩٨هـ فإنه أصاب مالاً كثيراً بقي منه لبيت المال ٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم كتب عنها للخليفة لكنه استبقاها لنفسه . ذلك ونحوه دعا الخلفاء في بعض الأحوال أن يستخرجوا المال من عمالهم بالقوة . .

أما بنو العباس فقد كان معظم عمالهم في أوائل الدولة من أهلهم الأقربين ثم استعملوا أنصارهم الفرس وهم أكثر الناس رغبة في قيام دولتهم، وكان الخلفاء من الجهة الأخرى لا يقصرون في زيادة رواتبهم حتى بلغت في أيام المأمون ثلاثة ملايين درهم وهي عمالة الفضل بن السهل على المشرق، ومما ساعد بني العباس في أوائل دولتهم على حفظ نظام أعمالهم

وإجماع العمال على ولائهم سداد رأي وزرائهم وخصوصاً البرامكة فإنهم كانوا واسطة عقد تلك الدولة وزهرة تمدنها، وكذلك كان الفرس على الإجمال لأنهم كانوا يعدون استيلاء بني العباس عليهم رحمة من الله كانوا يتوقعونها منذ أعوام للتخلص من بني أمية واحتقارهم إياهم.

٥ . قلة الموظفين

يختلف عدد الموظفين في مصالح الحكومة باختلاف نمط تنظيمها ويقال بالإجمال أنهم أقلُّ عدداً في الحكومات الاستبدادية منهم في الحكومات المقيدة لاستغناء الحكم المطلق عن تدوين كل شيء وضبطه لمراجعة النظر فيه. ويكفي لبيان هذا الفرق مقابلة عدد موظفي الحكومة المصرية قبل نظامها الحالي بعددهم اليوم.

كانت حكومة مصر قبل دخول الفرنسيين إليها (في أواخر القرن الثامن عشر) لا تزال على نحو ما رتبها عليه السلطان سليم الفاتح وابنه السلطان سليمان. ولا ترى عدد الموظفين فيه يزيد على خمسين (ما عدا الجيش) فإذا اعتبرنا ما يلحقه من الكتّاب والنوّاب وغيرهم ربما بلغ إلى ٢٠٠ أو قل ٣٠٠ أو ٤٠٠ وهو يقابل في هذه الأيام نظارات الحكومة ومجلس النظار والمعية ومصلحة الصحة والبوليس والسجون وسائر المصالح مما يربو عدد موظفيها على ألفين كما يأتي، أما اليوم فعددهم ١٧,٧٧١ وهو عدد موظفي الحكومة في نظاراتها ومصالحها ما عدا الجيش، فاعتبر الفرق العظيم بين هذا العدد وبين ما كان عليه في أيام المماليك وقس عليه عدد موظفي الحكومة في الدولة العباسية(١).

٦ . عدم وجود الدَين على الحكومة

من أدران التمدن الحديث انغماس الحكومات الأوروبية في الديون وما من دولة إلا وهي مديونة بمال لابد لها من تأدية فوائده أو تسديد بعضه من دخلها كل عام، فهو عبء ثقيل على ماليتها وسبب كبير في قلة ما يفضل من دخلها مع كثرة أبواب الدخل عندها مما فرضته من الضرائب المختلفة التي لم تكن معروفة في الدولة العباسية أو أنها كانت خفيفة جداً. فمثلاً دخل انكلترا ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه يجتمع نحو أربعة أخماسها من ضرائب

أكثرها حديثة العهد وأن نفقات الدولة تستغرقها كلها، فمن أسباب ذلك أن ربع هذا الدخل تقريباً يذهب في وفاء فائدة ما على هذه الدولة من الديون.

٧ . اقتصاد الخلفاء الأولين وتدبيرهم

من الأمور المقررة في التاريخ السياسي أن مؤسسي الدول ومن يتلوهم من الأمراء الأولين يغلب فيهم الاقتصاد والتدبير ولولا ذلك لم يتأت لهم إنشاء الدول أو تثبيت دعائمها ويعبر فلاسفة التاريخ عن ذلك بصبوة الدولة. والصبوة تدعو إلى النمو بالادخار، فإذا بلغت الدولة شبابها وتم نموها عادت ناكصة على عقبيها كما يتقهقر المرء إلى الكهولة فالشيخوخة. فالدولة العباسية نشأت في حجر السفاح طفلة فتناولها المنصور صبية فغذّاها وأنماها حتى أدركت شبابها في أيام الرشيد والمأمون ثم تقهقرت إلى الكهولة فالشيخوخة فالهرم في أيام الخلفاء التابعين.

١. النظام الإسلامي حيث إنه بسيط للغاية، يوجب قلة الموظفين (٣).

ثروة الدولة العباسية في عصر الانحطاط

لكل دولة أدوار شبيهة بأدوار الحياة من الطفولة إلى الشيخوخة. فالدولة العباسية بلغت شبابها في أيام الرشيد والمأمون وهو العصر العباسي الزاهر ثم أخذت بعدهما في الانحدار نحو الكهولة فالشيخوخة كما بلغت الدولة الأموية في الشام شبابها في أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد والدولة الأموية بالأندلس بلغت شبابها في أيام الخليفة الناصر وابنه الحكم، والدولة العثمانية بلغت ذلك الدور في أيام السلطان سليمان، وقس عليه.

(العرب والفرس) وقد علمت مما تقدم أن الدولة العباسية إنما قامت بنصرة الفرس وخصوصاً أهل خراسان، وهؤلاء لم ينصروها إلا انتقاماً لأنفسهم من بني أمية لما كان من تعصبهم للعرب واحتقارهم سائر الأمم الخاضعة لهم ولو كانوا مسلمين. فالعباسيون عرفوا للفرس فضلهم في ذلك فقربوهم واستخدموهم في مصالح الدولة واتخذوا منهم الوزراء والعمال والكتاب وغيرهم، فضعف شأن العرب وصاروا ينظرون إلى الدولة نظر المحاذر المراقب ولا حيلة لهم في إرجاع نفوذهم، فلما نكب البرامكة ظن العرب أنهم سيرجعون إلى شوكتهم وسلطانهم، ثم مات الرشيد واختلف ابناه الأمين والمأمون على الخلافة والأمين عربي الأبوين لأن أمه زبيدة حفيدة المنصور، فأخذ أهل بغداد بنصرته وفيهم جند العرب (الحربية). وأما المأمون فأمه فاديه فارسية الأصل، وكان في خراسان بين أخواله وشيعته فنصره الخراسانيون كما نصروا أجداده وانتهى الخلاف بمقتل الأمين وفوز المأمون فعاد النفوذ إلى الفرس وعادوا إلى امتهان العرب.

(الأتراك) فلما مات المأمون سنة ٢١٨هـ أفضت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله وكانت أمه تركية الأصل من بلاد السغد في تركستان فشبّ محباً للأتراك وكان قد أصبح لا يأتمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين وهي أول مظاهر جرأتهم على الخلفاء، ولم يكن له من الجهة الأخرى ثقة في جند العرب لما يعلمه من ضعفهم بعد ما سامهم العباسيون من الذل، وزد على ذلك أن أخاه المأمون أوصاه عند دنوّ أجله بمحاربتهم، فلم ير له غنى عن

اقتناء من ينصره غير الفرس والعرب، وكان مع ذلك على رأي أخيه المأمون من قبيل القول بخلق القرآن فاستخدم العنف والشدة في تأييده حتى أنه أحضر أحمد بن حنبل الإمام الشهير وسأله عن رأيه في القرآن فلم يجب إلى القول بخلقه، فأمر به فجلد جلداً عظيماً حتى غاب عقله وقطع جلده وحبس مقيداً فزاد نفور عامة المسلمين منه وخصوصاً العرب وهو لا يكترث بذلك وإنما كان معتمده على جند الأتراك. فقد فسدت النيات واضطربت الأموال وابتدأت الدولة بالتقهقر من ذلك الحين، فأصبح المال محور القوة لحفظ كيان الدولة وعليه معول الخلفاء في تثبيت بيعتهم ومحاربة أعدائهم والدفاع عن حياتهم حتى في داخل قصورهم. ثم إن ثروة الدولة تتبع حال الدولة من العسر واليسر، فلما كانت الدولة العباسية إبان عمرانها على عهد الرشيد والمأمون كانت الثروة على معظمها فيها ثم أخذت بالتقهقر بغتة في أيام المعتصم.

مقدار الجباية في عصر الانحطاط

وإذا نظرنا إلى ما كان يجتمع ببيت المال من بقايا الجباية على توالي الأعوام رأيناه لا يقاس بما كان يبقى فيه على عهد الخلفاء الأولين، على أنهم كانوا إذا توفق لهم خليفة حكيم يقتصد فيجمع شيئاً خلّفه من يسرف فيضيعه، ومن أمثالهم المأثورة أن ما جمعه السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد أنفقه الأمين (سنة ١٩٣ . ١٩٨هـ) وما جمعه المأمون والمعتصم والواثق أنفقه المتوكل (سنة ٢٣٢ . ٢٤٧هـ) وما جمعه المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي أنفقه المقتدر (سنة ٢٩٥ . ٣٢٠هـ).

وبالإجمال إن الثروة تقهقرت بعد المأمون بتقهقر الدولة وانحطت بانحطاطها. والثروة كما قدمنا ما يفيض من الدخل على النفقات ولذلك قلما كان يبقى في بيت المال بقية إلا في أحوال خصوصية وبمبالغ صغيرة فالمعتصم ترك في بيت ماله ٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم والمستعين (سنة ٢٥١هـ) خلف في بيت المال ٥٠٠,٠٠٠ دينار والمكتفي (سنة ٢٩٥هـ) خلف ١٥,٠٠٠,٠٠٠ دينار والظاهر أنها اجتمعت بتوالي الخلفاء فلما تولى المقتدر أنفقها كلها وأنفق ما جمعه في أيامه من أموال المصادر فضلاً عن الخراج حتى قدّروا ما أنفقه ضياعاً وتبذيراً بنيف و ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ما عدا نفقات الدولة واضطر مع ذلك لاسترضاء

الجند والغلمان للخلافة أن يبيع ضياعه وفرشه وآنية الذهب، وبلغ من فقر بيت المال في أيام المطيع لله سنة ٣٦١هـ أنه باع ثيابه وأنقاض داره ليدفع ٤٠٠,٠٠٠ درهم طلبت منه للجند في أثناء الفتنة ببغداد. وكانت أحوال الخلفاء قد تغيرت في أيام الراضي بالله سنة ٣٢٢هـ وخرجت قيادة الأمور من أيديهم ولم يبق لهم غير الخطبة والسكة.

وأسباب انحطاط الثروة العباسية هي: (١) قلة الجباية و(٢) كثرة النفقة.

أما أسباب قلة الجباية، فهي:

١ . ضيق المملكة العباسية

بلغت المملكة العباسية أكبر سعتها في أيام الرشيد والمأمون ثم أخذت بعض الولايات تنفصل عنها لأسباب يطول شرحها. وأول ما استقل من الولايات العباسية أفريقية بدأت بالاستقلال في أيام الرشيد كما تقدم، ثم خراسان في أيام المأمون ثم مصر في أيام المعتمد في أواسط القرن الثالث للهجرة ثم فارس وما وراء النهر وغيرها، ولم يمض الربع الأول من القرن الرابع حتى انقسمت تلك المملكة الواسعة إلى بضعة عشر قسماً كل منها في حوزة دولة من دول المسلمين، على أن معظم هذه الدول كانت تعدُّ الخليفة العباسي رئيسها الديني وتؤدي الأموال له بعضها باسم الضمان والبعض الآخر باسم المصالحة والآخر باسم الهدية أو غير ذلك، وكان أكثرهم لا يؤدي ما عليه إلا مرة كل بضعة أعوام، وطبيعي أن تشتّت المملكة على هذه الصورة يقلل من مقدار الجباية.

٢ . تخفيض الخراج المضروب

ذكرنا من أسباب زيادة الثروة العباسية في أيام زهوها ثقل الضرائب وخصوصاً في العراق إذ كانت المقاسمة على النصف إلى أيام المأمون، فأدرك هذا الخليفة ثقل هذا الخراج ورأى الثروة فائضة في بيت ماله والأموال متوفرة فعمد إلى التخفيف عن الناس فجعل خراج العراق خمسين أي أنه أنقصه عشرين في المائة وقد ظهر فرق ذلك في ارتفاع جباية العراق حالاً إذ كان في قائمة قدامة ١١٤,٤٥٧,٦٥٠ درهماً فصار في قائمة ابن خرداذبة ٧٨,٣١٩,٣٤٠

درهماً لأن الأول قدّره على ما يظهر باعتبار النصف والثاني باعتبار الخمسين واقتدى بالمأمون في تخفيض الضرائب من جاء بعده من الخلفاء فأبطل الواثق سنة ٢٣٢هـ أعشار السفن وقد رأيت أنها ضريبة ذات بال كان يرد منها إلى بيت المال شيء كثير، واقتدى بالواثق خلفه المتوكل فأرفق بأهل الخراج بتأخير ميقات اقتضائه شهرين.

الجزية والزكاة

ومن هذا القبيل ما أصاب الجزية من النقص بدخول الناس في الإسلام بتوالي الأعوام حتى انحط مقدار ما يجبى منها بمدينة السلام في أواسط القرن الثالث للهجرة إلى ١٣٠,٠٠٠ درهم وفي قائمة علي بن عيسى أنهم جبوها ١٦,٠٠٠ دينار أي نحو ضعفي ذلك.

ويقال نحو ذلك أيضاً في الزكاة فقد تناقصت بتوالي الأعوام حتى كادت تتلاشى وأصبحت المطالبة بها تدعو إلى التذمّر.

٣ . استئثار العمال بالجباية

فلما ضعف شأن الخلفاء عاد العمال إلى ما تطمح إليه أنظارهم من طلب الاستقلال بالحكم أو الاستئثار بالجباية واضطر الخلفاء إلى التراضي معهم على مال مضمون وأن يكون أقل مما يجبى وهو الضمان أو المقاطعة، كما قاطع المأمون بشير بن داود على السند سنة ٢٠٥هـ على أن يدفع له ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم في العام مع أن ارتفاع جبايتها الحقيقي ١١,٥٠٠,٠٠٠ درهم وضمن البريدي الأهواز على أيام الراضي كل سنة ٣٦٠,٠٠٠ دينار على أن يدفعها أقساطاً وخراجها الحقيقي يزيد على أربعة أضعاف هذا المبلغ. ومع ذلك فالضامنون لم يكونوا يدفعون إلا قليلاً مما تعهّدوا به.

٤ . انشغال الناس بالفتن والظلم عن العمل

لما نشأت الفتن ونشبت الحروب بين طوائف الجند أو بينهم وبين العمال انشغل الناس عن تجارتهم وزراعتهم وتوقف العمال وغلت الأسعار وتعطّلت الزراعة لضياع الأمن فقلّت الجباية واحتاج العمال والقواد إلى المال فظلموا الناس من أجل تحصيلها منهم فزاد الخراب،

وما من هادم للعمران كالظلم فإنه يغلّ الأيدي ويقعد الناس عن السعي فينشغل به الزارع عن زراعته والتاجر عن تجارته والصانع عن صناعته ووبال ذلك عائد على الدولة إذ لا قوام لها إلا بالرعية.

٥ . تحويل أكثر البلاد إلى ضياع

يراد بالضياع عندهم المزارع. ويغلب في الضياع أن تكون لأهل الدولة من الخلفاء أو أقاربهم أو عمالهم أو وزرائهم أو كتابهم أو من يلوذ بهم من أهل النفوذ. فلما انتقلت الدولة الإسلامية من الخلافة الدينية إلى الملك العضوض في أيام بني أمية اختزن الصحابة الأموال واتخذوا المصانع والضياع واقتدى بهم من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين وكان أقدمهم على ذلك الخلفاء من بني أمية فقد أكثروا من المصانع والضياع حتى كان بعض أهلهم يقبضها اغتصاباً من أصحابها وليس من ينصفهم من غضب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الأمم ولاعتبارهم ما فتحوه من الأرض ملكاً حلالاً لهم فما أرادوا أخذه أخذوه وما أرادوا تركه تركوه.

فلما أفضت الخلافة إلى بني العباس سنة ١٣٢هـ أعملوا السيف في بني أمية ففروا وتركوا أموالهم وضياعهم فاستولى عليها العباسيون، فاستكثر العمال والوزراء وغيرهم من اقتناء الضياع والأبنية بحق أو بلا حق والخلفاء يمنعونهم جاهدين وعندما لا يتمكنون من منعهم بالحسنى كانوا يصادرونها أو يقبضوا أموالهم بعد موتهم كما فعل الرشيد بأموال محمد بن سليمان عامله على البصرة وكان مبلغها ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم سوى الضياع والدور والمستغلات وكانت غلته ١٠٠,٠٠٠ درهم في اليوم، ولذلك كثرت الضياع عند رجال الدولة حتى صاروا يتهادونها أو ينعمون بها على الناس جائزة على قصيدة أو خطاب أو نكتة أو غير ذلك، وكان من أبواب اقتناء الضياع عندهم . حتى في صدر الدولة العباسية . كثرة ما كان من الأرضين المهملة في عهد بني أمية، فيأمر الخليفة بعض أهله أو خاصته بتعميرها وغرسها ثم تصير له . كما فعل المنصور بابنه صالح إذ أمره بعمارة بعض المزارع العاطلة في الأهواز . ومن أحيى أرضاً مواتاً فهي له.

(الإلجاء) ومن أسباب كثرة الضياع عند أهل الخلفاء ورجال الدولة إلجاء الأهالي ضياعهم ومغارسهم إلى بعض أقارب الخلفاء أو العمال تعززاً بهم من جباة الخراج، فكان صاحب الأرض يلتجئ إلى بعض أولئك الكبراء فيستأذنه أن يكتب ضيعته أو ضياعه باسمه فلا يتجرّأ الجباة على العنف أو الظلم في اقتضاء خراجها بل هم قد يكتفون منهم بنصف الخراج أو ربعه مراعاة لذلك الكبير، ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعاً له ويدوّن ذلك في دفاتر الحكومة، فتصبح تلك الضيعة بتوالي الأعوام ملكاً للملجأ إليه ويصبح صاحبها الأصلي شريكاً في غلتها، ومثل هذا الإلجاء يحدث في كل العصور في البلاد التي يخاف أهلها سطوة الحكام واستبدادهم.

فالضياع على إجمالها قليلة الخراج مع أنها أخصب الأرضين لأن الخلفاء وعمالهم كانوا يغضون عن كثير من الأموال المطلوبة منهم.

(الإيغار) وكان عندهم ضرب من استهلاك الخراج اسمه (إيغار) ومعناه في الأصل (استيفاء) فيقولون: (أوغر العامل الخراج أي استوفاه) ثم استخدموها بمعنى الإعفاء من الخراج بمال معين يدفعه صاحب الأرض مرة واحدة ولذلك قالوا: (أوغر الملك الرجل الأرض: جعلها له من غير خراج)

وأما أسباب كثرة النفقات فهي:

١ . إسراف الخلفاء ونسائهم

من الأمور الطبيعية في العمران إذا كثرت الأموال في الدولة أن يسخو الملوك في بذلها وخصوصاً في الدولة المطلقة وعلى الأخص في الدولة العباسية والخليفة مطلق التصرف في بيت المال ودعاة الخلافة كثيرون لا يُقعد فتنتهم غير استرضاء الأحزاب بالمال أو كسر شوكتهم بالحرب، والأول أسلم عاقبة وأقرب منالاً إذا توفرت الأموال وقد رأيناها متوفرة خصوصاً في عصر الرشيد والمأمون، فلا غرو إذا رأيناهما يبذلان الأموال في استكفاف الأذى عن الدولة أو سد أفواه أهل الفتن، لكنهم تجاوزوا ذلك إلى صنوف البذخ وضروب التبذير والترف فاقتنوا الجواري واتخذوا الفُرش من الخز والديباج والحرير والمسامير من الفضة وابتنوا المنتزهات والقصور والمدن واقتنوا الندماء وأنشأوا مجالس الغناء وارتكبوا سائر ضروب الترف

والتأنق بالطعام واللباس والرياش، وقد سهّل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الإسلامي وأطلقوا أيدي نسائهم وأمهاتهم وخاصتهم في الأموال.

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة، وقبل أن يتوفى المنصور أوصى ابنه المهدي أن لا يشرك النساء في أمره ومع ذلك فإن الخيزران أم الرشيد كانت هي صاحبة الأمر والنهي في أيام الهادي وأيامه، وكان وزيره يحيى تحت أمرها فأفضى نفوذها إلى حشد الأموال لنفسها حتى بلغت غلتها في العام ١٦٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لذلك العهد، وغلة أعظم متمولي العالم اليوم لا تزيد على ثلثي هذا المال، فقد ذكروا أن إيراد روكفلر الغني الأمريكي الشهير ١٠,٥٠٠,٠٠٠ جنيه في السنة وغلة الخيزران أكثر من ١٠,٥٠٠,٠٠٠ دينار. وقد بينا في غير هذا المكان أن قيمة النقود كانت تساوي ثلاثة أضعاف اليوم والدينار نصف جنيه فتكون دخل روكفلر نحو ثلثي غلة الخيزران.

وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة، رغّابة في الاستئثار فلما آنست في ابنها الهادي معارضة لإرادتها دسّت إليه من قتله ولما ماتت توسّع الرشيد بأموالها وأقطع الناس ضياعها.

وقبيحة أم المعتز وجدوا لها من مخبآت في الدهاليز ونحوها نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار نقداً وما لا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتي بذكره على سبيل المثال: من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلة ياقوت أحمر مما قدروا قيمته ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار وكانت مع ذلك قد عرضّت ابنها للقتل من أجل ٥٠,٠٠٠ دينار، وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الواثق فقد كانت غلتها ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار في العام تنفقها في جواريها وهي نحو غلة الخيزران، وأخرجوا من تربة والدة المقتدر ٦٠٠,٠٠٠ دينار كانت مخبأة هناك ولم يعلم بها أحد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله، وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الإسلام، فلا عجب والحالة هذه إذا تحول الغنى إلى النساء والخدم والقواد، وهل تستغرب بعد ذلك إذا علمت أنه كان بين رياش أم المستعين بساط أنفقت على صنعه ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار فيه نقوش على أشكال

الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر؟ أو إذا قيل لك إن فلانة حشت فم الشاعر الفلاني درّاً فباعه بعشرين ألف دينار أو إذا سمعت بهدايا قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء؟

الجواري والغلمان

قالوا إنه كان في قصر الرشيد ثلاثمائة جارية ما بين ضاربة على آلة موسيقية إلى مغنية إلى راقصة فضلاً عمن كان في قصره من الندماء والمضاحكين كالشيخ أبي الحسن الخليع الدمشقي وابن أبي مريم المدني وغيرهم، وما من جارية إلا وثمنها ألف دينار أو عشرة آلاف دينار إلى مائة ألف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من النفقات الأخرى كالألبسة والحلي وهي شيء كثير، فقد اشترى الرشيد خاتماً بمائة ألف دينار، وقس على ذلك.

ناهيك عمّا كانوا يقتنونه من المماليك والغلمان مما يعدون بالمئات والألوف فقد بلغ عدد خدم المقتدر ١١,٠٠٠ خصي من الروم والسودان غير ما يقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والرياش، فقد بنى المعز داراً في بغداد أنفق عليها ١٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم وبنى الأمير قصوراً في الخيزرانية أنفق عليها ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ واصطنع في دجلة خمس حراقات (سفن) إحداها على صورة الأسد والثانية بصورة الفيل والثالثة بصورة العقاب والرابعة بصورة الحية والخامسة بصورة الفرس أنفق عليها مالاً عظيماً.

السخاء

على أن الإسراف كان أكثره فيما يبذلونه كرماً وسخاءً ومنه ما ينفق يومياً فرضاً واجباً، فقد كان الرشيد يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته وكان المأمون ينفق على خاصته كل يوم ٦,٠٠٠ درهم فاعتبر مقدار ذلك في السنة فيزيد على ٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وليس هذا بالشيء الذي يذكر بجانب ما كانوا يهبونه من الجوائز ونحوها، فقد فرّق المنصور في يوم واحد ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم على أهل بيته، وفرق المأمون في يوم واحد ١,٥٠٠,٠٠٠ درهم على ثلاثة أشخاص، وقد فرق ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم ورجله في الركاب، وأوصى الرشيد للمأمون بمبلغ ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وتصدق المعتصم في أثناء

خلافته بما مجموعه ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وبلغ ما أنفقه المقتدر ضياعاً ما خلا الأرزاق ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار فضلاً عن جوائزهم للوافدين من الشعراء وغيرهم وربما بلغت جائزة الشاعر مائة ألف درهم، وذكروا جوائز كثيرة بنحو هذه القيمة أو أكثر. وروى ابن خلكان عن سالم الشاعر المعروف بالخاسر أنه نظم قصيدة مدح فيها المهدي وحلف أنه لا يأخذ قيمتها إلا مائة ألف ألف درهم (مائة مليون) فأعطاه إياها.

ومن هذا القبيل ما اتفق ليحيى بن خالد إذ أمره الرشيد أن يدفع ثمن جارية ١٠٠,٠٠٠ دينار واستكثر يحيى المال واعتذر عن دفعه فغضب الرشيد فأراد يحيى أن يبين له مقدار ما يتحمله بيت المال من هذا الإسراف في ما لا مصلحة للدولة فيه فجعل ذلك المال دراهم فبلغت نحو ١,٥٠٠,٠٠٠ درهم فوضعها في الرواق الذي يمر به الرشيد إذا أراد الوضوء، فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ولما أخبروه أنه ثمن الجارية أدرك إسرافه ولكنه شعر بما في ذلك من الجرأة عليه ومحاولة غلّ يديه فأضمر ذلك في نفسه. ويقال أنه كان من جملة الأسباب التي حملته على نكبة البرامكة.

واتفق نحو ذلك للواثق بالله مع وزيره ابن الزيات في ثمن جارية فلما ماطل الوزير بالدفع أمره أن يدفع ضعفين ففعل.

٢ . تكاثر أبواب النفقة في الدولة

تدرّجت الدولة الإسلامية في مصالحها منذ كان النبي (صلّى الله عليه وآله) هو الأمير والوزير والقاضي والقائد حتى أصبح موظفو الحكومة في أيام الخلفاء الأربعة ستة ثم تزايدوا بتزايد الحضارة واتساع المملكة في أيام بني أمية فبني العباس، وكانت تلك المصالح تتكاثر عندهم بتكاثر الثروة وميل الخلفاء ورجال دولتهم إلى الترف والرخاء فأصبحت في أيام الرشيد أكثر منها في أيام المنصور وفي أيام المأمون أكثر منها في أيام الرشيد، وقس على ذلك تكاثرها في أيام من جاء بعدهم من الخلفاء.

٣ . زيادة الرواتب

ولم تقتصر زيادة النفقات على تجديد المصالح التي لم تكن من قبل ولكن المصالح القديمة زادت نفقاتها عما كانت عليه في أوائل الدولة، وطبيعي إذا كثرت ثروة الدولة أن توسِّع على رجالها فتزيد رواتبهم وجوائزهم، فإذا كانت تلك الدولة مبنية على أساس ضعيف لا تلبث أن تنفد ثروتها وتبقى الرواتب كما هي فيقصر بيت المال في تأديتها فيضطرون إلى ضرب الضرائب الفادحة واستخدام العنف في تحصيلها فتضعف همة الناس عن العمل وتزداد البلاد فقراً.

رواتب العمال

كان راتب العامل في أيام عمر ٦٠٠ درهم في الشهر ثم اختلف باختلاف العمال والأعمال فقد جعل عمر لمعاوية على الشام ألف دينار في السنة، وربما جعلوا الولاية كلها طعمة لا يدفع عنها العامل شيئاً بل ينالها مكافأة على خدمةٍ قام بها، على أن ذلك كان خاصاً بالعمال الكبار كعامل العراقين أو مصر أو خراسان، وقد بلغ راتب يزيد بن عمرو بن هبيرة أمير العراق في أيامهم ٦٠٠,٠٠٠ درهم في السنة وبلغت غلة خالد القسري ١٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم.

وقد عقد المأمون للفضل بن سهل على المشرق من جبل همدان إلى التبت طولاً ومن بحر فارس إلى بحر الديلم (قزوين) وجرجان عرضاً ويدخل في ذلك كل ما وراء العراق شرقاً إلى الهند وجعل له عمالة ٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة وعقد له لواءً على سنان ذي شعبتين وأعطاه علماً وسماه ذا الرئاستين (السيف والقلم) ونقش على سيفه بالفضة من جانب (رئاسة الحرب) ومن الجانب الآخر (رئاسة التدبير).

رواتب الكتاب

وكانت رواتب الكتّاب إلى أيام المأمون مثل رواتب العمال الصغار لا يزيد مقدارها في الشهر على ٣٠٠ درهم فزادها الفضل بن سهل.

رواتب الوزراء

ألف دينار في الشهر، فإذا اعتبرنا تقدير النقود بالنظر إلى قيمة الفضة والذهب في هذه الأيام زاد هذا الراتب على ١,٥٠٠ جنيه، وما من وزير يبلغ راتبه إلى هذا المقدار اليوم.

على أن رواتب الوزراء كانت تختلف باختلاف العصور والدول، كان راتب الوزير على أيام الناصر الأندلسي ٨٠,٠٠٠ دينار في السنة وهدايا، وكان راتب يحيى بن هبيرة وزير المقتفي في أواسط القرن السادس للهجرة ١٠٠,٠٠٠ دينار في السنة، وكان للوزراء فضلاً عن رواتبهم المشار إليها رواتب لأولادهم وأخوتهم وخدمهم وأتباعهم وأرزاق ووظائف كثيرة وخصوصاً في مصر، فقد كان راتب الوزير في الدولة الفاطمية ٥,٠٠٠ دينار في الشهر ولمن يليه من ولد أو أخ من ٣٠٠ إلى ٢٠٠ دينار ثم حواشيهم على مقتضى عدتهم من ٣٠٠ . ٥٠٠ دينار ما عدا الإقطاعات غير ما يجري عليه وعلى أهله من المأكولات وسائر حاجيات الحياة، فقد كان للوزير ابن عمار أيام العزيز بالله الفاطمي بمصر من الجرايات لنفسه وأهل حرمه من اللحم والتوابل ما قيمته ٥٠٠ دينار في الشهر، ومن الفاكهة سلة بدينار وعشرة أرطال شمع بدينار ونصف جمل بلح.

رواتب القضاة

كان راتب القاضي في أيام الخلفاء الأربعة مائة درهم في الشهر ومؤونته من الحنطة ثم ارتقى في أيام بني أمية مثل سائر الرواتب فصار راتب قاضي مصر سنة ٨٨هـ ألف دينار في السنة، حتى بلغ في أيام المأمون سنة (٢١٣هـ) ٤,٠٠٠ درهم في الشهر أي نحو ٢٧٠ ديناراً.

رواتب الخلفاء وأهلهم

قد رأيت أن الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لأهل الوزراء والكتاب فبالأولى أن يفرضوها لأنفسهم وأولادهم، والخليفة هو القابض بيده على بيت المال، لكننا لم نجد قولاً صريحاً بهذا الشأن غير ما كان يأمر به الخلفاء لأهلهم من الضياع أو الأموال وأكثر ما كانوا يفعلون ذلك في أول الدولة إذا خافوا أهلهم من مناظرتهم على الملك فيبتاعون البيعة بمال يرضون به أهلهم كما فعل المنصور مع عيسى بن موسى إذ اشترى منه البيعة لابنه المهدي بمبلغ

١١,٠٠٠,٠٠٠ درهم له ولأولاده، أو للتوسعة عليهم واستنصارهم كما فعل مع أعمامه فإنه أمر لكل واحد منهم بمليون درهم تدفع إليهم من بيت المال وهو أول من فعل ذلك ويظهر أنها كانت تدفع إليهم في كل عام، ولما توفي ابنه المهدي فرض لأهل بيته كل واحد ٦,٠٠٠ درهم في السنة. والظاهر أن الرشيد زاد في رواتب أهله، وكذلك المأمون بالقياس على ما كان من زيادة الرواتب في خلافته، وكان أفراد العائلة قد زاد عددهم حتى بلغوا في أيامه ٣٣,٠٠٠ نفس.

رواتب حاشية الخليفة

ونريد بحاشية الخليفة الموظفين المتعلقة أعمالهم بشخص الخليفة وليس بأعمال الدولة كالأطباء والحجاب والحرس الخاص. وإليك راتب جبريل كما وجدوه مدوناً بخط كاتبه وخاصته في مدة خدمته وهي ٢٣ سنة ٨٨,٧٠٠,٠٠٠ درهم وهو جملة ما اكتسبه من بيت المال غير الصلات الجسام، وقس رواتب سائر الحاشية على هذه النسبة في تلك الأيام، فقد كانت غلة صاحب حرس الرشيد ٣٠٠,٠٠٠ درهم في السنة، وغلة صاحب شرطته ٥٠٠,٠٠٠ درهم وغلة حاجبه ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة.

رواتب الجند

ولما أفضت الخلافة إلى المعتصم سنة ٢١٨هـ وكان ما كان من اقتنائه الأتراك والفراعنة والمغاربة وتجنيدهم وضعف الخلفاء للأسباب التي قدمناها أصبح مرجع القوة في كل شيء إلى الجند، وكانت فاتحة ذلك النفوذ استفحال أمر بابك الخرمي في أرمينيا وآذربيجان وكان بابك قد ظهر في أيام المأمون يدعو الناس إلى دين جديد أساسه التقمص فبعث إليه المأمون جنوداً هزمهم غير مرة، فلما تولى المعتصم جعل همه قمع بابك لأنه أصبح في خطر منه على ملكه فبعث إليه أتراكه بقيادة رجل منهم اسمه الافشين حيدر بن كاووس سنة ٢٢٠هـ ثم أردفه بآخر اسمه بغا الكبير ومعه المال وآخر اسمه جعفر الخياط ثم أنفذ إليه ايتاخ ومعه ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم لنفقات الجند، وبعد حروب سنتين فاز الافشين وقبض على بابك بحيلة بذل فيها المال، وجاء ببابك إلى سامراء فخرج الواثق بن المعتصم وسائر أهل المعتصم

لاستقباله باحتفال وهم لا يصدقون أنهم نجوا من بابك على يده لأنه كان قد أمعن في البلاد نهباً وقتلاً فقتل في عشرين سنة ٢٥٥,٥٠٠ نفس وغلب على معظم قواد المأمون والمعتصم، فلما قبض الافشين عليه أمر المعتصم أن يركبوه على الفيل فأركبوه واستشرفه الناس وكان بابك عظيم الجثة، ثم أدخلوه على المعتصم في داره فأمر سيّاف بابك نفسه أن يقطع يديه ورجليه فقطعها فسقط بابك فأمره بذبحه ففعل وشق بطنه وأنفذ رأسه إلى خراسان وصلب بدنه في سامراء، وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً أمن فيه المعتصم على ملكه وعرف ذلك الفضل للافشين ورجاله، وكان لا ينفك وهو يواصل الافشين بالعطايا والخلع من يوم خروجه إلى يوم رجوعه. فكان يرسل إليه كل يوم خلعة وفرساً ويدفع إليه في أثناء إقامته بإزاء بابك (سوى الأرزاق وغيرها) عن كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وعن كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم. ولما عاد الافشين تقدم المعتصم بنفسه وألبسه وسامين مرصعين بالجوهر ووصله بعشرين مليون درهم عشرة ملايين منها لنفسه وعشرة يفرقها في عسكره وعقد له على السند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه.

فالافشين لم يثبت في محاربة بابك إلا طمعاً بالمال، فإذا اعتبرت هذه النفقات مع أرزاق الرجال وما قد يحتاجون إليه من المؤونة والأخرجة كان المجموع عظيماً جداً. قال الطبري في حوادث سنة ٢٥٢هـ: (وذكر أن أرزاق الأتراك والمغاربة والشاكرية قدرت في هذه السنة فكان مبلغ ما يحتاجون إليه في السنة ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار وذلك خراج المملكة كلها لسنتين). على أن الخلفاء كانوا إذا احتدم القتال وخاف الخليفة أو الأمير ضعفاً صاح في جنده: (من جاء بأسير فله عشرة دنانير ومن جاء برأس فله خمسة دنانير).

رواتب أخرى

كانت سياسة الملك في تلك العصور تقتضي استرضاء بعض الناس ممن يخاف الخلفاء أقلامهم أو ألسنتهم أو أحزابهم، لأن المملكة لم تكن تخلو من دعاة يطلبون الخلافة لأنفسهم من العلويين أو الخوارج أو غيرهم، والملك لا يخلو من حساد يترقبون الفرصة للانتقام، وكان للخطابة والحماسة يومئذ تأثير على الرأي العام أكثر مما للصحافة في هذه

الأيام. فالخلفاء العقلاء كانوا يؤثرون تلافي شرور المقاومين بالإحسان إليهم أو الرفق بهم فيقطعون ألسنتهم بالجوائز الوقتية أو بالرواتب الجارية.

عدد أيام الشهور

شرعت الدولة العباسية في زيادة الرواتب إبان ثروتها ولم تكن تشعر بثقل تلك الزيادة لوفرة الأموال الواردة على بيت المال. ثم ما لبثت أن رأت الجباية تتناقص ولم يعد في إمكانها تنقيص الرواتب بعد أن تعود أصحابها الإسراف والبذخ واقتناء الخدم والمماليك اقتداءً بخلفائهم ولا في الإمكان إقالتهم خوفاً من غضبهم فعمد الوزراء إلى حيلة حسنة اقتصدوا بها شيئاً كثيراً من المال، وذلك أنهم جعلوا الرواتب بإضافة عدد من الأيام على الشهر فإذا أرادوا تخفيض بعضها وكان مقدار الرواتب ألف دينار في الشهر ـ مثلاً ـ فبدلاً من أن يجعلوه ٨٠٠ دينار يبقونه على ما كان ويزيدون أيام ذلك الشهر فيجعلونها أربعين يوماً أو خمسين. فأصبح لكل فئة من الموظفين تقريباً شهر خاص يختلف عن عدد أيام الشهر عند الآخرين.

٤ ـ النفقة على البيعة

رأيت في ما تقدم أن الخلفاء في أوائل الدولة العباسية كانوا يحتاجون في تأييد بيعتهم إلى استرضاء أهل الحرمين وكانوا يحملون إليهم الأموال ويبذلون لهم الأعطية ويفرقون فيهم الهدايا. فلما ضعف شأن العرب بعد المعتصم وقوي جند الأتراك أهمل أمر الحرمين وصارت القوة إليهم أو بالأحرى إلى المال، لأن الأتراك إنما يحاربون مع صاحب المال .

وأما بعد أيام المعتصم فأصبحت البيعة تجارة ينالها صاحب المال أو صاحب الجند والمعنى واحد، وكان الجند يُسرّون بخلع الخلفاء طمعاً بالمال لأنهم كلما تولى خليفة طالبوه بحق البيعة ورزق ستة أشهر أو سنة أو أكثر أو أقل على قدر مطامعهم، وانشغل الناس عن الزراعة والتجارة وأهملت الأعمال بوجه الإجمال.

وزاد أهل البلاد شقاءً أن قواد الجند كانوا إذا أعوزهم المال ولم يكن في بيت المال ما يكفي استخرجوه من الأهالي، وكثيراً ما كان يحدث ذلك في أثناء الحروب بين فرق الجند في تنازعهم على تولية أحد الخلفاء، فقد نهب جند الديلم أموال الناس في بغداد في أثناء الخصام

بين ناصر الدولة ومعز الدولة سنة ٣٣٤هـ بشأن الخليفة المطيع لله وكان مقدار ما نهبوه من أموال المعروفين فقط ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار. فلم يبق في الدولة العباسية والحالة هذه مصدر للمال للقيام بنفقات مصالحها واستبقاء جندها لأن الفتن أقعدت الناس عن العمل فخربت البلاد.

٥ . استئثار رجال الدولة بالأموال لأنفسهم

إذا بلغت الدولة إلى قمة ثروتها وانغمس الملك في الترف واللهو وتقاعد عن مباشرة الأحكام بنفسه، تحول النفوذ إلى المحيطين به أو الذين ينوبون عنه أو يتوسطون بينه وبين الناس كالوزير والعامل والكاتب والحاجب والقائد وأصبح الأمر والنهي في أيديهم، فيستأثرون بالأموال لأنفسهم يجمعون منها ما استطاعوا ويسرفون ويبذخون على ما تقتضيه أحوالهم وأطوارهم، فاعتبر ما كان من نفوذ البرامكة في أيام الرشيد وما كان من إحرازهم الأموال لأنفسهم حتى كان يحتاج الرشيد إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد نكبهم على ما هو مشهور كما نكب المهدي قبله وزيره يعقوب بن داود وكان قد استوزره وسلم إليه الأمور. وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن أكثم القاضي إذ عهد إليه بتدبير مملكته وأكرمه نحو إكرام الرشيد للبرامكة ثم لم يكن راضياً عنه ولذلك فلما دنت وفاة المأمون وصى أخاه المعتصم قائلاً: (لا تتخذن وزيراً تلقي إليه شيئاً فقد علمت ما نكبني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس وخبث سريرته).

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء أو بيت المال في أيام الازدهار كأن الأموال تحولت من بيت المال إلى بيوت هؤلاء الناس وصارت الوزارة مطمح أنظار أهل المطامع يبذلون الرشاوى ويقدمون الهدايا رغبة فيها، كما فعل ابن مقلة إذ بذل ٥٠٠,٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضي. ومن غريب ما يحكى عن ارتشاء الوزراء أن الخاقاني وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة أنه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة وأخذ من كل واحد رشوة فانحدروا واحداً واحداً حتى اجتمعوا جميعاً في بعض الطريق فقالوا: كيف نصنع؟

فقال أحدهم: ينبغي إن أردتم النصفة أن ينحدر إلى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير فهو الذي ولايته صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد. فاتفقوا على ذلك فتوجه الرجل الذي جاء في الأخير نحو الكوفة وعاد الباقون إلى الوزير ففرقهم في عدة أعمال.

وبالإجمال إن الوزراء في عصر التقهقر العباسي قلما كانوا يتولون الوزارة إلا طمعاً باختزان الأموال، فإن أبا الحسن ابن الفرات وزر للمقتدر ثلاث دفعات الأولى سنة ٢٩٦هـ بقي فيها ثلاث سنين فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوي ٧,٠٠٠,٠٠٠ دينار أخذت كلها مصادرة ثم عاد إلى الوزارة سنة ٣٠٤ وخلع سنة ٣٠٦ ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ وخُلع سنة ٣١٢ فمجموع المدة التي مكث بها في الوزارة في الدفعتين الأخيرتين نحو ثلاث سنوات فكان عنده لما خلع أخيراً ما يزيد على ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار وضياع يستغل منها كل سنة ٢,٠٠٠,٠٠٠ وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالاً طائلة وانغمسوا في أنواع الترف والبذخ وذلك طبيعي في الدول المنتظمة على الطرق القديمة، لأن الوزراء كانوا يجمعون الأموال الكثيرة حيثما كانوا في العراق أو في مصر أو الأندلس، فقد خلف الماردايي وزير بني طولون بمصر من الضياع الكبار ما قلّما ملكه أحد قبله وارتفاعها ٤٠٠,٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج وقد وهب وأعطى وأفضل وحج ٢٧ حجة أنفق في كل منها ١٥٠,٠٠٠ دينار، ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان في جملة أملاكه إقطاع في الشام دخله ٣٠٠,٠٠٠ دينار في السنة وخلف أملاكاً وضياعاً وقياساً ورباعاً وخيلاً وبغالاً ونوقاً وغيرها ما قيمته ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار غير ما أنفقه في تجهيز ابنته وهو ٢٠٠,٠٠٠ دينار وخلف ٨٠٠ حظية سوى جواري الخدمة وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية. وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي ما لم يسمع بمثله وذلك ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار عيناً و٢٥٠ أردب دراهم نقد مصر و٧٥,٠٠٠ ثوب ديباج أطلس و٣٠ راحلة أحقاق ذهب عراقي ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢,٠٠٠ دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيها أحب لَبَسه و٥٠٠ صندوق كسوة ما عدا الخيل والبغال والماشية والجواري والعبيد ما لا يحصيه عدّ، أما الأبواب التي كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون تلك الأموال بها فكثيرة من جملتها قبول الرشوة في التوظيف كما تقدم وما يرد

عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه، ومنها اغتصاب الضياع بما لهم من النفوذ فيستولون على ما شاءوا بغير حساب ناهيك بما كانوا يمدون إليه أيديهم من أموال الخراج الواردة إلى الديوان فإن طريقة دفاتر تلك الأيام لم تكن تمنع الاختلاس أو تظهره.

ومن أبواب الكسب أيضاً أن بعض الموظفين كانوا يحتاجون إلى رواتبهم وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ولا سبيل لهم إلى المال فكان بعض الوزراء يقيم من قبله أناساً يشترون توقيعات أرزاق أولئك الموظفين بنصف قيمتها ثم يقبضها هو كاملة.

المصادرة

كذلك فعل عمر بن الخطاب بعماله على الكوفة والبصرة والبحرين وكانوا يسمون ذلك مقاسمة أو مشاطرة. فلما أفضت الأمور إلى بني أمية وكان ما كان من استبداد عمالهم وطمعهم في أموال الجباية أصبح الخلفاء في أواخر الدولة لا يعزلون عاملاً عن عمله إلا حاسبوه على ما عنده من المال واستخرجوا ما تصل إليه أيديهم من أمواله وكانوا يسمون ذلك (استخراجاً).

والمنصور كان لا يعزل عاملاً إلا قبض ماله وتركه في بيت مستقل سماه (بيت مال المظالم) وتكاثر تعدي العمال في أيام المهدي (سنة ١٥٨هـ ـ ١٦٩هـ) فاضطر هذا الخليفة إلى النظر في المظالم ـ وما هي إلا مظالم العمال ـ ثم نظر فيها بعده الهادي فالرشيد فالمأمون إلى المهتدي في أواسط القرن الثالث.

العمال

وغنى العمال ميسور في تلك العصور بالنظر إلى استقلالهم في إدارتهم وشؤونهم وخصوصاً عمال الاستيلاء المفوضين في كل شيء، وأبواب الكسب عندهم كثيرة: منها أن العامل إذا جاء عمله فأول شيء يتوقعه أن يحمل إليه الناس الهدايا وفيها الدواب والجواري والأموال والثياب ما يبلغ مقداره شيئاً كثيراً، ناهيك بما كانوا يخترعونه من صنوف الضرائب وتحصيل بعضها مرتين أو ثلاث مرات تبعاً لما تقتضيه حاجتهم إلى المال في إرضاء الوزراء أو لادخاره والانتفاع به عند الاعتزال من المنصب. ومن أبواب الكسب للمال أن ينفق العامل

على بناء بيت أو جسر أو على حفر ترعة أو نهر ألف دينار مثلاً ويطالب بعشرة آلاف أو مائة ألف وربما قدروا ما ينفقون فيه عشرة دنانير بستين ألف دينار فضلاً عن اغتصاب الضياع وغيرها، فهل من عجب بعد ذلك إذا بلغت أموال محمد بن سليمان عامل الرشيد على البصرة ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم سوى الضياع والدور والمستغلات؟ وكان محمد هذا يغلُّ كل يوم ١٠٠,٠٠٠ درهم وبلغت أموال علي بن عيسى بن ماهان ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم فلم ير الرشيد إلا الجنوح إلى الاستخراج وهو المصادرة، وكان الغالب في بادئ الرأي أن يقبضوا أموال العمال بعد موتهم كما فعلوا بمحمد بن سليمان المذكور ثم صاروا يستخرجون أموالهم وهم أحياء كما فعل الرشيد بعلي بن عيسى فإنه عزله واستصفى أمواله المذكورة وحملها مع خزائنه وأثاثه على ١٥٠٠ جمل غير ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم كان ابنه عيسى بن علي قد دفنها في بستان بداره في بلخ.

بدأت مصادرة الوزراء في الدولة العباسية من أولها ولكنها كانت في أول الأمر على سبيل النكبة والغرض منها الانتقام من الوزير لجريمة سياسية أو التخلص منه لغرض آخر. ومن هذا القبيل مقتل أبي سلمة الخلال أول وزراء بني العباس فبعد أن أيّد دعوتهم بأمواله كما أيدها أبو مسلم الخراساني بسيفه وشي إلى السفاح أنه ينوي إخراج الدولة من أيديهم فأوعز إلى أبي مسلم فقتله ثم أصاب أبو مسلم من المنصور مثل تلك النكبة، ويقال نحو ذلك في نكبة البرامكة في أيام الرشيد والفضل بن مروان في أيام المعتصم وفي نكبة الفضل هذا رغبة في قبض أمواله لأن المعتصم نكبه سنة ٢٢١هـ وأخذ من داره ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار وأثاثاً وآنية قيمتها ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار، ولما تمكن الانحطاط من الدولة صار الغرض من مصادرة الوزراء مجرد الاستحواذ على أموالهم وبلغت المصادرة معظمها في أيام المقتدر (سنة ٢٩٥ . ٣٢٠هـ).

وكثرت المصادرات في أيام المقتدر لغير الوزراء حتى القضاة والنساء والخدام، وربما زاد مجموع ما قبضه من المصادرة على ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار على أنهم قدروا جملة ما أنفقه من الأموال تبذيراً وتضييعاً في غير وجه نيفاً و٧٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار.

الكتّاب

وهناك فئات أخرى من موظفي الدولة كانوا يستأثرون بأموالها ومنهم كتاب الخراج ويهون ذلك عليهم لأنهم يباشرون مصادر الجباية رأساً، وكانت أكثر أموالهم تؤخذ بالرشوة والاختلاس حتى اشتهروا بالظلم كما اشتهر الوزراء.

وكان من أبواب الكسب عند الكتاب ارتشاؤهم للتوسط في تولية العمال أو سواهم كما فعل أحمد بن أبي خالد الأحول كاتب المأمون في توسطه لدى المأمون بتولية طاهر بن الحسين على خراسان وقد شرط له على نجاحه في ذلك ٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم.

الحجاب

وكانت ثروة المملكة عرضة لمطامع كل من كانت له دالة أو وساطة لدى ولاة الأمر وخصوصاً الحجاب الذين يقفون بأبواب الخلفاء فإنهم من أكثر الناس دالة عليهم فكانوا كثيراً ما يستخدمون تلك الدالة لاكتساب الأموال. وكان ذلك شأنهم حتى في العصر الأول. قال المغيرة بن شعبة: (ربما عرق الدرهم في يدي أرفعه ليُرى ليسهل إذني على عمر) . . وقد عرفت أنه أي (الظلم) يدعو إلى خراب الممالك فإنه يقوّض أركان الدول بما يدعو إليه من تقييد الأيدي عن العمل فيقعد الزارع عن زراعته والتاجر عن تجارته والصانع عن صناعته، ولا مال إلا إذا اشتغل هؤلاء ولذلك قالوا: (العدل أساس الملك).

ثروة المملكة العباسية أي البلاد وأهلها

فرغنا من الكلام في ثروة الدولة العباسية ورجالها وبقي علينا النظر في ثروة المملكة وهي البلاد بما فيها من الناس على اختلاف طبقاتهم من أهل التجارة والزراعة والصناعة، وغيرهم. وكانت البلاد قسمين المدن والقرى:

المدن

كانت الثروة محصورة في المدن دون القرى عملاً بقاعدة التمدن في تلك الأيام وهي أن تكون الثروة والأبهة حيثما يكون ولاة الأمر أو من يلوذ بهم من الخليفة إلى أهله فأهل بلاطه فعماله ووزرائه.

ففي هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الإسلامية وعاش الناس في الرخاء والرغد بجوار الخليفة ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلعهم ويبيعونهم السلع والمجوهرات والأقمشة. وفي هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء يتعيشون بما يجود به الخليفة أو أمراؤه أو رجال دولته، فالثروة في المدن تابعة لثروة الحكومة أو رجالها. فلما كان بلاط الرشيد غاصاً بالوفود وبيت ماله حافلاً بالنقود والبرامكة يبذلون المئات والألوف كان تجار بغداد في نعمة وثروة وخصوصاً باعة المجوهرات والرياش لأنهما مما تتطلبه المدنية في عهد الترف والبذخ فمثلاً أن بائع للمجوهرات بالكرخ في بغداد ساومه يحيى البرمكي على سفط من الجوهر بمبلغ ٧,٠٠٠,٠٠٠ درهم فلم يبعه وهو جزء مما في حانوته فما قولك بسائر ما فيه؟ وهناك جواهري آخر يقال له (ابن الجصاص) صادره الخليفة المقتدر سنة ٣٠٢هـ فكان ما أخذوه من بيته من صنوف الأموال تزيد قيمته على ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار، وكان في بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خراج أملاكه ٢,٥٠٠,٠٠٠ درهم في السنة. وقس

على ذلك سائر التجارات في بغداد وغيرها، فقد كان في اصطخر بيتٌ ينتسب إلى آل حنظلة أحدهم عمرو بن عيينة بلغ من يساره أنه ابتاع بمليون درهم مصاحف فرقها في مدن الإسلام وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم. ومنهم مرداس بن عمر كان خراج ماله ٣,٠٠٠,٠٠٠ وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه. وكان في سيراف تجار واسعو الثروة يتجاوز مال أحدهم ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم اكتسبوها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والأبنوس والفلفل وغيرها. ومنهم من يبني داراً فينفق على بنائها ٣٠,٠٠٠ دينار وأوصى أحدهم بثلث ماله لعمل فبلغ ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته وأمثال ذلك كثير في معظم مدن المشرق، وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم أو خدمهم في بلاطهم إبان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والعمال فإنهم جمعوا أموالاً طائلة حتى المغنين والشعراء. فقد توفي إبراهيم الموصلي مغني الرشيد عن ثروة مقدارها ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم وتوفي جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وخلف ما يساوي ٩٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم من ضياع وجواهر ونقود.

القرى

أما القرى فقد كان سكانها من الفلاحين من أهل البلاد الأصليين ويموّنهم (أهل الخراج) فهؤلاء يعملون بالأجرة أو شركاء لأصحاب الأملاك من الخلفاء أو الأمراء أو من ينتمي إليهم وخصوصاً الدهاقين في العراق وفارس وهم أصحاب الإقطاعات الكبرى قبل الإسلام. فسكان القرى هم الفلاحون ومن يجري مجراهم وكانوا يقتنعون بالحصول على ما يقوم بأود حياتهم ويغلب فيهم الفقر المدقع وربما كان بينهم من لم يرَ الدينار طول عمره فكان أهل الدولة في المدن يبذلون الدنانير جزافاً ويهبونها مئاتٍ وآلافاً وأهل القرى في فقر مُدقع لو رأى أحدهم الدينار لسجد له وقبله مثنىً وثلاثاً، ولو دفعت إليه عشرة دنانير أو عشرين لأصابه خبل أو مات من ساعته كما اتفق للصياد بين يدي ابن طولون.

المدن الإسلامية

نريد بالمدن الإسلامية ما بناه المسلمون من المدن لأنفسهم، وهي غير ما افتتحوه من مدائن الروم والفرس. والمدن الإسلامية عديدة في العراق والشام ومصر وأفريقية والأندلس وغيرها ومنها ما لم يزل عامراً إلى اليوم كالبصرة وبغداد والقاهرة ومنها ما انقرض وعفت آثاره كالفسطاط والزهراء.

فلما تأيد الإسلام واجتمع العرب على فتح الأمصار في العراق والشام ومصر كانوا في بادئ الأمر إذا ساروا إلى غزو أو فتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم فإذا فتحوا بلداً أقاموا في ضواحيه بخيامهم وأخبيتهم وهو معسكرهم، فلما اتسع ملك العرب وتعددت دول المسلمين صاروا يختطون المدن تذكاراً لفتوحهم أو تحصّناً بها من أعدائهم. كما فعل المنصور ببغداد فإنه بناها حصناً له وكذلك فعل الفاطميون بالقاهرة. وكثيراً ما كان الخلفاء يبنون المدن للتنزّه بها وابتعاداً عن الغوغاء مثل سامراء والمتوكلية والزهراء وغيرها. وإليك وصف أشهر المدائن الإسلامية مرتّبة باعتبار قدمها.

البصرة

هي من أقدم المدن التي بناها المسلمون ولا تزال باقية إلى الآن.

مصّرها عتبة بن غزوان سنة ١٦ للهجرة، فعمرت البصرة واتسعت عمارتها حتى بلغت مساحتها في إمارة خالد بن عبد الله (القسري) فرسخين في فرسخين أي ١٦ ميلاً مربعاً في أرضٍ منبسطةٍ لا جبال فيها.

وكانت مياه البصرة مرسى مئات من السفن التجارية، وقد ذكرنا في مكان آخر مقدار ما كانت الحكومة تجبيه من تاجر واحد من تجارها وهو نحو ١٠٠,٠٠٠ دينار في العام، فقس عليه التجار الآخرين وفيهم الكبير والصغير.

قال ابن حوقل والاصطخري: (ولها نخيل متصلة من عبدسي إلى عبادان نيفاً وخمسين فرسخاً متصلة لا يكون الإنسان منها بمكان إلا وهو في نهر ونخيل أو يكون بحيث يراها) . فاعتبر هذه المسافة طولاً في مثل نصفها عرضاً على الأقل أي ١٥٠ ميلاً في ٧٥ وذلك ١١,٢٥٠ ميلاً مربعاً فيعقل أن يكون في الميل الواحد عشر ترع صغيرة . .

الكوفة

بنيت الكوفة بعد البصرة ببضعة أشهر بناها سعد بن أبي وقاص، وكان للكوفة شأن كبير عند الشيعة لأن الإمام علي (عليه السلام) جعلها عاصمة ملكه إلى أن قتل.

الفسطاط

هي أول مدن المسلمين في القطر المصري بناها عمرو بن العاص سنة ١٨هـ في ما بين القاهرة اليوم ومصر العتيقة. وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال.

وذكر مؤرخو العرب من مقدار عمارتها أنه كان فيها ٣٦,٠٠٠ مسجد و ٨,٠٠٠ شارع مسلوك و١,١٧٠ حماماً. وبلغ من تزاحم الناس في الفسطاط حتى جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات إلى سبع وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠ فرد من الناس وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠,٠٠٠ دينار. ونقل بعضهم أن الأساطيل التي كانت مطلة على النيل بلغ عددها ٦,٠٠٠ أُسطول مزوّدة ببكر ولها أطناب ترخى وتملأ.

بغداد

هي عاصمة العباسيين بناها المنصور سنة ١٤٥هـ ولا تزال باقية إلى اليوم وقد تغير موضعها مراراً، وبلغت بغداد معظم عمارتها في أيام المأمون حتى امتدت أبنيتها وبساتينها على بقعة قالوا إن مساحتها ٥٣,٧٥٠ جريباً منها ٢٦,٧٥٠ جريباً في الجانب الشرقي و٢٧,٠٠٠ في الجانب الغربي والجريب ٣,٦٠٠ ذراع مربع، فتكون مساحة بغداد كلها نحو ١٦,٠٠٠ فدان وهو شيء كثير . ولكن يظهر أنها عبارة عن مدن متلاصقة . قال الخطيب

البغدادي في تاريخه أنها أربعون مدينة وأن الحمامات بلغ عددها في أيام المأمون ٦٥,٠٠٠ حمام وقد أراد صاحب (سِيَر الملوك) بيان مقدار عمارة بغداد فقال: (وكان عدد الحمامات في ذلك الوقت ببغداد ستين ألف حمام وأقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر: حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقاء، يكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل وذكر أن إزاء كل حمام خمسة مساجد يكون ذلك ثلاثمائة ألف مسجد وتقدير ذلك أن أقل ما يكون في كل مسجد خمسة نفر يكون ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان)، ناهيك عما كان من العمارة حول بغداد وفي سائر بلاد السواد، قال ابن حوقل وقد رآها في أثناء القرن الرابع للهجرة: (وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق إليه أنهار من الفرات.. إلخ).

وهناك مدائن أخرى من بناء المسلمين ذات شأن كالقيروان في بلاد المغرب وواسط في العراق وغيرهما في مصر والشام وفارس، ناهيك عما بالمدائن التي كانت عامرة قبل الإسلام وقد نزل فيها المسلمون وزادوا عمارتها مثل دمشق الشام وقرطبة وغرناطة وطليطلة والإسكندرية.

الفصل الثالث

علوم العرب قبل الإسلام

جزيرة العرب شحيحة المياه كثيرة الصحاري والجبال فلم يشتغل أهلها بالزراعة لجدب الأرض. والإنسان صنيعة الإقليم، فنشأ العرب على ما تقتضيه البلاد المجدبة من الارتزاق بالسائمة والترحال في طلب المرعى، فغلبت البداوة على الحضارة فيهم وانصرف أكثر همهم إلى تربية الماشية وهي قليلة بالنظر إلى احتياجاتهم فنشأ بينهم التنازع عليها وجرّهم التنازع إلى الغزو واضطرهم الغزو إلى الانتقال بخيامهم وأنعامهم من نجع إلى نجع ومن صقع إلى صقع ليلاً ونهاراً. وجوّهم صافٍ وسماؤهم واضحة فعولوا في الاهتداء إلى السبل على النجوم ومواقعها. واحتاجوا في مطاردة أعدائهم إلى استنباط الأدلة للكشف عن مخابئهم فاستنبطوا قيامة الأثر وألجأهم ذلك أيضاً إلى توقي حوادث الجو من المطر والأعاصير ونحوها فعنوا بالتنبؤ بحدوث الأمطار وهبوب الرياح قبل حدوثها وهو ما يعبرون عنه بالأنواء ومهاب الرياح. ودعاهم الغزو من الجهة الأخرى إلى العصبية لتأليف الأحزاب فعمدوا إلى الأنساب يترابطون بها، وحيث أقاموا في بادية صفا جوها وأشرقت سماؤها صفت أذهانهم وانصرفت قرائحهم إلى قرض الشعر يصفون به وقائعهم أو يبينون به أنسابهم أو يعبرون به عن عواطفهم، وقويت فيهم ملكة البلاغة فبرعوا في إلقاء الخطب على أن العرب لم يسلموا مما وقع فيه معاصروهم من الأمم العظمى من اعتقاد الكهانة والعرافة وزجر الطير وخط الرمل وتعبير الرؤيا، وقد سميناها علوماً بالقياس على ما يماثلها عند الأمم الأخرى في عصر العلم وإلا فالعرب لم يتعلموها في المدارس ولا قرأوها في الصحف ولا ألفوا فيها الكتب لأنهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون وإنما هي معلومات تجمعت في ذاكرتهم بتوالي الأجيال بالاقتباس أو الاستنباط وتنقلت في الأعقاب، أما علومهم فهي:

١ ـ علم النجوم عند العرب

إن العرب مدينون بعلم النجوم للكلدان وهم يسموهم الصابئة . والصابئة إن لم يكونوا الكلدان أنفسهم فهم خلفاؤهم أو تلامذتهم . وكان الصابئة كثيرين في بلاد العرب ولهم مثل منزلة النصارى أو اليهود، فأخذ العرب عنهم علم النجوم، ولا غرابة في إتقانهم معرفة النجوم ومواقعها فإنها كانت دليلهم في أسفارهم وأكثر أحوالهم فكانوا إذا سألهم سائل عن الطريق المؤدي إلى البلد الفلاني قالوا: (عليك بنجم كذا وكذا) فيسير في جهته حتى يجد المكان وربما استعانوا على ذلك أيضاً بذكر مهاب الرياح يعبرون بها عن الجهات.

٢ . الأنواء ومهاب الرياح

ويراد بالأنواء عندهم ما يقابل علم الظواهر الجوية عندنا مما يتعلق بالمطر والرياح. وكانوا إذا مطرت السماء نسبوا المطر إلى تأثير النجم المتسلط في ذلك الوقت فيقولون مثلاً مطرنا بنوء المجرة أو هذا نوء الخريف مطرنا بالشعري، وقالوا: إن النوء سقوط نجم ينزل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه في الشرق مع أنجم المنازل ولذلك كانت الأنواء ٢٨ نوءً أو نجماً كانوا يعتقدون أنها هي علة الأمطار والرياح والحر والبرد.

وكان العرب في حاجة إلى معرفة مهاب الرياح للاهتداء بها في أسفارهم ولذلك فقد وضعوا لها الأسماء:

(١) مهب الصبا من الشمال (٢) مهب الشمال من المغرب (٣) مهب الدبور من الجنوب (٤) مهب الجنوب من المشرق.

٣ . الميثولوجيا

ومما يلحق بعلم النجوم أيضاً ما يعبر عنه الإفرنج بالميثولوجيا وهي عبارة عما كانوا يزعمون وقوعه بين الكواكب أو هي الآلهة عندهم من الحروب أو الزواج أو نحو ذلك من حوادث البشر على نحو ما ذكروه عن آلهة اليونان. ومن هذا القبيل تأليههم بعض المشاهير من الملوك أو القواد أو الأسلاف واعتبار البعض الآخر من نتاج الملائكة أو الجان، فعندهم

مثلاً أن بلقيس كانت أمها جنية وأن جدها كان من نتاج الملائكة وبنات آدم، وكذلك كان ذو القرنين عندهم أمه آدمية وأبوه من الملائكة.

٤ . الكهانة والعرافة

هما لفظان لمعنى واحد وفرق بعضهم بينهما فقال: الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة، والعرافة بالأمور الماضية، وعلى كل حال فالمراد بهما التنبؤ واستطلاع الغيب، على أن العرب كانوا يعتقدون في الكاهن القدرة على كل شيء، وأن ذلك يأتيهم بواسطة الأرواح فمن كان منهم يعتقد التوحيد نسب ذلك إلى استطلاع الغيب عن أفواه الملائكة، وإذا كان من عبدة الأصنام اعتقد احتلال الأرواح في الأصنام وإباحتها أسرار الطبيعة للكهان والسدنة فيقول العرب إن الأصنام تدخلها الجن (أي الأرواح) وتخاطب الكهان وإن الكاهن يأتيه الجني بخبر من السماء وربما عبّروا عنه بالهاتف، وكان للكهان عند العرب لغة خاصة تمتاز بتسجيع خصوصي يعرف بسجع الكهان مع تعقيد وغموض، ولعلهم كانوا يتوخون ذلك للتمويه على الناس بعبارات تحتمل غير وجه كما يفعل بعض مشايخ التنجيم في هذه الأيام حتى إذا لم يصدق تكهنهم جعلوا السبب أنه قصور الناس في فهم قول الكاهن.

القيافة

ومن قبيل الكهانة أيضاً القيافة لكنها تختص بتتبع الآثار والاستدلال منها على الأعيان وهي قسمان: قيافة الأثر، وقيافة البشر: فهي الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما في النسب والولادة وسائر أحوالهما وهي من قبيل الفراسة، ومن هذا القبيل زجر الطير وخط الرمل وقد أغضينا عنهما لضيق المقام.

٥ . الطب في الجاهلية

الطب من جملة العلوم التي وضع أساسها الكلدان كهنة بابل وهم أول من بحث في علاج الأمراض فكانوا يضعون مرضاهم في الأزقة ومعابر الطرق حتى إذا مرّ بهم أحد أصيب بذلك الداء فيعلمهم بسبب شفائه فيكتبون ذلك على ألواحٍ يعلقونها في الهياكل ولذلك كان

التطبيب عندهم من جملة أعمال الكهان، وكان للتطبيب عندهم طريقتان: الأولى طريقة الكهان والعرافين، والثانية طريقة العلاج الحقيقية، فالكهان كانوا يعالجون بالرقي والسحر أو بذبح الذبائح في الكعبة والدعاء فيها أو بالتغريم أو نحو ذلك، وأما معالجاتهم العقارية فشبيهة بما كان عند المصريين وغيرهم من الأمم القديمة فقد كانوا يعالجون بالعقاقير البسيطة أو الأشربة وخصوصاً العسل فإنه كان قاعدة العلاج في أمراض البطن. على أن اعتمادهم في معالجة الأمراض كان معظمه عائداً إلى الجراحة كالحجامة والكي . .

الأطباء

وأما الأطباء فقد كانوا في أول الأمر من الكهنة ثم تعاطى الطب جماعة من العرب ممن خالطوا الروم والفرس وأخذوا الطب عنهم فاشتهروا بهذه الصناعة، والظاهر أن بعضهم كان يخصص نفسه للأعمال الجراحية فيغلب عليه لقب الجراح وأشهر جراحي الجاهلية ابن أبي رومية التميمي فقد كان جراحاً مزاولاً لأعمال اليد.

ونظراً لعناية العرب بخيولهم وإبلهم كان بعض الأطباء يخصص نفسه لمعالجتها مما يعبرون عنه اليوم بالبيطرة، ومن بياطرة الجاهلية العاص بن وائل.

٦ . الشعر في الجاهلية

الشعر عند العرب الكلام المقفّى الموزون، والتصورات الشعرية فطرية في العرب أما النظم فحادث عندهم، وربما صاغوا الشعر أولاً بعبارات قصيرة تحفظ وتتناقل على سبيل الأمثال، ومنها الأمثال الحكمية ونحوها.

وظلوا دهراً طويلاً يقول شاعرهم من الرجز البيتين أو الثلاثة إذا هاجت فيه قريحة الشعر لمفاخرة أو مشاتمة أو منافرة وكانوا كلما نبغ فيهم نابغة أدخل في النظم تحسيناً، والمهلهل يقولون أنه أول من قصد القصائد وامرؤ القيس أول من أطالها وتفنن في نظمها وفتح الشعر وبكى ووصف، وهم يعدون منظوماتهم بالقصائد وليس بالأبيات، فقد ذكروا أن أبا تمام صاحب كتاب الحماسة كان يحفظ من أشعار العرب (الجاهلية) ١٤,٠٠٠ أُرجوزة غير القصائد والمقاطيع وكان حماد الراوية يحفظ ٢٧,٠٠٠ قصيدة على كل حرف من

حروف الهجاء ألف قصيدة، وكان الأصمعي يحفظ ١٦,٠٠٠ أُرجوزة وكان أبو ضمضم يروي أشعاراً لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو.

منزلة الشعر

فكانوا يثيرون بذلك غيرة أبنائهم على إتقان الشعر ويحرّضونهم على نظمه، لأن الشعراء كانوا حماة الأعراض وحفظة الآثار ونقلة الأخبار وربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس ولذلك كانوا إذا نبغ فيهم شاعر من قبيلة أتت القبائل الأخرى فهنأتها به وصنعت الأطعمة واجتمعت النسوة يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس وتتباشر الرجال والولدان. وقد بلغ من احترام العرب للشعر والشعراء أنهم عمدوا إلى سبع قصائد اختاروها من الشعر القديم وكتبوها بماء الذهب في القباطي (التيل المصري) بشكل الدرج الملتف وعلقوها في أستار الكعبة وهي المعلقات ولذلك يقال لها المذهبات أيضاً كمذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير.

٧ . الخطابة في الجاهلية

الخطابة تحتاج إلى خيال وبلاغة ولذلك عددناها من قبيل الشعر أو هي شعر منثور وهو شعر منظوم وإن كان لكل منهما موقف. فالخطابة تحتاج إلى الحماسة ويغلب تأثيرها في أبناء عصر الفروسية وأصحاب النفوس الأبية طلاب الاستقلال والحرية مما لا يشترط في الشعر، أما العرب فقد قضى عليهم الإقليم بالحرية والحماسة وهم ذووا نفوس حساسة مثل سائر أهل الخيال الشعري فأصبح للبلاغة وقع شديد في نفوسهم فالعبارة البليغة قد تقعدهم أو تقيمهم بما تثيره في خواطرهم من النخوة.

مواضيع الخطب

وكان العرب يخطبون بعبارة بليغة فصيحة وهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون وإنما كانت الخطابة فيهم قريحة مثل الشعر وكانوا يدربون فتيانهم عليها من حداثتهم لاحتياجهم إلى الخطباء في إيفاد الوفود مثل حاجتهم إلى الشعراء في حفظ الأنساب والدفاع عن الأعراض.

ومن هذا القبيل وفود القبائل على النبي (صلّى الله عليه وآله) بعد أن استتب له الأمر فقد جاءه من كل قبيلة وجهاؤها وخيرة بلغائها لاعتناق الإسلام أو للاستفهام أو غير ذلك ومن هذا القبيل وفود العرب على الخلفاء للتسليم والتهنئة.

الخطباء

وجملة القول أن الخطباء كانوا عديدين في النهضة الجاهلية كالشعراء والغالب فيهم أن يكونوا أمراء القبائل أو وجهاءها أو حكماءها، وكان لكل قبيلة خطيب أو غير خطيب كما كان لها شاعر أو غير شاعر.

٨ ـ مجالس الأدب وسوق عكاظ

كان العرب يعقدون المجالس لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار والمسامرة أو البحث في بعض الشؤون العامة وكانوا يسمون تلك المجالس الأندية.

الأسواق

والمراد بالسوق مكان يجتمع فيه أهل البلاد أو القرى في أوقات معينة يتبايعون ويتداولون ويتقايضون، وكان للعرب في الجاهلية أسواق يقيمونها في أشهر السنة وينتقلون من إحداها إلى الأخرى يحضرها العرب من قرب منهم ومن بعد، فإذا فرغوا من سوقٍ انتقلوا إلى سواها، وأشهر أسواق العرب في الجاهلية سوق عكاظ وهي مكان بين الطائف ونخلة، فكانت العرب إذا قصدت الحج أقامت بهذا السوق من أول ذي القعدة يبيعون ويشترون إلى عشرين منه ثم يتوجهون إلى مكة فيقضون مناسك الحج ثم يعودون إلى أوطانهم ومن كان له أسير سعى في فدائه هناك ومن كانت له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة في أيام المواسم وهم أناس من تميم، ومن كان له ثأر على أحد ولم يعرف مكانه طلبه في الموسم أو أراد أحد أن يعمل عملاً تعرفه العرب أو يستشهدها فيه عمله في عكاظ أو أراد أن يفاخر أحداً على مشهد من الناس فاخره هناك. وكانوا يتفاخرون حتى في كبر المصائب.

٩ ـ الأنساب في الجاهلية

كان للأنساب في عصور الجاهلية عند الأمم القديمة شأن كبير وكان للناس عناية عظمى في حفظ أنسابهم للتناصر على الأعداء أو للتفاخر بالآباء. والعرب من حيث أنسابهم فرع من العبران لأن العدنانيين منهم يرجعون في أصل آبائهم الأولين إلى إسماعيل بن إبراهيم، وكان النسابون يحفظون أسماء القبائل وما يتفرع منها حفظاً دقيقاً فإذا عرض لهم رجل فقال: أنا من بني تميم مثلاً ما نسبي؟ فإنه يبدأ من قبيلة تميم وما تفرع منها من العمائر والبطون والأفخاذ حتى ينتهي إلى الفصيلة ومنها إلى والد السائل أو إليه هو نفسه.

١٠ . التاريخ

لم يكن عند عرب الجاهلية تاريخ من قبيل ما نفهمه من هذه اللفظة اليوم ولكنهم كانوا يتناقلون أخباراً متفرقة بعضها حدث في بلادهم والبعض الآخر نقله إليهم الذين عاشروهم من الأمم الأخرى، فمن أمثال أخبارهم حروب القبائل المعروفة ب(أيام العرب) وقصة سد مأرب واستيلاء أبي كرب تبان أسعد على اليمن وبعض من خلفه وملك ذي نواس وقصة أصحاب الأخدود وفتح الحبشة لليمن وقصة أصحاب الفيل وقدومهم للكعبة.

الخلاصة

وجملة القول أن ما أسميناه علوم العرب قبل الإسلام يبلغ إلى بضعة عشر علماً فلما جاء الإسلام أهمل بعضها كالكهانة والعرافة والقيافة وبقي بعضها عند أهله ونشأ ما يقوم مقامه في عصر الحضارة كالنجوم والأنواء ومهاب الرياح والطب والخيل وارتقى الباقي واتسع عما كان في الجاهلية كالشعر والخطابة والبلاغة وكان الإسلام مساعداً على ارتقائها بالقرآن.

علوم العرب بعد الإسلام

نريد بها العلوم التي اشتغل بها المسلمون من أول الإسلام إلى إبان التمدن الإسلامي وهي كثيرة يمكن حصرها في ثلاثة مجاميع:

١ . العلوم التي اقتضاها الإسلام وهي علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والتاريخ ونسميها العلوم الإسلامية أو الآداب الإسلامية.

٢ . العلوم التي كانت في الجاهلية وارتقت في الإسلام وهي الشعر والخطابة ونسميها الآداب الجاهلية أو الآداب العربية.

٣ . العلوم التي نقلت إلى العربية من اللغات الأخرى كالطب والهندسة والفلسفة والفلك وسائر العلوم الطبيعية والرياضية ونسميها العلوم الدخيلة أو الأجنبية.. ولنتقدم على ذكر العلوم الثلاثة منها:

مقدمات تمهيدية

١ . الإسلام والعلوم الإسلامية

كان العرب في ما ذكرناه من علومهم وأخبارهم وأطوارهم إذ جاءهم القرآن فبهتوا لما رأوه من بلاغة أسلوبه على غير المألوف عندهم، لأنه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجّع ولا نظم الشعراء المقفى الموزون وقد خالف كليهما، وهو منثور مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع فلا هو شعر ولا نثر ولا سجع وفيه من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه في لسانهم فبصروا بأسلوبه وبما حواه من الشرائع والأحكام والأخبار، فلما دانوا بالإسلام أصبح همهم تلاوته وتفهم أحكامه لأنه قاعدة الدين والدنيا وبه تتأيد السلطة والخلافة، ثم أشكل عليهم بعض ما فيه واختلفوا في تفسيره فعمدوا إلى الأقوال المأثورة عن النبي (صلّى الله عليه وآله) (الأحاديث) يستوضحون بها ذلك الإشكال فأصبح همهم جمع

الأحاديث ممن سمعها أو رواها عن سامعها بالإسناد المتسلسل فرأوا تبايناً في الروايات فاشتغلوا في التفريق بين صحيحها وفاسدها فرجعوا إلى درس الأسانيد واستطلاع أخبار أصحاب الحديث فجرهم ذلك إلى درس طبقات المحدثين والأحوال التي تناولوا تلك الأحاديث فيها.

ولما قامت دولتهم أخذوا في ضرب الأموال على البلاد التي فتحوها أو غنموها، وضرائبها تختلف شكلاً ومقداراً باختلاف طريق الفتح بين أن يكون عنوةً أو صلحاً أو أماناً أو قوة فبحثوا في تحقيق أخبار الفتوح والمغازي وتدوينها، ولما فسدت الأحكام في أيام بني أمية أكثر العلماء من ذكر المواعظ وإيراد أخبار السلف من الصحابة وخصوصاً الخلفاء الأولين فاجتمع من ذلك تاريخ النبي (صلّى الله عليه وآله) والصحابة والتابعين.

والنظر في أحكام القرآن والسنّة لابد فيه من فهم العبارة وتدبرها فنشأ من ذلك علم التفسير وبإسناد نقله وروايته واختلاف القراء بقراءته تولد علم القراءات، وبإسناد السنّة إلى صاحبها والتفريق بين طبقات الحديث والمحدثين تولدت علوم الحديث، ثم لابد من استنباط هذه الأحكام من أصولها على وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهو علم أصول الفقه ثم الفقه فالعقائد الإيمانية ثم علم الكلام.

ولما عمدوا إلى تلاوة القرآن والحديث وتفسيرهما أشكل على غير العرب إعرابهما لأن ملكة اللغة غير راسخة فيهم فاضطروا إلى تدوين اللغة وترتيب قواعدها وتعيين معاني ألفاظها . ولذلك كان أكثر المشتغلين بعلوم اللغة من الأعاجم . وتعيين معاني الألفاظ وضبط التلفظ بها دعاهم إلى البحث عن لغة قريش التي كتب بها القرآن حيث إن مرجع التحقيق في ذلك إلى الأشعار والأمثال فاشتغلوا في الأسفار إلى بادية العرب وخالطوا الأعراب ونقلوا أشعارهم وأقوالهم وأمثالهم ليدونوها ويرجعوا إليها في التحقيق، فرأوا مشقة في فهم معاني أشعارهم وأمثالهم إلا بالاطلاع على أنسابهم وأخبارهم وآدابهم فلم يكن لهم بد من درس ذلك كله وهو ما يعبرون عنه بعلم الأدب، واختلفوا في فهم الأشعار ووجدوا في روايتها اختلافاً وفي بلاغتها تفاوتاً فعمدوا إلى البحث في طبقات الشعراء وأماكنهم وأشعارهم وأخبار قبائلهم وكان الراحلون في التقاط اللغة والشعر من أفواه العرب يقفون في مضاربهم على سائر علومهم كالنجوم والأنواء والخيل والأنساب وغيرها فلما عادوا لتدوين اللغة دونوا أيضاً كثيراً من تلك

العلوم ولذلك كان أصحاب هذه العلوم غالباً من علماء اللغة وعثروا أيضاً على ألفاظ وأشعار يندر ورودها فألّفوا النوادر.

وجملة القول أن ما اشتغل به المسلمون في صدر الإسلام من العلوم مرجعه إلى القرآن فهو المحور الذي تدور عليه العلوم الأدبية واللسانية فضلاً عن الدينية ولذلك سميناها العلوم الإسلامية.

٢ ـ العرب والقرآن والإسلام

وأساس الإسلام وقوامه هو القرآن، ففي تأييده تأييد الإسلام أو العرب. وتمكن هذا الاعتقاد في الصحابة لما فازوا في فتوحهم وتغلبوا على دولتي الروم والفرس فنشأ في اعتقادهم أنه لا ينبغي أن يسود غير العرب ولا يتلى غير القرآن، وشاع هذا الاعتقاد خصوصاً في أيام بني أمية وقد بالغوا فيه حتى آل ذلك فيهم إلى نقمة سائر الأمم عليهم.

أما في الصدر الأول فقد كان الاعتقاد العام (أن الإسلام يهدم ما كان قبله).

٣ ـ إحراق مكتبة الإسكندرية وغيرها

أنشأ البطالسة في القرن الثالث قبل الميلاد مكتبة في الإسكندرية جمعوا فيها كتب العلوم من أقطار العالم المتمدن في ذلك الحين.

جاء في تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج المالطي عند كلامه عن فتح مصر على يد عمرو بن العاص ما نصه: وعاش (يحيى الغراماطيقي) إلى أن فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف عمرو موضع يحيى من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية ـ التي لم يكن للعرب بها أنس ـ ما هاله ففتن به، وكان عمرو عاقلاً حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه ثم قال له يحيى يوماً: (إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها فما لك به انتفاع فلا نعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به) فقال له عمرو: ما الذي تحتاج إليه؟ قال: (كتب الحكمة التي في الخزائن الملوكية) فقال له عمرو: (هذا ما لا يمكنني أن آمر فيه إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب). فكتب إلى عمر: عرّفه قول يحيى، فورد عليه كتاب

عمر يقول فيه: (وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدم بإعدامها) فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها فاستنفدت في مدة ستة أشهر، فاسمع ما جرى وأعجب. وقد ورد في أماكن كثيرة من تواريخ المسلمين خبر إحراق مكاتب فارس وغيرها على الإجمال وقد لخصها صاحب كشف الظنون في عرض كلامه عن علوم الأقدمين بقوله: (إن المسلمين لما فتحوا بلاد فارس وأصابوا من كتبهم كتَب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين فكتب إليه عمر: (أن اطرحوها في الماء فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله تعالى بأهدى منه وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله تعالى) فطرحوها في الماء أو في النار فذهبت علوم الفرس فيها)، وجاء في أثناء كلامه عن أهل الإسلام وعلومهم: (إنهم أحرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد) وإحراق الكتب كان شائعاً في تلك العصور تشفّياً من عدو أو نكاية فيه فكان أهل كل شيعة أو ملة تحرق كتب غيرها كما فعل عبد الله بن طاهر بكتب فارسية كانت لا تزال باقية إلى أيامه (سنة ٢١٣هـ) من مؤلفات المجوس، وقد عرضت عليه فلما تبيّن حقيقتها أمر بإلقائها في الماء وبعث إلى الأطراف أن من وجد شيئاً من كتب المجوس فليعدمه.

ولما فتح هولاكو التتري بغداد سنة ٦٥٦هـ أمر بإلقاء كتب العلم التي كانت في خزائنها بدجلة . وعلى حدّ زعمهم فإن هذا التصرف لا يعبر عن مقابلة ما فعله المسلمون لأول الفتح بكتب الفرس وعلومهم . وقال آخرون: إنه بنى بتلك الكتب إسطبلات الخيول وطوالات المعالف عوضاً عن اللبن.

ولما فتح الإفرنج طرابلس الشام في أثناء الحروب الصليبية أحرقوا مكتبتها بأمر الكونت برترام سنت جيل وكان قد دخل غرفة فيها نسخ كثيرة من القرآن فأمر بإحراق المكتبة كلها وفيها على زعمهم ثلاثة ملايين مجلد، وفعل الأسبان نحو ذلك بمكاتب الأندلس لما استخرجوها من أيدي المسلمين في أواخر القرن الخامس عشر، وأصحاب الأديان في تلك العصور كانوا يعدون هدم المعابد القديمة وإحراق كتب أصحابها من قبيل السعي في تأييد الأديان الجديدة. فأباطرة الروم حالما تنصروا أمروا بهدم هياكل الأوثان في مصر وإحراقها بما فيها من الكتب وغيرها وكان خلفاء المسلمين إذا أرادوا اضطهاد المعتزلة وأهل الفلسفة أحرقوا

كتبهم، والمعتزلة كثيراً ما كانوا يتجنبون ذلك تحت خطر القتل فيستترون ويجتمعون سرّاً والخلفاء يتعقبون آثارهم ويحرقون كتبهم، ومن أشهر الحوادث من هذا القبيل ما فعله السلطان محمود الغزنوي لما فتح الري وغيرها سنة ٤٢٠هـ فإنه قتل الباطنية ونفى المعتزلة وأحرق كتب الفلسفة والاعتزال والنجامة.

٤ . الإسلام والعلم

والمسلمون أنشأوا دولة بعيدة الأطراف ووضعوا الشرائع والأنظمة (الفقه) ولم يكتفوا بنقل العلم عن اليونان واستبقائه على حاله بل هم درسوه وزادوا فيه من نتائج قرائحهم وعقولهم وبما نقلوه من علوم الفرس والهند والكلدان وغيرهم فضلاً عما وضعوه هم أنفسهم من العلوم الإسلامية واللسانية وما تفردوا فيه من قريحة الشعر.

٥ . حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم

قد تقدم أن العلوم التي حدثت في التمدن الإسلامي صنفان العلوم الإسلامية والعلوم الدخيلة فتغلُّب العلوم الإسلامية في غير العرب من المسلمين سببه أن العرب قاموا بالإسلام وفتحوا الفتوح وهم أهل بادية أميون فانصرف همّهم في بدء الدعوة إلى نشر دينهم وإنشاء دولتهم مما لا يحتاج إلى علم، وإنما كانت حاجتهم من العلم إلى القرآن يدعون الناس به إلى الإسلام وكانوا يستظهرونه ويتناقلونه بالتلقين، ولم يمض على ظهور الدعوة بضع وعشرون سنة حتى فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس وأفريقية وغيرها والمسلمون (العرب) يومئذ هم الجند الفاتح وكانوا قليلين بالنظر إلى ذلك الملك الواسع فضلاً عمن قتل منهم في الحروب والفتن، ومع ذلك فقد كانوا مطالبين بحفظ تلك المملكة وحماية أهلها وتدبير شؤونها، فأصبح همّهم الاشتغال بالرئاسة في الجند والحكومة، ولما فسّرت اللغة واختلفت القراءات وأزمع الخلفاء على جمع القرآن وتدوينه كان أكثر المتهافتين على حفظه المسلمين من غير العرب وهم الموالي وأكثرهم من الفرس وكانوا يومئذ أهل تمدن وعلم وكان العرب يعرفون ذلك عنهم، ومن الأحاديث النبوية: (لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس) وكان الفرس من الجهة الأخرى يرون للعرب مزية عليهم بالسيادة والنبوة وهيبة الفتح فجعلوا

يتقربون إليهم بالعلم على ما يتطلبه حال الإسلام وهو في أوائل عهده عبارة عن قراءة القرآن وحفظه وتفسيره وجمع الحديث وإسناده وحفظه، لذلك فكان أكثر الحفاظ والقراء والمحدثين والفقهاء والمفسرين من العجم، وإذا كان فيهم أحد من العرب فالأغلب فيه أن يكون من القبائل الصغرى التي لا شأن لها في الفتح. ولما دعا فساد اللغة إلى ضبط قواعدها وجمع ألفاظها كان العجم أحوج إلى ذلك من العرب لاستغناء العربي بملكته الفطرية عن تعلم القواعد وحفظ الألفاظ فاشتغل الأعاجم بعلوم اللغة وكان أكثر علماء الأدب واللغة منهم كحماد الراوية وهو ديلمي والخليل وسيبويه والأخفش والفارسي والزجاج وغيرهم من الفرس أو من في معناهم.

أما العلوم الدخيلة مثل الفلسفة، فالمشتغلون بها هم غير العرب وغير المسلمين لأن العباسيين لما أرادوا نقل كتب اليونان والفرس والهند إلى العربية استخدموا مترجمين من الكلدان والسريان والفرس وغيرهم لنقلها وأكثرهم من النصارى.

٦ . تدوين العلم في الإسلام

قضى العرب عصر بني أمية وهم يشتاقون إلى البداوة لأن دولتهم كانت عربية بدوية فانقضى القرن الأول وبعض القرن الثاني للهجرة والمسلمون يتناقلون العلم بالتلقين ويعتمدون على الحفظ ولم يدوّنوا غير القرآن لأسباب، وكان أبو بكر قد توقّف عن جمعه وتدوينه وقال: (كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله).

أما ما خلا ذلك من التفسير والحديث والأشعار والأخبار والأمثال فقد كانوا يحفظونها في صدورهم وأكثرهم يقرأون ولكنهم لا يكتبون، وقد يكون بعضهم حافظاً ومفسراً وهو لا يقرأ كما كان شأنهم في الجاهلية يشعرون ويخطبون ولا يقرأون.

فلما انتشر الإسلام واتسعت الأمصار وتفرّقت الصحابة في الأقطار وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى والرجوع إلى الكبراء اضطروا إلى تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن واشتغلوا في النظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط وتمهيد القواعد والأصول وترتيب الأبواب والفصول فرأوا ذلك مستحباً فعمدوا إلى التدوين (يراجع في هذا الشأن كتاب (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام) (م)).

وأقدم ما علمنا به من التفاسير تفسير مجاهد بن جبير المتوفي سنة ١٠٤هـ ، ثم اشتغلوا في تدوين التاريخ وخصوصاً المغازي وأقدم ما وصل إلينا خبره من كتبهم في هذا الموضوع كتاب ألّفه وهب بن منبه صاحب الأخبار والقصص المتوفي سنة ١١٦هـ وهو من أبناء الفرس المولودين باليمن، فألّف كتاباً في الملوك المتوّجة من حمير وأخبارهم وأشعارهم وقصصهم، قال ابن خلكان: إنه شاهده بنفسه وأثنى عليه ثم كتاب المغازي لمحمد بن مسلم الزهري المتوفي سنة ١٤١هـ ثم ألّف المسلمون في الحديث والفقه في أواسط القرن الثاني للهجرة.

٧ . الخط العربي

تاريخه

ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدل على أنهم كانوا يعرفون الكتابة قبيل الإسلام مع أنهم كانوا محاطين شمالاً وجنوباً بأمم من العرب الذين خلفوا نقوشاً كتابية كثيرة، على أن بعض الذين رحلوا منهم إلى العراق أو الشام قبيل الإسلام تخلّقوا بأخلاق الحضر واقتبسوا الكتابة منهم على سبيل الاستعادة فعادوا وبعضهم يكتب العربية بالحرف النبطي والسرياني اللذين بقيا عندهم إلى ما بعد الفتوح الإسلامية فتخلف عن الأول الخط النسخي (الدارج) وعن الثاني الخط الكوفي نسبة إلى مدينة الكوفة. وكان الخط الكوفي يسمى قبل الإسلام الحيري نسبة إلى الحيرة وهي مدينة عرب العراق قبل الإسلام وابتنى المسلمون الكوفة بجوارها.

والخلاصة أن العرب تعلّموا الخط النبطي من حوران في أثناء تجاراتهم إلى الشام وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبل الهجرة بقليل وظل الخطان معروفين عندهم بعد الإسلام، والأرجح أنهم كانوا يستخدمون القلمين معاً الكوفي لكتابة القرآن ونحوه من النصوص الدينية والنبطي لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية، وحين جاء الإسلام كانت الكتابة معروفة في الحجاز ولكنها غير شائعة فلم يكن يعرف الكتابة إلا بضعة عشر إنساناً أكثرهم من كبار الصحابة، وقد بلغ عدد الأقلام العربية إلى أوائل الدولة العباسية ١٢ قلماً وهي (١) قلم الجليل (٢) قلم السجلات (٣) قلم الديباج (٤) قلم اسطور مار الكبير (٥) قلم الثلاثين

(٦) قلم الزنبور (٧) قلم المفتح (٨) قلم الحرم (٩) قلم المدامرات (١٠) قلم العهود (١١) قلم القصص (١٢) قلم الحرفاج.

وفي أيام المأمون تنافس الكتّاب في تجويد الخط فحدث القلم المرصع وقلم النساخ وقلم الرياسي نسبة إلى مخترعه ذي الرئاستين الفضل بن سهل وقلم القاع وقلم غبار الحلية.

فزادت الخطوط على عشرين شكلاً وكلها تعد من الكوفي وأما الخط النسخي أو النبطي فقد كان شائعاً بين الناس لغير المخطوطات الرسمية حتى إذا نبغ ابن مقلة المتوفي سنة ٣٢٨هـ فأدخل في الخط المذكور تحسيناً جعله على نحو ما هو عليه الآن وأدخله في كتابة الدواوين.

الحركات

وكان القرآن في أول الإسلام محفوظاً في صدور القرّاء وليس هناك خوف من الاختلاف في قراءته لكثرة عنايتهم في تناقله وضبط ألفاظه حتى دوّنوه وكثر أهل الإسلام، فمضى نصف القرن الأول للهجرة والناس يقرأون القرآن بلا حركات ولا إعجام، وأول ما افتقروا إليه الحركات وأول من رسمها أبو الأسود الدؤلي واضع النحو العربي المتوفي سنة ٦٩هـ.

الإعجام

كان الخط لما اقتبسه العرب من السريان والأنباط خالياً من النقط ـ ولا تزال الخطوط السريانية بلا نقط إلى اليوم ـ فالإعجام حادث في العربية وهو قديم فيها. فيؤخذ من ذلك أن العرب استخدموا الحركات والإعجام من أواسط القرن الأول ولكنهم ظلوا مع ذلك يكرهونهما إلا حيث يريدون التدقيق بنوع خاص كالمصاحف ونحوها، أما في ما خلا ذلك فكانوا يفضلون ترك النقط لاسيما إذا كان المكتوب إليه عالماً، وقد حكي أنه عرض على عبد الله بن طاهر خط بعض الكتاب فقال: (ما أحسنه لولا كثرة شوينزه ـ أي نقطه ـ) ويقال: (كثرة النقط في الكتاب سوء ظن في المكتوب إليه) وقد يقع بالنقط ضرر كما حكي عن جعفر المتوكل أنه كتب إلى بعض عماله: (أن أحصي من قبلك من الذميين وعرِّفنا بمبلغ

عددهم) فوقع على الحاء نقطة فصارت (أخصي)، فجمع العامل من كان في عمله منهم وخصاهم فماتوا غير رجلين.

العلوم الإسلامية

هي العلوم التي اقتضاها الإسلام والتمدن الإسلامي على ما تقدم وتقسم إلى ثلاثة أقسام:

(١) العلوم الشرعية وهي العلوم الدينية الإسلامية.

(٢) العلوم اللسانية وهي التي اقتضاها الإسلام ضمناً فاحتاجوا إليها في ضبط قراءة القرآن أو تفسيره أو تفهّمه وتفهّم الحديث.

(٣) التاريخ والجغرافيا.

١ . العلوم الشرعية الإسلامية

القرآن.. جمعه وتدوينه

لا غرو إذا اهتم المسلمون بجمع القرآن وحفظه لأن عليه يتوقف دينهم ودنياهم وأول أسباب حفظه تدوينه. والقرآن لم يظهر مرة واحدة وإنما ظهر تدريجاً في أثناء عشرين سنة على مقتضى الأحوال من أول ظهور الدعوة إلى وفاة النبي (صلّى الله عليه وآله) بعضه في مكة وبعضه في المدينة فكان كلما تلا آية أو سورة كتبوها على صحف الكتابة في تلك الأيام وهي الرقاع من الجلود والعريض من العظام كالأكتاف والأضلاع وعلى العسب وهي قحوف جريد النخيل واللخاف وهي الحجارة العريضة البيضاء، فتوفي النبي (صلّى الله عليه وآله) سنة ١١هـ والقرآن إما مدون على أمثال هذه الصحف أو محفوظ في صدور الرجال، وكانوا يسمّون حفظته (القرّاء) وكان أكثر الناس عناية في تدوينه على عهد النبي (صلّى الله عليه وآله) علي بن أبي طالب (عليه السلام) وسعد بن عبيد بن النعمان وأبو الدرداء ومعاذ بن جبل وثابت بن زيد وأبي بن كعب وغيرهم. فلما قام أبو بكر بالأمر وارتد أهل جزيرة

العرب عن الإسلام بعث جنداً لمحاربتهم فقتل من الصحابة في تلك الحروب جماعة كبيرة وخصوصاً في غزوة اليمامة فقتل فيها وحدها ١,٢٠٠ من المسلمين فيهم ٧٠٠ من القراء. فلما بلغ ذلك إلى أهل المدينة فزعوا فزعاً شديداً مما أدى إلى أن يجمع أبو بكر القرآن.

وفي أيام عثمان اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر والشام والعراق وفارس وأفريقيا وفيهم القراء وعند بعضهم نسخ من القرآن وقد رتّبها كل منهم ترتيباً خاصاً فعوّل أهل كل مصر على من قام بينهم من القراء. فأهل دمشق وحمص مثلاً أخذوا عن المقداد بن الأسود وأهل الكوفة أخذوا عن ابن مسعود وأهل البصرة عن أبي موسى الأشعري وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب ومع شدة عناية القراء في حفظ القرآن وضبطه لم يخل من الاختلاف في قراءة بعض سوره.

واتفق في أثناء ذلك أن حذيفة بن اليمان كان في جملة من حضر غزوة أرمينيا وآذربيجان فرأى في أثناء سفره اختلافاً بين المسلمين في قراءة بعض الآيات وسمع بعضهم يقول لبعض: (قراءتي خيرٌ من قراءتك) فلما رجع إلى المدينة أنبأ عثمان بذلك وأنذره بسوء العقبى إن لم يتلاف الأمر إلى أن قال: (أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى) فبعث عثمان إلى حفصة أن (أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك) فأرسلتها، فدعا عثمان زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأمرهم أن ينسخوا القرآن ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء وقال لهم: (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش فإنما أنزل بلسانهم) ففعلوا ذلك سنة ٣٠هـ وكتبوا أربعة مصاحف بعثها عثمان إلى الأمصار الأربعة مكة والبصرة والشام واثنين أبقاهما في المدينة واحد لأهلها وواحد لنفسه وهو الذي يسمونه (الإمام) ثم أمر بجمع كل ما كان قبل ذلك من المصاحف والصحف وأمر بإحراقه (يراجع بهذا الشأن (البيان للإمام الخوئي) (م٢).

على أن الخلفاء والأمراء كانوا يبذلون جهدهم في جمع الكلمة على مصحف عثمان والتشديد في إعدام ما سواه وفي جملة مساعيهم أن الأمراء كانوا يكتبون نسخاً من ذلك المصحف يضعونها في المساجد ليتلوها الناس ويرجعوا إليها في تصحيح ما بين أيديهم من المصاحف الخصوصية، وربما كتب الأمير عدة مصاحف وفرقها في الأمصار.

قراءة القرآن

كان للقراءة شأن عظيم في أول الإسلام لقلة الذين يقرأون يومئذ فسموا الذين كانوا يحفظون القرآن (قرّاء) تمييزاً لهم عن سائر المسلمين لأنهم كانوا أميين. على أنه لم يمض على إرسال عثمان مصاحفه إلى الأمصار زمن قصير حتى أصبح لأهل كل مصر قراءة خاصة يتبعون فيها قارئاً يثقون بصحة قراءته وتنوقل ذلك واشتهر. ثم استقر منها سبع قراءات معينة تواتر نقلها بأدائها واختصت بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراءة ويعدها بعضهم عشراً، وكانوا يرجعون في إثبات صحة القراءة إلى الإسناد المتسلسل كقولهم: قرأ يعقوب بن إسحاق على سلام وقرأ سلام على عاصم وقرأ عاصم على أبي عبد الرحمن وقرأ أبو عبد الرحمن على علي بن أبي طالب (عليه السلام) وقرأ عليّ على النبي (صلّى الله عليه وآله).

تأثير القرآن

إن قراءة القرآن وحفظه من أول واجبات المسلمين وخصوصاً في أوائل الإسلام فانطبعت أوامره ونواهيه في أفئدتهم وارتسمت عباراته على ألسنة أُدبائهم وأصبح هو المرجع في الشرع والدين واللغة والإنشاء وفي كل شيء، فاقتبسوا أساليبه في خطبهم وكتبهم وتمثلوا بآياته في مؤلفاتهم وظهرت آدابه وتعاليمه في أخلاقهم وأطوارهم مع تباعد الأمم التي اعتنقت الإسلام في أصولها ولغاتها وبلادها. واستشهدوا بأقواله ونصوصه في علومهم اللسانية فضلاً عن العلوم الشرعية، فقد كان في كتاب سيبويه وحده ٣٠٠ آية من القرآن وأصبح أهل البلاغة لا تروق لهم الكتابة أو الخطابة إلا إذا رصّعوها بشيء من آيات القرآن كما سترى في باب الخطابة في الإسلام وفي باب البلاغة من اقتباس الآيات وإدخالها في عبارات الخطب والرسائل والتوقيعات.

على أنهم كانوا لفرط اشتغالهم بحفظ القرآن وقراءته وتفهمه لو ذكر الرجل حرفاً أو كلمة انتبه السامع للآية كلها، ولذلك كثيراً ما كانوا يرمزون بالكلمة الواحدة إلى آية يفهمها العارف ويعمل بها وقد تخفى على كثيرين.

وقد عني المسلمون في كتابة القرآن وحفظه عناية ليس بعدها عناية فكتبوه على صفائح الذهب والفضة وعلى صفائح العاج وطرّزوا آياته بالذهب والفضة على الحرير والديباج وزيّنوا بها محافلهم ومنازلهم ونقشوها على الجدران في المساجد والمكاتب والمجالس ورسموه بكل الخطوط وأجملها على كل أصناف الرقوق والجلود والورق بالأدراج والكراريس والرقاع بأصناف المداد وألوانها وكتبوا بعض الكلام بالذهب، وكان الخلفاء والأمراء والسلاطين يتبرّكون بكتابة المصاحف بأيديهم ويختزنونها في المساجد أو نحوها. وقد ضبطوا عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه وعدّوا ما فيه من الألفات والباءات إلى الياءات.

تفسير القرآن

كان العرب عند ظهور الدعوة كلما تليت عليهم سورة أو آية فهموها وأدركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها لأنها بلسانهم وعلى أساليب بلاغتهم ولأن أكثرها تُليت في أحوال كانت كالقرائن يسهل فهمها وإذا أشكل عليهم شيء منها سألوا النبي (صلّى الله عليه وآله) فكان يبين لهم المجمل ويميز الناسخ من المنسوخ، فحفظ أصحابه عنه ذلك وتناقلوه فيما بينهم وعنهم أخذ من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين. ولما صار الإسلام دولة واحتاجوا إلى الأحكام والقوانين كان القرآن مصدر استنباطها فزادت العناية في تفسيره وأصبح القراء والمفسرون مراجع المسلمين في استخراج تلك الأحكام أو هم الفقهاء في أول عهد الإسلام، وكانوا يتناقلون التفسير شفاهاً إلى أواخر القرن الأول ثم كتبت التفاسير وكتب التفسير كثيرة جداً (ذكر منها صاحب كشف الظنون نيفاً وثلاث مائة تفسير وقال إنه ذكر بعضها وكانت أكثر من ذلك كثيراً) (العلامة المجلسي ذكر أنه وجد من التفاسير ونحوها . إلى زمانه . أربعة عشر ألف كتاب (م)).

الحديث

لما اشتغل المسلمون في تفهم معاني القرآن كان في جملة ما افتقروا إليه في تفهمها أقوال النبي (صلّى الله عليه وآله) وهو ما عبّروا عنه بالأحاديث النبوية وأقدم مَن سمعها الصحابة وحفظوها فكانوا إذا أشكل عليهم فهم آية واختلفوا في تفسيرها أو حكم من أحكامها

استعانوا بتلك الأحاديث على استيضاحها، فلما كانت الفتوح تفرق الصحابة في الأرض وعند كل منهم بعض الأحاديث وقد يتفرد بعضهم بأحاديث لم يسمعها سواه فأصبح طالب الحديث إذا كان من أهل دمشق مثلاً لا يستوفيه إلا إذا رَحلَ في طلبه إلى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والري ومصر وغيرها وكذلك المقيم في أحد هذه البلاد فإنه لا يستطيع استيفاء الحديث ما لم يطلبه من البلاد الأخرى وهذا ما يعبرون عنه بالرحلة في طلب العلم.

وضع الأحاديث

نشأت الفتنة بعد مقتل عثمان واختلف المسلمون في الخلافة وادّعاها غير واحد فانصرفت عناية كل حزب من أحزابهم إلى استنباط الأدلة واستخراج الأحاديث المؤيدة لدعواهم فكان بعضهم إذا أعوزهم حديث يؤيدون به قولاً أو يقيمون به حجة اختلقوا حديثاً من عند أنفسهم، وتكاثر ذلك في أثناء تلك الفوضى فكان المهلب بن أبي صغرة مثلاً يضع الأحاديث ليشدّ بها أمر المسلمين ويضعف أمر الخوارج وهو مع ذلك معدود من الأتقياء والنبلاء مع علمهم بما كان يضعه من الأحاديث لأنهم كانوا يعدون ذلك خدعة في الحرب وأمثال المهلب كثيرون كانوا يضعون الحديث لأغراض مختلفة. وتسابق الناس خصوصاً إلى وضع الأحاديث في أثناء البحث في شروط الخلافة نظراً لما رأوه من تأثير الحديث فيها من أول عهدها، فلما هدأت الفتنة وعمد المسلمون إلى التحقيق كانت تلك الموضوعات قد تكاثرت فاشتغلوا في التفريق بينها وبين الصحيح فألفوا كتباً كثيرة في الحديث وميزوا صحيحه من فاسده وجعلوه مراتب، ولهم في ذلك ألفاظ اصطلحوا عليها لهذه المراتب.

إسناد الحديث

وترتب على أهمية الحديث في الدين والدنيا تعرضه للوضع والتحريف كما رأيت فاحتاج إلى العناية في تحقيقه ولم يكن ذلك ميسوراً في العصور الأولى إلا بالحفظ والرجوع بالمحفوظ إلى المصدر الأصلي الذي أخذ عنه بالتسلسل وهو (الإسناد) كأن يقال: (حدثنا فلان أو أخبرنا فلان أو أملى عليّ فلان ما هو كذا وكذا) فلما بعدت الرواية جعلوها متسلسلة

فقالوا: (حدثنا فلان عن فلان عن فلان أنه سمع فلاناً يقول كذا وكذا) وتطرق المسلمون في طريقة الإسناد من الحديث إلى غيره من العلوم النقلية كالتاريخ والأدب كما هو مشهور وتتبعوا طريقة الإسناد المتسلسل في كثير من العلوم الإسلامية مما لم يسبق له مثيل في البلاد الأخرى أو الأمم الأخرى.

الفقه

لما صار الإسلام دولة احتاج أمراؤه إلى ما يقضون به بين رعاياهم في أحوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية فرجعوا إلى القرآن والحديث، فاستخرجوا منهما شريعة نظّموا بها حكومتهم وحكموا بها بين رعاياهم وذلك طبيعي في الدول الكبرى ومن هنا كان نشوء الفقهاء.

الرأي والقياس

وكانت علوم القرآن قد انتشرت في العراق وفارس ونبغ من أبنائهما من درس الفقه والفتيا ولكنهم مازالوا عيالاً فيهما على أهل المدينة لأنهم أوثق الناس بحفظ الحديث وقراءة القرآن. وكان الحديث قليلاً في العراق على الخصوص، وكان المسلمون غير العرب هناك أكثرهم الفرس وهم أهل تمدن وعلم فعمدوا إلى استخدام القياس العقلي في استخراج أحكام الفقه من القرآن والحديث فخالفوا بذلك أهل المدينة لأنهم كانوا شديدي التمسك بالتقليد فكان من جملة مساعي المنصور في تصغير أمر المدينة وفقهائها وخصوصاً مالك بعد أن أفتى بخلع بيعته أنه نصر فقهاء العراق القائلين بالقياس وكان كبيرهم يومئذ أبو حنيفة النعمان في الكوفة فاستقدمه المنصور إلى بغداد وأكرمه وعزز مذهبه، وكان أبو حنيفة لا يحب العرب ولا العربية حتى أنه لم يكن يحسن الإعراب ولا يبالي به ولذلك كان الربيع حاجب المنصور يقاومه لأن الربيع ينتسب إلى العرب وكان يكره الفرس وابنه الفضل هو الذي سعى في قتل البرامكة، فلما نصر المنصور أبا حنيفة وأصحابه وهم المعروفون بأهل الرأي أو القياس ازداد مالك تمسكاً برأيه وتبعه فقهاء الحجاز وهم أهل الحديث، وانقسم الفقهاء إلى قسمين أهل الحديث وأهل الرأي.

منزلة العلماء عند الخلفاء

يراد بالعلماء في عرض الكلام عن العلوم الإسلامية علماء الحديث والقرآن والفقه وقد علمت ما كان من منزلة هذه العلوم في الخلافة فلا عجب بعد ذلك إذا رأيت الخلفاء يكرمون الفقهاء وأصحاب الحديث والزهاد والعلماء، وكان الإكرام في أول الأمر للفقهاء والمحدثين خاصة ثم شمل أصحاب سائر العلوم الإسلامية كالنحاة واللغويين فقد كان الرشيد يجلس الكسائي ومحمد بن الحسن على كرسيين في مجلسه ولما مات هذان في الري في يوم واحد قال الرشيد: (دفنت الفقه والعربية في الري). وقد تنازع الأمين والمأمون ـ ولدا الرشيد ـ في حمل نعال أستاذهما الفراء وتقديمها إليه حتى اصطلحا على أن يقدم كل منهما واحدة.

٢ ـ العلوم اللسانية

النحو

النحو بمعناه الحقيقي طبيعي على لسان كل متكلم يتلقنه من مرضعه، لأن الإنسان يتعلم النحو وهو يتعلم النطق إذ بدونه لا يحسن التعبير عن أفكاره أما إذا أراد أن يتعلم لساناً غير لسانه فدرس (قواعد النحو) يسهل عليه تناوله، ولذلك فالأمة قد تقضي قروناً متطاولة وهي تتكلم وتخطب وتنظم الشعر قبل أن تدون قواعد النحو وتجعله علماً.

وضع النحو العربي وواضعه

وهكذا العرب فقد نظّموا الشعر وألّقوا الخطب وتناشدوا وتراسلوا قبل تدوين النحو لأن ملكة اللغة كانت طبيعية فيهم، على أنهم اضطروا إلى ضبط تلك القواعد وتدوينها بأسرع مما اضطر إليه اليونان والرومان التماساً للدقة في ضبط معاني القرآن، فلم يمض على دولتهم نصف قرن حتى شعروا بالحاجة إلى النحو، والمؤرخون مجمعون على أن أبا الأسود وضع النحو وهو يقول إنه تلقّى ذلك عن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) والعرب كانوا يعرفون الإعراب قبل علم النحو كما كانوا يحسنون النظم قبل علم العروض وكان ذلك ملكة طبيعية فيهم حتى اختلطوا بالأعاجم وأسلم هؤلاء وليس فيهم ملكة اللغة ليفهموا القرآن فاضطروا

إلى ضبطها وكان المسلمون أكثر اشتغالاً في ذلك، بدأ بعلم النحو أبو الأسود وأتمه من جاء بعده من أهل البصرة والكوفة.

الأدب واللغة

لما أخذ المسلمون في تفسير القرآن احتاجوا إلى ضبط معاني ألفاظه وتفهّم أساليب عباراته فجرّهم ذلك إلى البحث في أساليب العرب وأقوالهم وأشعارهم وأمثالهم ولا يكون ذلك سالماً من العجمة أو الفساد إلا إذا أخذ عن عرب البادية الذين كانت قريش في الجاهلية تتخير من ألفاظهم وأساليبهم، فعني جماعة كبيرة من المسلمين في الرحلة إلى بادية العرب والتقاط الأشعار والأمثال والسؤال من أفواه العرب عن معاني الألفاظ وأساليب التعبير وسموا الاشتغال بذلك مع ما يتبعه من صرف ونحو وبلاغة بعلم الأدب.

وكان أكثر المشتغلين في جمع اللغة وآدابها العجم لحاجتهم إلى ذلك أكثر من العرب.

علماء الأدب بالبصرة والكوفة

وكان الحفاظ والرواة يدققون في ما يأخذونه عن العرب من شعر أو مثل أو قول أو غير ذلك أو ما يسمعونه من معانيها لأن عليها يتوقف تفسير القرآن ولذلك فإنهم اتخذوا في نقل اللغة طريقة الإسناد المتسلسل .كما كانوا يفعلون في رواية الحديث . وعني الناس بحفظها مثل عنايتهم بحفظه لاعتبارهم أن ناقل اللغة يجب أن يكون عدلاً كما يشترط في ناقل الحديث لأنها واسطة تفسيره وتأويله، على أنهم لم يستطيعوا ذلك تماماً.

وزها القرن الثاني وبعض الثالث في البصرة والكوفة ونبغ فيهما النحاة والرواة والحفاظ والأدباء والشعراء

علماء الأدب في بغداد

ومازال هذان المصران (البصرة والكوفة) مصدري العلوم الإسلامية حتى بنيت بغداد وانتقل العلم إليها وغلب ورود أهل الكوفة إلى بغداد لقربهم منها. وكان العباسيون يكرمونهم لأنهم نصروهم لما قاموا لطلب الخلافة، فقدمهم الخلفاء على أهل البصرة واستقدموهم إليهم

ووسعوا لهم ورغب الناس في الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر وتباهوا بالترخيصات وتركوا الأصول واعتمدوا على الفروع. واشتهر منهم في ذلك العصر الفراء عبد الله بن سعيد الأموي وأبو الحسن الأخفش الكوفي وأبو عكرمة الضبي وأبو عمرو الشيباني وغيرهم وكانت علوم اللغة في أول أمرها مشتركة مختلطة ثم تميزت وتشعبت فصارت علوماً عديدة كل منها مستقل عن الآخر كالنحو والصرف واللغة والمعاني والبيان والاشتقاق والعروض والقوافي وأخبار العرب وأمثالهم والجدل وغيرها وقد يطلقون عليها علم الأدب ولكل منها تاريخ وشروح هي من شأن تاريخ آداب اللغة.

بلاغة الإنشاء

البلاغة في الإنشاء مما اقتضاه القرآن لأنه مثال البلاغة والفصاحة عندهم يتخذونه في خطبهم ورسائلهم وإنشائهم وإذا لم يتخذوه عمداً فشيوع حفظه فيهم أكسبهم ملكة البلاغة مع ما كانوا فيه من أسباب الحماسة والأنفة إبان دولتهم، فدخلت لغة العرب بعد الإسلام في طور جديد من البلاغة والفصاحة.

إنشاء الرسائل

فالرسائل كانت عبارتها عندهم مثل عبارة الخطابة من حيث التفنّن في أساليب الخيال بالتهديد أو الوعيد أو النصح أو الاستنهاض أو الاستعطاف أو نحو ذلك من المعاني الشعرية، وكانوا في أوائل الإسلام يتوخون الاختصار فيها على قدر الإمكان عملاً بالحديث القائل: (أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً) فكانوا يجمعون المعنى الكبير في اللفظ القليل حتى تكاد ترى المعنى مجرداً من اللفظ، وكان لتلك الرسائل تأثير مثل تأثير الخطب البليغة كأنهم استعاضوا بعد زمن الفتح ببلغاء الكتاب عن بلغاء الخطباء.

التوقيعات

ويعدّ من هذا القبيل أيضاً التوقيعات وهي ما كان يوقعه الخلفاء على ما يرفع إليهم من القصص بما يشبه (التأشير) في دواوين هذه الأيام وكانوا يتفنّنون في التوقيع تفنّناً بديعاً،

ويغلب أن يجعلوا أجوبتهم آيات من القرآن أو جملاً من الحديث أو أشعاراً مشهورة وكان الأمراء والوزراء أيضاً يوقعون مثل توقيعات الخلفاء في ما يرفع إليهم من القصص، ومازال الاختصار عمدة البلاغة في رسائلهم ومكاتباتهم حتى تحضّروا واختلطوا بالفرس بالمصاهرة والمعاشرة فاقتبسوا منهم التفخيم والمبالغة والتوسع، وقد بدأوا بذلك من أوائل القرن الثاني للهجرة.

إنشاء الكتب

ويراد بها الكتب المؤلفة في المواضيع الأدبية أو العلمية أو التاريخية أو نحوها وهي تختلف بلاغة وفصاحة باختلاف مواضيعها، وكتب الأدب أحوج إلى البلاغة لما تقتضيه المواضيع الأدبية من التخيلات الشعرية والكنايات ونحوها، والغالب في كتّاب الأدب أن يطالعوا آداب العرب ويخالطوهم ويحفظوا أساليبهم في أشعارهم وخطبهم وأقوالهم فتحصل فيهم ملكة البلاغة العالية ولذلك كان الفقهاء وأهل العلوم الطبيعية قاصرين في البلاغة لاستغناء هذه العلوم عن الخيال، ولما أقدم المسلمون على تأليف الكتب وكان معظم المؤلفين من الفرس اصطبغت البلاغة العربية بشيء من أسلوب الفرس فنشأ عنها الكلام المرسل المتناسق، وأحسن أمثلته عبارة ابن المقفع في كتاب كليلة ودمنة فإنها لا تزال عنوان البلاغة والسهولة إلى هذا اليوم.

السجع

ولما نضج التمدن الإسلامي وكثر فيه الأدباء والشعراء وأصبح الشعر شائعاً على ألسنة الناس على اختلاف طبقاتهم وكثر تمثلهم به وتناشدهم إياه ألف الناس التلذذ برنة القافية فاستحسنوا إدخالها أولاً في المراسلات وهو التسجيع وقد كان في أول أمره مقبولاً لقلته وحسن وقعه حتى أدخلوه في الكتب وكتبوا به المقامات في أواخر القرن الرابع وأول من فعل ذلك بديع الزمان الهمذاني المتوفي سنة ٣٩٨هـ ولعله اقتبس نسقها من أحمد بن فارس الرازي المتوفى سنة ٣٩٠هـ وعلى منواله نسج الحريري ولكنه تباعد عن السهولة والطلاوة.

٣ . التاريخ والجغرافية

التاريخ

بقي الإنسان أحقاباً لم يدوّن فيها التاريخ لأنه لم يكن يعرف الكتابة ولأن أحواله لم تستدعِ التدوين مع انصراف همه في تلك العصور إلى ضروريات الحياة على أنه ما لبث أن أُصيب بطوارق الحدثان فحفظ أكثرها تأثيراً في أحوال معايشه كالطوفان والقحط والحرب ونحوها وتنوقلت تلك الأخبار في أعقابه دهوراً وهي تتعاظم وتتكيّف على ما تطلبه طبيعة الإنسان من التلذذ باستماع الغريب والمنافسة في التأثير على السامع بما يلقيه من الأخبار المنمقة المستغربة، فوصلت أخبار الأوائل إلى زمن التاريخ والعرب قبل الإسلام كانوا يعدّون من أضعف الأمم المتمدنة في التاريخ، فلما ظهر الإسلام اشتغلوا بالفتوح والحروب حتى إذا استتب لهم الأمر وفرغوا من الفتح تدرّجوا في وضع التاريخ مثل تدرّجهم في سائر العلوم الإسلامية، وقد عددنا التاريخ من هذه العلوم ليس لأنه خاصاً بالإسلام بل لأن الإسلام دعا إلى وضعه، وسماع أخبار العظماء يستنهض الهمم إلى الاقتداء بهم ولذلك كان أكثر القوّاد العظام الراغبين في العلا من العرب وغير العرب يتتبعون أخبار من سبقهم من مشاهير القواد وإذا وقع أحدهم في مشكلة سياسية تدبر ما حدث من أمثالها قبله تسهيلاً لإبراء حكمه فيها، وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إذا دخل شهر رمضان أحضرت له كتب التواريخ والسير وجلسوا يقرأون عليه أحوال العالم فأصبح علم التاريخ من علوم الملوك وأصحاب السيادة وكان من الأمثال الشائعة في أوائل الإسلام قولهم: (علم الملوك النسب والخبر وعلم أصحاب الحروب درس كتب الأيام والسير وعلم التجار الكتاب والحساب) فلما ضعف شأن الخلافة العباسية واستبد الوزراء في أمور الدولة أصبح همهم منع الخلفاء من مطالعة التاريخ أو السير خوفاً من أن يتفطّنوا إلى أشياء لا يحب الوزراء أن يتفطنوا لها.

مصادر التاريخ الإسلامي

للتاريخ الإسلامي مصادر كثيرة تدرج فيها على مقتضى الأحوال وإليك تمثيل ذلك: لما اشتغل المسلمون بجمع القرآن وتفسيره وجمع الأحاديث احتاجوا إلى تحقيق الأماكن والأحوال

التي كتبت بها الآيات أو قيلت بها الأحاديث فعمدوا إلى جمع السيرة النبوية لأنها شاملة لكل ذلك فتناقلوها مدة ثم دونوها ولما اشتغل المسلمون في ضرب الخراج على البلاد اختلفوا في بعضها هل فتح عنوة أو صُلحاً أو أماناً أو قوة وفي شروط الصلح أو الأمان، فاضطروا إلى تدوين أخبار الفتح باعتبار البلاد فألّفوا كتباً في فتح كل بلدٍ على حدة.

الطبقات والمغازي

وقد رأيت في ما تقدم من كلامنا عن القرآن والحديث والنحو والأدب أن العلماء اضطروا لتحقيق مسائل هذه العلوم إلى البحث في أسانيدها والتفريق بين ضعيفها ومتينها فجرّهم ذلك إلى النظر في رواة تلك الأسانيد وتراجمهم وسائر أحوالهم حتى أصبح من شروط الاجتهاد في الفقه معرفة الأخبار بمتونها وأسانيدها والإحاطة بأحوال النقلة والرواة عدولها وثقاتها ومطعونها ومردودها والإحاطة بالوقائع الخاصة بها فقسموا رواة كل فن إلى طبقات فتألف من ذلك تراجم العلماء والأدباء والفقهاء والنحاة وغيرهم مما يعبرون عنه بالطبقات. ومنها طبقات الشعراء وطبقات الأدباء وطبقات النحاة وطبقات الفقهاء وطبقات الفرسان والمحدثين واللغويين والمفسرين والحفاظ والمتكلمين والنسابين والأطباء حتى الندماء والمغنيين وغيرهم وألفوا في كل باب غير كتاب، ولذلك كان المسلمون أكثر أمم الأرض كتباً في التراجم لأفراد الرجال.

التواريخ العامة

فانقضى القرن الثاني للهجرة ونصف الثالث وكُتب التاريخ عند المسلمين الطبقات والمغازي والسِيَر والفتوح على ما تقدم، أما التواريخ العامة مثل تواريخ الأمم أو البلاد قديماً أو حديثاً فلم يشتغلوا بها إلا بعد ذلك وأقدم من كتب في التاريخ العام ابن الواضح المعروف باليعقوبي وكتابه مطبوع في جزءين جزء في التاريخ القديم كاليهود والهنود واليونان والروم والفرس وغيرهم والثاني في تاريخ الإسلام من ظهوره إلى أيام المعتمد العباسي الذي تولى الخلافة سنة ٢٥٦هـ، وظل الناس على هذه التواريخ وقليل غيرها إلى القرن السابع للهجرة إذ انقضت الدولة الإسلامية العربية ـ العباسية في العراق والفاطمية في مصر والأموية في الأندلس

. وقامت دول الأتراك والأكراد والبربر فانتقل الناس إلى عصر جديد فعمدوا إلى تدوين تاريخ العصر المنقضي فاستعانوا بالكتب التي تقدم ذكرها فاختصروا مطولها وبوّبوا مشوشها وجمعوا بين مواضيعها وأضافوا ما لم يدركه أصحابها، وألّفوا عدة تواريخ مطوّلة أشهرها كتاب الكامل لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ.

ونهج بعض المؤرخين في تآليفهم منهجاً آخر فجعلوا مؤلفاتهم بأسماء المدن فضمنوا كتبهم وصف تلك المدن وتراجم الذين عاشوا فيها، وأطول المؤلفات من هذا الصنف تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ وتاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ في ثمانين مجلداً.

التراجم والمعاجم

وأما التراجم فكانت في القرون الأولى تدوّن في الطبقات باعتبار المهن أو العلم الذي يجمع كل طبقة فلما نضج العلم وأخذ العلماء في الترتيب والتبويب نبغ جماعة من المؤرخين استخرجوا من الطبقات وغيرها كتب التراجم ورتّبوها على حروف المعجم وأشهر تلك الكتب (وفيات الأعيان) لابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١هـ ثم (فوات الوفيات) لصلاح الدين الكتبي المتوفي سنة ٧٦٤هـ استدرك فيه ما فات ابن خلكان ذكره وكلاهما مطبوعان ومشهوران، ويمتاز التاريخ عند العرب على سواه عند سائر الأمم التي تحضّرت قبلهم بكثرة ما كتبوه من التراجم وأكثره بشكل القواميس وهم السابقون في ذلك وعنهم أخذ أهل العالم تأليف المعاجم التاريخية، فعندهم من قواميس التراجم بضعة صالحة هي كنوز في التاريخ والجغرافية والأدب والعلم، فوفيات الأعيان معجم يزيد عدد الترجمات فيه على ٨٢٠ ترجمة مرتبة على أحرف الهجاء غير ما جاء عرضاً في أثناء الكلام على الآخرين، ومن مزاياه أنه يضبط الأعلام من أسماء الرجال والأماكن ويذكر سِنِيّ الوفاة والولادة ويضمن التراجم كثيراً من الفوائد الأدبية والعلمية مما يندر في سواه.

عدد كتب التاريخ

فالمسلمون ألّفوا في التاريخ كتباً لا تحصى وما من أمة قبل العصر الحديث بلغت في هذا العلم ما بلغ إليه المسلمون، فإن كتب التاريخ الواردة أسماؤها في كشف الظنون فقط تزيد على ١,٣٠٠ كتاب غير الشروح والاختصارات وغير ما ضاع من تلك الكتب وأهمل ذكره وهو كثير جداً ومن كتب التاريخ العام ما هو مرتب أحسن ترتيب باعتبار السنين كالطبري وابن الأثير وأبي الفداء أو باعتبار الأمم والدول كالمسعودي والفخري وابن خلدون أو بحسب المدن أو الملوك مما لا يحصى. وأكثرها حسن العبارة بليغها مع إسهاب ربما زاد في بعض الأحوال حتى يخرج عن موضوع الكتاب. ويغلب الصدق في روايات كتاب المسلمين لما تعودوه من الإسناد في تناقل الأخبار إلا ما دخل تواريخهم في العصر الأول لأغراض بعض ذوي المطامع أو الأهواء والعرب لا يزالون على سذاجتهم.

انتقاد المؤرخين المسلمين

وإنما يعاب المؤرخون المسلمون لاقتصارهم في التواريخ أو التراجم على إيراد الحوادث على عواهنها كما بلغت إليهم وقد يسندونها إلى راوٍ أو عدة رواة بلا انتقاد ولا تمحيص ولا قياس اكتفاءً بالإسناد، ومما ينتقد عليهم أيضاً أنهم يصرفون عنايتهم في التواريخ إلى تدوين أخبار الحرب والفتح والعزل والولاية والولادة والوفاة، وقلما يذكرون تاريخ الآداب أو العلوم أو أحوال الدولة من الحضارة وأسبابها وتعليل الحوادث وما نجم عنها وقياس بعضها على بعض إلا ما يجيء عرضاً، ويندر أن ترى من بعض المؤرخين تصريحاً بمساوئ أحد الخلفاء أو الأمراء أو غيرهم من أولي الأمر، وأكثر ما عثرنا عليه من أمثال ذلك في كتاب الآداب السلطانية للفخري وتاريخ ابن خلدون، أما الفخري فقد صرّح بذلك انتصاراً لآل علي كقوله على أثر حكاية وقعت للرشيد مع أبي نؤاس في الرشيد:

قد كنت خفتك ثم آمنني***من أن أخافك خوفك الله

ثم قال: (ولم يكن الرشيد يخاف الله وأفعاله بأعيان آل علي (عليه السلام) أولاد بنت نبيه بغير جرم.. إلخ) ومما يؤاخذ به مؤرخو المسلمين أيضاً بالنظر إلى آداب هذه الأيام أنهم إذا عرض لهم في بعض الأخبار ألفاظ بذيئة أو واقعة يخجل سماعها الأديب فإنهم يذكرونها بألفاظها كما يذكرون سائر الحوادث.

الجغرافيا أو تقويم البلدان

لفظ الجغرافية وحده كافٍ للدلالة على أن هذا الفن ليس من موضوعات العرب ولكننا ذكرناه هنا لارتباطه بالتاريخ ولأن العرب كتبوا في وصف الطرق والبلاد والمدن قبل نقل الجغرافية إلى العربية لأسباب خاصة بالإسلام. وأول من وضع أساس هذا العلم الفينيقيون لأنهم أقدم تجار العالم وأكثرهم أسفاراً فقد ارتادوا شواطئ البحر الأبيض واستعمروا بعضها منذ بضعة وثلاثين قرناً فاطلع الفينيقيون في أثناء أسفارهم على أحوال كثير من البلاد وعرفوا المسافات بينها وأخبار أهلها إلى زمن بطليموس القلوذي في أواسط القرن الثاني للميلاد فألّف كتاباً وافياً في الجغرافية عيّن فيه الأماكن بالحسابات الفلكية ورسم الخرائط على الحسابات الرياضية وضبط الأقسام الجغرافية وحقق أماكنها على ما بلغ إليه العلم في عصره وذكر فيه عدد المدن في أيامه ٤,٣٥٠ وسماها مدينة مدينة وعدد الجبال ٢٠٠ جبل ذكر ما في بطونها من المعادن وذكر ما على الأرض من الخلائق وغير ذلك.

الجغرافية عند المسلمين

ولكن المسلمين بدأوا بوضع الجغرافية قبل اطلاعهم على كتاب بطليموس لثلاثة أسباب غير السببين اللذين دعوا اليونان أو غيرهم إلى وضعها، لأن العرب من أكثر الأمم فتحاً وغزواً وقد تفرقوا بعد الإسلام في الأربعة أقطار المسكونة، وخصوصاً أهل الحجاز كانوا تجاراً من زمن الجاهلية ثم اتسعت تجارتهم في الإسلام باتساع مملكتهم، أما الأسباب الثلاثة التي يمتاز بها العرب على سواهم فأولها: الحج لأن المسلمين على اختلاف بلادهم وأقاليمهم يحجون إلى مكة والحج فريضة على المسلم ولو كان في الهند أو الصين أو غيرهما والقدوم إلى مكة يستلزم معرفة الطرق والمنازل، وثانيها الرحلة في طلب العلم فقد رأيت في ما تقدم أن المسلمين كانوا يرحلون في طلب العلم إلى سائر الأمصار الإسلامية والرحلة تستلزم معرفة الأماكن والمناطق، ولذلك كان أول ما ألفه العرب في الجغرافية من عند أنفسهم ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية، وأول من ألّف في ذلك رواة الأدب والشعر كالأصمعي والسكوني ثم ألّفوا في بلاد العرب كلها كما فعل الهمداني في جزيرة العرب وأبو الأشعث الكندي في جبال

تهامة وغيره. والسبب الثالث أن العرب فتحوا العالم واختلفوا في طرق الفتح باختلاف البلاد بين أن تكون قد فتحت صلحاً أو عنوة أو أماناً أو قوة ولكل من ذلك حكم في قسمة الفيء وأخذ الجزية وتناول الخراج واقتناء المقاطعات والمصالحات وإنالة التسويفات والإقطاعات لا يسع الفقهاء جهلها فضلاً عن الأمراء، فأصبح علم ذلك عندهم من قبيل الدين ولا يتوصل إليه إلا بالتاريخ والجغرافية ولما ترجمت الجغرافية إلى العربية واطلع العرب عليها أخذوا في تأليف الكتب على مثالها وتوسّعوا في ذلك وزادوا عليه ما عرفوه من قبل.

الخطابة بعد الإسلام

الخطابة والشعر من الفنون الجاهلية التي زادها الإسلام رونقاً وبلاغة وارتقاء ولكن الخطابة سبقت الشعر في الارتقاء لحاجة المسلمين إليها في الفتوح والغزوات والعرب يومئذٍ لا يزالون على بداوتهم تتأثّر نفوسهم من التصورات الشعرية سواء سبكت في قالب الخطابة أو الشعر. والخطابة أقرب تناولاً ولم يرد في القرآن ما ينفر الناس منها كما ورد في الشعر والشعراء. وزادت الخطابة بعد الإسلام قوة ووقعاً في النفوس بنهضة العرب للحروب وانتصارهم في أكثر مواقعها فازدادوا أنفة وسمت نفوسهم فسمى بها ذوقهم في البلاغة وتفتّحت قرائحهم بما شاهدوه من البلاد الجديدة والألسنة الجديدة فبلغت الخطابة عندهم مبلغاً قلما سبقهم فيه أحد من الأمم التي تقدمتهم بلاغةً وإيقاعاً وتأثيراً حتى اليونان والرومان، فقد ذكروا لديموستنيس أخطب خطباء اليونان ٦١ خطبة نصفها منسوب إليه خطأ وهذه خطب الإمام علي (عليه السلام) تعد بالمئات. وأما في كثرة الخطباء فالعرب كانوا في صدر الإسلام من أكثر الأمم خطباء لأن خلفاءهم وأمراءهم وقوادهم كان معظمهم من الخطباء حتى النُسّاك والزهاد، وفي كتاب (نهج البلاغة) المنشور بين ظهرانينا أكبر شاهد على ذلك وفيه أمثلة من كل ضروب الخطب ومنها الدينية والأدبية والعلمية والحماسية والفخرية ناهيك عن شيوع الخطابة في القبائل على اختلاف أصقاعها كما كانت في الجاهلية وكانت ترد الوفود إلى المدينة أو دمشق أو بغداد أو غيرها من عواصم المسلمين لتهنئة الخليفة أو استنفاره أو استنجاده أو استجدائه. وكان شباب الكتاب إذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم لشيوع حب الخطابة فيهم ولاقتباس أساليب البلاغة منهم.

الشعر بعد الإسلام

الشعر وبنو أمية

لما ظهر الإسلام ودهش العرب بأساليب القرآن وبالنبوة والوحي واشتغلوا بالغزو والفتح ونشر الإسلام انصرفت قرائحهم الشعرية إلى الخطابة لحاجتهم إليها في استنهاض الهمم وتحريك الخواطر للجهاد واستحثاث القلوب على العبادة، فانقضى عصر الخلفاء الأربعة والعرب في شاغل عن الشعر حتى إذا طمع بنو أمية في الخلافة مع كثرة المطالبين بها من أهل بيت النبي (صلّى الله عليه وآله) واحتاجوا إلى من يؤيدهم استنفروا الناس لنصرتهم وابتاعوا الأحزاب بالأموال واستخدموهم بالدهاء فكان الشعر في جملة ما تساعدوا به، فكان الخلفاء من بني أمية يرغّبون الناس في الشعر ويجزونهم بأعظم الجوائز على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانتهم في أقوالهم وكانوا يطالبون أولادهم بحفظ الأشعار والآثار، والأغلب أنهم كانوا يستمدون الاستعانة لهم بألسنة الشعراء على مقاومة أهل البيت (عليه السلام) لعلمهم أن الجمهور يعتقدون الحق في الخلافة لهؤلاء. وكثيراً ما كان الشعراء المغمورون بنِعَم بني أمية لا يتمالكون عن التصريح بذلك في بعض الأحوال. فالفرزدق مثلاً امتدح بني أمية ونال جوائزهم وكان متشيعاً في الباطن لبني هاشم والأمويون يعلمون ذلك ويسترضونه. ومن جملة أخباره أن مروان بن الحكم وكان عاملاً لمعاوية على المدينة بلغه عن الفرزدق قول أوجب حدّه فطلبه ففر الفرزدق إلى البصرة فقال الناس لمروان: (أخطأت في ما فعلت فإنك عرضت عرضك لشاعر مضر) فوجه وراءه رسولاً ومعه مائة دينار وراحلة خوفاً من هجائه. ومع ذلك اتفق أن الخليفة هشام بن عبد الملك ذهب إلى الحج وبينما هو في الطواف شاهد علي بن الحسين (عليه السلام) وأنكره فسأل عنه وكان الفرزدق حاضراً فنظم قصيدته المشهورة في مدح أهل البيت ومطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته***والبيت يعرفه والحل والحرم

الشعر وبنو العباس

فلما انقضت دولة بني أمية وقامت دولة العباسيين عدل المنصور عن إكرام الشعراء وكانوا قد تعودوا الوفود على الخلفاء أو نيل جوائزهم فأصبحوا إذا أتوا المنصور منعهم من الدخول عليه أياماً حتى تنفد نفقاتهم ويملون الانتظار وحاجبه يرفع أمرهم إليه وهو يؤخرهم.

ثم إذا أذن لهم بعد ذلك اشترط عليهم أن لا يمدحوه كما كانوا يمدحون بني أمية وكان بخيلاً عليهم فتغيرت قلوب الشعراء عليه فساعد ذلك على تباعد قلوب العرب عنه وميلهم إلى العلويين فاستفحل أمر محمد بن عبد الله بالمدينة وقاسى المنصور أمرّ العذاب في إخماد ثورته، فأصبح الخلفاء بعد المنصور يتجنبون إغضاب الشعراء ويبالغون في إكرامهم.

الشعر ودول العرب

والشعر كما قدمنا من العلوم العربية فلما تغلب العنصر الأعجمي في دولة بني العباس وصارت الأمور إلى أيدي الأتراك ضعف أمر الشعراء، حتى إذا قامت دولة بني حمدان وهم عرب عاد الشعر إلى رونقه وتزاحم الشعراء بباب سيف الدولة حتى قيل إنه لم يجتمع بباب خليفة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ما اجتمع ببابه. وكان هو أديباً شاعراً فاشتهر في عصره أبو فراس والمتنبي والسري والرفاء والنامي والببغاء والواواء وغيرهم.

جمع الشعر ورواته

لما أخذ المسلمون في تفسير القرآن واحتاجوا إلى تحقيق معاني الألفاظ كان الشعر في جملة ما رجعوا إليه في تحقيقها فاضطروا إلى جمعه بالأخذ عن رواته، وشرعوا في ذلك من القرن الأول للهجرة، وأكثر الناس اشتغالاً في جمع الشعر أهل العراق مما يلي بلاد العرب أي في البصرة والكوفة وكان أهل الكوفة أجمع للشعر من أهل البصرة، ومن عادة العرب في رواية الشعر أنهم كانوا من أيام الجاهلية إذا نبغ الشاعر صَحبه رجل يروي أشعاره ويتلوها أو يروي له أشعار غيره للشاهد أو نحوه، ويغلب في الرواية أن يكون مرشحاً للشاعرية كأنه تلميذ يتدرب على يد أستاذه يأخذ عنه، وكانت عمدتهم في الجاهلية على الحفظ لأنهم لم يكونوا يكتبون فكان (كثيرعزة) راوية جميل بثينة وجميل راوية هدبة بن خشرم وهدبة كان راوية الحطيئة والحطيئة راوية زهير وابنه، وكانت لهم في الحفظ نوادر غريبة لتعويد ذاكرتهم على ذلك مذ أخذ الناس في ذلك العصر بتعويد حوافظهم على حفظ القرآن والحديث لتجنب الكتابة فكان فيهم من يحفظ بضعة وعشرين ألف قصيدة يرويها بأسانيدها ومعاني ألفاظها.

طبقات الشعراء

العرب مطبوعون على الشعر فلما جاء القرآن وشاع حفظه وحفظ الأحاديث وعني الناس بجمع الآداب والأمثال واستظهار محاسنها ومحاسن الشعر نهضت طباع الناس وارتقت أذواقهم في البلاغة ورسخت ملكاتهم واتسعت تصوراتهم في الشعر والخطابة، وكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أسمى رتبة وأصفى رونقاً واقتبسوا من الفرس أساليب الإطناب، ولذلك كان الشعراء الإسلاميون أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من شعراء الجاهلية. فالجاهليون طبقة أولى تليهم طبقة الإسلاميين إلى أواخر دولة بني أمية وهم المخضرمون ثم طبقة ثالثة في الدولة العباسية هي طبقة المولدين تليها طبقة المحدثين.

الشعراء في الإسلام وأشعارهم

تكاثر الشعراء في العصر الإسلامي فوق تكاثرهم في العصر الجاهلي لرواج سوق الشعر في القرون الأولى، على أن إحصاءهم بالضبط غير متيسر لضياع أكثر أخبارهم لكننا نستدل من بعض النصوص أن عددهم كان عظيماً جداً، فقد ذكر ابن خلكان: (أن هارون بن علي المنجم البغدادي صنّف كتاب البارع في أخبار الشعراء المولدين وجمع فيه ١٦١ شاعراً وافتتحه بذكر بشار العقيلي وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح) والفترة بينهما قصيرة، وذكر المؤلف أنه اقتصر على خيرة الشعراء ونخبهم، أما مقدار ما نظّمه أولئك الشعراء من القصائد والدواوين مما لا يحصيه عدّ. فديوان بشار العقيلي مثلاً ألف ورقة في ألفي صفحة أي ٤٠,٠٠٠ سطر أو بيت، وابن هرمة ٥٠٠ ورقة في ٢٠,٠٠٠ بيت وشعر أبي نؤاس في نحو ألف ورقة ومسلم بن الوليد ٢٠٠ ورقة، وقس على ذلك.

وإذا اعتبرت الدواوين التي ضاعت وفات صاحب كشف الظنون ذكرها والشعراء الذين لم تجمع أشعارهم ولم يكن لهم دواوين زاد استغرابك كثرة الشعر العربي وتعداد شعرائه مما لا تجد له مثيلاً في لغة من لغات العالم القديم أو الحديث.

عروض الشعر

المشهور أن الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٠هـ أول من وضع عروض الشعر العربي أي استنبطه وأخرجه إلى الوجود وحصر أقسامه في خمس دوائر استخرج منها خمسة عشر بحر ثم زاد فيه الأخفش بحراً واحداً سماه الخبب ولا مشاحة في أن عروض الشعر ارتقت وارتفعت وتفرعت بتوالي القرون شأن كل ما هو من قبيل الأحياء فتولد في النظم ضروب من القصائد كالأصمعيات والشعر البدوي والحوراني وغيرها.

أما الأندلس فقد كان للشعر فيها تاريخ خاص لرواجه عندهم . بمستوى رواج غيره عند الأمم الأخرى . فإنهم هذّبوا مناحيه وفنونه حتى بلغ التنميق فيه الغاية واستحدثوا الموشح ونظّموا به الموشحات الأندلسية المشهورة.

الشعر والدولة

بيّنا في كلامنا عن الشعر في الجاهلية ما كان له من التأثير في نفوس العرب لشدة إحساساتهم وسرعة تأثرهم. فلما صار العرب دولة وارتقت عقولهم زاد شعورهم رقة فازدادوا إحساساً وتضاعف تأثير الشعر فيهم. فإذا وفد الشاعر على الخليفة أو الأمير استأذن في الدخول عليه فإذا دخل أنشد قصيدته جهاراً والخليفة وأرباب مجلسه يسمعون ويترنّمون فيأمر الخليفة أو الأمير بالجائزة وقد تتجاوز مائة ألف درهم إلى ألف ألف وقد يرتب له الرواتب الشهرية ويخلع عليه الخلع ويقلّده الوظائف ومن أكثر الخلفاء سخاءً على الشعراء المهدي والرشيد العباسيان والناصر والمنصور الأندلسيان. ومن أسخى الأمراء خالد القسري أمير العراقيين في زمن الأمويين وسيف الدولة بن حمدان.

الشعر والخلفاء والأمراء

ومن أسباب رواج صناعة الشعر في الدول العربية أن الخلفاء أنفسهم كانوا ينظمون الشعر ويبحثون فيه، ولبعضهم القصائد والمقاطع الحسنة وكان الغرض من تقريب الشعراء في أول دولة بني أمية سياسياً ثم صار أدبياً يندفع الخلفاء والأمراء إليه تلذذاً بالشعر وآدابه. ولذلك كانوا يجالسون الشعراء ويقترحون عليهم نظم القصائد أو الأبيات أو يستقدمونهم للسؤال عن بيت تعسّر عليهم فهمه أو نسوا بعضه وقد يكون بينهم وبين الشاعر بُعد

شاسع، فقد بعث هشام بن عبد الملك بدمشق إلى أميره على العراق يوسف بن عمر الثقفي أن يوجه إليه حماداً الراوية ويدفع له ٥٠٠ دينار وجملاً مهرياً فسار حماد إلى الشام في ١٢ ليلة ولما وصلها وسأل عن سبب استقدامه فقال له هشام: خطر ببالي بيت لا أعرف قائله وهو:

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت***قينة في يمينها إبريق

فقال حماد: (يقول له عدي بن زيد العبادي) وأنشده باقي القصيدة.

تأثير الشعر في الدولة

ويقال بالإجمال أن الشعر كان عند العرب كل آدابهم يتناشدونه ويتسامرون به ويتذاكرون فيه ولم يكن ذلك مقتصراً على الخلفاء أو الأمراء أو الأدباء ولكنه كان عاماً في الرجال والنساء، وكانوا لكثرة ما يحفظونه منه يرمزون باسم الشاعر إلى بيت من أبياته مشهور بمعنى ويزيدون ذلك المعنى.

العلوم الدخيلة

فرغنا من الكلام في ما اقتضاه التمدن الإسلامي من العلوم الإسلامية وفي الأسباب التي دعت إلى نشوئها وفي الآداب العربية الجاهلية وما بلغت إليه في الإسلام. ونحن متقدمون في ما يلي إلى الكلام في العلوم الدخيلة التي نقلها المسلمون إلى العربية ونريد بها العلوم القديمة التي كانت شائعة عند ظهور الإسلام في الممالك التي عرفها المسلمون، وهي عبارة عن خلاصة أبحاث رجال العلم والفلسفة والأدب في ممالك التمدن القديم، وكان العراق على الخصوص حافلاً بالعلماء وفيهم الأطباء والفلاسفة والمنجمون والحسّاب وغيرهم ممن تجمعوا من بلاد فارس وما بين النهرين وفيهم السريان والفرس والروم والهنود، فلما أراد الخلفاء نقل تلك العلوم إلى لسانهم وجدوا بين ظهرانيهم من يلبي الطلب ويفي بالغرض.

العرب والعلوم الدخيلة

ما الذي حملهم على طلبها؟

قد رأيت في ما كتبناه عن (العرب والقرآن والإسلام) أن المسلمين كانوا يعتقدون في الصدر الأول: (أن الإسلام يهدم ما كان قبله) وأنه (لا ينبغي أن يتلى غير القرآن) وبناء على ذلك هان عليهم إحراق ما عثروا عليه من كتب اليونان والفرس في الإسكندرية وفارس، ثم اشتغلوا عن طلب تلك العلوم بما احتاجوا إليه في صدر الإسلام من أسباب إنشاء الدولة فأصبحوا لا عناية لهم إلا بالقرآن وأحكامه وما ترتب عليه من العلوم الإسلامية في الفقه واللغة والمغازي وسير الفتح ونحو ذلك، وكان أهل البلاد الأصليون من الروم والفرس يحببون إلى الخلفاء الاشتغال بعلوم الأوائل وخصوصاً الطب والفلسفة وهم لا يصغون ولا يقبلون، ولما اتسع سلطان المسلمين وفرغوا من إنشاء العلوم الإسلامية وقد تأيدت دولتهم وذهبت عنهم السذاجة والغفلة عن الصنائع أخذوا في أسباب الحضارة بالحظ الوافر وتفننوا بالصنائع

والعلوم وتشوقوا إلى الاطلاع على العلوم الفلسفية بما سمعوه من الأساقفة والقساوسة وهان عليهم ذلك بالإسناد إلى الحديث النبوي القائل: (الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ممن سمعها ولا يبالي من أي وعاء خرجت)(١)، وقوله: (خذوا الحكمة ولو من ألسنة المشركين)(٢)، و(طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)(٣)، و(اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد)، و(اطلبوا العلم ولو بالصين)(٤). على أنهم لم يقدموا على طلبها دفعة واحدة وإنما طلبوها تدريجاً تبعاً لمقتضيات الأحوال.

نقل العلوم في العصر العباسي

أول الخلفاء العباسيين السفاح ولم يعتنِ بشيء من العلم لقصر مدة حكمه، ثم أفضت الخلافة إلى أخيه المنصور (سنة ١٣٦ ـ ١٥٨هـ) وكان شديداً حازماً كثرت في أيامه الفتوق فاضطر إلى حروب كثيرة، وقد طالت مدة حكمه لكنه قضى معظمها في تثبيت دعائم دولته وبناء مدينته (بغداد).

النجوم

وكان المنصور ميالاً إلى التنجيم لا يكاد يعمل عملاً إلا استشار المنجمين فيه، وهو أول خليفة قرّب المنجمين وعمل بأحكام النجوم واقتدى به أكثر الذين خلفوه، وكانت صناعة النجوم رائجة عند الفرس ونبغ فيها جماعة تقرّبوا بها إليه أشهرهم نوبخت المنجم الفارسي كان مجوسياً وأسلم على يده وكان بارعاً في اقترانات الكواكب وحوادثها وكان يصحب المنصور حيثما توجه، ولما ضعف عن خدمته قال له المنصور: (احضر ولدك ليقوم مقامك) فأحضره وهو أبو سهل بن نوبخت وتوالى آل نوبخت في خدمة العباسيين وترجموا لهم كتباً في الكواكب وأحكامها وكانوا فضلاء ولهم رأي ومشاركة في علوم الأوائل فاهتم الناس من ذلك الحين في علم النجوم ومتعلقاته، وجرّهم النظر في الأفلاك إلى الهندسة فكتب المنصور إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب إقليدس وبعض كتب الطبيعيات ولعل المجسطي من جملتها لأنه في النجوم.

الطب

ومما اهتموا بنقله من العلوم الطبيعية في أيام المنصور الطب، والسبب في ذلك أن المنصور أصابه في أواخر أيامه (سنة ١٤٨هـ) مرض في معدته فانقطعت شهوته، وكان الأطباء القائمون في خدمته يعالجونه ولا يجدي علاجهم نفعاً، فجمعهم يوماً وقال لهم: (هل تعرفون من الأطباء في سائر المدن طبيباً ماهراً؟) فقالوا: (ليس في وقتنا هذا أحد يشبه جورجيس رئيس أطباء جنديسابور) فاستقدمه وعرض عليه مرضه فقال له جورجيس: (أنا أدبرك كما تحب) فخلع عليه وأنزله في قصر خاص وأمر بإكرامه، ورجع في الغد ونظر في قارورة الماء (زجاجة البول) ودبره تدبيراً لطيفاً فشفي ورجع إلى مزاجه فازداد فرحه به ومنعه من الرجوع إلى بلده، ومما زاده رغبة فيه أنه رآه عفيفاً صادقاً في تدينه، وكان جورجيس محباً للتأليف وكان يعرف اللغة اليونانية فضلاً عن السريانية والفارسية والعربية، فلما رأى وثوق المنصور به نقل له كتباً طبية من اليونانية إلى العربية غير ما ألفه في السريانية، فالمنصور أول من عني بنقل الكتب القديمة ولكنه اقتصر منها على النجوم والهندسة والطب، وفي أيامه ترجم ابن المقفع كليلة ودمنة. وأما الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية فترجمت في أيام المأمون، وقد ذكر صاحب الفهرست أن ابن المقفع نقل كتباً في المنطق والطب من الفارسية إلى العربية كان الفرس قد نقلوها عن اليونانية.

فلما أفضت الخلافة إلى الرشيد (١٧٠ . ١٩٣هـ) كانت الأفكار قد نضجت والأذهان قد زادت تنبهاً إلى علوم الأقدمين بما كان يتقاطر إلى بغداد من الأطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود، وكانوا أهل تمدن وعلم كما رأيت وكانوا يتعلّمون العربية ويعاشرون المسلمين ويباحثونهم في تلك العلوم والمسلمون يتهيّبون من ذلك لما سبق إلى أذهانهم من مخالفته للدين، وأصبحوا إذا فتحوا بلداً ووجدوا فيه كتباً لا يأمرون بإحراقها أو إعدامها بل يأمرون بحملها إلى عاصمتهم والاحتفاظ بها لنقلها إلى لسانهم كما اتفق للرشيد في أثناء حربه في أنقرة وعمودية وغيرهما من بلاد الروم فإنه عثر هناك على كتب كثيرة حملها إلى بغداد وأمر طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها.

المأمون والفلسفة والمنطق

فالكتب الفلسفية لم يقدم المسلمون على ترجمتها إلا في أيام المأمون لسبب متصل بالمأمون نفسه، وذلك أن المسلمين تعودوا من أول الإسلام حرية الفكر والقول والمساواة فيما بينهم فكان إذا خطر لأحدهم رأي في خليفة أو أمير لا تمنعه هيبة الملك من إبداء رأيه، وكان ذلك شأنهم أيضاً في الدين فإذا فهم أحدهم من الآية أو الحديث غير ما فهمه الآخر صرح برأيه وجادله فيه، فلم ينقض عصر الصحابة حتى أخذ المسلمون يفترقون في المذاهب، ولم يدخل القرن الثاني حتى تعددت الفرق وتفرعت وفي جملتها المعتزلة. والمعتزلة طوائف كثيرة أساس مذهبهم تطبيق النصوص الدينية على الأحكام العقلية، ولو طالعت مذاهبهم لرأيت بعضها يوافق أحدث الآراء الانتقادية في الدين مع مرور الأجيال على تمحيصها. ولذلك فهم يسمون أصحاب العدل والتوحيد. فلما أفضت الخلافة إلى المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) تغير وجه المسألة لأنه كان مع فطنته وسعة علمه شديد الميل إلى القياس العقلي. وقد تعلم وتفقه وطالع ما نقل إلى عهده من كتب القدماء فازداد رغبة في القياس والرجوع إلى أحكام العقل فتمسك بمذهب الاعتزال وقرب إليه أشياخه، وتأييداً لصحة الجدل أمر بنقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية إلى العربية واطلع هو عليها فقويت حجته وازداد تمسكاً بالاعتزال. ثم جعل الترجمة عامة لكل مؤلفات أرسطو في الفلسفة وغيرها. وقد ابتدأ بترجمة تلك الكتب، واقتدى بالمأمون كثيرون من أهل دولته وجماعة من أهل الوجاهة والثروة في بغداد فتقاطر إليها المترجمون من أنحاء جزيرة العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والسنسكريتية والنبطية واللاتينية وغيرها. وكثر في بغداد الورّاقون وباعة الكتب وتعددت مجالس الأدب والمناظرة وأصبح همّ الناس البحث والمطالعة وظلت تلك النهضة مستمرة بعد المأمون إلى عدة من خلفائه حتى نقلت أهم كتب القدماء إلى العربية.

نقلة العلم في العصر العباسي

(١) آل بختيشوع: وهم من السريان النساطرة أولهم جورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور وقد تقدم ذكره وخلفه عندهم ابنه بختيشوع بن جورجيس استقدمه الرشيد من جنديسابور كما استقدم المنصور أباه قبله.

(٢) آل حنين: أولهم حنين بن إسحاق العبادي شيخ المترجمين وهو من نصارى الحيرة ولد سنة ١٩٤هـ.

(٣) حبيش الأعسم الدمشقي: هو حبيش بن الحسن الدمشقي بن أخت حنين بن إسحاق وقد تعلم صناعة الطب منه وكان قد سلك مسلكه في الترجمة.

(٤) قسطا بن لوقا البعلبكي: وهو من نصارى الشام وكان طبيباً حاذقاً وفيلسوفاً نبيلاً رحل إلى بلاد الروم في طلب العلم وكان عالماً باللغات اليونانية والسريانية والعربية ونقل كتباً كثيرة من اليونانية إلى العربية.

(٥) آل ماسرجويه: أولهم ماسرجويه متطبب البصرة وهو يهودي المذهب سرياني اللغة وكان ينقل من السرياني إلى العربي. ثم ابنه عيسى بن ماسرجويه وكان يلحق بأبيه ولهما مؤلفات في الطب.

(٦) آل الكرخي: أولهم شهدي الكرخي من أهل الكرخ وكان قريب الحال في الترجمة، ثم ابنه وكان مثل أبيه في النقل ثم فاق أباه في آخر عمره ولم يزل متوسطاً وكان ينقل من السرياني إلى العربي.

(٧) آل ثابت: أولهم ثابت بن قرة الحراني وهو من الصابئة المقيمين في حران وكان صيرفياً ثم تعلم الطب والفلسفة والنجوم وكان مع ذلك يعرف اللغة السريانية جيداً وكان جيد النقل إلى العربية.

(٨) الحجاج بن مطر: كان في جملة من ترجم للمأمون وقد نقل كتاب المجسطي وإقليدس إلى العربية ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني.

(٩) ابن ناعمة الحمصي: هو عبد المسيح بن عبد الله الحمصي الناعمي، كان متوسط النقل وهو إلى الجودة أميل، ومن بيت الناعمة الحمصي أيضاً زروبا بن مانحوه وكان أضعف من سابقه.

(١٠) اصطفان بن باسيل: كان يقارب حنين بن إسحاق في جودة النقل إلا أن عبارة حنين كانت افصح وأجلى.

(١١) موسى بن خالد: ويعرف بالترجمان نقل كتباً كثيرة من الستة عشر لجالينوس وهو دون حنين.

(١٢) سرجيس الرأسي: هو من مدينة رأس العين في جزيرة العراق، نقل كتباً كثيرة وكان متوسطاً في النقل وحنين كان يصلح نقله.

(١٣) يوحنا بن بختيشوع: هو من غير آل بختيشوع المتقدم ذكرهم وكان ينقل الكتب من اليونانية إلى السريانية وليس إلى العربية.

(١٤) البطريق: كان في أيام المنصور وقد أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة وله نقل كثير جيد إلا أنه دون نقل حنين.

(١٥) يحيى بن البطريق: كان في جملة الحسن بن سهل وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وإنما كان يعرف اللاتينية.

(١٦) أبو عثمان الدمشقي: كان من النقلة المجيدين إلى العربية.

(١٧) أبو بشر متى بن يونس: من أهل ديرقني تفقّه في مدرسة مار ماري على أساتذة عظام وإليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره.

(١٨) يحيى بن عدي: هو من أهل المنطق في القرن الرابع للهجرة قرأ على متى ابن يونس وعلى أبي نصر الفارابي وهو يعقوبي المذهب خلافاً لأكثر المترجمين السريان وكان سريع الخط يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة.

هؤلاء أشهر نقلة العلم من اليوناني أو السرياني إلى العربي. وقد اكتفينا بما تقدم للاختصار وأما النقلة من الألسنة الأخرى فهم أيضاً جماعة.

السوريون ونقل العلم

إذا تدبّرت ما تقدم من أخبار النقلة ومواطنهم ومللهم رأيت معظمهم من السوريين من سكان الشام والجزيرة والعراق. وللسوريين شأن كبير في نشر العلوم بين الأمم أو نقلها من أمة إلى أخرى أو من لسان إلى لسان من أقدم أزمنة التاريخ . يساعدهم على ذلك نشاطهم وذكاؤهم وإقدامهم وتوسط بلادهم بين الشرق والغرب، فلما ظهر الإسلام وأراد الخلفاء نقل العلوم إلى العربية كان السوريون ساعدهم الأقوى في نقلها من اللغات المعروفة في ذلك العهد.

نقل العلم لغير الخلفاء

قد رأيت في ما تقدم أن الخلفاء هم الذين سعوا في نقل كتب العلم على يد التراجمة، فلما نقل بعض تلك الكتب واطلع عليها أهل بغداد نهض جماعة من كبرائهم واقتدوا بالخلفاء في نقلها واستخدموا التراجمة وبذلوا الأموال في البحث عنها وترجمتها، وأشهر هؤلاء ثلاثة يُعرفون ببني شاكر أو بني موسى لأنهم أولاد موسى بن شاكر وهو محمد وأحمد والحسن ويعرف أولادهم بعدهم ببني المنجم.

وتفانى أولاد شاكر في طلب العلوم القديمة وبذلوا فيها الرغائب وأتعبوا أنفسهم في جمعها وأنفذوا إلى بلاد الروم مَن أخرجها إليهم وأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني، وكان في جملة من أنفذوه للبحث عن الكتب حنين بن إسحاق وغيره، وأقاموا التراجمة وفي جملتهم حنين وحبيش وثابت بن قرة وكانوا ينفقون ٥٠٠ دينار في الشهر للنقل والملازمة. ولبني موسى مؤلفات كثيرة في الفلك والحيل والهندسة ولهم استنباطات في هذا العلم لم يسبقهم إليها أحد. وقد برهنوا للمأمون أن محيط الأرض ٢٤,٠٠٠ ميل برهاناً محسوساً فضلاً عن مهارتهم في الرصد وغيره.

وممن بذلوا المال في نقل العلوم غير الخلفاء محمد بن عبد الملك الزيات كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ ٢,٠٠٠ دينار في الشهر ونقل باسمه كتب عديدة، ومنهم علي بن يحيى المعروف بابن المنجم كان أحد كتاب المأمون ونقل له كثير من كتب الطب وكذلك محمد بن موسى بن عبد الملك. وفي الجملة فإن المسلمين نقلوا إلى لسانهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدنة في ذلك العهد ولم يتركوا لساناً من ألسن الأمم المعروفة آنذاك لم ينقلوا منه شيئاً وإن كان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية. فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها فكان اعتمادهم في الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان. وفي النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس، وفي الطب (الهندي) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والأقاصيص على الهنود، وفي الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الأنباط والكلدان، وفي الكيمياء والتشريح على المصريين فكأنهم ورثوا أهم علوم الآشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه

واستخرجوا منه علوم التمدن الإسلامي (الدخيلة)، ويلاحظ أيضاً أن العرب نقلوا من علوم تلك الأمم في قرن وبعض القرن ما لم يستطع الرومان نقل بعضها في عدة قرون وذلك شأن المسلمين في أكثر أسباب تمدنهم العجيب.

حسن معاملة الخلفاء للعلماء غير المسلمين

ومن العوامل الفعالة في سرعة نضج العلم في النهضة العباسية وكثرة ما ترجم في تلك المدة القصيرة أن الخلفاء أصحاب تلك النهضة كانوا يبذلون كل رخيص وغال في سبيل نقل الكتب ويرغّبون النقلة وغيرهم بالبذل والإكرام والإحسان بغض النظر عن مللهم أو نحلهم أو أنسابهم وقد كان فيهم النصراني واليهودي والصابئ والسامري والمجوسي، فكان الخلفاء يعاملونهم كافة بالرفق والإكرام مما يصح أن يكون مثالاً للاعتدال والحرية وقدوة لولاة الأمور في كل العصور.

وكثيراً ما كان الخلفاء يطلقون أيدي أطبائهم في دورهم ويستشيرونهم في مهام أمورهم الإدارية والسياسية وربما كلفوهم التوقيع عنهم، فكان المعتصم قد استطب سلمويه بن بنان النصراني وبلغ من إكرامه إياه أنه كان إذا ورد إلى الخليفة كتاب يقتضي توقيعاً وكان سلمويه حاضراً أمره أن يوقع عنه بخطه، وكل ما كان يرد على الأمراء والقواد من خروج أمر أو توقيع من الخليفة فبخط سلمويه، وكذلك كان شأن داود بن ديلم مع المعتضد، وكذلك كان المتوكل والمهتدي وغيرهم في إكرام الأطباء وتقديمهم والإحسان إليهم وكانوا إذا حضروا مجلس الخليفة جلسوا معه على السدة وربما جلس الطبيب، والوزراء والأمراء وقوف كما كان شأن ثابت بن قرة الصابي مع المعتضد بالله، وكانت مواكبهم إذا ركبوا مثل مواكب الأمراء والوزراء، وكان الخلفاء يمازحونهم وهم أول من يدخل عليهم للنظر في ما يحتاجون إليه مما يصلح أبدانهم أو يختارون لهم الأطعمة المناسبة، ولم يكن الخليفة يتناول دواء إلا بإذن طبيبه وإذا فعل ولم يستأذنه جرّ عليه غضب الطبيب واضطر لاسترضائه، ذكروا أن المتوكل احتجم مرة بغير إذن طبيبه إسرائيل بن الطيفوري فغضب إسرائيل فافتدى الخليفة غضبه بثلاثة آلاف دينار وضيعة تغلّ في السنة ٥٠,٠٠٠ درهم، وكان جبرائيل الكحال أول من يدخل على المأمون بعد الصلاة فيغسل أجفانه ويكحل عينيه فإذا انتبه من قائلته فعل مثل ذلك، وكثيراً

ما كانوا يمتحنون أمانتهم وسلامة ذمتهم قبل التسليم لهم كما فعل المتوكل بحنين بن إسحاق لما أراد أن يستطبه وقد خافه على نفسه فبعث إليه فلما حضر أقطعه إقطاعاً سنياً وقرر له جارياً وخلع عليه ثم قال له: (أريد أن تصف لي دواء يقتل عدواً نريد قتله سراً) فقال حنين: (ما تعلمت غير الأدوية النافعة ولا علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها فإن أحب أن أمضي وأتعلم فعلت) فقال: (هذا شيء يطول بنا) ثم رغّبه وهدّده وحبسه في بعض القلاع سنة ثم أحضره وأعاد عليه القول وأحضر سيفاً ونطعاً وهدده بالقتل فقال: (لي رب يأخذ لي حقي غداً في الموقف العظيم) فتبسّم المتوكل وأخبره أنه أراد امتحانه.

ولنفس هذا السبب كان الخلفاء يوجبون على أطبائهم النصارى أو غيرهم التمسك بطقوس دياناتهم ويكرمون أهل تلك الأديان من أجلهم. فقد كان ثابت بن قرة صابئاً فلما نال حظوة عند المعتضد تجددت الرئاسة للصابئة في مدينة السلام. وقلما كانوا يريدونهم على دين الإسلام إلا نادراً كما أراد القاهر بالله سنان بن ثابت المذكور فهرب ثم أسلم خوفاً منه، على أن الصابئة كثيراً ما كانوا يصومون شهر رمضان مع المسلمين كما كان يفعل أبو إسحاق الصابئ الكاتب المشهور في أيام عز الدولة ومع ذلك فلما أراده عز الدولة أن يعتنق الإسلام لم يفعل لأنه كان متمسكاً بدينه.

ولم تكن تلك المعاملة الحسنة خاصة بالنهضة العباسية بل كانت تتناول كل دولة نهضت للعلم، فالدولة الفاطمية بمصر كان أكثر أطبائها من النصارى واليهود والسامريين وكانت لهم عندهم منزلة الأطباء في الدولة العباسية فكانوا يغدقون عليهم الأموال ويولّونهم الوظائف والمناصب ويستشيرونهم ويكرمونهم ويلقّبونهم بألقاب الشرف كسلطان الحكماء وأمين الدولة ومعتمد الملك. ويقال نحو ذلك في دولة الأندلس فقد كان للأطباء والعلماء في أيام الحكَم بن الناصر ما كان لهم في أيام المأمون لمشابهة بين الخليفتين فقد كان الحكم محباً للعلم والعلماء جمّاعاً للكتب.

انتشار العلوم الدخيلة في المملكة الإسلامية

لم تكد العلوم الدخيلة تنقل إلى العربية حتى أخذ المسلمون في درسها والاشتغال بها. وكان اشتغالهم في بادئ الرأي على سبيل التلخيص أو الشرح أو التعليق حتى إذا نضج

تمدنهم وانتشرت العلوم في البلاد أخذ المسلمون في التأليف من عند أنفسهم، وبعد أن كانت العلوم في القرنين الأولين نقلية تحتاج إلى الادخار في الذاكرة أصبحت في القرنين التاليين وما بعدهما عقلية عمدتها النظر والقياس والتحليل والتركيب وكانت بغداد كعبة العلم وحج العلماء ومنبت أهل الفضل ومقر نقلة العلم في أثناء النهضة العباسية وخصوصاً في أيام المأمون، حتى إذا تولى المعتصم واستكثر من الأتراك وظهرت منهم الإساءة لأهل بغداد نفر الناس وتباعدت القلوب ولكن المعتصم كان على مذهب أخيه المأمون في الاعتزال وإكرام الشيعة فظلت بغداد على نحو ما كانت عليه في أيام المأمون. وكان الواثق يتشبّه بالمأمون في حركاته وسكناته وكان يعقد المجالس مثله للمباحثة بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم العقلية والسمعية في جميع الفروع. فلما توفي الواثق سنة ٢٣٣هـ خلفه أخوه جعفر المتوكل وكان شديد الانحراف عن الشيعة والمعتزلة حتى أمر بهدم قبر الحسين بن علي (عليه السلام) وما حوله من المنازل ومنع الناس من إتيانه وكان كثير الاستهزاء بعلي (عليه السلام) وكان يجالس من اشتهر ببغضه، وخالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد فأبطل القول بخلق القرآن ونهى عن الجدل والمناظرة في الآراء وعاقب عليه وأمر بالرجوع إلى التقليد. وأخذ منذ تولى الخلافة في مناوأتهم فأهلك جماعة من العلماء وحطّ مراتبهم وعادى العلم وأهله ولاقى أهل الذمة منه الشدائد بتغيير زيهم وإذلالهم وإهانتهم، ومن أشهر حوادث نقمته على خدمة العلم أنه غضب على بختيشوع الطبيب وقبض ماله ونفاه إلى البحرين وقتل أبا يوسف يعقوب المعروف بابن السكيت وسخط على عمر بن مصرح الراجحي وكان من علية الكتاب وأخذ منه مالاً وجوهراً وأمر أن يصفع في كل يوم فأُحصي ما صفع به فكان ستة آلاف صفعة. ومات المتوكل مقتولاً سنة ٢٤٧هـ قتله رجاله بتحريض ابنه فاضطربت أحوال الخلافة واستفحل شأن الأتراك فنفرت قلوب طلبة العلم وأكثرهم من الفرس والعرب فتفرقوا من بغداد رويداً رويداً إلى أنحاء المملكة الإسلامية شرقاً وغرباً ولذلك كان أكثر من ظهر من العلماء ـ بعد نضج العلم في القرن الرابع للهجرة فما بعده ـ إنما نبغوا خارج بغداد وفيهم الأطباء والفلاسفة والمنجمون والمهندسون والمتكلمون وأصحاب المنطق والفقهاء واللغويون وغيرهم.

وأكثر العلماء هم من غير المسلمين الذين نبغوا فيها بعد تلك النهضة وكانوا يتقاطرون إليها من أنحاء جزيرة العراق وغيرها لخدمة الخلفاء أما المسلمون فالغالب أن يكون ظهورهم خارج العراق لاسيما وأن أكثر ملوك الدول الجديدة التي تفرعت من الدولة العباسية اقتدوا بخلفاء النهضة العباسية في ترغيب أهل العلم واستقدامهم إلى عواصمهم في القاهرة وغزنة ودمشق ونيسابور واصطخر وغيرها. فالرازي من الري وابن سينا من بخارى في تركستان والبيروني من بيرون في بلاد السند وابن جلجل النباتي من أهل الأندلس وكذلك ابن باجة الفيلسوف وابن زهر الطبيب وأقاربه آل زهر وابن رشد وابن الرومية النباتي وكلهم من الأندلس.

أما مصر فأكثر أطبائها المشاهير من النصارى واليهود والسامريين، ويقال نحو ذلك في علماء العلوم الإسلامية كالفقهاء والمحدثين واللغويين والشعراء فإنهم مع بقاء بغداد آهلة بهم فقد ظهر جماعة كبيرة منهم في خارجها وألقابهم تدل على أماكنهم كالبخاري والشيرازي والنيسابوري والسجستاني والفرغاني والبلخي والخوارزمي والفيروزآبادي والحموي والدمشقي والفيومي والسيوطي والقرطبي والأشبيلي وغيرهم.

الخلفاء والأمراء والعلم

فلا غرو إذا احتفى الخلفاء والأمراء بأهل العلم وأحسنوا إليهم وهم أنفسهم كانوا من طلبة العلم ومريديه وإذا كان الملك أو الأمير عالماً زهى في أيامه العلم وسَعِد خَدَمَته. ومن شروط الخلافة في الإسلام أن يكون الخليفة عالماً بالأمور الشرعية ولذلك كان الخلفاء في الغالب عالمين بها يعقدون المجالس للنظر فيها ويقربون الفقهاء والمحدثين وتطرقوا من ذلك إلى الرغبة في النحو واللغة والتاريخ لارتباط تلك العلوم بعضها ببعض، وأعلم خلفاء بني العباس المأمون فقد كان عالماً بالشرع واللغة والنجوم والفلسفة والمنطق ويقابله في الدول الإسلامية الأخرى الحكم بن الناصر الأموي في الأندلس (توفي سنة ٣٦٦هـ) والحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر (توفي سنة ٤١١هـ) أما الحكم فقد كان مع رغبته في العلم جمّاعاً للكتب يبذل الأموال في استجلابها من الأقطار. وأما الحاكم فقد كان عالماً بالنجوم وبنى مرصداً وأنشأ مكتبة، وكذلك كان عبد الرحمن الأوسط أمير الأندلس المتوفى سنة ٢٣٨هـ.

وما من أمير ولا ملك محب للعلم إلا اجتمع العلماء حوله وألّفوا له الكتب في ما يحبه من فروع العلم وهو يجزيهم عليها. فمحمد بن إسحاق الراوية الشهير ألّف كتاب المغازي للمنصور وهو في الحيرة وابن بكار ألّف كتاب الأخبار المعروف بالموفقيات للموفق بالله والرازي ألّف كتابه المنصوري باسم المنصور بن إسحاق، ولما تولى عضد الدولة بن بويه دار السلام قرّب إليه أهل العلم فقصدوه من كل بلد وصنّفوا له كتاب الإيضاح في النحو وكتاب الحجة في القراءات وكتاب الملكي في الطب والتاجي في تاريخ الديلم وغيرها، وسعيد بن هبة الله الطبيب ألّف كتاب المغني في الطب للمقتدي بأمر الله وقد يؤلفون الكتب للوزراء والأمراء فقد ألّف الحريري مقاماته لأنوشروان وزير المسترشد وألّف جبريل بن عبيد الله ابن بختيشوع كتاب الكافي بلقب الصاحب بن عباد لمحبته له، وقس على ذلك كثيرين.

وجملة القول أن التمدن الإسلامي كان حافلاً بأهل العلم من قصور الخلفاء إلى المساجد ومنازل الأمراء والعامة إلى مسارح الغناء. وكانوا يعقدون المجالس للمناظرة في العلوم على اختلافها وفي الآداب على تنوع وجهاتها وفي الشعر وغيره. وكانوا يفرضون العلم على أولادهم وإخوانهم ومماليكهم وجواريهم وسراريهم. وكانوا يعلمون الجواري ويثقفونهن ويحفظونهن القرآن ويروونهن الأشعار والأخبار ويعلمونهن النحو والعروض والغناء ثم يتهادونهن. وقد كان عند زبيدة أم الأمين مائة جارية يحفظن القرآن وكان يسمع من قصرها دوي كدوي النحل من القراءة حتى المخنثين فقد كانوا يؤدبونهم وكان في قرطبة في أوائل القرن الخامس للهجرة جملة من الفتيان المخنثين ممن أخذ من الأدب بأوفر نصيب ولهم فيه مؤلفات.

وأغرب من ذلك بذلهم الأموال للمطالعين فضلاً عن المؤلفين فالملك المعظم شرف الدين عيسى الأيوبي صاحب دمشق كان من رغّاب الأدب فاشترط لكل من يحفظ كتاب المفصّل للزمخشري مائة دينار وخلعة فحفظه جماعة كبيرة.

المؤلفون والمؤلفات

فلا عجب والحالة هذه إذا كثر المؤلفون وتعددت مؤلفاتهم واتسعت مباحثهم وقد حوت مؤلفاتهم البحث في كل ما انتجته قريحة الإنسان إلى ذلك الزمان من الطبيعيات

والإلهيات والعقليات والرياضيات والأدبيات والنقليات، ودعت أبحاثهم الواسعة إلى تشعّب العلوم وتفرّعها حتى زادت على خمسمائة علم ذكرها طاشكبري زاده في مفاتيح العلوم، ومنها ما لم يكن له وجود قبل الإسلام كالاقتصاد السياسي وفلسفة التاريخ والموسوعات التاريخية والجغرافية، غير العلوم الإسلامية الخاصة بلغة العرب وآداب المسلمين.

وقد تعددت مؤلفاتهم حتى أصبحت تعدّ بعشرات الألوف ويستدل على كثرتها مما بقي من خبرها إلى القرن الحادي عشر للهجرة على ما في كشف الظنون، فقد بلغ عدد المؤلفات المذكورة هناك ١٤,٥٠١ غير الشروح والتعاليق، وغير ما ضاع خبره منها من النكبات المتوالية في أثناء الفتن الداخلية بين الفرق الإسلامية وغيرها، وما كان يحرقه ولاة الأمر من كتب الفلسفة ومتعلقاتها اضطهاداً لأصحابها حتى ذهب معظم ما ترجموه أو ألفوه ولم يبق منها إلا النزر اليسير، ومن المؤلفين المسلمين من بلغت مؤلفاته بضع مئات إلى الألف فمؤلفات أبي عبيدة ٢٠٠ مؤلف في علوم مختلفة ومؤلفات ابن سريج ٤٠٠ ومؤلفات بن حزم ٤٠٠ مجلد ومؤلفات الكندي ٢٣١ ومؤلفات القاضي الفاضل مائة كتاب ومؤلفات العلامة الحلي ألف كتاب. وقس على ذلك مؤلفات كثير من العلماء في المواضيع المختلفة كمؤلفات الرازي والسيوطي وابن سينا. وقد بلغت مؤلفات بعضهم ألف كتاب كعبد الملك بن حبيب عالم الأندلس وقد عُدّت مؤلفات جمال الدين الحافظ وقسمت على عمره فبلغ كل يوم تسع كراريس.

تأثير التمدن الإسلامي في العلوم الدخيلة

لما نضج التمدن الإسلامي وانتشرت العلوم الدخيلة في بلاد الإسلام عني المسلمون في درسها ونبغ منهم جماعة فاقوا أصحابها وأدخلوا فيها آراء جديدة فتنوعت وارتقت على ما اقتضاه الإسلام والآداب الإسلامية وما مازجها من علوم الأمم الأخرى فأصبحت على شكل خاص بالتمدن الإسلامي. فلما نهض أهل أوربا لاسترجاع علوم اليونان أخذوا معظمها عن اللغة العربية وفيها الصبغة الإسلامية، فلنبحث في ما أثّره التمدن الإسلامي في علوم التمدن القديم.

١ ـ الفلسفة في الإسلام

قرأ المسلمون الفلسفة في كتب إفلاطون وأرسطو وما علّق عليها اليونان من الشروح وأضافوا إليها من الآراء، وهي تشمل المنطق والطبيعيات والإلهيات والأخلاق، فبدأ المسلمون أولاً بدرس هذه الكتب ثم أخذوا في شرحها أو تلخيصها ثم عمدوا إلى الكتابة في تلك المواضيع من عند أنفسهم، ويندر أن يشتغل الواحد منهم في الفلسفة دون الطب والنجوم أو في الطب دون الفلسفة والنجوم أو بالعكس، ومن أقوال حنين: (إن الطبيب يجب أن يكون فيلسوفاً) لكنهم كانوا يلقّبون العالم بما غلب اشتغاله فيه.

الفلاسفة المسلمون في الشرق

وأكبر فلاسفة المسلمين وأشهرهم وأسبقهم يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي وهو عربي الأصل دون سواه من الفلاسفة. ويليه أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩هـ أصله من فاراب ببلاد الترك لكنه فارسي الأصل وقد نشأ في الشام واشتغل فيها وكان فيلسوفاً كاملاً درس كل ما درسه الكندي من العلوم وفاقه في كثير منها وخصوصاً في المنطق وتعمق في الفلسفة والتحليل وأنحاء التعاليم وأفاد التعليم وجوه الانتفاع بها وألّف كتباً في مواضيع لم يسبقه أحد إليها ككتابه (في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها) وهو أشبه بقاموس علمي على شكل موسوعات العلوم لم يذهب مذهبه فيه أحد قبله وكتاب (السياسة المدنية) وهو الاقتصاد السياسي الذي يزعم أهل التمدن الحديث أنه من مخترعاتهم وقد كتب فيه الفارابي منذ ألف سنة ثم كتب فيه ابن خلدون في مقدمته. وممن غلبت عليه الفلسفة من علماء المسلمين الشيخ الرئيس ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ وله من المؤلفات نحو مائة كتاب ٢٦ منها في الفلسفة فقط. وأهم ما كان تأثير الفلسفة في الإسلام أنهم بنوا عليها علم الكلام وأيّدوه بها لتقوى حجتهم في ما قام بينهم من المجادلات المذهبية.

جمعية إخوان الصفا

ومن جمعياتهم السرية الفلسفية جمعية إخوان الصفا تألفت في بغداد

في أواسط القرن الرابع للهجرة ذكروا من أعضائها خمسة هم: أبو سليمان محمد بن معشر البستي ويعرف بالمقدسي وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني وأبو أحمد المهرجاني والعوفي وزيد بن رفاعة وكانوا يجتمعون سراً ويتباحثون في الفلسفة على أنواعها حتى صار لهم فيها مذهب خاص هو خلاصة أبحاث الفلاسفة المسلمين بعد اطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهند وتعديلها على ما يقتضيه الإسلام. وأساس مذهبهم أن الشريعة الإسلامية تدنّست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وأنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال.

وقد دوّنوا فلسفتهم هذه في خمسين رسالة سموها رسائل إخوان الصفا وكتموا أسماءهم، وهي تمثل الفلسفة الإسلامية على ما كانت عليه إبان نضجها.

٢ . الطب في الإسلام

الطب الإسلامي خلاصة ما بلغ إليه علم الطب عند الأمم المتمدنة قبل الإسلام، لأن المسلمين نقلوا إلى لسانهم كتب ابقراط وجالينوس وغيرهما من أطباء اليونان واطلعوا على ما كان عند السريان من الطب اليوناني الممزوج ببقايا طب الكلدان القدماء ونقل إليهم أطباء مدرسة جنديسابور طب اليونان بصيغته الفارسية واطّلعوا على طب الهنود ممن جاءوا بغداد من أطبائهم. غير ما كان عند العرب في أيام الجاهلية وتنوقل في الإسلام. ومن تفاعل هذه العناصر وتمازجها تألف الطب الإسلامي الذي تمثل بعد نضج العلم في الكتاب الملكي (أبو الملوكي) لأبي بكر الرازي الملقب جالينوس العرب ألّفه للملك عضد الدولة بن بويه وجمع فيه كل ما وجده متفرقاً من ذكر الأمراض ومداواتها في كتب القدماء إلى زمانه، وأطباء المسلمين كثيرون وكتبهم كثيرة لا محل لذكرها هنا. ولو أحصينا الأطباء المسلمين الذين نبغوا بعد ترجمة الكتب الطبية إلى انقضاء النهضة العباسية وابتداء عصر التقهقر أي في أثناء ثلاثة أو أربعة قرون لزاد عدد المؤلفين منهم ممن بلغت إلينا أسماؤهم على بضع مئات وأكثرهم اشتغلوا بسائر العلوم الدخيلة وألّفوا الكتب العديدة وترى ذلك مفصلاً في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة وتراجم الحكماء لابن القفطي وكتاب كشف الظنون وغيرها. وكان الأطباء طبقاتٍ

وأصنافاً وفيهم الطبيب العام والجراح والفاصد وطبيب الأسنان وطبيب الأمراض النسائية وطبيب الأمراض العصبية على نحو الأطباء الاختصاصيين في هذه الأيام. وكان الكحالون في مصر أكثر منهم في سواها لتعرضها لأمراض العين وكانوا يعالجون الماء الأزرق بقدح العين على نحو عمليات العين الجارية هذه الأيام. ونبغ جماعة من النساء اشتهرن بصناعة الطب.

ما الذي أحدثه المسلمون في الطب؟

بقي علينا النظر في ما أحدثه المسلمون في الطب من الاختراعات الجديدة أو الآراء المبتكرة والحكم في ذلك يستلزم درساً طويلاً لا يسعه هذا المكان. أما ما أحدثوه من عند أنفسهم رأساً فالإحاطة به من الأمور الشاقة التي يعسر تحقيقها فنذكر ما ثبت عندنا حدوثه على سبيل المثال. من ذلك أنهم أحدثوا في الطب آراء جديدة تخالف آراء القدماء في تدبير الأمراض. وإن لم يصلنا خبر سوى القليل منها. مثل نقلهم تدبير أكثر الأمراض التي كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة (على اصطلاحهم) إلى التدبير البارد كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها وذلك على غير ما سطره القدماء. وأول من فطن لهذه الطريقة ونبّه عليها وأخذ المرضى بالمداواة بها الشيخ أبو منصور صاعد بن بشر الطبيب في بغداد فإنه أخذ المرضى بالفصد والتبريد والترطيب ومنعهم من الغذاء فأنجح تدبيره فعينوه رئيساً (للمارستان) المشفى العضوي فرفع منه المعاجين الحادة والأدوية الحارة ونقل تدبير المرض إلى ماء الشعير ومياه البزور فأظهر في المداواة عجائب فاقتدى به سائر الأطباء بعده.

والمسلمون أول مَن استخدم المرقّد (البنج) في الطب يقال إنهم استخدموا له الزوان أو الشيلم وهم أول من استخدم الخلال المعروف عند الأطباء وقد وجد محققو الإفرنج أن العرب أول من استخدم الكاويات في الجراحة على نحو استخدامها اليوم وأنهم أول من وجه الفكر إلى شكل الأظافر في المسلولين ووصفوا علاج اليرقان والهواء الأصفر واستعملوا الأفيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون ووصفوا صبّ الماء البارد لقطع النزف وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة برد المقاومة الفجائي ووصفوا إبرة الماء الأزرق في قدح العين وأشاروا إلى عملية تفتيت الحصاة.

الصيدلة والكيمياء والنبات

ومن فروع الطب الصيدلة، وللمسلمين فضل كبير فيها فقد بذلوا الجهد في استجلاب العقاقير من الهند وغيرها، وبدأوا بذلك من أيام يحيى بن خالد البرمكي ثم نبغ منهم الأطباء والصيادلة ووجّهوا عنايتهم إلى درس العقاقير وقد نقلوا كتباً فيها من الهندية واليونانية ثم اشتغلوا هم أنفسهم في جمعها. وقد عني الإفرنج بعد نهضتهم الأخيرة في درس تاريخ فن الصيدلة فتحققوا أن المسلمين هم واضعو أسس هذا الفن وهم أول من اشتغل في تحضير الأدوية أو العقاقير فضلاً عما استنبطوه من الأدوية الجديدة، وأنهم أول من ألّف الاقرباذين على الصورة التي وصلت إلينا، وهم أول من أنشأ حوانيت الصيدلة على هذه الصورة، ومن أقرب الشواهد على ذلك أسماء العقاقير أخذها الإفرنج عن المسلمين ولا تزال عندهم بأسمائها العربية أو الفارسية أو الهندية كما أخذوها عن العربية.

على أن تقدّمهم في الصيدلة تابع لتقدمهم في الكيمياء والنبات ولا خلاف في أن المسلمين هم الذين أسسوا الكيمياء الحديثة بتجاربهم ومستحضراتهم وقد ذكر محققو الإفرنج أن المسلمين هم الذين استحضروا ماء الفضة (حامض النتريك) وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) وماء الذهب (حامض النيتروهيدروكلوريك) واكتشفوا البوتاسا وروح النشادر وملحه وحجر جهنم (نترات الفضة) والسليماني (كلوريد الزئبق) والراسب الأحمر (أكسيد الزئبق) وملح الطرطير وملح البارود (نترات البوتاسيوم) والزاج الأخضر (كبريتات الحديد) والكحول والقلي والزرنيخ والبورق وغير ذلك من المركبات والمكتشفات التي لم يصل إلينا خبرها، وأما النبات فللمسلمين القدح المعلى في درسه والتأليف فيه، ومن المبرّزين في علم النبات رشيد الدين بن الصوري المتوفي سنة ٦٣٩هـ صاحب كتاب (الأدوية المفردة) وكان كثير البحث والتدقيق حيث يخرج لدرس الحشائش في منابتها ويستصحب مصوراً ومعه الأصباغ والليق على اختلافها وتنوعها ويتوجه إلى المواضع التي بها النبات في لبنان وسوريا فيشاهد النبات ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغلفته وأصوله يحسبها بالدقة ويصوّر وذلك غاية ما يفعله الباحثون في هذا العلم اليوم.

المارستانات (المشافي) في الإسلام

المارستان أو البيمارستان لفظ فارسي معناه مكان المرضى ويقابله اليوم المستشفى ولكن المارستانات كانت في التمدن الإسلامي تشمل مدارس الطب والمستشفيات معاً لأنهم كانوا يعلّمون الطب فيها، والمسلمون أخذوا المارستانات عن الفرس وأنشأوها على مثال مارستان جنديسابور.

وأول من أنشأ المارستانات في الإسلام الوليد بن عبد الملك الأموي أنشأ مارستاناً بدمشق سنة ٨٨هـ جعل فيه الأطباء وأمر بحبس المجذومين وأجرى لهم الأرزاق فانقضت الدولة الأموية وليس في الإسلام غير هذا المارستان فلما حكم العباسيون كان المنصور أول من استقدم الأطباء من مارستان جنديسابور ولم ينشئ مارستاناً ولكنه أنشأ داراً للعميان والأيتام والقواعد من النساء وأنشأ هو أو من خلفه دوراً لمعالجة المجانين.

وأول من أنشأ المارستانات في الدولة العباسية الرشيد فإنه لما رأى مهارة القادمين عليه من أطباء مارستان جنديسابور أراد أن يكون لبغداد مثل ذلك فأمر طبيبه جبرائيل بن بختيشوع بإنشاء المارستان في بغداد، ولما اشتهر مارستان بغداد وأخذت المدن الأخرى في تقليدها كما قلدتها في سائر أسباب ذلك التمدن، وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل قد أنشأ في مصر مارستاناً عرف بمارستان المغافر فلما تولاها ابن طولون أنشأ فيها سنة ٢٥٩هـ مارستاناً عرف باسمه وأنفق على بنائه ٦٠,٠٠٠ دينار وشرط أن لا يعالج فيه جندي ولا مملوك بل يُعالج فيه العامة من المرضى والمجانين وغيرهم وحبس ربيعاً ليضمن بقاءه، وكان يتعهده بنفسه كل يوم جمعة حتى ساءه أحد المجانين فقطع الزيارة إلى غيرها من المارستانات الكثيرة، وكانت تلك المارستانات في غاية النظام يعالج فيها المرضى على اختلاف طوائفهم ونحلهم وفيها لكل مرض قاعة أو قاعات خصوصية يطوفها الطبيب المختص بها وبين يديه المشرفون والقوام لخدمة المرضى فيتفقد المرضى ويصف لهم الأدوية ويكتب لكل مريض دواءه فمن شفي فيها زُوّر السلام ومن مات كفنوه ودفنوه، وكانت تلقى فيها الدروس في الطب والصيدلة وتُمارس بها هاتان الصناعتان.

وكان من ضروب المارستانات عندهم مارستان نقّال يحملونه على الجمال أو البغال على نحو المستشفيات النقالة في دول هذه الأيام، فكان في معسكر السلطان محمود السلجوقي مارستاناً يحمله أربعون جملاً يستصحبه العسكر حيثما توجهوا.

٣ . التنجيم والنجوم أو الفلك

النجوم عند القدماء علمان: علم طبيعي ينظر في النجوم من حيث مواضعها وحركاتها وأحكامها بالنظر إلى الخسوف والكسوف، وعلم ينظر فيه باعتبار علاقته بحوادث العالم من حيث الحرب والسلم والولادة والوفاة والسعد والنحس والمطر والصحو ونحو ذلك، وتسهيلاً للبحث نسمي الأول علم النجوم أو الفلك والثاني علم التنجيم، وقد علمت مما تقدم أن العرب كانوا يعرفون هذين العلمين فلما تمدنوا ونقلوا العلم أضافوا ما أخذوه عن الفرس واليونان والهند والكلدان إلى ما كان عندهم فتولد من ذلك كله التنجيم والنجوم عند المسلمين.

التنجيم

وأول من عني بالتنجيم والنجوم في النهضة العباسية أبو جعفر المنصور فترجموا له السند هند واقتدى به خلفاؤه وأصبح للتنجيم شأن كبير عندهم حتى إبان العصر العباسي، وكان المنجمون فئة من موظفي الدولة كما كان الأطباء والكتّاب والحسّاب ولهم الرواتب والأرزاق وكان الخلفاء يستشيرونهم في كثير من أحوالهم الإدارية والسياسية فإذا خطر لهم عمل وخافوا عاقبته استشاروا المنجمين فينظرون في حال الفلك واقترانات الكواكب ثم يشيرون بموافقة ذلك العمل أو عدمه.

علم النجوم أو الفلك

كان للمسلمين حظ وافر في علم النجوم وفضل كبير عليه يكفيك أنهم جمعوا فيه بين مذاهب اليونان والهند والفرس والكلدان والعرب الجاهلية شأنهم في أكثر العلوم الدخيلة. فقد رأيت أن محمود الغزنوي نقل السند هند للمنصور ليكون قاعدة علم النجوم عند العرب وأنه ظل معوّلهم عليه إلى عصر المأمون، وأول ما يستلفت انتباهنا من هذا القبيل أن المسلمين قالوا بإبطال صناعة التنجيم المبنية على الوهم ولعلهم أول من فعل ذلك وإن كانوا لم

يستطيعوا إبطالها ولكنهم مالوا بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار كما فعلوا بعلم الكيمياء.

المراصد

الرصد أساس علم الفلك وعليه المعوّل في تعيين أماكن النجوم وحركاتها ولما اشتغل المأمون في نقل علوم الأوائل إلى العربية ووقف العلماء على كتاب المجسطي وفهموا صور آلات الرصد الموصوفة به نزعت به همته إلى تحديه فجمع علماء النجوم في عصره وأمرهم أن يصنعوا آلات يرصدون بها الكواكب كما فعل بطليموس صاحب المجسطي ففعلوا وتولوا الرصد بها بالشماسية في بغداد وجبل قاسيون في دمشق سنة ٢١٤هـ ولما توفي المأمون سنة ٢١٨هـ توقفوا عن العمل وقيّدوا ما كانوا قد تبينوه من رصدهم وسموه الرصد المأموني، وكان الذين تولوا ذلك يحيى بن أبي منصور كبير المنجمين في عصره وخالد المروزي وسند بن علي والعباس بن سفيد الجوهري فألف كل منهم في ذلك زيجاً منسوباً إليه، وأرصاد هؤلاء أول الأرصاد في الإسلام.

ولما ضعف شأن الخلافة في بغداد وتشعّبت المملكة العباسية إلى فروع تحولت الهمم إلى تلك الفروع وأكبرها المملكة المصرية في أيام الفاطميين فأنشأوا رصداً (أو مرصداً) على جبل المقطم عرف بالرصد الحاكمي نسبة إلى الحاكم بأمر الله، ومازال الرصد الحاكمي عمدة الراصدين حتى نشأ نصير الدين الطوسي على عهد هولاكو التتري فبنى مرصداً في مراغة من بلاد تركستان سنة ٦٥٧هـ أعد فيه كل ما يلزم من الآلات وأنفق فيه الأموال الطائلة وأنشأ له مكتبة فيها ٤٠٠,٠٠٠ مجلد.

علم النجوم والإسلام

وفي هذه المراصد اشتغل المسلمون في رصد الكواكب ووضع الأزياج، وأطولها الزيج الحاكمي المتقدم ذكره كتبة بن يونس في أربعة مجلدات وكان عليه تعويل المسلمين بعد ما سبقه من الأزياج البغدادية، وللمسلمين طرق جديدة أدخلوها في الرصد من عند أنفسهم واخترعوا كثيراً من آلاته، فطار خبر فلكيي المسلمين في أقطار العالم وأصبح المرجع إليهم في

تحقيق المسائل فإن ملوك الإفرنج كانوا يرسلون إليهم في حل المشكلات الفلكية فيعرضون عليهم المسائل ويطلبون حلها ليس في الأندلس فقط لقربها من بلادهم ولكنهم كانوا يوفدون الوفود إلى ممالك الإسلام في الشرق لهذه الغاية. ويعترف الأسبان أن المسلمين علّموهم الرقّاص (البندول) لقياس الزمان ولا يخفى ما بني على الرقاص من الآلات الفلكية وغيرها. على أنهم كانوا يعرفون عمل الساعات من قبل ويقال أن الرشيد أهدى الملك شارلمان ساعة بديعة تناقل الإفرنج خبرها.

الحساب والجبر والهندسة

من أكبر مآثر التمدن الإسلامي في الرياضيات نقلهم الحساب الهندي والأرقام الهندية من الهند إلى سائر أقطار العالم. فالمسلمون يسمونها أرقاماً هندية لأنهم نقلوها عن الهنود، والإفرنج يسمونها عربية لأنهم أخذوها عن العرب، وأول من تناول تلك الأرقام من الهنود أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي ومن اسمه اشتق الإفرنج لفظ (Algorism) الإفرنجية.

وأما الجبر فللمسلمين فضل كبير في وضعه أو تأليفه ومما أحدثه المسلمون في الهندسة أنهم طبّقوها على المنطق، والحسن بن موسى بن شاكر اشتغل في استخراج مسائل هندسية لم يستخرجها أحد من الأولين.

الفنون الجميلة

الفنون الجميلة تسمية جديدة لما تنبسط له النفس من المصنوعات لجمالها ورونقها لا لمنفعتها ومتانتها، والفنون التي تدخل في اعتبارهم تحت هذه التسمية قسمان: الأول تظهر أشكاله محسوسة كالحفر والتصوير والنحت والتمثيل. والثاني ما لا يحس ولا يرى بل هو من قبيل الخيال كالشعر. ولو دققنا النظر لرأينا المسلمين من أكثر الأمم استعداداً للفنون الجميلة والإجادة فيها وأنهم لا يقلون شيئاً عن اليونان والرومان وربما فاقوهما في بعضها.

أما الجمال المحسوس فقد أجادوا في ما يتعلق منه بالبناء ولهم نمط خاص فيه مشهور ومن آثارهم البنائية الحمراء في الأندلس وجوامع القاهرة والشام وفارس والهند وهي تدل على تقدم عظيم في هندسة البناء مع ما فيها من زخرفة كالفسيفساء ونحوها مما يدهش النظر،

ولهم نحو ذلك في الصياغة والنسج ونحوهما من الصنائع الجميلة. أما التصوير فلم يشتغلوا فيه لأنه محرّم عندهم كما هو معلوم.

١. الكافي: ج٨، ص١٦٧، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، مثله.

٢. بحار الأنوار: ج٢، ص٩٩، وفيه (ولو من أهل النفاق).

٣. الكافي: ج١، ص,٣٠

٤. وسائل الشيعة: ج١٨، ص١٤.

المدارس في الإسلام

التعليم

قد رأيت في ما تقدم أن القرآن أساس العلوم الإسلامية فتعليمه أساس التعليم الإسلامي وأول دروس القرآن قراءته وأول المعلمين في الإسلام النبي (صلّى الله عليه وآله) علّمه للصحابة وهم علموه للناس مع ما ترتب عليه أو تفرع عنه من العلوم. ولهذا السبب كانت مدارس المسلمين في جوامعهم، وكانوا يسمون التلامذة المجتمعين حول الأُستاذ لكي يتلقون علماً من العلوم (حلقة). وتفرعت العلوم بتوالي الأعوام واتسعت دوائرها حتى أصبح للعلم الواحد عدة حلقات والغالب أن تنسب الحلقة إلى أستاذها فيقولون مثلاً حلقة أبي إسحاق الشيرازي في جامع المنصور أو نحو ذلك. وكانوا يجعلون في كل جامع خزانة كتب للمطالعة أو الاستنساخ على أن التعليم لم يكن خاصاً بالمساجد فكثيراً ما كانوا ينشئون حلقات التدريس في المارستانات أو الربط أو المنازل أو غيرها. وأشهر الجوامع في التدريس على الإطلاق الجامع الأزهري في القاهرة فقد بني مع القاهرة في أواسط القرن الرابع للهجرة وكانت تلقى فيه دروس القرآن والفقه على جاري العادة في سائر الجوامع. وكان جماعة من الطلبة يقيمون فيه ويسمون المجاورين ومنهم من جاء من أقاصي البلاد الإسلامية حتى تركستان والهند وزيلع وسنار ولكل طائفة منهم رواق باسمها كرواق الشوام أو المغاربة أو العجم أو الزيالعة أو السنارية أو اليمنية أو الهندية فضلاً عن أروقة أهل الصعيد، وبلغ عدد تلامذة الأزهر في أوائل القرن التاسع للهجرة ٧٥٠ طالباً من طوائف مختلفة وكانوا يقيمون في الجامع ومعهم صناديقهم. وبلغ عدد مجاوريه في عهد العائلة الخديوية بضعة عشر ألفاً.

المدارس

ومما لاحظناه من أمر التعليم في التمدن الإسلامي أن العلم نضج على اختلاف وجهاته وأثمر، ونبغ العلماء والفقهاء والأطباء والفلاسفة وليس في الإسلام مدرسة مستقلة نحو مدارس هذه الأيام.

والإفرنج يذكرون للمسلمين مدرسة أنشأها المأمون في خراسان وهو والٍ هناك. وذكر المسلمون عدة مدارس أُنشئت في نيسابور عاصمة خراسان قبل زمن نظام الملك منها مدرسة ابن فورك المتوفي سنة ٤٠٦ والمدرسة البيهقية نسبة إلى البيهقي المتوفي سنة ٤٥٠هـ والمدرسة السعيدية بناها نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوي الشهير ومدرسة بناها إسماعيل الاسترابادي الصوفي الواعظ وأخرى بنيت للأستاذ أبي إسحاق، وعلى كل حال فإن أول من بنى المدارس في الإسلام الأمراء الأعاجم، ولما ضعف شأن الخلفاء وأفضت الحكومة إلى السلاطين والأمراء من الفرس والأتراك والديلم والأكراد وغيرهم أصبح هؤلاء في حاجة إلى اكتساب قلوب العامة لتأييد سلطانهم بما يقوم مقام نفوذ الخلفاء الديني.

وأقرب السبل المؤدية إلى ذلك الإحسان إلى الفقراء وإكرام العلماء والفقهاء وذلك أيضاً مما حمل نظام الملك على إنشاء المدارس لأنه وزر للسلطان الب أرسلان عشر سنين وكان بمنزلة والده وله النفوذ الأكبر عنده فلما توفي الب أرسلان وازدحم أولاده على الملك وطّد المملكة لولده ملك شاه فصار الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان غير التخت والصيد، أقام على ذلك عشرين سنة وكانت طائفة الباطنية قد استفحل أمرها في ذلك العصر وكثر المتزاحمون على السلطة، وكان نظام الملك عاقلاً حكيماً فبذل جهده في استمالة الأعداء وموالاة الأولياء فأكثر من الإحسان حتى عم به العدو والصديق والبغيض والحبيب، وكان من أهم مساعيه في ذلك أنه بنى دور العلم للفقهاء وأنشأ المدارس للعلماء وأسس الرباطات للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء ثم أجرى الجرايات والنفقات لطلبة العلم وغيرهم. وعمّ بذلك سائر أقطار مملكته في الشام وديار بكر والعراقين وخراسان إلى سمرقند فلم يكن فيها حامل علم أو طالبه أو متعبد أو زاهد إلا وكرامة نظام الملك شاملة له سابغة عليه وقدروا ما كان ينفقه في هذا السبيل فبلغ ٦٠٠,٠٠٠ دينار في السنة. وكان من أسباب إنشاء المدارس أيضاً تأييد المذهب الذي يتبعه السلطان أو الأمير فقد كانت القاهرة شيعية منذ بنيت وكانت الدروس التي تلقى في الجامع الأزهر على مذهب الشيعة فلما تولاها

صلاح الدين الأيوبي أبطل هذا المذهب وأحيى المذهبين المالكي والشافعي فأنشأ المدارس لتعليم هذين المذهبين فبنى المدرسة الناصرية سنة ٥٦٦هـ للمذهب الشافعي، وجاء في رحلة ابن جبير الذي طاف الشرق الإسلامي في القرن السادس أنه شاهد عشرين مدرسة في دمشق و٣٠ في بغداد، أما الأندلس فقد نقل الأمير علي صاحب تاريخ الإسلام في الإنكليزية أن المسلمين أنشأوا المدارس في قرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة ومالقة وغيرها وأن مملكة غرناطة وحدها بلغ عدد مدارسها ١٧ مدرسة كبرى و١٢٠ مدرسة صغرى. وعدد الطلبة في كل حال يختلف باختلاف شهرة الأستاذ في فنه فكان يجتمع في حلقة الفارابي مئات من الطلبة، وقد يكون للأستاذ تلامذة، ذكروا أن أبا بكر الرازي الطبيب الشهير كان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ أخر فكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاهم فإن كان عندهم علم وإلا تعداهم إلى غيرهم فإن أصابوا وإلا تكلم الرازي وكان الأستاذ يزداد شهرة ونفوذاً بازدياد تلامذته وإذا مشى مشوا حوله وقد يركب وهم مشاة، كان الإمام فخر الدين خطيب الري إذا ركب مشى حوله ٣٠٠ تلميذ من الفقهاء.

المكاتب الإسلامية

لما ظهر الإسلام ونهض المسلمون للفتح أحرقوا ما عثروا عليه من الكتب لأسباب تقدم بيانها لكنهم ما لبثوا أن تحضّروا وذاقوا طعم العلم حتى أصبحوا أحرص الناس على الكتب وأكثرهم بذلاً في الحصول عليها وأشدهم عناية في صيانتها.

مكاتب بغداد

أما في الدولة العباسية فكان إنشاء المكاتب من جملة أسباب نهضتهم لنقل العلوم فأنشأوا مكتبة في بغداد سموها (بيت الحكمة) وجمعوا إليها ما كان قد نقل إلى العربية من كتب الطب والعلم وما ألّف من العلوم الإسلامية مع ما سعى يحيى بن خالد في جمعه من كتب الهند وما وقع للرشيد من كتب الروم في أنقرة وغيرها. وكان بيت الحكمة عبارة عن مجلس للترجمة أو النسخ أو الدرس أو التأليف فيجلس النساخ في أماكن خاصة بهم ينسخون

بأجور معينة وكذلك المترجمون والمؤلفون والمطالعون، وكان للبيت المذكور قَيِّم يدير شؤونه يسمى صاحب بيت الحكمة وأشهر مديريها سهل بن هارون وهو فارسي شعوبي شديد التعصب على العرب وله في ذلك كتب كثيرة، ومنهم سلم وله نقول من الفارسية إلى العربية، فترى من ذلك أن البيت أو الخزانة المذكورة أُنشئت على يد الفرس وخدمتها والمترددين إليها من الفرس. وفي قرطبة أنشأ الحكم مكتبة جمع إليها الكتب من أنحاء العالم فكان يبعث في شرائها رجالاً من التجار ومعهم الأموال ويحرضهم على البذل في سبيلها لينافس بني العباس في اقتناء الكتب وتقريب الكتّاب. ولا تظننا نبالغ إذا سلمنا مع ابن خلدون والمقري أن مجموع ما حوته تلك المكتبة ٤٠٠,٠٠٠ مجلد. واقتدى بخلفاء بغداد والأندلس الخلفاء الفاطميون بمصر بدأ بذلك منهم العزيز بالله ثاني خلفائهم تولى الخلافة سنة ٣٦٥هـ وهو شاب فأنشأ مكتبة خصص لها قاعات في قصره وسماها (خزانة الكتب) كانت تحوي ١٦٠٠,٠٠٠ كتاب في الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجامة والروحانيات والكيمياء. وقد أصاب هذه الخزائن من الإحن بتوالي الفتن مثل ما أصاب مكتبة الإسكندرية في عهد الرومان، فألقي بعض كتبها في النار والبعض الآخر في النيل وترك بعضها في الصحراء فسفت عليه الرياح حتى صار تلالاً عُرفت بتلال الكتب، واتخذ العبيد من جلودها نعالاً وغيره مما يطول شرحه. وبالإجمال فقد طُرِح ما بقي منها عند دخول الأكراد للمبيع في أواسط القرن السادس وكان في جملة ما أخرجوه من تلك القصور نحو ١٢٠,٠٠٠ كتاب أعطاها صلاح الدين للفاضل عبد الرحيم البياني.

دار الحكمة

وتسمى أيضاً دار العلم وهي غير خزانة العزيز أو خزائن القصور، أنشأها الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥هـ بجوار القصر الغربي بالقاهرة ووقّف لها أماكن ينفق عليها من ريعها، ففرشوها وزخرفوها وعلقوا الستور على أبوابها وممراتها وأقاموا عليها القوام والمشرفين، والغرض من دار الحكمة خدمة الناس في المطالعة والدرس والتأليف، وهي طريقة القدماء في تعليم الناس إذ يتعذر على غير الأغنياء اقتناء الكتب نظراً لغلائها فمن أحب تعليم رعيته أنشأ مكتبة جمع فيها الكتب وفتح أبوابها للناس. وقد عدّ بعضهم دار الحكمة مدرسة لأن

الحاكم أقام بها القراء والمنجمين وأصحاب النحو واللغة والأطباء وأجرى لهم الأرزاق وأباح الدخول إليها لسائر الناس على اختلاف طبقاتهم من محبي المطالعة ليقرأوا أو ينسخوا ما شاءوا وجعل فيها ما يحتاجون إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر، وكان الحاكم يستحضر بعض علماء الدار المذكورة إلى ما بين يديه ويأمرهم بالمناظرة ويخلع عليهم الخلع، وقد أباح المناظرة بين المترددين إلى دار الحكمة فكانوا يعقدون الاجتماعات هناك وتقوم المناظرات. ولا نظن عدد كتبها يقلُّ عن ١٠٠,٠٠٠ كتاب ولما أفضت الحكومة إلى صلاح الدين الأيوبي هدم دار العلم وبناها مدرسة للشافعية.

مكاتب الشام

لما كانت الشام مركز الخلافة في أيام بني أمية لم يكن للخلفاء رغبة في العلم ولا التفت العباسيون إليها، ولكنها اشتهرت في عهد الدولة الفاطمية بمكتبة كانت في طرابلس الشام حتى فتحها الإفرنج سنة ٥٠٢هـ فنهبوها وذكر جبن أن عدد كتبها ٣,٠٠٠,٠٠٠ مجلد أحرقها الإفرنج إلى غيرها، ولا تتضح فخامة تلك المكاتب إلا إذا قابلناها بمكاتب هذا العصر مع اعتبار الفرق بين العصرين وما كان لانتشار الطباعة من تسهيل اقتناء الكتب مع مرور الأزمنة الطويلة على مكاتب هذه الأيام وكثرة الوسائل المساعدة على اقتناء الكتب لقلة النفقة وغير ذلك.

العصر الإسلامي العربي الأول

من ظهور الإسلام إلى سنة ١٣٢هـ

نريد بهذا العصر المدة التي كانت فيها الدولة الإسلامية في أيدي العرب وكانت سياستها عربية، ونمهد لذلك بذكر أحوال العرب قبل الإسلام.

البدو والحضر

البدو أهل البادية والحضر أهل المدن، والبداوة أقدم من الحضارة لأنها أقرب منها إلى الفطرة الطبيعية. فالإنسان كان في أول أدواره بدوياً يحترف الزراعة والفلاحة أو تربية الحيوانات من الغنم والبقر والمعز أو النحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها. فالبداوة تقوم إما على الفلاحة والزرع أو على تربية الحيوان. فالبدو أهل الفلاحة مضطرون للاستقرار في مواطنهم ينتظرون الغلة وهم سكان القرى والجبال وكانوا قليلين في بادية العرب. وأما أهل الإبل فأشهرهم بدو العرب وهم أكثر ظعناً وأبعدُ في القفر مجالاً من أهل السائمة لأن مسارح التلون ونباتها وشجرها لا تستغني بها الإبل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه المالحة، فاضطروا إلى إبعاد النجعة والإيغال في القفار. فسكان جزيرة العرب معظمهم من البدو الرحل ولذلك كانت المدن قليلة في تلك الجزيرة ولاسيما في أواسطها وأشهر المدن العربية قبل الإسلام مكة والمدينة والطائف في الحجاز ومأرب وصنعاء في اليمن، وسكانها أخلاط من العرب والفرس واليهود وغيرهم يرتزقون بالبيع والشراء على من يفد عليهم من أهل البادية. وأهل البلد الواحد أو المصلحة الواحدة لابد لهم من مجتمع يجمع بين أفرادهم. والمجتمع يختلف في الأمم باختلاف أحوالهم فبعض الأمم يجمعهم الوطن وآخرون

يجمعهم الدين وغيرهم يجمعهم النسب أو اللغة. وقد رأيت أن البدو لا وطن لهم وكانوا قبل الإسلام لا دين لهم فلم يكن لهم ما يجمعهم غير النسب واللغة وهما متلازمان خصوصاً في البداوة. فعني العرب في حفظ أنسابهم وضبطها وتفاخروا بها وبالغوا في استقصائها حتى ردوها إلى الآباء الأولين، وبين القبائل أو أفخاذها أو بطونها أو عمائرها عصبية النسب تجمعها بعضها إلى بعض. وكل من القبائل أو البطون أو الأفخاذ يفاخر سواه بحسنات قومه ويذكر مثالب الآخرين، على أن العرب يجتمعون إلى غير العرب من الفرس أو الترك ويسمونهم (العجم) ويفاخرونهم بالأنساب واللغة ويحتقرونهم وقد شقوا من اسمهم لفظ (الأعجم) للدلالة على الخرس أو أن العجم مشتق من العُجمة فالعجمي عندهم غير العربي والأعجم الأخرس، والأصل في العصبية عند العرب الأبوّة أو الانتساب إلى الأب مثل سائر الأمم الراقية على أن الأمومة كان لها شأن كبير عندهم وكثيراً ما كانت المزاوجة أو المصاهرة سبباً كبيراً للعصبية. وكان للخؤولة شأن عظيم عند العرب قبل الإسلام وأقرب الشواهد عليها نصرة أهل المدينة للنبي (صلّى الله عليه وآله) في هجرته إليهم فإن الخؤولة كانت من أهم أسباب نصرتهم لأن أم النبي (صلّى الله عليه وآله) من بني النجار من الخزرج وهي قبيلة قحطانية وأبوه من قريش وهي قبيلة مضرية، فلما توفي والده ذهبت به أمه إلى المدينة لكي تلتجئ إلى أخواله بني النجار وهم كثيرون وكانوا من أقرب أهلها إلى التدين . وقد ترهّب أحدهم في الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة وهَمّ بالنصرانية ثم أمسك عنها واتخذ بيته مسجداً، فأقامت عندهم على الرحب والسعة ثم ذهبت به إلى أعمامه في مكة وماتت في الطريق، فلما قام بدعوته وقاسى ما قاساه من اضطهاد أعمامه هاجر إلى أخواله في المدينة، وأهلها يعرفون ذلك فيه لأن خؤولة بني النجار جعلت الخزرج كلهم أخواله فلما نزل المدينة رحب به أهلها وكان أول من تبعه منهم أخواله أو من يمت إليهم بقرابة. وكانوا أشد أهل المدينة غيرة عليه ودفاعاً عنه ثم تهافت أهل المدينة إلى مبايعته، وكان رجال السياسة والتدبير من الملوك والقواد يقوّون أحزابهم بالتزوج من القبائل المختلفة فيكتسبون عصبية قبائل نسائهم.

الحلف

فعمدة العرب في العصبية جامع النسب من الأب ثم الأم على أنهم كانوا يجتمعون بأسباب أخرى كالحلف بين القبائل وهو يشبه المحالفات أو المعاهدات الدولية في هذه الأيام. وأشهر أحلاف الجاهلية حلف المطيبين وحلف الفضول.

الاستلحاق

ومن توابع العصبية العربية قبل الإسلام الاستلحاق وهو أن يدّعي الرجل رجلاً يلحقه بنسبه وقد يكون عبداً أو أسيراً أو مولى فيسميه مولاه وينسبه إليه، وكانوا يسمون المستلحق (دعيّاً) وقد يكون الرجل دعي أدعياء فيكون هو دعيّاً في رهط، ورهطه دعيٌّ في قبيلة مثل بن هرمة فقد كان دعيّاً في الخلج والخلج أدعياء في قريش وكثيراً ما كانوا يستلحقون الرهط أو العشيرة دفعة واحدة لنزولهم فيهم أو لنصرتهم إياهم.

ومن أسباب العصبية عندهم مما يشبه الحلف (المؤاخاة) وقد تكون بين القبائل أو بين الأفراد ولا تزال هذه العادة شائعة بين البدو إلى الآن فإذا آخيت العربي أخذ يناصرك ويحميك ويدافع عنك كأنك أخوه.

الخلع

وضد الاستلحاق عندهم (الخلع) فكان الرجل إذا ساءه أمر من ابنه سواء كان صريحاً أو دعياً خلعه أي نفاه عن نفسه فيتخلص من تبعة ما قد يرتكبه الولد من المكروه وقد تفعل ذلك القبيلة أو العشيرة. وكان الخلعاء في البادية كثيرين يجتمعون ويؤلفون عصابات من الصعاليك يقطعون السبل ويتمردون على القبيلة. وكان في تجار الرقيق من يبتاع الخلعاء ويذهب بهم إلى بلاد الروم.

العبيد في الجاهلية

الاسترقاق

الاسترقاق قديم مثل قدم الإنسان لأن الإنسان مفطور على الاستبداد والقوي يستعبد الضعيف. وكان الإنسان في أول عهد العمران إذا غلب عدوّه وقبض عليه لا يستعبده بل يقتله إلا النساء فقد كانوا يستبقونهن للاستمتاع بهن ثم صاروا يستعبدون الأسرى ويستخدمونهم. والعرب أيضاً كانوا يستخدمون العبيد من أسرى الحرب أو ممن يبتاعونهم من الأمم المجاورة لجزيرتهم كالحبشة وما حواليها من الأمم المتوحشة. فإذا اشترى أحدهم عبداً وضع في عنقه حبلاً وقاده إلى منزله كما تُقاد الدابة. وإذا كان العبد أسير حرب جزّوا ناصيته وجعلوها في كنانتهم حتى يفتدي نفسه.

وكان من أصناف العبيد عندهم (القنّ) وهو العبد الذي يعمل بالأرض ويُباع معها. ومن العبيد من يدخل الرق بالمقامرة كما اتفق لأبي لهب مع العاصي بن هشام فإنهما تقامرا على أن يكون من قُمر كان عبداً لصاحبه فقمره أبو لهب فاسترقّه واسترعاه إبله وكانوا يسترقون المديونين أيضاً.

الموالي في الجاهلية

المولى عند العرب وسط بين العبد والحر والغالب فيه أن يكون عبداً معتقاً فكل عبد أُعتق صار مولى وكل عبد أو أسير أعتقه صاحبه فهو مولى له ويُنسب إليه أو إلى قبيلته أو رهطه. فمولى العباس مثلاً هو مولى بني هاشم وهو أيضاً مولى قريش ومولى مضر. وقد يُنسب المولى إلى بلد مُعتقه فيقال: فلان مولى أهل المدينة أو مولى أهل مكة. والمولى عندهم كالقريب ولكنهم يسمون قرابة الأهل صريحة وقرابة المولى غير صريحة. ويقال له أيضاً: مولى حلف أو اصطناع وذلك أن ينتمي الرجل إلى رجل بالخدمة على اختلاف ضروبها أو بالمحالفة أو المخالطة أو الملازمة على أن يتعاقب ذلك أجيالاً. ومن هذا القبيل أكثر موالي العرب بعد الإسلام فقد كان العرب أهل السيادة والشركة وأهل البلاد يلازمونهم بالخدمة أو المخالطة أو المعاشرة فينسبون إليهم ويسمون ذلك ولاء الموالاة. وللموالي عند العرب أحكام عامة وأحكام خاصة فأحكامهم العامة أن المولى أحطّ منزلة من الحر وأرفع من العبد فهو حرّ لا يباع كالعبد لكنه لا يعامل معاملة الحر في الزواج والميراث فالمولى لا يتزوج حرة وديّة المولى نصف دية الحر كأنه عبد.

النُزَّال الأجانب في الجاهلية

كان معظم سكان جزيرة العرب من القبائل العدنانية والقحطانية ومن يتبعهم من العبيد والموالي والحلفاء ونحوهم وفيها أيضاً جماعة من النزال نزحوا إليها من الحبشة والشام والعراق ومصر وفارس والهند وفيهم الأحباش واليهود والروم والكلدان والعجم والهنود وغيرهم. وكان بعضهم يتوالدون فيها ويتزوجون بأهلها فيختلطون بهم وتضيع أنسابهم فيهم كالكلدان والسريان وغيرهم. وفيهم من يحالفونهم وينتمون إليهم كاليهود والنصارى ومنهم من يدخلون في جملة عبيدهم ومواليهم كالأحباش والفرس والهنود فتضيع أصولهم. ولذلك كان سكان جزيرة العرب عند ظهور الإسلام عرباً صرفاً إلا بعض اليهود كبني قينقاع والنضير وغيرهم وشرذمات من نصارى الروم وطائفة من الفرس الأحرار يُعرفون بالأبناء.

الأبناء

هم طائفة من الفرس كانوا يقيمون في بلاد اليمن ويعرفون بأبناء الفرس الأحرار أو (الأبناء) تمييزاً لهم عن الفرس الموالي. وأبناء الفرس الأحرار هم أبناء الجند الفارسي الذي جاء بلاد اليمن لنصرة سيف بن ذي يزن الحميري على الأحباش وكان الأحباش قد فتحوا اليمن واستولوا عليها ففزع سيف المذكور إلى كسرى ملك الفرس واستنجده في حديث طويل فسيّر كسرى معه بضعة آلاف من جند الفرس ومعهم قائد اسمه وهرز. فلما وصل الجيش إلى اليمن جرت الواقعة بينهم وبين الأحباش فاستظهر الفرس عليهم وأخرجوهم من البلاد وملّك سيف بن ذي يزن وهرز أربع سنين. وكان سيف قد اتخذ من الأحباش خدماً فخلوا به يوماً وهو في الصيد وقتلوه وهربوا في رؤوس الجبال فطلبهم أصحابه فقتلوهم جميعاً وتضعضع أمر اليمن ولم يولوا عليهم أحداً من العرب فظلت سيادة الفرس عليهم حتى ظهر الإسلام وفيها عاملان من قواد الفرس أحدهما اسمه فيروز الديلمي والآخر راذويه فأسلما.

فأفراد الجيش الفارسي لما استوطنوا اليمن تزوجوا فيها وتناسلوا ورُزقوا الأولاد والأحفاد وعرفوا بالأبناء. واشتهر منهم في صدر الإسلام طاووس بن كيسان أحد أعلام التابعين ووهب بن منبه صاحب الأخبار والقصص.

سياسة الدولة في الجاهلية

لم يكن للعرب دولة في جاهليتهم إلا ما كان في اليمن من دول التبابعة مما لا يدخل في بحثنا. وإنما نريد بسياسة الدولة عندهم القواعد التي كانت تدور عليها أحكامهم ومعاملاتهم لحفظ علائقهم السياسية وآدابهم الاجتماعية مما يقوم مقام القوانين الإدارية والسياسة الدولية في الأمم المتمدنة. وكان في كل قبيلة بالجاهلية بيوتات تشتهر بالرئاسة والشرف فتمتاز عن سائر القبيلة وتكون الرئاسة فيها كبيت هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش. وقد امتازت هذه البيوتات على قبائلها بالشرف لتوالي ثلاثة آباء منها في الرئاسة على الأقل. ولأهل البيوتات نفوذ على سائر القبيلة. وكان أهل السياسة من رجال المسلمين يلاحظون ذلك في تولية الحكام. والأمير البدوي مع سلطته المطلقة قلما يستبد في أحكامه ويغلب أن يستشير أهل بطانته وخاصته.

مناقب العرب في الجاهلية

الوفاء

على أن العرب قلما كانوا يحتاجون إلى حاكم يفصل في الخصومة بينهم لِما فطروا عليه من المناقب الجميلة التي تقوم فيهم مقام الحاكم الصارم وتنزّههم عن ارتكاب الدنايا مما يغنيهم عن القضاء. وسيد هذه المناقب (الوفاء) لأنه إذا تأصل في أمة أغناها عن القضاء. والحكومة إنما تقضي بين الذين لا يعرفون الوفاء. .

الجوار

ومن قبيل الوفاء بالعهد وحفظ الذمام أيضاً (الجوار) فإن البدوي يحافظ على جاره محافظته على نفسه.

الأريحية

ومن المناقب التي تغني العرب عن الوازع القهري أو القوة الحاكمة (الأريحية). ومرجع ذلك إلى التفاخر بالشجاعة والكرم وحسن الأحدوثة. ومناقب العرب كثيرة كالكرم والضيافة وعلو الهمة مما لا دخل له في موضوعنا.

الفصل الرابع

سياسة الدولة في عصر الخلفاء الأربعة من سنة ١١ . ٤١هـ

المجتمع الإسلامي

قد رأيت أن العرب إنما كانوا يتفاضلون بالعصبية ويتفاخرون بالأنساب فلما جاء الإسلام كان في جملة ما بدّله من أحوالهم أنه جمع كلمتهم وصاروا يداً واحدة على اختلاف أنسابهم ومواطنهم. فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد هو (الإسلام) فقال النبي (صلّى الله عليه وآله): (المؤمنون أخوة)(١) وقال من خطبة ألقاها يوم فتح مكة: (يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء فالناس من آدم وآدم من تراب)(٢) وقال من خطبة في حجة الوداع: (أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب وأكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى)(٣).

وعمر أول خليفة فضّل العرب وجعل لهم مزية على سواهم ومنع من سبيهم. وكان عمر لا يدع أحداً من العجم يدخل المدينة وكان كثير العناية بالمجتمع العربي. وكانت ديانة عرب العراق والشام النصرانية ولكنهم فرحوا بالمسلمين وكانوا ينصرونهم للعصبية العربية وليس للدين. وخصوصاً عرب العراق فإنهم حاربوا مع المسلمين ودلوهم على عورات الفرس.

السياحة في الأرض

حرّض عمر العرب على فتح الشام والعراق توسيعاً للمجتمع العربي وللاستعانة بها على الروم والفرس ولكنه لم يأذن لهم بفتح ما ورائهما إلا في السنة السابعة عشرة أو الثامنة عشرة وهو ما يعبرون عنه بالسياحة في الأرض. فكانوا يطلبون الفتح وقد طابت لهم الغنائم واستلذوا النصر فإذا استأذنوه في فتح بلد مما وراء ذلك لم يأذن لهم.

ولما فتح المسلمون الأهواز قال عمر: (ليت بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم) ومن هذا القبيل نهيه المسلمين عن اجتياز البحر. وكان إذا همَّ المسلمون بالنزول في بلد أو إنشاء معسكر في البلاد المفتوحة أوصاهم أن لا يقيموا في مكان يفصل بينه وبين المدينة ـ مركز الخلافة ـ ماء حتى إذا أراد أن يأتيهم أتاهم على راحلته مما يدل على رغبته في العصبية العربية على أن يكون مركزها في بلاد العرب. ومع ذلك فلما لم يرَ بداً من السياحة في الأرض أذن لقواده بالفتح ولكنه ظلّ على رأيه في القرشيين على الخصوص فحصرهم في المدينة ومنعهم من الخروج. فالعصبية التي أقامها الإسلام قامت على أساس الرابطة العربية أولاً ولذلك كان اللفظان مترادفين في ذلك الحين وخصوصاً عند الأمم التي خضعت لسلطان المسلمين فكانوا إذا قالوا (العرب) أرادوا المسلمين وبالعكس. ولفظ (طيبوتا) عند السريان يدل على العرب والمسلمين على السواء والفرق بين هذه الرابطة قبل الإسلام وبعده أن العرب كانوا في الجاهلية عصبيات عديدة تختلف باختلاف الأنساب فأصبحوا بالإسلام عصبية واحدة تجمعها كلمة العرب.

الطبقات الإسلامية

لما قام النبي (صلّى الله عليه وآله) بالدعوة الإسلامية احتاج إلى من يسمع دعوته وينصره فاجتمع حوله جماعة من قبيلته صدّقوه ونصروه وهاجر بعضهم إلى الحبشة وهاجر الآخرون إلى المدينة معه فعُرفوا (بالمهاجرين) وهم أقدم الطبقات الإسلامية. ولما جاء المدينة وأقام فيها نصره أهلها وآمنوا بدعوته فسماهم (الأنصار) وهم طبقة أخرى، والطبقتان معاً تُسميان (الصحابة) أي الذين صحبوا النبي (صلّى الله عليه وآله) أو عرفوه. على أن عصبية النسب لم تذهب بعد الإسلام ذهاباً تاماً ولكنها تحوّلت إلى وجهة دينية. وكان لكل من طبقات الصحابة المهاجرين والأنصار شأن خاص وحزب خاص ولاسيما في أيام بني أمية إذ ذهبت أبهة النبوة وعاد الناس إلى عصبية الجاهلية فاختصم المهاجرون والأنصار وتذكروا ما كان بين العدنانية والقحطانية من التفاخر ـ فالمهاجرون من العدنانية (مضر) والأنصار من القحطانية (الأوس والخزرج) ـ فعادوا إلى المنافسة. وكان الأنصار أهل المدينة من أشجع الناس

وهم أهل الشورى يعقدون الإمامة وحكمهم جائز على الأمة وهم شيعة علي وسائر أهل البيت (عليهم السلام).

فلما قام معاوية يطلب الخلافة لنفسه كانوا من أقوى مقاوميه فكان رجاله يكرهونهم ويسعون في إذلالهم وكثيراً ما كانوا ينكرون عليهم هذا اللقب، يروى أن بعض الأنصار استأذنوا للدخول على معاوية إبان خلافته فدخل الحاجب وقال: (هل تأذن للأنصار؟) وكان عمرو بن العاص حاضراً فقال: (ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين؟ أردد الناس إلى أنسابهم).

الاستكثار بالتناسل

كان العرب في الجاهلية قليلو العدد بالقياس إلى ما صاروا عليه بعد الإسلام. فقد ذكر أن أكبر جيش اجتمع في الجاهلية لم يزد عدد رجاله على ثمانية آلاف رجل وهو جيش (يوم الصفقة) والذين تجندوا للإسلام وقاموا بنصرته كانوا في صدر الإسلام قليلين كما رأيت ومملكتهم الواسعة تحتاج إلى رجال فعمدوا إلى الاستكثار بالتناسل. فالمسلمون لما رأوا قلة عددهم وما وقع فيهم من السبايا الروميات والفارسيات والقبطيات استكثروا من أمهات الأولاد فضلاً عن الزوجات فكثر نسلهم. والترف يزيد الدولة في أولها قوة بكثرة النسل. . وتسابقوا إلى إحراز الجواري حتى أن بعضهم أحصن ثمانين امرأة معاً كالمغيرة بن شعبة فقد جمع في منزله أربع نسوة و٧٦ أمة فلا غرابة إذا وُلد لأحدهم خمسون ولداً أو مائة ولد أو أكثر. ذكروا أنه وقع للأرض من صُلب المهلب ٣٠٠ ولد وخلف عبد الرحمن بن الحكم الأموي ١٥٠ ذكراً و٥٠ أنثى وخلف تميم بن المعز الفاطمي أكثر من مائة ذكر و٦٠ أُنثى وكان لعمر بن الوليد تسعون ولداً منهم ستون يركبون الخيل. وُولد لابن سيرين ٣٠ ولداً من امرأة و١١ بنتاً.

انتشار المسلمين بالفتح والهجرة

كان العرب في الجاهلية محصورين في جزيرة العرب وما يجاورها من جزيرة العراق وضواحي الشام. فلما ظهر الإسلام اجتمعت كلمة العرب على نصرته ونهضوا للفتح وأوغلوا

في البلاد وفتحوا الأمصار ولم يكن زجر عمر ليوقف تيارهم فساحوا في الأرض حتى نصبوا أعلامهم على ضفاف الكبخ شرقاً وشواطئ البحر الأطلسي غرباً وملأوا الأرض فتحاً ونصراً واحتلوا مدائن كسرى وقيصر وأقاموا في المدن وركنوا إلى الحضارة.

على أن انتشارهم في الأرض لم يكن بالفتح فقط ولكنهم تفرقوا أيضاً بالمهاجرة بأهلهم وخيامهم وأنعامهم التماساً لسعة العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة. فقد جلت بطون من خزاعة إلى مصر والشام في صدر الإسلام لأن أرضهم أجدبت فمشوا يطلبون الغيث والمرعى وكذلك كانت تفعل العرب كلما أصابها جدب حتى كانت لهم أعوام خاصة يجلون بها إلى مصر والشام يسمونها أعوام الجلاء وكانوا يفعلون ذلك قبل الإسلام إذا أجدبت أرضهم يمموا وجوههم إلى العراق وفارس فيعطيهم الفرس التمر والشعير ولكنهم كانوا لا يقيمون هناك بل يرجعون إلى بلادهم خوفاً من الذل في سلطان دولة أعجمية. أما بعد الإسلام فكان المقام يطيب لهم في بلاد فتحها آباؤهم أو أعمامهم أو أخوالهم وغرسوا فيها أعلامهم وجعلوها فيئاً لهم. فكان الأمير أو الخليفة إذا تولى بلداً وخاف على سلطانه من أمير آخر ذي عصبية أخرى استقدم جماعة من قبيلته أو من ينتمي إليها بالحلف ونحوه يسكنهم في ضواحي بلده. وقد يكون الباعث على استقدامهم وتحضيرهم رغبة الأمير أو الخليفة في التخلص من شرهم كما فعل العزيز بالله الفاطمي ببني سليم وبني هلال وهما بطنان من مضر كانوا إلى زمن العزيز المذكور في القرن الرابع للهجرة لا يزالون أحياء ناجعة أهل بادية محلاتهم وراء الحجاز مما يلي نجد، بنو سليم من جهة المدينة وبنو هلال من جبل غزوان عند الطائف. فكانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام فيغيرون على الضواحي ويفسدون السابلة وربما أغار بنو سليم على الحُجّاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة. ثم ظهر القرامطة فتحيز بنو سليم لهم وعاثوا في البلاد وقد عجز الخلفاء العباسيون عن قمعهم. فلما أفضت خلافة مصر إلى العزيز بالله الفاطمي كان القرامطة قد تغلبوا على الشام فانتزعها العزيز منهم وردهم إلى قراهم في البحرين ونقل أشياعهم من بني هلال وسليم وأنزلهم بالصعيد في العدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هناك وكان لهم أضرار في البلاد، والخلفاء يداروهم ويبحثون عن وسيلة يتخلصون بها منهم. فاتفق بعد سنين أن عامل الفاطميين في أفريقية شق عصا الطاعة وبايع الدولة العباسية وقطع اسم الخليفة

الفاطمي من الخطبة والطراز والرايات فعظم الأمر على الخليفة بالقاهرة وهو يومئذ المنتصر بالله فأشار عليه وزيره الحسن بن علي أن يقرب إليه أحياء هلال وسليم المذكورين ويصطنع مشايخهم ويوليهم أعمال أفريقية ويرسلهم لاستلام أمورها فإذا فازوا كانت إحدى الحسنيين وإلا فإنه يتخلص من شرهم فبعث الخليفة وزيره إلى هذه الأحياء سنة ٤٤١هـ وحرضهم على الذهاب إلى المغرب وتملّكه ففرحوا وأجازوا النيل وساروا براً إلى برقة ففتحوها. ثم تبعهم غيرهم من بطون دياب وزغب طمعاً بالكسب وأصبحت أفريقية مقر هذه القبائل من ذلك الحين فاقتسموا البلاد فيما بينهم.

الرق في الإسلام

قلنا إن الاسترقاق عند عرب الجاهلية كان أكثره بالأسر أو الشراء وأما في الإسلام فأكثر الاسترقاق بالأسر وخصوصاً في أثناء الفتوح لكثرة من كان يقع في أيديهم من الأسرى. فإذا غلبوا جنداً أو فتحوا بلداً أسروا رجاله وسبوا نساءه وأطفاله واقتسموا الأسرى والسبايا والغنائم وهي كثيرة وربما زاد عدد الأسرى في المعركة الواحدة على عشرات الألوف فيختمون أعناقهم ويقتسمونهم على الأسهم وقد يصيب الفارس من العرب مائة أسير ومائة جارية في وقعة واحدة فيجتمع عند بعضهم بتوالي الأيام ألف عبد أو أكثر وهم عند الأمراء أكثر مما عند غيرهم وقد تزايدوا على الخصوص بعد عصر الخلفاء الأربعة. على أن عثمان كان عنده ألف عبد.

ومن مصادر الرقيق في الإسلام غير الأسر أن بعض العمال وخصوصاً في أفريقية وتركستان ومصر كانوا يؤدون بعض خراج أعمالهم من الرقيق وكان بعض أهل الذمة من البربر ونحوهم يقدمون بدل الجزية رقيقاً من أولادهم غير ما كان يقع في أيدي المسلمين من الرقيق الأصلي في جملة الغنائم.

أما أحكام الأسرى في الإسلام فالخليفة (أو من يقوم مقامه) مخير بين أربعة أشياء إما القتل وإما الاسترقاق وإما الفداء بمال وإما المن عليهم بغير فداء. فإن أسلموا سقط القتل وكان الخليفة على خياره في أحد الثلاثة الباقية فكانوا يتصرفون في ذلك على ما تقتضيه الأحوال. وكانوا يعتقون العبيد ترغيباً لهم في الجهاد كما فعل الجنيد بن عبد الرحمن المري

صاحب خراسان بهشام بن عبد الملك في واقعة الشعب لما احتدم الوطيس وخاف الجنيد الفشل فصاح في العبيد: (أي عبد قاتل فهو حرّ) فقاتل العبيد قتالاً أعجب منه الناس وانهزم الأعداء وكثيراً ما كانوا يُرغِّبون العبيد في نصرة الإسلام وهم عند أعدائهم بأن يعدوهم بالعتق، كما فعل النبي (صلّى الله عليه وآله) يوم حصار الطائف إذ قال: (كل عبد نزل إليّ فهو حرّ). على أن الإسلام جاء رحمة للأرقاء فأوصى النبي (صلّى الله عليه وآله) بهم خيراً بقوله: (لا تحمِّلوا العبيد ما لا يطيقون وأطعموهم مما تأكلون)(٤) وقال: (لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي)(٥) وفي القرآن الكريم: (وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً)(٦).

والإسلام من الجهة الأخرى يحرِّض العبيد على التقوى وحسن العبادة.

الموالي في الإسلام

والباقون في الأسر إذا اعتنقوا الإسلام نجوا من الرق غالباً إذ يغلب أن يعتقوهم مكافأة لهم ومن اعتنق منهم صار مولى ولذلك كان الموالي من المسلمين غير العرب يستنكفون من استرقاق المسلم ثم أطلقه بنو أمية على كل مسلم غير عربي فإذا قالوا (الموالي) أرادوا بهم المسلمين من الفرس وغيرهم الذين كانوا مجوساً أو ذميين واعتنقوا الإسلام أو كانوا ممن لازم العرب أو التجأوا إليهم ويسمونهم (الحمراء) فإذا قالوا: (الحمراء) أرادوا الموالي، والحمراء في القاموس: العجم وهم كل من سوى العرب. وأصبح الموالي في الإسلام طبقة خاصة من طبقات الهيئة الاجتماعية كان لها شأن عظيم في تاريخ الإسلام. وللموالي فضل كبير في الإسلام لأن معظم الحفّاظ وأهل التفسير واللغة والشعر وسائر العلماء وأكثر التابعين منهم لانشغال العرب عن هذه العلوم بالسياسة والسيادة والتنازع على السلطة. وكان للخلفاء والأمراء ثقة كبرى بمواليهم يعهدون إليهم بكل شؤونهم. على أن المولى لا يزال أحط مقاماً من العربي وكان الموالي في صدر الإسلام يتولون كثيراً من مصالح الدولة التي تفتقر إلى الأمانة

والثقة فضلاً عن العلم والدين ولهم الرواتب السنية لكنهم كانوا محرومين من المناصب االرفيعة التي تحتاج إلى شرف وعصبية كالقضاء مثلاً فإنهم كانوا يعدّونه فوق مرتبتهم.

١. الكافي: ج١، ص,٤٠٤

٢. الكافي: ج٨، ص٢٤٦، مثله.

٣. بحار الأنوار: ج٦٩، ص,٣٥٠

٤.كنز العمال: ج٩، ص,٢١٠

٥.كنز العمال: ج٣، ص,٦٥٦

٦. سورة النساء: ٣٦.

انتقال الخلافة إلى الأمويين

لما طمع بنو أمية في الخلافة كانت قد أفضت إلى الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) صهر النبي (صلّى الله عليه وآله) وابن عمه والمسلمون يعتقدون أنه أحق الناس بها لقرابته من النبي (صلّى الله عليه وآله) وتقواه وشجاعته وعلمه وسابقته في الإسلام وفضله في تأييده، فتصدّى له معاوية بن أبي سفيان وكان أبوه وأخوته من أشد الناس مقاومة للإسلام عند ظهوره ولم يسلموا إلا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة وإنما أقدموا على ذلك مضطرين لما رأوا الإسلام قد تأيد في جزيرة العرب ولم يبق سبيل إلى مقاومته.

وكان أبو سفيان والد معاوية زعيم أهل مكة وقد حارب النبي (صلّى الله عليه وآله) في عدة أماكن وجاهر بعدوانه وطعن فيه فلما ظفر المسلمون في غزواتهم واشتد أزرهم وهموا بفتح مكة ومشوا حتى أقبلوا عليها كان أبو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا منها يتجسسون، فلقيهم العباس عم النبي (صلّى الله عليه وآله) فقال له أبو سفيان وقد أسقط بيده: (لقد أصبح أمر ابن أخيك عظيماً) فأشار عليه العباس أن يستأمن فلم ير له حيلة في غير ذلك فاستأمن ثم فتحت مكة ولم يكن له بد من الإسلام فأسلم هو وأولاده وفيهم معاوية وقد تألفهم النبي (صلّى الله عليه وآله) بالعطاء ليثبتوا في إسلامهم.

معاوية وعلي (عليه السلام)

وكان بنو أمية ينظرون إلى ما ناله بنو هاشم بالنبوة من السلطان والجاه ويتوقعون فرصة للقبض على أزمة الملك، فلما قتل عمر بن الخطاب وأمر بالشورى اختار الصحابة عثمان بن عفان وهو من بني أمية ولا يخلو فوزهم بهذا الانتخاب من دسيسة أموية. وكان عثمان ضعيفاً يؤثر ذوي قرابته في مصالح الدولة فاغتنم الأمويون ضعفه وتولوا الأعمال واستأثروا بالأموال فشق ذلك على سائر الصحابة فنقموا عليه وقتلوه.

فاتخذ الأمويون قتله ذريعة للقبض على الخلافة ورئيسهم معاوية بن أبي سفيان عامل عثمان على الشام ومعه رجال قريش، وكان أدهى أهل زمانه بلا منازع فنظر في الأمر نظر رجل يطلب الملك كما يطلبه أهل المطامع وطلاب السيادة في كل عصر بلا علاقة بالدين وقد ساعده على ذلك أن خصمه علياً (عليه السلام) كان يعتبر الخلافة منصباً دينياً وهو زاهد في الدنيا لا مطمع له في غير الثواب والحسنى. وإن رجال معاوية قد ذهبت منهم حرمة الدين ونسوا أبهة النبوة وذاقوا لذة الثروة وتعودوا السيادة فاتسعت مطامعهم، فأثمرت مساعي معاوية في اصطناع الأحزاب بقاعدة ذكرها في حديث دار بينه وبين عمرو بن العاص فقال معاوية: (لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت) فقال عمرو: (وكيف ذلك؟) قال: (إن هم شدوا أرخيت وإذا أرخوا شددت).

فأول شيء فعله معاوية أنه استعان بثلاثة من كبار الصحابة يعدّهم المؤرخون أدهى رجال العرب ومعاوية أدهاهم جميعاً وهم عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة ولولاهم لم يستتب له الأمر لأن ابن العاص احتال في نجاته من واقعة صفين بعد أن كادت الدائرة تدور عليه إذ ظهرت جيوش علي (عليه السلام) على جيوشه فأشار عليه عمرو بن العاص أن يرفع المصاحف لإيقاف الحرب ثم أشار بالتحكيم وخدع أبا موسى الأشعري نائب علي (عليه السلام) في ذلك التحكيم فخلع عليّاً وبايع معاوية. ونال عمرو في مقابل ذلك ولاية مصر طعمة له طول العمر، وزياد بن أبيه رجل لا يُعرف له أب فلما رأى معاوية دهاءه قرّبه منه وادعى أنه أخوه واستلحقه بنسبه وسماه زياد بن أبي سفيان في حديث طويل واستلحاق زياد أول عمل ردّت به أعلام الشريعة الإسلامية علانية وكان زياد عوناً كبيراً لمعاوية في حفظ العراق وفارس. أما المغيرة بن شعبة فهو أول من ضرب النقود المزيفة في الإسلام وأول من أرشى وهو الذي حرّض معاوية على مبايعة ابنه يزيد وجعل الخلافة وراثية في نسله وساعده على ذلك فهؤلاء وغيرهم من كبار القواد اكتسب معاوية مساعدتهم بالدهاء والأطماع فأطعم ابن العاص مصر وأطعم المغيرة فارس وجعل زياداً أخاه وكان يتساهل في محاسبة عماله ويغضي عن سيئاتهم ويبالغ في إكرامهم. ولو رأوا من علي بعض ذلك لكانوا معه ولكن علياً كان دقيقاً في محاسبتهم متصلباً برأيه لا يحيد عما يقتضيه ضميره.

رغبة بني أمية في السيادة

إن المحور الذي كانت تدور عليه سياسة بني أمية والغرض الذي كانوا يرمون إليه إنما هو إحراز الخلافة والرجوع إلى السيادة التي كانت لهم في الجاهلية بقطع النظر عن وعورة المسالك المؤدية إلى ذلك أو وخامة الأسباب التي تمسّكوا بها. وقد فازوا بغايتهم فاتسعت المملكة الإسلامية في أيامهم واشتدت شوكتها مما لم تبلغ إليه دولة العباسيين بعدها وكانوا يطلبون السلطة على أن لا يشاركهم فيها أحد، وكان أشدهم فتكاً عبد الملك بن مروان يقول (لا يجتمع فحلان في أجمة) فرغبة بني أمية في السلطة على هذه الصورة مع وجود من هو أحق منهم بها جرّهم إلى ارتكاب أمور آلت إلى توجيه المطاعن عليهم، وقد ظهرت هذه الدولة وتغلبت على سائر طلاب الخلافة في أيامهم بشيئين: العصبية القرشية واصطناع العصبيات أو الأحزاب الأخرى وهما أساس كل ما ظهر من سياسة بني أمية كما سترى.

العصبية العربية في عصر الأمويين

العرب وقريش

كانت العصبية العربية في الجاهلية بين القبائل بحسب الأنساب فلما جاء الإسلام تناسوا تلك العصبية واجتمع العرب كافة باسم الإسلام أو الرابطة الإسلامية، ومازالت الرابطة الإسلامية تشمل العرب على اختلاف قبائلهم وبطونهم حتى إذا طمع بنو أمية بالملك وقبضوا على أزمة الخلافة استبدوا وتعصبوا للعرب وحافظوا على مقتضيات البداوة وتمسكوا بعاداتها فظلت خشونة البادية غالبة على حكومتهم وظاهرة في سياستهم مع ذهاب مناقب البدو التي ذكرناها. وإنما حفظوا من أحوال جاهليتهم تعصبهم لقبيلتهم (قريش) وإيثار أهلهم على سواهم، فجاشت عوامل الحسد في نفوس القبائل التي كان لها شأن في الجاهلية وضاع فضلها في الإسلام وخصوصاً أهل البصرة والكوفة والشام لأن أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي (صلّى الله عليه وآله) ولا هذّبتهم سيرته ولا رُوّضوا بخلقه مع ما كان فيهم من جفاء الجاهلية وعصبيتها، فلما استفحلت الدولة إذا هم

في قبضة المهاجرين والأنصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب فاستنكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة وكندة والأزد من اليمن وتميم وقيس من مضر فصاروا إلى الغضب من قريش والأنفة عليهم فعادت العصبية إلى نحو ما كانت عليه في الجاهلية، فوقعت الوحشة بين قريش وسائر القبائل من ذلك الحين وخصوصاً بينهم وبين اليمنية ومنهم الأنصار. وثبت الأنصار في نصرة أهل البيت ضد أهلهم من قريش مثلما فعلوا في أول الإسلام إذ جاءهم النبي (صلّى الله عليه وآله) مهاجراً فراراً من أهله. وانقسم العرب في سائر أنحاء المملكة الإسلامية بين هذين الحزبين قيسية وكلبية أو مضرية ويمنية أو نزارية وقحطانية وقامت المنازعات بينهما في الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وأفريقيا والأندلس، وفي كل بلد من هذه البلاد وغيرها حزبان مضري ويمني تختلف قوة أحدهما أو الآخر باختلاف الخلفاء أو الأمراء أو العمال، فالعامل المصري يقدّم المضرية والعامل اليمني يقدّم اليمنية ويختلف ذلك باختلاف الأموال وله تأثير في كل شيء من تصاريف أحوالهم حتى في تولية الخلفاء والأمراء وعزلهم وكثيراً ما كانت الولاية والعزل موقوفين على انحياز أحد هذين الحزبين. على أن قريشاً كانوا منقسمين فيما بينهم وأهم انقساماتهم بين أمية وهاشم فكان الناس يتعصبون لأحدهما على الآخر تبعاً لغرضه أو وطنه وكثيراً ما كانوا يتشاجرون في هذا السبيل فيشغلون أوقاتهم بالمناظرة والمفاخرة حتى تحتدم نار الخصام وتتحوّل إلى حرب يطير شرارها وتُسفك فيها الدماء، وكانت قوة بني هاشم في الحجاز والعراق وقوة بني أمية في الشام ويختلف هذا التحديد باختلاف العصور.

عصبية العرب على العجم

وكما كان القرشيون في أيام بني أمية مقدمين على سائر قبائل العرب فإن العرب على الإجمال كانوا مقدمين على سائر الأمم الذين دانوا للمسلمين، فكان العربي يعد نفسه سيداً على غير العربي ويرى أنه خُلق للسيادة وذاك للخدمة ولذلك لم يكن العرب يشتغلون في صدر الإسلام إلا بالسياسة والحكومة وتركوا سائر الأعمال لسواهم وخصوصاً المهن والصناعات. ولم يكن العرب يعتنون بشيء من العلم غير الشعر والتاريخ لأنه لازم للسيادة

والفتح وأما الحساب والكتابة فقد كانت من صنائع الموالي وأهل الذمة ولذلك كان العمال في أيام بني أمية مع تعصبهم للعرب قلما يولونهم الدواوين لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يحسبون.

وكان الأمويون في أيام معاوية يعدون الموالي أتباعاً وأرقاء وتكاثروا فأدرك معاوية الخطر من تكاثرهم على دولة العرب فهمّ أن يأمر بقتلهم كلهم أو بعضهم، وقبل مباشرة ذلك استشار بعض كبار الأمراء من رجال بطانته وفيهم الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال لهما: (إني رأيت هذه الحمراء ـ يعني الموالي ـ وأراها قد قطعت على السلف وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان فرأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق فما ترون؟) فقال الأحنف: (أرى أن نفسي لا تطيب.. أخي لأمي وخالي ومولاي وقد شاركناهم وشاركونا في النسب) وأما سمرة فأشار بقتلهم وطلب أن يتولى ذلك هو بنفسه فرأى معاوية أن الحزم في رأي الأحنف فكفّ عنهم، فاعتبِر مقدار استخفاف العرب بسواهم وكيف يخطر للخليفة أن يقتل شطراً منهم بغير ذنب اقترفوه كأنهم من الأغنام. وكانوا يسمون العربي من أم أعجمية (الهجين) ولا يزوّجون الأعجمي عربية ولو كان أميراً وكانت هي من أحقر القبائل، فلما بالغ بنو أمية في الاستخفاف بغير العرب وقد ذهبت أبهة النبوة أخذ هؤلاء في التذمر ونصروا آل علي (عليه السلام) والخوارج وغيرهم من أعداء الأمويين وهان عليهم الرد على العرب في مفاخراتهم فنشأ من ذلك طائفة يُعرَفون بالشعوبية لا يعترفون بفضل العرب على سواهم وتصدوا لدفع حجج القائلين بفضل العرب على سائر الشعوب. ولم يكن الشعوبية يستطيعون الظهور في أيام بني أمية فلما أفضت الخلافة إلى بني العباس وانحط شأن العرب بعد قتال الأمين والمأمون ظهروا وألفوا الكتب في مثالب العرب، فالدولة الأموية هي التي جعلت الإسلام دولة عصبية وسيفاً، وظل الكثير من عادات الجاهلية شائع في أيامهم كالمفاخرة والمباهلة ومناشدة الأشعار في الأندية العمومية فكان أشراف أهل الكوفة يخرجون إلى ظاهرها يتناشدون الأشعار ويتحادثون ويتذاكرون أيام الناس، وكان خارج البصرة بقعة يقال لها المربد يجتمع إليها الناس من البصرة وغيرها يتناشدون الأشعار ويتحادثون كما كانوا يفعلون في عكاظ.

العصبية الوطنية في عصر الأمويين

لم يكن للعرب قبل الإسلام روابط وطنية يجتمعون بها أو يدافعون عنها لأنهم كانوا لا يستقرون في وطن لتغلب البداوة على طباعهم وتنقلهم بالغزو والرحلة. فلما أسلموا وفتحوا البلاد ومصروا الأمصار وابتنوا المدن وأقاموا فيها تحضّروا ونشأت فيهم الغيرة على تلك المواطن للدفاع عنها والتعصب لها وهي ما عبّرنا عنه بالعصبية الوطنية.

تحضّر العرب بعد الفتح

وكان العرب (أو المسلمون) يقيمون في تلك المعسكرات التي أنشأوها حوالي المدن المفتوحة بأولادهم ونسائهم لا يختلطون بأهل القرى حتى إذا جاء الربيع يسرحون خيولهم للمرعى في القرى يسوقها الأتباع من الخدم أو العبيد ومعهم طوائف من السادات، فإذا فرغوا من رعاية الخيل عادوا إلى خيامهم وهم إلى ذلك الحين أهل بداوة وغزو ومركز دولتهم في المدينة وفيها مقرُّ الخليفة ومرجع المسلمين عند الحاجة فلما طال مقامهم في تلك المعسكرات وأفضت الخلافة إلى بني أمية ورغبوا في الشام عن الحجاز هان على المسلمين إغفال أمر المدينة وسائر الحجاز وطاب لهم المقام في الشام وسائر الأمصار فاقتنوا الأرضين والضياع وغرسوا الأشجار فتحولت تلك المعسكرات بتوالي الأجيال إلى مدن عامرة أشهرها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان من المدن التي بناها المسلمون غير المدن القديمة التي استوطنوها في الشام ومصر والعراق وفارس وغيرها.

تعصب المدن الإسلامية بعضها على بعض

ومما زاد المسلمين رغبة في العصبية الوطنية انقسام الأحزاب السياسية يومئذ باعتبار المدن، وأول خلاف وقع بين بلدين إسلاميين الخلاف الذي وقع بين الشام والكوفة في أيام عثمان بن عفان ثم حدث الانقسام الوطني السياسي بعد مقتله وكان أساسه الميل إلى أحد طلاب الخلافة يومئذ وهم علي (عليه السلام) ومعاوية وطلحة والزبير فكان أهل الشام مع معاوية لأنه أميرهم ومعظمهم من قريش وكان أهل المدينة مع علي (عليه السلام) وهم الأنصار وتبعتهم مصر وكان أهل الكوفة مع الزبير وأهل البصرة مع طلحة، فكان لكل بلدٍ في عصر بني أمية مجتمع خاص يجتمع به ويحارب باسمه، وهو مؤلف من قبائل تختلف نسباً

وعصبية وفيهم قبائل اليمن ومضر وربيعة وغيرها يقيم كل منها في حي خاص بها يعرف باسمها فكانت البصرة مثلاً مؤلفة من خمسة أقسام تُعرف بالأخماس كل خمس لقبيلة وهي الأزر وتميم وبكر وعبد القيس وأهل العالية. والمراد بأهل العالية بطون قريش وكنانة والأزد وبجيلة وخثعم وقيس غيلان كلها ومزينة، وقس على ذلك سائر البلاد، ففي أيام علي (عليه السلام) والخوارج كانت البصرة عثمانية والكوفة علوية والشام أموية والجزيرة خارجية والحجاز سنية وتقلبت هذه الأحوال كثيراً واختلفت باختلاف الدول، فحدث بتوالي التقلبات السياسية تعدد الاتجاهات، أولها: الاتجاه العصبي أو الاتجاه النسبي كما حصل بين مصر واليمن. والثاني: الاتجاه الوطني كما حصل بين العراق ومصر والشام. والثالث: الاتجاه المذهبي كما حصل بين الفرق الإسلامية كالسنة والشيعة والمعتزلة وربما اجتمعت كل هذه الاتجاهات في رجلين.

ومما ساعد على نشوء الاتجاه الوطني أن أهل الحجاز كانوا يجتمعون بالحرمين ويفاخرون المسلمين بهما لأن الإسلام لا يستغني عنهما وفيها شيعة علي ولاسيما المدينة، فكان الأمويون مع عداوتهم للعلويين لا يرون بدّاً من زيارة الحرمين ورعاية أهلهما فيقف ذلك عثرة في سبيل سلطانهم وخصوصاً بعد أن احتمى ابن الزبير بالكعبة وأخرج بني أمية وأحزابهم من الحجاز فلم يستطع الأمويون التغلب عليه إلا بضرب الكعبة بالمنجنيق ولهذا السبب خطر للأمويين أن ينقلوا منبر النبي (صلّى الله عليه وآله) من المدينة إلى الشام ليجمعوا عندهم الدين والسياسة. ولعل الحجاج بنى القبة الخضراء في واسط لمثل هذه الغاية كما بناها المنصور في بغداد بعد ذلك تصغيراً للكعبة والغرض من ذلك كله تحويل القلوب عن الحجاز وتصغير أمر العلويين فلم يجدهم ذلك نفعاً.

اصطناع الأحزاب في عصر الأمويين

ومما احتاج إليه بنو أمية في سبيل التغلب لنيل الخلافة اصطناع الرجال واجتذاب الأحزاب كما فعل معاوية بن أبي سفيان بكل وسيلة، على أنه كان إذا خاف عدواً لا يقدر عليه بالسيف ولا يستطيع اصطناعه بالمال احتال على قتله غيلة بالسم كما فعل بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد فدسّ إليه شربة عسل مسمومة مع بعض مماليكه فشربها ومات ونجا

معاوية منه. وفعل نحو ذلك بالأشتر النخعي مالك بن الحارث وكان من أشدّ رجال علي (عليه السلام) بطشاً أو هو أشدهم جميعاً وقد أبلى معه في صفين بلاءً حسناً. فكان معاوية وأصحابه لا يضيعون فرصة ولا يبالون في تنفيذ أغراضهم ما يرتكبون من القتل أو نحوه. أما علي (عليه السلام) وأصحابه فكانوا لا يحيدون عن مناهج الدين ومقتضى الأريحية. فبالدهاء ونحوه تمكن معاوية من نيل الخلافة وتوريثها لابنه ثم صارت في بني مروان من أمية ولكنه لم يستطع قطع شأفة المقاومين من طلاب الخلافة وهم كثيرون أهمهم أولاد علي (عليه السلام). على أنه كان يسكتهم بالمسالمة والبذل وكانوا يهابونه ويسكنون إلى سياسته ويتوقعون من الجهة الأخرى رجوع الخلافة إليهم بعد موته، فلما رأوه نقلها إلى ابنه يزيد ثار المطالبون بالخلافة في الحجاز والعراق وغيرهما وكل منهم يزعم أنه صاحب الحق بها، فاجتمعت سنة ٦٨هـ أربعة ألوية في عرفات كل منها لزعيم يطلب الخلافة لنفسه إحداها لبني أمية والأخرى للعلويين باسم محمد بن الحنفية والثالثة لعبد الله بن الزبير والرابعة لنجدة الحروري من الخوارج ثم قام غيرهم ولم يفز بالملك إلا بنو أمية للعصبية العربية واصطناع الأحزاب ببذل الأموال وذلك ما جرّ بني أمية إلى خرق كثير من القواعد فقد كانت الأموال التي ترد على بيت المال تعد ملكاً للمسلمين، وليس الخليفة أو عامله إلا حافظاً لها ينفقها في مصالحهم وتدبير شؤونهم وله منها راتب معين يأخذه مثل سائر المسلمين.

عمال بني أمية

فلما اضطر بنو أمية إلى اصطناع الرجال وجمع الأحزاب واسترضاء القبائل وبناء المدن أغضوا عن كثير من تلك الأحكام وتوفقوا إلى عمال أشداء لا يبالون بالدين ولا أحكامه في سبيل أغراضهم مثل زياد بن أبيه عامل معاوية، وعبيد الله بن زياد عامل ابنه يزيد، والحجاج بن يوسف عامل عبد الملك بن مروان، وخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك وغيرهم. فكان الخلفاء يكتبون إلى عمالهم بجمع الأموال وحشدها والعمال لا يبالون كيف يجمعونها فقد كتب معاوية إلى زياد يقول (اصطف لي الصفراء والبيضاء) فكتب زياد إلى عماله بذلك وأوصاهم أن يوافوه بالمال ولا يقسموا بين المسلمين ذهباً ولا فضة، وكان العمال من الجهة الأخرى يختصون أنفسهم بجانب من تلك الأموال وليس ثمة من يحاسبهم وقد أطلق الخلفاء

أيديهم في الأعمال ترغيباً لهم في البقاء على ولائهم. فكان العمال يختزنون لأنفسهم الأموال الطائلة حتى بلغت غلة أحدهم ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة وزادت ثروته على ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وزادت نفقاتهم زيادة فاحشة ولم يعد عندهم لراتب العمالة قيمة حتى كتب أمية بن عبد الله إلى عبد الملك بن مروان يقول: (إن خراج خراسان لا يفي بمطبخي).

أخذهم الجزية عن المسلمين

فكان العمال يبذلون الجهد في جمع الأموال بأية وسيلة كانت ومصادرها الجزية والخراج والزكاة والصدقة والعشور. وأهمها في أول الإسلام الجزية لكثرة أهل الذمة فكان عمال بني أمية يشددون في تحصيلها فأخذ أهل الذمة يدخلون في الإسلام فلم يكن ذلك لينجيهم منها لأن العمال عدّوا إسلامهم حيلة للفرار من الجزية وليس رغبةً في الإسلام فطالبوهم بالجزية بعد إسلامهم. وأول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف واقتدى به غيره من عمال بني أمية في أفريقية وخراسان وما وراء النهر فارتدّ الناس عن الإسلام وهم يودّون البقاء فيه وخصوصاً أهل خراسان وما وراء النهر فإنهم ظلوا إلى أواخر أيام بني أمية لا يمنعهم عن الإسلام إلا ظلم العمال بطلب الجزية منهم بعد إسلامهم. فلما تولى أشرس سنة ١١٠هـ على خراسان كان أهل سمرقند قد ارتدوا عن إسلامهم فبعث إليهم رجلاً اسمه أبو الصيداء فقال الرجل: (أخرج إليهم على شريطة أن من أسلم لا تؤخذ منه الجزية) فقال أشرس: (نعم) فشخص إلى سمرقند ودعا أهلها إلى الإسلام على أن توضع الجزية عنهم. فسارع الناس إلى الإسلام وقل الخراج فكتب عاملها إلى أشرس: (إن الخراج قد انكسر) فأجابه: (إن في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة في الإسلام وإنما أسلموا تعوذاً من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه) ففعل الناس ذلك وبنوا المساجد وكتب العمال بذلك إلى أشرس فأجابهم: (خذوا الخراج ممن كنتم تأخذونه) فأعادوا الجزية على من أسلم فامتنعوا واعتزلوا في سبعة آلاف على عدة فراسخ من سمرقند وسبّب ذلك فتنة ارتدّ عن الإسلام بسببها أهل الصغد وبخارى واستجاش الترك. ومازالوا كذلك حتى تولى خراسان نصر بن سيار وقد عرف موضع الخطأ فأعلن سنة ١٢١هـ

أنه وضع الجزية عمن أسلم وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين فلم يمض أسبوع حتى أتاه ٣٠,٠٠٠ مسلم كانوا يؤدون الجزية. ناهيك بما كان يرتكبه بنو أمية من زيادة الخراج وضرب الضرائب والاستئثار بالفيء. ولم يقم من خلفائهم من نهى عن ذلك إلا عمر بن عبد العزيز.

الاستخفاف بالدين وأهله

لما طلب الأمويون الخلافة لأنفسهم وهم يعلمون أن أهل البيت أحقّ بها منهم وأن حجة أهل البيت في طلبها مبنية على أساس صحيح كان أكثر الفقهاء والعلماء وسائر رجال الدين يرون رأيهم ويؤيدون دعوتهم ولكن العصبية كانت مع الأمويين والقوة غالبة. أما الفقهاء وسائر أهل التقوى فكانوا لا ينفكون عند سنوح الفرصة عن تفضيل أهل البيت وتذكير الأمويين بما يرتكبونه ـ في سبيل التغلب ـ من الظلم والقسوة والتعدي ويعظونهم ويذكّرونهم بتقوى الله. حتى إذا أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان عمد إلى الشدة والعنف فحج سنة ٧٥هـ بعد مقتل ابن الزبير ولما جاء المدينة وفيها أنصار أهل البيت خطب فيهم خطاباً قال فيه:

(أما بعد فإني لست بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان ـ ولا بالخليفة المداهن ـ يعني معاوية ـ ولا بالخليفة المأفون ـ يعني يزيد ـ ألا وإني لا أداوي هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم بي قناتكم وإنكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم. وإنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون ذلك من أنفسكم. والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه).

الاستهانة بالقرآن والحرمين

وعبد الملك هذا كان يرى الشدة ويجاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف ولو خالف أحكام الدين. وقد يتبادر إلى الذهن أنه فعل ذلك اقتداءً بعامله ونصيره ومؤيد دولته الحجاج بن يوسف ولا نظنه مقتدياً بذلك لأنه صرّح باستهانته بالدين منذ ولي الخلافة وكان قبلها يتظاهر بالتدين فلما تولاها استهوته الدنيا، ذكروا أنه لما جاءوه بخبر الخلافة كان قاعداً

والمصحف في حجره فأطبقه وقال: (هذا آخر العهد بك، أو هذا فراق بيني وبينك) فلا غرو بعد ذلك إذا أباح لعامله الحجاج أن يضرب الكعبة بالمنجنيق وأن يقتل ابن الزبير ويحتز رأسه بيده داخل مسجد الكعبة والكعبة حرم لا يجوز القتال فيها ولا في جوارها فأحلوه وظلوا يقتلون الناس فيها ثلاثاً وهدموا الكعبة وهي بيت الله عندهم وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها مما لم يحدث مثله في الإسلام. ودخلوا المدينة وهي أحد الحرمين وقاتلوا أهلها وسفكوا دماءَهم ولم يغلق لها باب إلا أُحرق ما فيه حتى أن الأقباط والأنباط كانوا يدخلون على نساء قريش فينزعون خمرهن من رؤوسهن وخلاخلهن من أرجلهن وسيوفهم على عواتقهم والقرآن تحت أرجلهم. ناهيك بمن قتلوه من الصحابة والتابعين وأهل التقوى صبراً وإنما أرادوا بذلك تحقير أمر علي (عليه السلام) وشيعته تأييداً لسلطانهم. ولهذا السبب لعنوه على المنابر وأمروا الناس بلعنه وقتلوا من لم يلعنه. وأول من قُتل صبراً في هذا السبيل حجر بن عدي الكندي في أيام معاوية وظلوا يلعنون علياً على المنابر إلى أيام عمر بن عبد العزيز فأبطل ذلك.

الخلافة والنبوة

وتوفق بنو أمية إلى عمال أشداء زادوهم استبداداً وشدة بما توخوه من تمليقهم بالتعظيم والتغرير مما يخالف أحكام الدين. وأول من تجرأ على ذلك الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك فإنه سمى الخليفة (خليفة الله) وعظّم أمر الخلافة حتى فضّلها على النبوة فكان يقول: (ما قامت السماوات والأرض إلا بالخلافة وإن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين لأن الله خلق آدم بيده وأسجد له الملائكة وأسكنه جنته ثم أهبطه إلى الأرض وجعله خليفة وجعل الملائكة رسلاً) وإذا حاجّه أحد في ذلك قال: (أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله في حاجته؟)، وكان عبد الملك إذا سمع ذلك أعجب به، واقتدى بالحجاج من جاء بعده من العمال الأشداء كخالد القسري عامل هشام بن عبد الملك فقد كان يقول قول الحجاج وخطب الناس في مكة مرة فقال: (أيها الناس أيهما أعظم خليفة الرجل إلى أهله أو رسوله إليهم؟) يعرض أن هشاماً خير من النبي (صلّى الله عليه وآله).

وذكروا أن خالداً القسري كان قليل العناية في حفظ القرآن فإذا تلا آية أخطأ فيها وألحن في نطقها فوقف مرة للخطابة فقال وأخطأ ثم ارتج عليه وفشل فنهض صديق له من تغلب فقال: (خفّض عليك أيها الأمير ولا يهولنّك فما رأيت قط عاقلاً حفظ القرآن وإنما يحفظه الحمقى من الرجال).

فلا غرو بعد ذلك إذا قيل لنا أن الوليد بن يزيد سكير بني مروان رمى القرآن بالنشاب وهو في مجونه وسكره فقد ذكروا أنه عاد ذات ليلة بمصحف فلما فتحه وافق ورقة فيها: (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)(١) فأمر بالمصحف فعلقوه وأخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزقه ثم قال:

أتوعد كل جبـارٍ عنيدٍ***فهـا أنا ذاك جبار عنيدُ

إذا لاقيت ربك يوم حشرٍ***فقـل لله مزقني الوليدُ

فلم يكن همّ بني أمية نشر الإسلام وإنما كان همهم الفتح والتغلّب وحشد الأموال فتوقف نشر الإسلام على عهدهم في الأطراف البعيدة كالسند وتركستان مع رغبة أهلهما فيه وإنما نفّرهم منه شدة بني أمية وجشعهم فكانوا يسلمون ثم يرتدون تبعاً لما يرونه من المعاملة الحسنة أو السيئة.

الفتك والبطش في عصر الأمويين

تولى الخلافة معاوية وسلّم الأعمال إلى دهاته في العراق وفارس ومصر وغيرها، حيث أخذوا الناس بالشدة، وأول من توخّى الشدة والعنف زياد بن أبيه عامل معاوية على العراق وهو أول من شدّد أمر السلطة وأكّد الملك لمعاوية فجرّد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وتولى العراق بعده ابنه عبيد الله بن زياد في خلافة يزيد بن معاوية فكان كذلك، ولما أفضت ولاية العراق إلى الحجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ) وقد كثر المطالبون بالخلافة أراد الحجاج أن يتشبّه بزياد وابنه بالشدة والعنف فبالغ في ذلك حتى أهلك ودمّر، وقد أعانته شدة عبد الملك على المبالغة في الشدة فأكبر المسلمون ذلك ونقموا على تلك الدولة وكثر الخارجون عليها واتهموا خلفاءها بالمروق من الدين. ومن أقوال الخوارج فيهم: (إن بني أمية فرقة بطشهم بطش جبارين يأخذون بالظنة ويقضون بالهوى

ويقتلون على الغضب) وكان الخلفاء من بني أمية يرون في إطلاق أيدي عمالهم أو قوّادهم تشجيعاً لهم وتنفيذاً لأغراضهم، وربما حرّضهم الخليفة على الفتك عند الحاجة حتى في أيام معاوية فإنه أرسل بسر بن أرطاة بعد تحكيم الحكمين وعلي بن أبي طالب (عليه السلام) يومئذ حيّ وأرسل معه جيشاً، ويقال أنه أوصاهم أن يسيروا في الأرض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة علي (عليه السلام) ولا يكفّوا أيديهم عن النساء والصبيان، فسار بسر على وجهه حتى انتهى إلى المدينة فقتل فيها أناساً من أصحاب علي (عليه السلام) وهدّم دورهم ومضى إلى مكة وغيرها يقتل ويهدم حتى أتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس عامل علي (عليه السلام) وابن عمه كان غائباً فراراً من القتل فوجد بسر ابنين له صبيين اسمهما عبد الرحمن وقثم فأخذهما وذبحهما بيده بمدية كانت معه، وذكروا أن الغلامين كانا عند رجل من كنانة بالبادية فلما أراد بسر قتلهما قال الكناني:

(تقتل هذين ولا ذنب لهما فإن كنت قاتلهما فاقتلني معهما) فقتله وقتلهما معه فصاحت امرأة من كنانة: (يا هذا قتلت الرجال فعلام تقتل هذين؟ والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية ولا الإسلام والله يا بن أرطاة إن سلطاناً لا يقوم إلا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الأرحام لسلطان سوء) وقالت أم الصبيين شعراً في رثائهما كانت تنشده في المواسم مطلعه:

يا من أحسَّ بابنيّ اللذين هما***كالدرّتين تشظى عنهما الصدف

فهل يُستغرب ما يقال عن فتك الحجاج وكثرة من قتلهم صبراً ولو كانوا ١٢٠,٠٠٠؟ وهل يُستبعد أن يكون في حبسه عند موته ٥٠,٠٠٠ رجل و٣٠,٠٠٠ امرأة؟ وكان عبد الملك أشد وطأة منه وأجرأ على الغدر والفتك بل هو أول من غدر في الإسلام بعد أن أعطى الأمان وذلك أن عمرو بن سعيد الأشدق أحد أمراء عبد الملك طمع بالملك لنفسه فاغتنم خروج عبد الملك من دمشق سنة ٦٩هـ لحرب مصعب بن الزبير في العراق وجاء إلى الشام ووضع يده عليها، فبلغ عبد الملك ذلك وهو في الطريق فرجع حالاً إلى دمشق وقاتل عمرواً أياماً فلم يقدر عليه فخاف على سلطانه فاحتال في عقد الصلح فرضي عمرو وكتب بينهما كتاباً فيه أمان عبد الملك له. فاطمأن خاطر عمرو المذكور وخرج إلى الخليفة حتى أوطأ فرسه أطناب عبد الملك ثم دخل عليه فاجتمعا ودخل عبد الملك دمشق.

وبعد دخوله بأربعة أيام أرسل إلى عمرو فأجابه أنه آتٍ العشية وأتاه في مائة من مواليه ودخل على عبد الملك وعنده جماعة من بني مروان وقد بقى مواليه خارجاً فاستقبله عبد الملك حتى أجلسه معه على السرير وجعل يحادثه ثم أمر أحد الغلمان أن يأخذ سيفه وقال له: (أتطمع أن تجلس معي متقلداً سيفك) فأعطاه السيف. ثم قال عبد الملك: (يا أبا أمية (عمرو) إنك حينما خلعتني آليت بيمين إن أنا ملأت عيني منك وأنا مالك لك أن أجعلك في جامعة) فقال له الحضور من بني مروان: (ثم تطلقه يا أمير المؤمنين؟) قال: (نعم وما عسيت أن أصنع بأبي أمية) فقال بنو مروان لعمرو: (أبرّ قسم أمير المؤمنين) فقال: (قد أبرّ الله قسمك يا أمير المؤمنين) فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة وقال: (يا غلام قم فاجمعه فيها) فقام الغلام فجمعه فيها فقال عمرو: (أُذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجني فيها على رؤوس الناس) فقال: (أمكرٌ يا أبا أمية عند الموت؟ لا والله ما كنا لنخرجك في جامعة على رؤوس الناس) ثم جذبه جذبةً فوقع وأصاب فمه السرير فكسر ثنيه فقال عمرو: (أُذكر الله يا أمير المؤمنين كسر عظم مني فلا تركب ما هو أعظم من ذلك) فقال عبد الملك: (لا والله لو أعلم أنك تبقي علي لو أبقيت عليك وتصلح قريش لأطلقتك ولكن ما اجتمع رجلان في بلدة قط على ما نحن عليه إلا أخرج أحدهما صاحبه) فلما رأى أنه يريد قتله قال: (أغدرٌ يا بن الزرقاء؟) ثم قتله عبد الملك. وكانوا يقطعون الرؤوس ويطوفون بها في الأسواق والبلاد كما فعلوا برأس عمرو بن الحمق ومحمد بن أبي بكر ومسلم وهاني والإمام الحسين (عليه السلام). وصار قطع الرؤوس على هذه الصورة سُنّة في عصر بني أمية ومن جاء بعدهم من بني العباس وصار للرؤوس في دار الخلافة خزانة يحفظون فيها كل رأس في سفط خاص وجرت العادة أيضاً بصلب الجثث أو الرؤوس ومن هذا القبيل تشديدهم في العذاب قبل القتل ولعل ذلك من مخترعات الحجاج لإرهاب أعدائه وإخضاعهم بالعنف، فمن ضروب التعذيب أنه كان يأتي بالقصب الفارسي فيشقه ويشده على الرجل وهو عارٍ ثم يسله قصبة قصبة حتى يقطع جسده ثم يصب عليه الخل والملح حتى يموت.

الموالي وتكاثرهم في عصر الأمويين

أفضت الخلافة إلى الأمويين في أواسط القرن الأول للهجرة وعدد الموالي آخذ في الزيادة بموالاة الفتح وتكاثر الرقيق بالأسر أو الإهداء لأن العمال كثيراً ما كانوا يبعثون بمئات أو ألوف من الرقيق الأبيض والأسود إلى بلاط الخليفة هدية أو بدلاً من الخراج أو نحوه والخليفة يفرق ذلك في أهل بطانته أو قواده وهؤلاء يفرّقونه في من حولهم أو يبيعونه فينتقل إلى الناس على اختلاف طبقاتهم.

نقمة الموالي على العرب

فلما تكاثر الموالي ورأوا ما كان فيه الأمويون من التعصب للعرب على سواهم ولاسيما الموالي حتى كانوا يستخدمونهم في الحروب مشاة ولا يعطونهم عطاءً ولا شيئاً من الغنائم أو الفيء عَظُم ذلك عليهم ورأوا في نفوسهم قوة فنفرت قلوبهم من بني أمية وأصبحوا عوناً لكل من خلع الطاعة أو طلب الخلافة من العلويين أو الخوارج. وأشهر من حاربهم بالموالي والعبيد المختار بن أبي عبيدة الذي قام في العراق للمطالبة بدم الحسين (عليه السلام) سنة ٦٦هـ ثم طلب الخلافة لمحمد بن الحنفية، فالمختار المذكور أطمع موالي العراق بالغنيمة وأركبهم على الدواب وكانوا ناقمين على أسيادهم ومواليهم لسوء معاملتهم فجاءوا متطوعين.

زواج الموالي بالعربيات

على أن الموالي في أيام بني أمية كانوا على الإجمال أعداء الدولة يقومون عليها مع القائمين انتقاماً لما كانوا يقاسونه من الاحتقار والجور من عصبية العرب على العجم فازداد الأمويون تحقيراً لهم، فبعد أن قال النبي (صلّى الله عليه وآله): (مولى القوم من أنفسهم)(٢) منعوا زواجهم بالعربيات، فإذا تجرأ مولى على الزواج بعربية وبلغ أمره إلى الوالي طلّقها منه كما حدث لأعراب بني سليم في الروحاء فإنهم جاءوا الروحاء فخطب إليهم بعض مواليها إحدى بناتهم فزوجوه فوشى بعضهم إلى والي المدينة بذلك ففرق الوالي بين الزوجين وضرب المولى مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه، وكثيراً ما كانوا يفعلون مثل ذلك بالموالي ولو كانوا من أهل المنزلة الرفيعة أو أهل العلم والتقوى فإن عبد الله بن عون من كرام التابعين ولكنه كان مولى فتزوّج عربية فضربه بلاد بن أبي بردة بالسياط.

فتزويج المولى بالعربية بالغ الأمويون في تقبيحه تعصباً للعرب على سواهم وهو عندهم أقبح من زواج العربي بغير العربية، ولكن ذلك لم يكن محرماً في الدين ولا اعتبره أهل التقوى. فعلي بن الحسين بن علي المعروف بزين العابدين (عليه السلام) وهو أحد الأئمة الاثني عشر ومن سادات التابعين كانت أمه سلامة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس، فلما توفي أبوه زوجها بشريد مولى أبيه وأعتق جارية له وتزوجها فكتب إليه عبد الملك بن مروان يعيّره بذلك. فكتب إليه زين العابدين (عليه السلام): (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة وقد أعتق رسول الله صفية بنت حي بن أخطب وتزوّجها وأعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش).

فالإسلام يرفع منزلة المولى وأما الأمويون فرأوا تحقيره باعتبار أنه غير عربي. وجملة القول أن تعصب بني أمية للعرب جرّهم إلى تحقير غير العرب وخصوصاً الموالي فنقم هؤلاء عليهم وكانوا أكبر المساعدين في إخراج الدولة من أيديهم.

أهل الذمة وأحكامهم في عصر الأمويين

عهود أهل الذمة في أول الإسلام

الذمة في اللغة العهد والأمان والضمان وأهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين. قيل لهم ذلك لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وأكثرهم من النصارى واليهود وقد دعاهم القرآن (أهل الكتاب) نسبة إلى التوراة والإنجيل وقد أثنى عليهم وأوصى بهم خيراً. وفي الحديث النبوي أقوال كثيرة في الإحسان إلى أهل الذمة وخصوصاً قبط مصر فقد رووا عن النبي (عليه السلام) أنه قال: (إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمةً ورحماً)(٣) إشارة إلى أن أم إسماعيل أبي العرب منهم. وقال: (الله الله في أهل الذمة المدرة السوداء السحم الجعاد فإن لهم نسباً وصهراً) وفي تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لأهل الذمة عاهدهم المسلمون فيها بحمايتهم وتسهيل أعمالهم في مقابل ما يؤدونه من الجزية ككتاب النبي (صلّى الله عليه وآله) إلى صاحب أيلة (في العقبة)

وإلى أهل أذرح في أثناء غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة. وهاك كتاب النبي (صلّى الله عليه وآله) إلى صاحب أيلة:

(بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحيى بن روية وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيّب لمن أخذه من الناس وإنه لا يحل أن يمنعوا ما يردونه ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر) واقتدى بالنبي (صلّى الله عليه وآله) قواده في أثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس وكتبوا العهود لأهل الذمة على نحو ما تقدم في مقابل الجزية. أما شروط الصلح فكانت تختلف شدة ورفقاً باختلاف البلاد والأحوال التي فتحت بها فصلح مصر يختلف عن صلح الشام وصلح الشام غير صلح العراق.

الأمويون وأهل الذمة

كذلك كانت أحكام الذمة لما أفضت الخلافة إلى بني أمية وكانوا لا يخافون الروم على الشام لأن مقرّ خلافتهم فيها وقد احتلوا الشواطئ وتغلبوا على أهلها وصاروا يغزون الروم في البحر. على أنهم ضيقوا على أهل الذمة من جهة الجزية في جملة مساعيهم في حشر الأموال لاصطناع الأحزاب والتمتع بأسباب الدنيا فزادوا الجزية والخراج وشددوا في تحصيلهما وضيقوا على الناس حتى أخذوا الجزية ممن أسلم. وأما من بقي على دينه من أهل الكتاب فكانوا يسومونهم سوء العذاب ويحتقرونهم لأنهم ليسوا عرباً ولا مسلمين. ولا غرابة في ذلك بعد ما علمت من احتقار بني أمية لغير العرب من المسلمين. وكانوا يعدّون الناس ثلاث درجات: أولها العرب ثم الموالي ثم أهل الذمة، ويؤيد ذلك رأي معاوية في أهل مصر قال: (وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف: فثلث ناس، وثلث يشبه الناس، وثلث لا ناس. فأما الثلث الذين هم ناس فالعرب والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي والثلث الذين هم لا ناس فالمسألة) يعني القبط.

ولما رأى القبط أن الإسلام لا ينجيهم من الجزية أو العنف في تحصيلها عمد بعضهم إلى التلبس بثوب الرهبنة، والرهبان لا جزية عليهم فأدرك عمال بني أمية غرضهم فوضعوا

الجزية على الرهبان وازدادوا غيظاً منهم حتى أراد بعضهم أخذها من الأموات فضلاً عن الأحياء بأن يجعلوا جزية الموتى على أحيائهم. ونظراً لاهتمام بني أمية بجمع الأموال للأسباب التي قدمناها وأهل الذمة أقدر على مساعدتهم في جمعها من سواهم لاقتدارهم في الحساب والكتابة وأعمال الخراج استخدموهم في هذا السبيل رغم إرادتهم ولم يكن يهمهم ذلك من وجه ديني لنشر الإسلام أو حصر النصرانية ولولا ذلك ما ولوا خالداً القسري العراقين وأمه نصرانية رومية كان يراعي جانبها ويكرم النصارى من أجلها فاعتز النصارى في أيامه. وأراد خالد أمه على الإسلام فلم تسلم فابتنى لها بيعة في ظهر القبلة بالمسجد الجامع في الكوفة فكان المؤذن إذا أراد أن يؤذن ضرب لها بالناقوس وكان خالد يولي النصارى والمجوس على المسلمين ويطلق أيديهم في الحكومة فيستبدون بالمسلمين. وعمر بن أبي ربيعة الشاعر المشهور كانت أمه نصرانية ماتت والصليب في عنقها وكان النصارى في أيام بني أمية يدخلون المساجد ويمرون فيها فلا يعترضهم أحد. وكان الأخطل الشاعر النصراني يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن وهو سكران وفي صدره صليب ولا يعترضه أحد ولا يستنكفون من ذلك لأنهم كانوا يستعينون به في هجاء الأنصار.

على أن بعض الخلفاء من بني أمية كانوا إذا قرّبوا نصرانياً أو يهودياً طلبوا إليه أن يدخل في الإسلام فلا يمنعه من الرفض مانع إلا من يغضب الخليفة عليه ولم يكن يحتاج إليه فينتقم منه كما أصاب شمعلة وكان من رهط الفرس نصرانياً فدخل على بعض خلفاء بني أمية فقال له: (أسلم يا شمعلة) قال: (لا والله لا أسلم أبداً ولا أسلم إلا طائعاً إذا شئت) فغضب وأمر فقطعت بضعة من فخذه وشويت بالنار وأطعمها. أما الأخطل فإن عبد الملك قال له مرة: (ألا تسلم فنفرض لك في الفيء ونعطيك عشرة آلاف) قال: (كيف بالخمر؟) قال: (وما نصنع بها وإن أولها لمرّ وآخرها لسكر) فقال: (أما إذا قلت ذلك فإن بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها إلا كلعقة ماء من الفرات بالإصبع) فضحك.

ولولا معاوية وعبد الملك وهشام لذهبت الدولة من أيديهم عاجلاً لما تداول الخلافة بينهم من الخلفاء الضعفاء أهل الترف واللهو والقصف. وأولهم يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٦٤هـ فقد كان مغرماً بالصيد كثير العناية باقتناء الجوارح والكلاب والقرود والفهود. وكان

يحب الطرب والمنادمة على الشراب فجرى عماله على مثاله وأظهروا الشرب وفي أيامه ظهر الغناء في مكة والمدينة واستعملت الملاهي ولم يكن المسلمون يعرفونها قبل ذلك.

ومنهم يزيد بن عبد الملك توفي سنة ١٠٥هـ ويسمونه خليع بني أمية فقد تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز وسار في طريق غير طريقه فشغف بجاريتين اسم إحداهما سلامة والأخرى حبابة فقطع معهما زمانه. وغنت يوماً حبابة:

بين التراقي واللهاة حرارة***ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد

فأهوى يزيد ليطير فقالت: (يا أمير المؤمنين لنا فيك حاجة) فقال: (والله لأطيرن) فقالت: (على من تدع الأمة) فقال: (عليك) وقبّل يدها، وخرج يوماً ليتنزه في ناحية الأردن ومعه حبابة وبينما هما في الشراب رماها بحبة عنب فدخلت حلقها فشرقت ومرضت وماتت. فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها حتى أنتنت وهو يشمها ويقبلها وينظر إليها ويبكي فكلموه في أمرها حتى أذن بدفنها وعاد إلى قصره كئيباً حزيناً وسمع جارية له تتمثل بعدها:

كفى حزناً بالهائم الصب أن يرى***منـازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى وبقي يزيد بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس أشار عليه أخوه مسلمة بذلك مخافة أن يظهر منه ما يسفّهه عند الناس ولم يحكم إلا أربع سنوات.

ومنهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفى سنة ١٢٦هـ وكان خليعاً سكيراً همه الصيد وشرب الخمر حتى جعل الخمر في برك يغوص فيها ويشرب وأول شيء فعله لما ولي الخلافة أنه بعث إلى المغنيين في المدينة ومكة وأشخصهم إليه واستقدم أهل المجون والخلاعة ونادمهم وبالغ في التهتك والمسكر ولكنه لم يحكم إلا سنة واحدة. فلما انغمس بنو أمية بالترف والقصف مع ما كان من تعصبهم على غير العرب واحتقارهم الموالي وإساءتهم إلى أهل الذمة وسائر أهل القرى بما كانوا يسومونهم إياه من نهب غلّتهم في أثناء السفر، إذ كان جند المسلمين في أواخر أيام بني أمية إذا مروا بقرية غصبوا أموال من يمرون به فأصبح الناس يتحدثون بقرب زوال دولتهم ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى ذهبت وقامت الدولة العباسية مقامها.

١. سورة إبراهيم: ١٥-١٦

٢. وسائل الشيعة: ج٦، ص,١٩٣

٣.كنز العمال: ج٥، ص٧٦٠.

العصر الفارسي الأول

من خلافة السفاح سنة ١٣٢هـ إلى خلافة المتوكل سنة ٢٣٣هـ دعونا هذا العصر فارسياً مع أنه داخل في عصر الدولة العباسية لأن تلك الدولة على كونها عربية من حيث خلفائها ولغتها وديانتها فهي فارسية من حيث سياستها وإدارتها لأن الفرس نصروها وأيّدوها ثم هم نظّموا حكومتها وأداروا شؤونها ومنهم وزراؤها وأمراؤها وكتابها وحجابها. وقد حملهم على القيام بنصرتها ما علمته من عصبية بني أمية على غير العرب واحتقار الموالي وأكثرهم من الفرس فكانوا ينصرون كل ناقم على تلك الدولة.

الشيعة وبنو أمية

ظهر بنو أمية وتسلّطوا واستبدوا وآل علي (عليه السلام) يطالبون بالخلافة ويسعون في إدراكها. وأول من طلبها بعد علي ابنه الحسن (عليه السلام) ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١هـ فغضب أشياع العلويين في الكوفة من تنازله وهاجوا وأمير الكوفة يومئذ زياد بن أبيه الداهية الشهير فشدد في إخماد الثورة وقتل جماعة من أشياع علي فيهم حجر بن عدي وأصحابه، فتربّص العلويون ينتظرون موت معاوية لعل انتخاب الأمة يقع على واحد من أبناء علي (عليه السلام) فترجع الخلافة إلى أهل البيت ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه، فلما علموا ببيعته نقموا عليه وزادهم نقمة ما علموه من تهتكه وقصفه واشتغاله بالصيد على أمور الخلافة، ومن قول عبد الله بن هشام السلولي في ذلك:

خشينا الغيض حتى لو شربنا***دماء بني أمية ما روينا

لقد ضاعت رعيتكم وأنتم***تصيدون الأرانب غافلينا

وكان أوجه العلويين يومئذ الحسين بن علي (عليه السلام) فلما مات معاوية سنة ٦٠هـ وتولى ابنه يزيد أبى الحسين (عليه السلام) أن يبايعه، على أن أكثر الذين بايعوه من أهل

التقوى عدّوا بيعتهم خرقاً لحرمة الدين، وكان الحسين (عليه السلام) في المدينة فلما طلبوا منه أن يبايع يزيد فرّ إلى مكة وأكثر شيعته في الكوفة فكتبوا إليه وحرّضوه على القدوم إليهم لينصروه فأطاعهم ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته، وبعث إليه أمير الكوفة يومئذ عبيد الله بن زياد جنداً حاربه فدافع عن نفسه وأهله حتى قُتل قتلته المشهورة في كربلاء يوم عاشوراء من سنة ٦١هـ.

ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤هـ يطالبون بدمه وسموا أنفسهم (التوّابين) وأمير الكوفة لا يزال عبيد الله بن زياد فأخرجوه منها وولوا عليهم رجلاً منهم فتغلب ابن زياد عليه، فنهض المختار بن أبي عبيدة الثقفي، وكان المختار عالي الهمة فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين (عليه السلام) ويدعو إلى بيعة محمد بن الحنفية أخي الحسين من أبيه، فتبعه على ذلك جماعة من الشيعة سمّاهم (شرطة الله) وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله وقتل أكثر قتلة الحسين (عليه السلام). أما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين (عليه السلام) إلى فرقتين أحدهما تقول إن الحق بالخلافة لولد علي من فاطمة بنت النبي (صلّى الله عليه وآله) والأخرى تقول بتحولها بعد الحسن والحسين إلى أخيهما محمد بن الحنفية وهي الفرقة الكيسانية. وأكثرهما ظهوراً وتصدياً الفرقة الأولى فبايعوا بعد الحسين (عليه السلام) ابنه علياً المعروف بزين العابدين وتسلسلت الخلافة بعده في أعقابه حتى صار الأئمة ١٢ إماماً وهم: علي والحسن والحسين وزين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلي الرضا ومحمد التقي وعلي النقي والحسن العسكري ومحمد المهدي (الإمامية إنما اعتمدوا على نص الرسول (صلّى الله عليه وآله) بذلك وكان بنو أمية إذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في قتله فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر وصلبوا آخرين فأصبح دُعاة الشيعة يستترون خوف الفتك بهم، فلاقى العلويون في أيام بني أمية ضنكاً شديداً وكادوا يهلكون جوعاً، وأصبح هم أحدهم قوت عياله.

العباسيون

وكان في جملة المطالبين بالخلافة من أقرباء النبي (صلّى الله عليه وآله) بنو العباس عم النبي (صلّى الله عليه وآله) لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها والأمويون إبان دولتهم وإنما كانوا يدعون إلى أنفسهم سراً. وكان العلويون والعباسيون في أيام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون لأنهم من بني هاشم وكلا الرهطين أعداء بني أمية من قبل الإسلام، والمضطهدون يتقاربون في أي حال.

وظل العباسيون يتستّرون في دعوتهم وهم مقيمون في الحميمة من أعمال البلقاء بالشام حتى ضعف شأن بني أمية فهمّوا بالنهوض، واتفق في أثناء ذلك أن الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده إلى ابنه أبي هاشم وكان أبو هاشم هذا يفد على خلفاء بني أمية من المدينة إلى الشام فيمر في أثناء الطريق بالحميمة. ففي بعض زياراته لهشام بن عبد الملك آنس هشام منه فصاحة وقوة ورئاسة مع علمه بطمعه في الخلافة فخافه فدَس إليه في أثناء رجوعه إلى المدينة رجلاً سمّه في لبن، فشعر أبو هاشم بالسم وهو في بعض الطريق فعرج إلى الحميمة وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فنزل عنده. ولما أحسّ بدنو الأجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله فأوصى إلى محمد المذكور بالخلافة بعده، وكان معه جماعة من شيعته سلمهم إليه وأوصاه بهم، فلما مات أبو هاشم تهوّس محمد بالخلافة وأيقن بالنجاح لأنه اكتسب حزب الكيسانية جميعاً فأخذ في بث الدعاة سراً، ثم توفي وقد أوصى بالخلافة بعده إلى ابنه وعرف بالإمام.

فأخذ إبراهيم الإمام في بث دعاته وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها أكثر من سائر أهل الأمصار ولأن الشيعة الكيسانية أكثرهم في خراسان والعراق وقد نصروا العلويين مراراً، فبعث إليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع أبي هاشم وأوصاهم أن يطلبوا بيعة الناس باسم (آل محمد) أي أهل النبي ولم يعيّن العلويين ولا العباسيين، وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الأموية فهان عليهم أن يبايعوا لآل محمد وهم يحسبون الأمر يكون مشتركاً بين العباسيين والعلويين. وتوفّق إبراهيم الإمام في أثناء ذلك إلى أبي مسلم الخراساني القائد العجيب فأتم أمرهم وسلّم لهم الدولة كما هو مشهور.

بيعة المنصور للعلوية ونكثه

وكان بنو هاشم (العلويون والعباسيون) لما رأوا اختلال أمر بني أمية اجتمعوا بمكة وفيهم أعيان بني هاشم علويّهم وعباسيّهم وتداولوا في قرب انحلال دولة الأمويين وفي مَن يخلفهم من أهل البيت، وكان في جملة الحضور أبو العباس السفاح وأخوه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو أبو جعفر المنصور وغيرهما من آل العباس، فأجمع رأيهم على مبايعة أوجه العلويين يومئذ وهو محمد بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن بن علي الملقب بالنفس الزكية، فبايعوه لتقدمه فيهم ولما علموه من الفضل عليهم وبايعه أبو جعفر المنصور في جملتهم. ولعل هذه المبايعة هي التي أسكتت العلويين عن طلب الخلافة في أثناء انتشار دُعاة العباسيين في طلبها كأنهم اتفقوا أن تكون الخلافة مشتركة في أهل البيت، لأن العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم (آل محمد) وليس باسم الإمام إبراهيم أو غيره من بني العباس.

أما دُعاة الشيعة العلوية الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة إلى العباسيين فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخيرين، وفي جملتهم أبو سلمة الخلال المثري الفارسي الشهير وكان يقيم في حمام أعين بضواحي الكوفة وكان شديد التمسك بدعوة العلويين وقد بذل ماله وجاهه في سبيل نشرها. فلما سمع بانتقال البيعة إلى بني العباس كظم وتربص ليرى ما يقول الناس. ثم علم أن إبراهيم الإمام عين أبا مسلم وأرسله إلى خراسان ومعه الوصية المشهورة (من اتهمته فاقتله) وقد أطاعه النقباء فأطاعه أبو سلمة في جملتهم وهو يتوقع أن تكون البيعة شورى بين الشيعتين ولما بلغه أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قتل إبراهيم الإمام أضمر الرجوع إلى الدعوة العلوية ثم جاءه أخوة الإمام وفيهم أبو العباس السفاح وأخوته وسائر أهل بيته وقد انتقلت البيعة إلى أبي العباس المذكور فأنزلهم أبو سلمة عنده ورأى نفسه عاجزاً عن نقل البيعة فسكت فبقيت لآل العباس، وكان أبو مسلم وسائر النقباء والقواد يحاربون عساكر الأمويين في خراسان وفارس والعراق فلما غلبوهم وملكوا خراسان وما يليها جاءوا العراق وبايعوا أبا العباس فسكت العلويون خوفاً على أنفسهم من ذلك التيار العظيم وهم يتوقعون مع ذلك أن تكون الخلافة شورى بين الرهطين.

وعلم العباسيون بما كان يضمره أبو سلمة من نقل الخلافة إلى العلويين فشكوه إلى أبي مسلم سرّاً، فدس إليه رجلاً قتله بالكوفة غيلة وأشاعوا أن بعض الخوارج قتله وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكّوا في إخلاصهم حتى تمّ الأمر لهم.

أما آل الحسن بن علي الذين كانوا قد بايعوا أحدهم وهو محمد بن عبد الله في المدينة وبايعه معهم سائر بني هاشم ومنهم أبو جعفر المنصور فلما علموا بذهاب دولة بني أمية ومبايعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢ جاءوا إليه في الكوفة يطالبونه ببيعتهم فاسترضاهم أبو العباس بالأموال وقطع لهم القطائع. وكان في جملة القادمين إليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة فأكرم السفاح وفادته وعرض عليه ما يرضاه من المال وقال له: (احتكم عليّ) فقال عبد الله: (بألف ألف درهم فإني لم أرها قط) ولم يكن هذا المال موجوداً عند السفاح فاستقرضه له من رجل صيرفي اسمه ابن أبي مقرن ودفعه إليه. واتفق وعبد الله المذكور عند السفاح أن بعض الناس جاءه بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قد اغتنمتها من مروان بن محمد فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر إليها ويبكي فسأله عن السبب فقال: (هذا عند بنات مروان وما رأت بنات عمك مثله قط) فحباه به ثم أمر الصيرفي أن يبتاعه منه فابتاعه بثمانين ألف دينار (نحو مليون درهم) وأمر أبو العباس بإكرام عبد الله وإنزاله على الرحب والسعة وهو يتوجس مما في ضميره فبث عليه العيون فآنس عنده طمعاً فزاده عطاءً فعاد عبد الله إلى المدينة مثقلاً بالأموال ففرّقها في أهله وكانوا أهل فاقة فلما رأوا تلك الأموال سرّوا.

وأما عبد الله فمازال مضمراً للمطالبة بالخلافة لابنه على ما تمت المبايعة عليه والعباسيون يخافون ذلك والسفاح يسترضيه وسائر أهله بالأموال، فلما توفي السفاح سنة ١٣٦هـ خلفه أخوه أبو جعفر المنصور وكان رجلاً شديد البطش ولا يبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه، فكان همّه قبل كل شيء أن يتحقق ما في نفس بني الحسن في المدينة لأن لهم في عنقه بيعة فبثّ عليهم العيون وأراد اختبارهم فبعث بعطاء أهل المدينة على جاري العادة من قبل وكتب إلى عامله فيها: (أعط الناس في أيديهم ولا تبعث إلى أحد بعطائه وتفقّد بني هاشم ومن تخلّف منهم عن الحضور وتحفّظ بمحمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن) ففعل العامل ذلك فلم يتخلّف عن العطاء إلا محمد وإبراهيم المذكوران فكتب إليه بذلك، فتحقق

المنصور أنهما ينويان القيام عليه وقد سكتا في أثناء خلافة أخيه لأنه كان يكرمهما ويغدق الأموال عليهما والمنصور لا يرى ذلك، فلما رأوا تضييقه عزموا على الخروج فبثوا الدعاة في خراسان وغيرها يدعون شيعتهم إلى بيعتهم، فعلم أبو جعفر بذلك فبعث من يقبض على كتبهم في الطريق واحتال في استطلاع أسرارهم وأراد استقدام ابني عبد الله وكتب إليه يستقدمه بهما فأنكر عبد الله أنه يعرف مقرهما فأصبح همّ المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين وخصوصاً بني الحسن وهم يقيمون في المدينة فبعث إلى عامله فيها أن يقبض عليهم جميعاً ثم أمره أن ينقلهم إلى العراق فنقلهم وهم مثقلون بالقيود والأغلال في أرجلهم وأعناقهم وقد حملهم على محامل بغير وطاء ولكن ليس فيهم محمد ولا إبراهيم ابنا عبد الله لاستتارهما، فجاءوا ببني الحسن وعدتهم بضعة عشرة رجلاً فأمر المنصور بقتلهم فقتلوا إلا بضعة قليلة.

أما محمد بن عبد الله صاحب البيعة فلم يقع في الفخ فبعث المنصور إلى عامله في المدينة أن يشدد في طلبه فلم يرَ محمد بدّاً من القيام فظهر بالدعوة فبايعه أهل المدينة بعد أن استفتوا إمامهم مالك بن أنس فأفتاهم بالخروج معه فقالوا: (إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر) فقال: (إنكم بايعتموه مكرهين وان بيعة محمد بن عبد الله أصح منها لأنها انعقدت قبلها) وكان أبو حنيفة أيضاً على هذا الرأي يقول بفضل محمد هذا ويحتج إلى حقه فحفظ لهما المنصور هذا القول فنزلت بهما المحنة بسبب ذلك، فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥هـ أصبح من أكبر المضطهدين لهما فضرب مالكاً على الفتيا في طلاق المكره وحبس أبا حنيفة على القضاء كما هو مشهور.

وكان لنكث المنصور لبيعة محمد بن عبد الله تأثير عظيم في أذهان العلويين لأنه جاءهم بغتة وكانوا يظنون ذلك لا يصدر من أهل البيت كما صدر من بني أمية فتحسّروا على أيام بني أمية وتمنوا رجوعها.

سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم

القتل على التهمة

قد رأيت في ما تقدم أن بني العباس قاموا يدعون إلى أنفسهم وهم بين خطرين عظيمين الأول أن يحاربوا بني أمية ويتغلّبوا على أحزابهم، والثاني أن يأمنوا جانب العلويين في مسابقتهم إلى الخلافة، فكان أبو مسلم في سبيل الدعوة يقتل كل من اتهمه أو شك فيه فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة ٦٠٠,٠٠٠ نفس قتلوا صبراً بدون حرب في بضع سنين وفي جملتهم جماعة من كبار الشيعة وفيهم غير واحد من أجلّة النقباء وكبار الدعاة كأبي سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه وكان يقال له وزير آل محمد كما يقال لأبي مسلم أمير آل محمد، ناهيك عمّن قتلهم من غير الشيعة وفيهم الأمراء والقواد. قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالغدر، حتى سئم الناس فعله وملوا سفك الدماء وأصبح المسلمون حتى رجاله لا يُدعى أحدهم إلى مقابلته إلا أوصى وتكفن وتحنط. وثار من ذلك بعض الأمراء من شيعة بني العباس وصاح في رجاله: (ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك الدماء وأن يعمل بغير الحق) فتبعه على رأيه أكثر من ٣٠,٠٠٠ رجل فوجه إليهم أبو مسلم جُنداً وقتلهم.

غدر المنصور والدولة العباسية

فبهذا وأمثاله مهّد أبو مسلم الخلافة لبني العباس فساعدهم أولاً على إخراجها من بني أمية إلى أهل البيت ولم يكتف ببيعة أبي العباس وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ولكنه حرّضهم على قتل من بقي من بني أمية بالإغراء أو التخويف على ألسنة الشعراء. ويقال أنه هو الذي أوعز إلى سديف الشاعر مولى بني هاشم أن يقول ذلك الشعر في مجلس السفاح وفيه سليمان بن هاشم بن عبد الملك وكان السفاح قد أمنه وأكرمه وأمن سائر بني أمية فيقال أن سديفاً دخل يوماً على السفاح وعنده سليمان بن هشام فأنشد سديف قوله:

لا يغرنك ما ترى من رجال***إن تحت الضلوع داءً دوياً

فضع السيف وارفع السوط حتى***لا ترى فوق ظهرها أموياً

فتأثّر السفاح وأمر بسليمان فقتل، ودخل شاعر آخر فقال شعراً آخر وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بني أمية فقتلهم وبسطوا النطوع على جثثهم فأكلوا الطعام وهم يسمعون أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً وقيل في كيفية قتلهم غير ذلك وأن الذي قتلهم

عبد الله بن علي عم السفاح وهو مشهور بكرهه لبني أمية وشدة نقمته عليهم ولكن لا خلاف في أنهم قتلوا غدراً سنة ١٣٢هـ وهم آمنون كما قتل الأمراء المماليك بمصر في أوائل القرن الماضي.

والغالب أن أبا مسلم أوعز إلى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا في سبيل دولتهم فأشار إلى سديف أن يحرضهم على ذلك بشعره. ولم يقل سديف ذلك حباً ببني العباس بل كرهاً لبني أمية وانتقاماً لآل علي لأنه من الشيعة العلوية وهو يظن أن الخلافة شورى بين الشيعتين. فلما رأى المنصور استقل بها بعد ذلك نقم على العباسيين وهجاهم بأشعار بلغ خبرها المنصور فكتب إلى عامله أن يأخذ سديفاً فيدفنه حياً ففعل، وبعد أن قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الأمويين عمدوا إلى استئصال شأفتهم من سائر البلاد، ولم ينج منهم إلا قليلون أهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ففرّ إلى الغرب وأسس دولة بني أمية بالأندلس، وتولى استئصال شأفة الأمويين من بني العبّاس عبد الله بن علي فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم ومثّل بجثثهم انتقاماً لما فعلوه قبلاً بالأئمة من آل علي (عليه السلام) وخصوصاً زيد بن زين العابدين (عليه السلام)، فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره وهو لم يبل فضربه ثمانين سوطاً ثم أحرقه.

وبعد أن تخلّص المنصور من الأمويين لم يدّخر أبو مسلم وُسعاً في تخليص الدولة له من أقربائه آل العباس أنفسهم وفي جملتهم عبد الله بن علي المتقدم ذكره وقد طمع بالخلافة فحاربه بأمر المنصور وغلبه وقبض على ما في عسكره من الغنائم والأسلحة، فأراد المنصور أن يوجه همه إلى بني الحسن منافسيه في الخلافة فاشتغل خاطره بأبي مسلم وأصبح خائفاً منه على سلطانه بعدما بلغ إليه من النفوذ والشهرة والدالّة، ولم يكن همه إلا قتله ليتفرغ للعلويين فاتهمه بأنه ينوي إخراج الملك منهم فاستحق القتل عملاً بوصية الإمام، وكان المنصور قد خاف أبا مسلم وعزم على قتله من عهد خلافة أخيه أبي العباس ولكن أبا العباس لم يرد الإقدام على ذلك، فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله ولكنه استخدمه في حرب عمه عبد الله بن علي فضرب عدوّيه أحدهما بالآخر فأيهما قتل صاحبه انفرد فيسهل على المنصور قتله، فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبد الله بن علي احتال المنصور في استقدامه إليه من خراسان في حديث طويل وأدخله عليه دخول الزائر الأمين وقد أكمن له

أُناساً بالسلاح وراء الستر فأخذ سيفه منه وحادثه وتدرج من العتاب إلى التوبيخ حتى إذا أزفت الساعة صفّق المنصور فخرج الكامنون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧هـ فأمر به فلفوه بالبساط ثم دعا بعض رجال خاصته وشاورهم في قتله ولم يقل لهم أنه قتله فقال له أحدهم: (إن كنت قد أخذت من رأسه شعرة فاقتله ثم اقتله) فأشار المنصور إلى البساط فلما رأى أبا مسلم فيه وتحقق موته قال: (عدّ هذا اليوم أول يوم من خلافتك).

ولما فرغ المنصور من أبي مسلم لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانيين لعلمه أنه ارتكب بقتله خطراً عظيماً فما لبث أن ثار عليه جماعة منهم يُعرفون بالراوندية وكادوا يفتكون به لو لم يُدافع عنه معن بن زائدة، فقتل الراوندية جميعاً ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة ثم عمد إلى تخليص الخلافة من آل علي فحارب محمد بن عبد الله وقتله. ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها منهم عمه عبد الله وكان أبو مسلم قد غلبه ولكنه لم يتمكن من قتله فاحتال المنصور في استقدامه بأمان بعثه إليه مع ولديه فجاء فحبسه عنده، ثم علم سرّاً أن ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته وكان والياً على الكوفة، فتجاهله وبعث إليه وقد دبر أمراً كتمه عن رجال بطانته، فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والإكرام ثم أخرج من كان في حضرته من الحاشية واستبقاه وحده وأقبل عليه وقال: (يا بن العم إني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله ولا أرى سواك مساعداً لي على حمل ثقله فهل أنت في موضع ظني بك وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي) فقال له عيسى: (أنا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع أمره ونهيه) فقال المنصور: (إن عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته واعتمد على ما بعضه يبيح دمه وفي قتله صلاح ملكنا فخذه إليك واقتله سراً) فأطاعه عيسى فسلم إليه عمه فمضى به إلى الكوفة، وأضمر المنصور أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص وسلّمه أعمامه أخوة عبد الله ليقتلوه به فيكون قد استراح من الاثنين معاً. أما عيسى فكأنه شك في نية المنصور والناس يومئذ يتهمون بعضهم بعضاً خوفاً من وصية الإمام فاستشار بعض ذوي مشورته فحذروه من عاقبة ذلك فحبس عمه ولم يقتله، ولما طلبه المنصور منه دفعه إليه حياً فقتله في بيت جعل أساسه على الملح.

وأمثلة ما أتاه المنصور من الدهاء والفتك في تأسيس دولته كثيرة وكان يعطي الأمان ثم ينكث، فلما قام محمد بن عبد الله العلوي في المدينة خافه المنصور كما تقدم فبعث إليه يعرض عليه الأمان ويعده خيراً فأجابه محمد: (أي أمان تعطيني أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله أم أمان أبي مسلم؟) وظل المنصور وأبو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما بالدهاء والفتك. وكان المنصور أيضاً قدوة لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بني أمية في الأندلس وقد فر من العراق فالشام إلى المغرب خوفاً من القتل فنصره رجاله وخصوصاً مولى له اسمه بدر سعى في تأييد سلطانه مثل سعي أبي مسلم في تأييد الدولة العباسية فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة وسجنه ثم أقصاه حتى مات وفعل نحو ذلك في رؤساء الأحزاب الذين نصروه.

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصروهم في تأييد دولتهم حتى صار الخلفاء أنفسهم يشيرون إلى ذلك إذا أعوزهم الاستدلال به، فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى في نصرة أخيه المأمون وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الأمين وكاد يذهب بدولته كتب الأمين إليه: (بسم الله الرحمن الرحيم اعلم أنه ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه إلا السيف فانظر لنفسك أو دع) وفي الواقع أن المأمون لما استتب له الأمر في الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل أبي مسلم فأهدى له خادماً كان رباه وأمره أن يسمّه ففعل.

وقد رأيت أن الدولة العباسية قامت بالفرس وغيرهم من الرعايا وفيهم الموالي وأهل الذمة وكانوا ناقمين على دولة بني أمية فنصروا أهل البيت انتقاماً منها والجمهور الأهم منهم الفرس.

الفرس والعرب قبل الإسلام

الفرس أهل سياسة وسلطان وقد أنشأوا الدول وساسوا الناس ووضعوا الأحكام من قديم الزمان. وضخمت دولتهم وقويت شوكتهم حتى حاربوا اليونان والرومان ونبغ فيهم القواد والعلماء والحكماء وترجموا كتب العلم والفلسفة وكان لهم شأن كبير في التاريخ القديم واشتهر فيهم فضلاً عن الأُسر المالكة والدهاقين والأساورة بيوتات شريفة. وكان في مملكة

فارس قبائل كثيرة من العرب يقيمون على حدودها بين النهرين في العراق والجزيرة وكانت لهم دولة عربية تحت رعاية الفرس وهم المناذرة في الحيرة. وجملة القول أن العرب كانوا يخدمون الفرس في أيام دولتهم قبل الإسلام كما خدم الفرس العرب في أيام دولتهم بعد الإسلام، وبعد ما لاقوه من ضغط بني أمية واحتقارهم كانوا ينتفضون فيحاربهم الأمويون ويبالغون في إهانتهم وظلمهم ويضربون مدائنهم بالمنجنيق ويقتلون أهاليها حتى أفنوا أكثر البيوتات القديمة ووجوه الأساورة الذين كانوا يأوون إلى اصطخر فلا لوم عليهم بعد ذلك إذا نصروا كل قائم على الدولة الأموية. على أنهم لم يفوزوا إلا بطلبها للعباسيين كما رأيت وكانوا يعدون ذلك فوزاً لأنفسهم تخلصاً من عصبية العرب عليهم وطمعاً في الرجوع إلى ما كانوا عليه من السلطة والشوكة.

استخدام الموالي الفرس

فلما قبض العباسيون على زمام الملك جعلوا عاصمة مملكتهم بين شيعتهم في العراق فأقاموا أولاً في الكوفة ثم في الهاشمية حتى بنى المنصور مدينة بغداد على دجلة فجعلوها دار الخلافة. وقرّبوا الموالي الفرس وخصوصاً أهل خراسان فجعلوهم بطانتهم ورجال دولتهم ولاسيما الذين حاربوا مع أبي مسلم في طلب الخلافة وأشهرهم خالد بن برمك جد الوزراء البرامكة فإنه كان من قواد جند أبي مسلم وشهد معه الوقائع وأبلى بلاءً حسناً في نصرة أهل البيت، فقدمه أبو العباس وولاه الوزارة ثم تولاها للمنصور وخدمه بعد مقتل أبي مسلم في محاربة الأكراد وكانوا قد تغلبوا على فارس وتوالت الوزارة في أعقابه إلى يحيى ابنه فجعفر ابنه وهو الذي نكب البرامكة على عهده، وكانت أمور الدولة ترجع إلى الوزراء يولون ويعزلون وإذا تولاها أحدهم ولى الأعمال رجالاً من أصحابه أو مريديه. فتغيرت الأحوال على أهل البلاد واطمأنت خواطرهم وتفرّغوا للعمل في التجارة أو الصناعة أو الزراعة ونسوا ما كانوا فيه من ضغط بني أمية واستبدادهم وأطلقت حرية العمل وحرية الدين وذهبت عصبية العرب ورتع الناس في بحبوحة الأمن. ولما استبد الأتراك في الدولة وضعفت شوكة الفرس بعد المأمون ظل الموالي من أصحاب النفوذ في دولة الخلفاء يعتمد عليهم الخليفة في أموره الخاصة والعامة

من الكتابة إلى القيادة ولم يعد التقدم فيهم للفرس بنوع خاص ولكنهم أصبحوا أخلاطاً منهم ومن سواهم وإنما تجمعهم كلمة الموالي ويتفانون في خدمة الخليفة أو الأمير.

أهل الذمة في العصر العباسي

لما أخذ الموالي الفرس في تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها أحسوا بافتقارهم إلى من يعينهم على ذلك من أهل الذمة في العراق والشام وكانوا أهل معرفة في الحساب والكتابة والخراج فضلاً عن العلوم فأطمعوهم بالرواتب والجوائز وسهّلوا لهم أسباب المعيشة وقرّبوهم وأكرموهم، فاطمأنوا لتلك الدولة وتقاطروا إلى بغداد وخدموا العباسيين بعقولهم وأقلامهم بما آنسوه من تسامحهم وإطلاق حرية الدين لهم فاستخدمهم العباسيون في دواوينهم وولوهم خزائنهم وضياعهم.

وسرى ذلك الاعتدال والتسامح في الدين إلى الدولة الفاطمية بمصر وكان لأهل الذمة فيها شأن عظيم فتقلّد الوزارة أو الكتابة (وهي كالوزارة في مصر) غير واحد منهم وقويت شوكتهم في الدولة فاستوزر العزيز بالله الفاطمي رجلاً نصرانياً اسمه عيسى بن نسطوروس وآخر يهودياً اسمه منشا فعزّ النصارى واليهود في أيامهما. وكان الخلفاء في صدر الدولة العباسية يكرمون الأساقفة ويجالسونهم، فالهادي كان يستدعي إليه الأسقف تيموثاوس في أكثر الأيام ويحاوره في الدين ويبحث معه ويناظره ويطرح عليه كثيراً من المشكلات وله معه مباحث طويلة ضمنها كتاباً ألفه الأسقف المذكور في هذا الموضوع وكذلك كان يفعل معه هارون الرشيد.

اضطهاد أهل الذمة في العصر العباسي

على أن ذلك لم يمنع من تضييق بعض الخلفاء على النصارى فإن الملوك المستبدين تختلف سياستهم باختلاف أخلاقهم وأطوارهم فقد يتراءى لبعضهم التضييق على النصارى لسبب أو لغير سبب كما فعل هارون الرشيد والمتوكل من خلفاء بني العباس، فالمتوكل المتوفى

سنة ٢٤٧هـ كان شديد الوطأة على النصارى ولعله أشد الخلفاء العباسيين وطأة عليهم لأنه أمر بهدم الكنائس المحدثة بعد الإسلام ونهى أن يستعان بهم في الأعمال أو أن يظهروا الصلبان في شعائر دينهم وأمر أن يجعل على أبوابهم صور شياطين من الخشب وأن يلبسوا الطيالسة العسلية ويشدوا الزنار ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين في مؤخر السرج وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب قدر كل واحدة أربع أصابع ولون كل واحدة غير لون الأخرى ومن خرجت من نسائهم تلبس إزاراً عسلياً ومنعهم عن لبس المناطق وغير ذلك.

ولا يُستغرب هذا التضييق من المتوكل فإنه نقم مثل هذه النقمة على سائر أهل الدولة وغيرهم وشدد النكير على الشيعة وأهلك العلماء والكتاب. وكان شديد التعصب على الشيعة فاضطهدهم وعذبهم ولاقى أهل الذمة منه الشدائد. ويقال نحو ذلك في ما صدر في أيام الرشيد من الأوامر بهدم الكنائس في الثغور وأخذ أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم. وهكذا يقال في اضطهاد النصارى بمصر على عهد الدولة الفاطمية مع ما تقدم من منزلتهم وحرية الدين عندهم، وأقدم ما قاسوه من تضييق الحكام في طقوسهم وكنائسهم في أيام الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ. وسبب ذلك ما ذكرناه من تقدم النصارى في مصالح الدولة في أيامه حتى صاروا كالوزراء وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم فتزايدت مكايدتهم للمسلمين على عهد عيسى بن نسطوروس وفهد بن إبراهيم فغضب الحاكم بأمر الله. وقد سوّغ للحاكم المبالغة في اضطهاد النصارى حرب كانت بين الروم والمسلمين يومئذ فأخرب الروم بعض جوامع المسلمين ومنها جامع كان لهم في القسطنطينية فانتقم الحاكم منهم بالتضييق على أهل مذهبهم في بلاده. على أن أفظع ما قاساه النصارى واليهود من الاضطهاد إنما كان في دور الانحطاط أو التقهقر في الأجيال الإسلامية الوسطى وخصوصاً بعد الحروب الصليبية لأنها كانت سبباً كبيراً في إثارة التعصب بين الأمتين. فالنصارى تذكروا تقدم المسلمين عليهم واضطهاد حكامهم لدينهم وزاد حقد المسلمين على رعاياهم النصارى لما كان من نصرتهم الإفرنج سراً فبالغ أمراء المسلمين في الفتك بهم. فنصارى (قارا) مثلاً بين دمشق وحمص كانوا يسرقون المسلمين في أثناء تلك الحرب ويبيعونهم خفية من الإفرنج فلما مرّ بها السلطان الملك الظاهر في أثناء عودته من بعض غزواته سنة

٦٦٤هـ أمر بنهب أهلها وقتل كبارهم واتخذ صبيانهم مماليك فتربّوا بين الأتراك في الديار المصرية فصار منهم أجناد وأمراء. وتزايدت الضغائن بعد تلك الحروب بين المسلمين وأهل الذمة في بلادهم حتى أصبحت كل من الطائفتين تبذل جهدها في أذى الأخرى ولما كانت الحكومة إسلامية فالنصارى هم المغلوبون، فإذا احترقت مادة للمسلمين اتهموا النصارى واليهود بإحراقها فتأمر الحكومة بإحراقهم أو إحراق كنائسهم وهذا التعصب من مقتضيات تلك العصور المظلمة لأن الدول النصرانية كانت تعامل المسلمين في بلادهم مثل هذه المعاملة أو أشد منها، وكثيراً ما كانوا يهددون أسرى المسلمين بالقتل أو يتنصّروا وإذا دخلوا بلداً إسلامياً بالحرب عنوة ضربوا نواقيسهم في الجوامع ولما تغلّب نصارى الأندلس على المسلمين أجبروهم على حمل علامة كان يحملها اليهود وأهل الدجن ولما غلبوهم في آخر الدولة خيّروهم بين النصرانية والموت فتنصّروا عن آخرهم. على أن المسلمين إبان تمدنهم أطلقوا حرية الدين لرعاياهم على اختلاف طوائفهم ونحلهم فلم يسمع أنهم أكرهوا طائفة من الطوائف على الإسلام تعصباً للدين، وبالجملة فقد كانت الحرية المطلقة في الأفكار والمعتقدات الدينية في تلك العصور فلا يكره الرجل على معتقده أو مذهبه فربما اجتمع عدة أخوة في بيت واحد وكل منهم على مذهب، فأولاد أبي الجعد ستة كان منهم اثنان يتشيعان واثنان مرجئان واثنان خارجيان.

العصبية العصر العباسي وسياسة التقسيم

على أن المنصور كان همّه منصرفاً إلى العرب لأنهم أهل عصبية إذا اجتمعوا تغلبوا على الدولة وفعلوا ما أرادوه لما يعلمه من جرأتهم في طلب الحق وتقبيح الظلم جهاراً ولا يحملون ضيماً وهو كما علمت بما ارتكبه في تأسيس دولته من الغدر والفتك مما لا تصبر عليه النفوس الأبية. وقد زاده حذراً منهم ما كان يسمعه من أقوالهم الدالة على رفضهم للضيم ولو كان فيه ما يسوئه كما اتفق له وهو في بعض حجاته وكان يطوف بالكعبة ليلاً إذ سمع قائلاً يقول: (اللهم أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع) فخرج المنصور إلى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله فطلب أن يؤمنه حتى يقول الحق، فأمنه فقال له: (إن الذي حال بين الحق وأهله هو أنت يا أمير المؤمنين) فقال المنصور: (ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي) فقال الرجل: (لأن الله تعالى استرعاك المسلمين وأموالهم فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحجاباً معهم الأسلحة وأمرتهم أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعاري ولا الضعيف والفقير وما أحد إلا وله من هذا المال حق ..).

فهذا وأمثاله نبّه المنصور لجرأة العرب فجعل يفكر في إذلالهم ويستنبط له الحيل، وكان المهدي بن المنصور قد جاء من خراسان فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها فهنأوه بمقدمه فجازاهم وكساهم وفعل المنصور بهم مثل ذلك فقال قثم للمنصور: (وقد بقي عليك بالتدبير بقية وهي أن تعبر بابنك (المهدي) فتنزله في ذلك الجانب من بغداد وتحول معه قطعة من جيشك فيصير ذلك بلداً وهذا بلداً فإن فسد عليك أولئك ضربتهم بهؤلاء وإن فسد عليك هؤلاء ضربتهم بأولئك وإن فسد عليك بعض القبائل ضربتهم

بالقبائل الأخرى) فقبل رأيه واستقام ملكه وبنى المهدي بلداً سماه الرصافة فاستعان المهدي في استبقاء دولته بسياسة التقسيم.

ومازال شأن العرب يضعف في الدولة العباسية تدريجاً وحزب الفرس يقوى حتى أصبحت الدولة في أيام الرشيد بين عاملين كبيرين أحدهما فارسي والآخر عربي كل منهما يحاول الاستئثار بالسلطة.

ذهاب عصبية العرب بذهاب دولة الأمين

وكان المأمون فضلاً عن نسبه الفارسي من أمه قد تربّي في حجر جعفر بن يحيى البرمكي وهو الذي سعى له في ولاية العهد ورباه على حب الفرس، والفضل بن الربيع سعى في تأييد بيعة الأمين. ولما توفي الرشيد بعد مقتل البرامكة كان الفضل بن الربيع هو الذي حمل الأمين على نقض بيعة المأمون واختلف الأخوان على البيعة وكان المأمون عند أخواله بخراسان والأمين في أهله ببغداد ونشب القتال بين الفريقين وهو قتال بين الفرس والعرب لأن العرب في معظم المملكة العباسية كانوا من حزب الأمين. وقد نصر الخراسانيون ابن أُختهم المأمون بتدبير الفضل بن سهل، وكان الأمين يحرض جنده في بغداد بمشورة الفضل بن الربيع، وكان العرب من الجند العباسي قد أنهكتهم الحضارة والترف وتبددوا بسياسة التقسيم فلم يستطيعوا دفاعاً، فلما ضاق الحال بالأمين ولم يبق عنده مال للتجنيد استنجد رعاع أهل بغداد وفيهم العيارون والشطار وكانوا طوائف كبيرة. وأمر بعض قواده أن يتتبعوا أصحاب الأموال والودائع والذخائر من أهل الملة وغيرهم فلم يزده ذلك إلا ضعفاً، وانقضت تلك الحروب بفوز المأمون، فلما أفضت الخلافة إلى المعتصم سنة ٢١٨هـ وقد جمع ما جمعه من الأتراك والفراعنة كانت الضربة القاضية على العرب في الدولة العباسية لأنه كتب إلى عماله في الأطراف بإسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم ففعلوا وهم يستعيذون بالله من ذلك وانحطّ شأن العرب من ذلك الحين ومنعوا من الولايات، وآخر من ولي مصر منهم عنبسة بن إسحاق صرف عنها سنة ٢٤٢هـ فتمكن الفُرس من الدولة.

نكبة الوزراء الفرس

الوزراء الفرس قبل البرامكة

لما انتقلت البيعة من العلويين إلى العباسيين وبويع هؤلاء بالخلافة ثم جعلها المنصور محصورة فيهم دون العلويين وقاتل آل الحسن وقتلهم بعد أن قتل أبا مسلم وغيره من شيعته لم يرَ الفرس بداً من الرضوخ لسلطانه خوفاً من بأسه. على أنهم ظلوا على مذهب الشيعة وتربصوا يتوقعون فرصة يثبون بها على الدولة أو يقيمون لأنفسهم دولة شيعية.

وكان الخلفاء يلاحظون ذلك ويحاذرون الوقوع فيه فيستخدمون الفرس في أكبر مصالح الدولة على حذر، فإذا رأوا من أحدهم ميلاً إلى التشيع عزلوه أو قتلوه. ولذلك كان الوزراء يكتمون تشيعهم والخلفاء يبثون عليهم العيون في منازلهم.

الوزراء البرامكة

مرتبهم في الدولة

ولما توفي المهدي والهادي وأفضت الخلافة إلى الرشيد استوزر البرامكة لأن خالداً جدهم من قواد أبي مسلم وقد جاهد في نصرة العباسيين جهاداً حسناً فاستوزره أبو العباس واستعمله المنصور في الحروب كما تقدم، وكان خالد كبير العقل واسع الصدر لم يبلغ أحد من ولده مبلغه في الجود والرأي والبأس والعلم، واشتهر ابنه يحيى بوفور العقل وسداد الرأي وكان مقرباً من المهدي يعوّل على رأيه، وولد ليحيى سنة ١٤٨هـ غلامه الفضل قبل ولادة الخيزران للرشيد بسبعة أيام وربى الطفلان معاً فأرضعت الخيزران الفضل من لبن ابنها فكان الفضل بن يحيى أخا الرشيد من الرضاعة وفي ذلك يقول سلم الخاسر:

أصبح الفضل والخليفة هارو***ن رضيعي لبان خير النساء

ولما ترعرع هارون عَهَد المهدي بتربيته إلى يحيى فشبّ الرشيد في حجره وكان يدعوه (يا أبت) فلما مات المهدي سنة ١٦٩هـ في جرجان كان أكبر رجال الدولة المقربين يومئذ يحيى بن خالد والربيع بن يونس. وخاف الرشيد اختلال الأمر إذا علم الناس بموت أبيه وهم في تلك الحال فاستشار يحيى فأشار عليه برأي كان فيه الصواب حتى رجعوا إلى بغداد وقد هاج

الناس وفيها الخيزران أم الهادي والرشيد فبعثت إلى الربيع ويحي لتشاورهما فأجابها الربيع ولم يجبها يحي لما يعلمه من غيرة الهادي عليها. فسرّ الهادي من تصرف يحي وشكره وأوصاه أن يقوم بأمر الرشيد كما كان في أيام أبيه ووبّخ الربيع، وأول شيء خطر للهادي بعد قبضه على أزمة الخلافة أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد ويحول الإرث إلى ابنه لتبقى الخلافة في نسله كما كان يفعل معظم الخلفاء في مثل هذه الحال، فأعلن الهادي عزمه لبعض خاصته فوافقوه وخلعوا هارون وبايعوا جعفر بن الهادي وتنقصوا من الرشيد في مجلس الجماعة، فأمر الهادي أن لا يسار بين يديه بالحربة على جاري العادة في المسير بين يدي ولي العهد فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه ورضي هو بذلك ولكن يحي لم يرض بل حرّضه على التمسك بحقه في ذلك فوشى بعضهم إلى الهادي أن يحي يفسد الرشيد عليه فبعث الهادي إلى يحي فقال له: (يا يحي مالي ولك) قال: (ما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته) فقال: (لم تدخل بيني وبين أخي وتفسده عليّ؟) فقال: (من أنا حتى أدخل بينكما إنما صيرني المهدي معه ثم أمرتني أنت بالقيام بأمره فانتهيت إلى أمرك) فطابت نفس الهادي بهذا القول، فاغتنم يحي رضاءه وقال: (يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد للبيعة) قال: (صدقت) وصرفه.

فلما لقي الهادي القواد الذين خلعوا الرشيد حملوه على معاودة الخلع فبعث إلى يحي فحبسه فكتب إليه يحي وهو في الحبس: (إن عندي نصيحة) فلما حضره وسأله عما عنده فقال يحي: (يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان الأمر الذي لا نبلغه ونسأل الله أن يعدمنا قبله . يعني صوت الهادي . أتظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الرشد أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم؟) قال: (ما أظن ذلك) قال: (يا أمير المؤمنين أفتأمن أن يسمو إليها أكابر أهلك مثل فلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك. والله إن هذا الأمر لو لم يعقده المهدي لأخيك لقد كان ينبغي أن تعقده أنت له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي ولكنني أرى أن تقرأ الأمر على أخيك فإذا بلغ أشده أتيت بالرشيد فخلع نفسه له وبايعه) فقبل الهادي قوله وعمل به.

وتوفي الهادي ولم يحكم إلا سنة وأفضت الخلافة إلى الرشيد ويحيى أول من بشّره بها وأتاه بالخاتم وهو نائم فعرف الرشيد فضله في ذلك وقال له: (يا أبت أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك وقد قلّدتك الأمر) ودفع إليه خاتمه وجعل إصدار الأمور وإيرادها إليه وكان يعظّمه فإذا ذكره قال (أبي). وخلف يحيى أولاداً أحسنهم الفضل في جوده ونزاهته وجعفر في كتابته وفصاحة لسانه ومحمد في بُعد همته وموسى في شجاعته وبأسه. وقد تولوا أرفع المناصب وتصرفوا في الدولة وخصوصاً جعفر والفضل، فضلاً عما اشتهروا به من الجود والسخاء وكان أبوهم يحيى جواداً مثلهم فشقّ الناس من اسمهم فعلاً للسخاء فقالوا: (تبرمك الرجل) أي جاد وسخا، وأراد الرشيد إكرام يحيى فولى ابنيه الفضل وجعفر أعظم الأعمال فقسّم المملكة بينهما فجعل جعفرَ عاملاً على الغرب كله من الأنبار إلى أفريقية وقلّد الفضل الشرق كله من شيروان إلى أقصى بلاد الترك فشخص الفضل إلى خراسان سنة ١٧٦هـ فجعلها مركز عمله وأزال سيرة الجور منها وبنى المساجد والحياض والربط وأحرق مراكز البغايا وزاد الجند ووصل الزوار والقواد والكتّاب لكنه لم يقم فيها إلا قليلاً فاستخلف على عمله وشخص إلى العراق سنة ١٧٩هـ. وتمكّن جعفر عند الرشيد وغلب على أمره وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه حتى اتخذ الرشيد ثوباً له زيقان فكان يلبسه هو وجعفر جملة، وكان يكره الشيعة منذ صباه وهم يخافونه من قبل الخلافة، فلما تولى الخلافة أمر بإخراج الطالبيين جميعاً من بغداد إلى المدينة.

واشتهر بذلك حتى أصبح الشعراء يتقرّبون إليه بهجائهم، وكان شعراء العلويين يهجونه لهذا السبب وهم لا يجسرون على الظهور في حياته فلما مات ودُفن في طوس قال دعبل بن علي . يعرض بما ارتكبه العباسيون جميعاً بقتل العلويين . قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد وأشار إلى اجتماع القبرين في طوس قبر الرشيد وقبر الرضا (عليه السلام) قال:

وليس حي من الأحياء نعلمه***من ذي يمان ومن بكر ومن مضرِ

إلا وهم شركاء في دمائهم***كما تشارك ايسار على جزر

قتل وأسر وتحريق ومنهبة***فعل الغزاة بأرض الروم والخزر

أرى أمية معذورين إن قتلوا***ولا أرى لبني العباس من عذر

إربع بطوسٍ على القبر الزكي إذا***ما كنت تربع من دير إلى وطر

قبران في طوس خير الناس كلهم***وقبر شرّهم هذا من العبر

ما ينفع الرجس من قرب الزكيّ ولا***على الزكي بقرب الرجس من ضرر

هيهات كل امرئٍ رهن بما كسبت***له يداه فخُذ ما شئت أو فذر

وكان البرامكة يكرهون تعصب الرشيد على العلوية ويعدون عمله حراماً ويكظمون، على أنهم كانوا يساعدون الشيعة سراً بما يبلغ إليه إمكانهم وكان كبارهم يجتمعون إلى جعفر وجيه البرامكة يومئذ وصاحب الصوت الأعلى عند الرشيد ويذكرون أعمال الرشيد وجعفر يحاذر أن يبلغ ذلك إليه ولكن حسّاده في بلاط الخليفة وأكثرهم من العرب أو من ينتمي إليهم كانوا يسعون به إلى الرشيد وأشدهم غيظاً منه وأقدرهم على الكيد به زبيدة أم الأمين لأنه فضّل ابن ضرتها (المأمون) على ابنها.

الشيعة العلوية في العصر العباسي

وكان الخراسانيون ومن والاهم من أهل طبرستان والديلم قبل العباسيين من شيعة علي (عليه السلام) وإنما بايعوا للعباسيين مجاراة لأبي مسلم أو خوفاً منه. فلما رأوا ما حلّ به من القتل غدراً غضبوا وتعاقدوا على الأخذ بثأره ثم رأوا المنصور فتك بالراوندية إخوانهم وهم من أصحاب أبي مسلم ثم بنى بغداد وتحصّن فيها فتربصوا وإذا هو قد حارب العلويين وبطش فيهم وفرّ من بقي من ولد علي (عليه السلام) إلى أطراف المملكة الإسلامية في خراسان والمغرب وأخذوا يبثون دعاتهم وينشرون دعوتهم سراً فكان الخراسانيون من أقوى أنصارهم انتقاماً من المنصور لقتله أبي مسلم وعملاً بتعاقدهم عليه، واتفق أن نكث هارون عهد بعض الشيعة وأمر بعض بني برمك بحبسه، ثم إن البرمكي أطلقه لما كان يرى من أن الشيعي مظلوم فلما علم الرشيد بذلك أضمر الغدر ببني برمك. وبعث الرشيد خادمه مسروراً ليأتيه برأس جعفر فذهب إليه وقتله كما هو مشهور. ووجه الرشيد من أحاط بأبيه يحيى وسائر أولاده وبأخيه الفضل ليلاً فحبسهم وقبض ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك وأرسل إلى سائر البلاد يقبض على أموالهم ووكلائهم ورقيقهم وأسبابهم ولم يتعرّض لمحمد بن خالد لأنه كان من جملة الساعين بهم وأسند الوزارة بعدهم إلى الفضل بن الربيع عدوهم، ثم ندم الرشيد على قتل البرامكة وكان إذا ذكرهم بكى وقد أصاب جعفر من الرشيد ما أصاب بزرجمهر وزير كسرى ابرويز إذ اتهمه كسرى بالزندقة فقبض عليه وقتله ثم ندم على قتله.

فالرشيد فتك بالبرامكة لأنه خافهم على سلطانه فعمل بسياسة العباسيين في تأييد دولتهم، إذ اتهم جعفر وشك فيه فقتله، أما العلويون فكان لا يخاف الله فيهم ولا في من يدعو إليهم أو ينصرهم.

الأمين والمأمون أو العرب والفرس

لما قتل البرامكة على هذه الصورة غضب أهل خراسان وتضاعفت نقمتهم على الدولة العباسية وتعاقدوا على الأخذ بثأر أبي مسلم والبرامكة وتربصوا يترقبون الفرص، وتوجهت آمالهم إلى المأمون لأن أمه فارسية وقد شب في حجر جعفر البرمكي على الميل إلى الشيعة العلوية، فمات الرشيد والمأمون في خراسان.

الفضل بن سهل وعلي الرضا (عليه السلام)

فلما بلغ المأمون موت أبيه خاف على نفسه فجمع خاصته بمرو وشاورهم في الأمر وأظهر لهم ضعفه وأنه لا يقوى على أخيه فساعدوه ووعدوه خيراً. وقال له الفضل بن سهل: (أنت نازل في أخوالك وبيعتك في أعناقهم اصبر وأنا أضمن لك الخلافة) فاطمأن خاطر المأمون بهذا الوعد الصريح وقال له: (قد صبرت وجعلت الأمر إليك فقم به) وسماه ذا الرئاستين أي رئاسة السيف ورئاسة القلم.

فبذل الفضل جهده في نصرة المأمون لأنه إنما يعمل لنفسه ووطنه وأمته واستمال الناس وضبط الثغور، وتعاظمت العداوة بين الأخوين الأمين والمأمون وقطعت الدروب بينهما من بغداد إلى خراسان وأبطل كل منهما اسم أخيه من الخطبة وتجردت الجيوش وحدثت معارك هائلة فاز فيها جند المأمون وهم الفرس بقيادة طاهر بن الحسين وانتهت الحرب بفتح بغداد وقتل الأمين سنة ١٩٨هـ وقد حملوا رأسه إلى المأمون في خراسان. ثم إن المأمون بايع لعلي الرضا (عليه السلام) سنة ٢٠١هـ وجعله الخليفة بعده ولقبه (الرضا من آل محمد) وأمر جنده بطرح السواد لباس العباسيين ولبس الخضرة وكتب بذلك إلى الآفاق ثم إن المأمون غدر بفضل بن سهل فدسّ إليه أناساً قتلوه في الحمام بسرخس مغافصة ثم حاكمهم على قتله وقتلهم به، وفكر في بيعة علي الرضا (عليه السلام) فأعظم أن يرجع عنها وخاف إذا رجع أن يثور عليه أهل خراسان ويقتلوه فعمد إلى سياسة الفتك فدسّ إليه من أطعمه عنباً مسموماً فمات. ودفعاً للشبهة في ما اشتهر به من حب آل أبي طالب فإنه اضطهدهم ومنعهم من الدخول عليه وأمرهم بلبس السواد فاضطرب أمر الشيعة في بغداد مع بقاء النفوذ للفرس وهم يكتمون تشيعهم إلى آخر خلافة الواثق فلما تولى المتوكل سنة ٢٣٢هـ اضطهد الشيعة وشدد النكير عليهم لأنه كان قد ربي من حداثته بين جماعة أهل عصبية عربية

يكرهون الفرس أو الشيعة. فلما تولى المتوكل أمر بهدم قبر الحسين بن علي (عليه السلام) وهدم ما حوله من المباني ومنع الناس من إتيانه وبالغ في بغضه عليّاً وأهل بيته حتى جعله سخرية، ذكروا أنه كان في جملة ندمائه مخنث اسمه عبادة كان يشدّ على بطنه تحت ثيابه مخدة ويكشف رأسه وهو أصلع تشبهاً بالإمام علي ويرقص ويقول: (قد أقبل الأصلع البطين خليفة المسلمين) يعني علياً (عليه السلام) والمتوكل يشرب ويضحك وغلبت السنّة في الدولة من ذلك الحين وقوامها الأتراك، وبذهاب أمر الشيعة من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها وبخلافة المتوكل ينقضي العصر الفارسي الأول.

الأسرار في الدولة العباسية

واشتهر بنو العباس على الخصوص بحفظ الأسرار والتكتم فيما ينوونه وكانوا يفرضون ذلك على مواليهم ورجال بطانتهم ولاسيما في ما يحتاجون إليه لتثبيت دعائم دولتهم، فربما كان خادم الرجل أو جاريته عيناً عليه وقد يقيم الخليفة الجواسيس والرقباء على أولاده أو أخوته أو يقيم ولاة العهد الرقباء على آبائهم كما فعل الأمين والمأمون بأبيهم الرشيد فقد كان رقيب المأمون على أبيه مسروراً الخادم ورقيب الأمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب وكانوا يحصون أنفاسه، وبمحافظتهم على الأسرار والتكتم في أعمالهم أشكل على الناس كثير من الحوادث التي جرت في أيامهم ولم يفهموا أسبابها، فنكبة البراكمة مثلاً تكهّن المؤرخون في تدوينها رجماً بالغيب وذهبوا في أسبابها كل مذهب، وكم من قتيل لم يعرف قاتله فحسبوه مات من أكلة عنب أو تمر أو غير ذلك وإنما قتل مسموماً بدسيسة بعض الخلفاء أو القواد أو ولاة العهد إلى طبيبه أو صاحب داره.

اختلاط الأنساب بعد الإسلام

قد رأيت ما كان للعرب من العناية في حفظ أنسابهم حتى كانوا يحتقرون من لم يكن مولوداً من أبوين عربيين فإذا كان أبوه غير عربي سموه المذرّع أو كانت أمه أعجمية سموه الهجين. وإذا كانت أمه أمة استعبدوه فإذا أنجب اعترفوا به وإلا ظل عبداً. أما بنو أمية فظلوا على احتقارهم بني الإماء إلى أواخر دولتهم وكانوا لا يستخلفونهم وقالوا لا يصلح لها إلا العرب. على أن طبيعة العمران غلبت على ما أراده الأمويون من حفظ النسب العربي وقضى الاختلاط بالأعاجم باختلاط الأنساب حتى في الخلفاء من بني أمية فبايعوا في أواخر دولتهم لأبناء الإماء. وأول من تولى الخلافة من الخلفاء الهجناء يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦هـ.

أما بنو العباس فقامت دولتهم بالموالي وقد ضعفت في أيامهم العصبية العربية لكثرة الاختلاط فأصبحوا لا يعتدّون بالأم على الإطلاق وكان أكثر خلفائهم من بني الإماء حتى أصبحت العصبية العربية تُنسب إلى البلاد، فأهل الشام ومصر والعراق والمغرب مثلاً يعدون من العرب وهم بالحقيقة أخلاط من العرب والترك والديلم والجركس والروم والفرس والأرمن والكرج وغيرهم ولكن الرجل إذا نزل بعض هذه البلاد عدَّ في بادئ الرأي غريباً، فإذا قطنها وتناسل فيها كان أولاده مولدين فإذا توالت عليهم الأجيال سمّوا عرباً.

العصر التركي الأول

من خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ إلى تسلط الديلم سنة ٣٣٤هـ

نريد بهذا العصر المدة التي استبدّ فيها الأتراك بالدولة العباسية وهم الأجناد تمييزاً له عن العصر العباسي الفارسي الذي استبد فيه الفرس وهم الوزراء، ليس بين العصرين حد فاصل ينتهي إليه الواحد ويبتدئ منه الآخر بل هما تعاصرا مدة من الزمن والترك أمة قديمة جداً. ولما ظهر الإسلام وانتشر العرب في أنحاء العالم وطأت حوافر خيولهم بلاد الترك وهم يعبرون عنها بما وراء النهر ففتحوا بخارى وسمرقند وفرغانة واشروسنة وغيرها من تركستان. ولما تولى العباسيون كانت تلك المدن خاضعة للمسلمين يؤدون عنها الجزية والخراج وكانوا يحملون في جملة الجزية أولاداً من أهل بادية تركستان يبيعونهم بيع الرقيق وهم في الغالب من السبي أو الأسرى على جاري العادة في تلك العصور، فضلاً عمن كان يقع منهم في أيدي المسلمين في أثناء الحروب بالأسر أو السبي ويعبرون عنهم بالمماليك ويفرقونهم في بلاط الخلفاء ومنازل الأمراء، فأخذوا يدينون بالإسلام.

المعتصم والأتراك

أول من استخدم الأتراك في الجندية من الخلفاء المنصور العباسي ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لا شأن لها في الدولة وإنما كان الشأن الأكبر يومئذ للخراسانيين (الفرس) والعرب. ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في أيام الرشيد وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الأمين وتسلط الفرس أنصار المأمون وأخواله واستبدوا في الدولة كانت الحضارة قد أضرت بالمسلمين وأذهبت منهم قوة التغلّب والفتح، ففكّر المعتصم أخو المأمون في ذلك قبل أن تفضي الخلافة إليه وكانت أمه تركية وفيه كثير من طبائع الأتراك مع الميل إليهم لأنهم أخواله كما كان يميل المأمون إلى الفرس. وشاهد المعتصم من جرأة الفرس وتطاولهم بعد قتل الأمين حتى أصبح

يخافهم على نفسه، ولم يكن له ثقة بالعرب وقد ذهبت عصبيتهم وأخلدوا إلى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم فرأى أن يتقوى بالأتراك وهم لا يزالون إلى ذلك العهد أهل بداوة وبطش مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش، فجعل يتخيّر منهم الأشداء. فلما أفضت الخلافة إليه كان الأتراك عوناً له وتكاثروا حتى ضاقت بغداد بهم وصاروا يؤذون العوام في الأسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك أذىً كثيراً وربما رأوا الواحد بعد الواحد قتيلاً في قارعة الطريق، فاتفق أن المعتصم خرج بموكبه يوم عيد فقام إليه شيخ فقال له: (يا أبا إسحاق) فأراد الجند ضربه فمنعهم وقال: (يا شيخ ما لك؟) قال: (لا جزاك الله عن الجوار خيراً جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا وقتلت رجالنا) والمعتصم يسمع ذلك فدخل منزله ولم يُرَ راكباً إلى مثل ذلك اليوم فخرج فصلّى بالناس العيد ولم يدخل بغداد بل سار يلتمس معسكراً لأجناده حتى أتى سامرّاء فاتخذها معسكراً فأعجبته وسماها (سرَ من رأى) واختط فيها الخطط وأقطع أتراكه القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم في بلادهم وأفرد أهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار، فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه وتسامع الناس أن دار الملك قد انتقلت إلى هناك فقصدوها وجهّزوا إليها من أنواع الأمتعة وسائر ما ينتفع به الناس فكثر العيش واتسع الرزق. وما زالت سامرّاء قاعدة الدولة العباسية من سنة ٢٢١هـ إلى أيام المعتمد فعاد إلى بغداد سنة ٢٧٩هـ. وهو أول من عاد إليها منذ بنيت سامراء.

الجند التركي ومصالح الدولة

فاشتد ساعد الأتراك بذلك وقويت شوكتهم وغلبوا على أمور الدولة وخصوصاً بعد أن أنقذوا المملكة من بابك الحزمي وفتحوا عمورية ونصروا الإسلام فتحوّل النفوذ إليهم، وبعد أن كانت أمور الدولة في قبضة الوزراء الفرس أصبحت في أيدي القواد الأتراك أو صار النفوذ فوضى بين الوزراء والقوّاد.

أما استبدادهم في بلاط الخلفاء فابتدأ في أيام المتوكل لأنه لما تولى الخلافة سنة ٢٣٢هـ وكان ما كان من كره الشيعة واستبداده فيهم زاد في تقديم الأتراك ورعايتهم فزاد طمعهم في

الدولة، ثم أغراهم ابنه المنتصر (أو هم أغروه) على قتله فقتلوه وكان ذلك أول جرأتهم على الخلفاء، وولوا المنتصر بعده ولم تطل مدة حكمه أكثر من بضعة أشهر فمات وضميره يوخزه، وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨هـ. ثم المعتز بالله سنة ٢٥١هـ وقد استفحل أمر الأتراك استفحالاً عظيماً، ومما يحكى عن استبدادهم في الخلفاء أنه لما تولى المعتز قعد خواصه وأحضروا المنجّمين وقالوا لهم: (انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة؟) وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال: (أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته) فقالوا له: (فكم تقول إنه يعيش وكم يملك؟) قال: (مهما أراد الأتراك) فلم يبق في المجلس إلا من ضحك.

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة فإنهم جروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس بالدار فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر وبعضهم يلطمه بيده، والمستكفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس، وبلغ من فقر القاهر بالله أنهم حبسوه وهو ملتف بجبة قطن وفي رجله قبقاب خشب، فلا غرو إذا أصبح الخلفاء آلة في أيدي الأتراك إذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب، وبعد أن كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم فلما تقدم الأتراك في الدولة العباسية وعلم إخوانهم في بلادهم بذلك تقاطروا مئاتٍ وألوفاً يطلبون الارتزاق بالجندية ورغبوا في الإسلام وجعلوا يدخلون فيه بالألوف وعشرات الألوف، فقد أسلم منهم سنة ٣٥٠هـ ٢٠٠,٠٠٠ خركاه دفعة واحدة و(الخركاه) الخيمة، ولا يقل أهل الخيمة الواحدة عن خمسة أنفس فعدد الذين أسلموا في هذه الدفعة نحو مليون نفس، وأسلم سنة ٤٣٥هـ ١٠,٠٠٠ خركاه من أهل بلاساغون وكاشغر دفعة واحدة وضحّوا عشرين ألف رأس غنم. ولما استولى الديلم على بغداد في أيام بني بويه توالت الحروب بين الترك والديلم وغلمان الخلفاء أو الموالي، وما من دولة قامت في ذلك العصر إلا استخدمت الأتراك في جندها سواء كانت شيعية أو سنية. فكانوا يحملون إلى بغداد أو غيرها من المدائن الإسلامية تباعاً وقلما يتوالدون فيها ولذلك كانوا يتفاهمون بالتركية وقد يتعلمون العربية ولا يتكلمونها تكبراً.

الخدم ونفوذهم في الدولة العباسية

أقدم من سمعنا به من الخدم النابغين في الدولة العباسية مسرور خادم الرشيد ولم يكن له شأن كبير، وأول من قرّب الخدم واستكثر منهم الأمين بن الرشيد فلما تولى الخلافة طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم فصيّرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه وعيّن منهم جماعة سمّاهم الجرادية وجماعة من الحبشان سماهم الغرابية. ولم يقرّب الأمين الخدم لحمايته أو سياسة دولته ولكنه فعل ذلك انهماكاً في الترف والقصف، فازداد الخدم نفوذاً وسطوة حتى أصبح الأتراك يخافونهم وقد ارتقى كثيرون منهم في العصر التركي من الخدمة في المنازل إلى قيادة الجند أو الإمارة على الأقاليم.

ولما تكاثر الخدم في دور الخلفاء جعلوهم طبقات وفرقاً تُعرف بأسماء خاصة وفيهم الرومي والتركي والحبشي والأرمني والسندي والبربري والصقلبي في فرق أشبه بفرق الجند ولهم الرواتب والجواري. وربما بلغ عدد الخدم عند بعض الأمراء إلى خمسمائة غلام أو ألف أو أكثر فغلمان بغا الشرابي أحد قواد الأتراك بلغ عددهم ٥٠٠ وزاد عدد غلمان يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر على ٤٠٠٠.

القواد والوزراء من الخدم

وأول من استكثر من الخدم وقرّبهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله فقد تولى سنة ٢٩٥هـ وعنده من الخدم والخصيان ١١,٠٠٠ خادم من الروم والسودان وكثير من المال والجوهر فتمكّن من الحكم ٢٥ سنة ردّ فيها رسوم الخلافة إلى ما كانت عليه، وكان يقدم الخدم ويستعين بهم وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها. فالخلفاء إنما لجأوا إلى تحكيم الخدم والخصيان استبقاءً لحياتهم أو إحياءً لنفوذهم ودفع استبداد جند الأتراك، ولم يكن ذلك خاصاً بالدولة العباسية بل شمل معظم الدول الإسلامية المعاصرة.

تأثير النساء في سياسة الدولة

للمرأة تأثير كبير في أعمال الرجل مهما يكن نوعها وفي أي عصر كان وأي أمةٍ كانت وإن اختلف مقدار ذلك التأثير باختلاف عادات الأمم وآدابها. أما الدولة إذا كانت ملكية مطلقة فللمرأة شأن كبير في سياستها حتى في الإسلام مع شيوع الطعن في آرائهن وقولهم:

(إن مشاورتهن في الأمور مجلبة للعجز ومدعاة إلى الفساد) ويعظم أثره على الخصوص في تأثير أمهات الخلفاء على أولادهن ولاسيما في أواسط الدولة عند احتجاب الخلفاء واستسلامهم إلى الخدم.

على أن العباسيين حتى في صدر الدولة كانوا يصغون إلى النساء فأحرزت المرأة نفوذاً كبيراً وخصوصاً أمهات الخلفاء وأول من استبد منهنّ الخيزران أم الهادي والرشيد وهي قرشية وكانت ذات نفوذ وقوة يخافها أولادها ومن خالفها منهم أو اعترضها قتلته. وكانت في أيام زوجها المهدي صاحبة الأمر والنهي وهو يطاوعها، فلما تولى ابنها الهادي أرادت الاستبداد بالأمور دونه وأن تسلك به مسلك أبيه فلم يمض أربعة أشهر حتى توجه الناس إليها وكانت المراكب تغدو وتروح إلى بابها فساءه ذلك وكلمته يوماً في أمر فلم يجد إلى إجابتها فيه سبيلاً فقالت: (لابد من إجابتي إليه فإني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك) فغضب الهادي وقال: (ويلي على ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها والله لا أقضيها لك) قالت: (إذاً والله لا أسألك حاجة) قال: (لا أبالي) وقامت مغضبة فصاح بها: (مكانك.. والله أنا نفي من قرابتي من رسول الله لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو خاصتي لأضربن عنقه ولأقبضنَّ ماله. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكّرك أو بيت يصونك؟ إياك وإياك لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي) فانصرفت وهي لا تعقل ولم تنطق عنده بعدها ثم إنه قال لأصحابه: (أيما خيرٌ أنا أم أنتم وأمي أم أمهاتكم؟) قالوا: (لا بل أنت وأمك خير) قال: (فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه فيقال فعلت أم فلان وصنعت؟) قالوا: (لا نحب ذلك) قال: (فما بالكم تأتون أمي فتتحدثون بحديثها؟) فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فحقدت عليه حتى إذا علمت أنه يريد خلع أخيه الرشيد ويأخذ البيعة لابنه جعفر أمرت بعض جواريها بقتله بالسم والجلوس على وجهه فقتلوه.

فلما كانت أيام الرشيد استبدت الخيزران في الأحكام واحتشدت الأموال فبلغت غلتها في العام ١٦٠ مليون درهم أي نحو نصف خراج المملكة العباسية في ذلك العهد ولما ماتت توسّع الرشيد بأموالها. وقس على ذلك ثروة سائر أمهات الخلفاء، أما من حيث النفوذ فقد كان للسيدة أم المقتدر وهي تركية سطوة غريبة على رجال الدولة في خلافة ابنها وكانت

تتصرف في الأحكام دونه بالاشتراك مع الحجّاب والخدم وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفاً من ذكرها، ويقال نحو ذلك في أم المستعين بالله المتوفى سنة ٢٥١هـ وكانت صقلبية الأصل فأطلق المستعين يدها في أمور الدولة ويد اثنين من قواد الأتراك اتامش وشاهك الخادم فكانت الأموال التي ترد إلى بيت المال من النواحي يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة.

فساد الأحكام في الدولة العباسية

التنازع على النفوذ

بلغت الدولة العباسية عصرها الذهبي في أيام خلفائها الأولين وخصوصاً الرشيد والمأمون بتدبير الوزراء الفرس ولاسيما البرامكة، فاتسع سلطانها في أيامهم وامتدت سطوتها على معظم العالم المعمور في ذلك العهد فبلغت الهند شرقاً والبحر الأطلسي غرباً وبلاد سيبيريا وبحر قزوين شمالاً وبحر فارس وبلاد النوبة جنوباً. فلما نكب البرامكة ثم استبد الجند التركي في الحكومة أصبحت الأحكام فوضى وخصوصاً بعد المتوكل لأنهم أقدموا على قتله وكان ذلك فاتحة جرأتهم على الخلفاء بعده من عزل وتولية وقتل وسمل، فعجز الخلفاء عن القيام بشؤون الدولة وهم أصحابها المسؤولون عنها والأحكام تصدر بأسمائهم وإن كانوا مدفوعين إلى إجراءاتهم ببعض أرباب النفوذ في بلاطهم من الوزراء أو القواد أو الخدم أو الموالي أو النساء أو غيرهم، فالوزير الذي يتولى أمور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام أو عامين من عزل أو قتل أو حبس لا يهمه غير الكسب من أي طريق كان ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك فيما بعد عملاً بالقاعدة التي وضعها ابن الفرات كبير وزراء ذلك العصر وهي قوله: (إن تمشية أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب) وانتبه الخلفاء إلى مطامعهم فأصبحوا إذا عزلوا وزيراً صادروه وأخذوا أمواله، فالوزير يتولى الوزارة عاماً أو عامين ثم يعزل أو يستقيل وله عدة ملايين من الدنانير فضلاً عن الضياع والمباني وقد اكتسب هذه الثروة بالرشوة ونحوها من أسباب المظالم. وكان الوزير لا يولي عاملاً على ولاية ما لم يقبض منه مالاً على سبيل الرشوة يسمونه (مرافق الوزراء). ومن أغرب حوادث التولية بالرشوة أن الخاقاني وزير المقتدر بالله ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة وأخذ من كل

واحد رشوة، ومن أغرب طرق الاغتصاب أن يغتصب العامل أو الوزير أو غيرهما من رجال الدولة صنيعة لبعض الناس فيأخذها بغير ثمن ويستغلها لنفسه وإذا استحقَّ عليها الخراج أداه صاحبها الأول مخافة أن يثبت الملك لمغتصبها إذ يدوّن خراجها باسمه في الديوان فيبطل حق مالكها في ملكها فيضطر المالك إلى دفع الخراج أعواماً ريثما يتوفق إلى من ينصفه ممن يفضي النفوذ إليهم من أهل العدالة أو يهتدي إلى وساطة أو حيلة. ناهيك عما كانوا يغتصبونه من أموال الرعية باقتضاء خراج الأرض مضاعفاً أو مكرراً.

الجاسوسية.. اللصوصية

ومن وسائل ابتزاز الأموال أن يقسّط الوزير أو من يقوم مقامه على أرباب الدواوين والقضاة أو غيرهم مالاً على وجه القرض على أن يسبب لهم عوضه من أهل النواحي فتقع الخسارة على الرعية، فتضايق أهل الأسواق في المدن والفلاحون في القرى والرساتيق وضاقت أبواب الرزق على الناس وأصبحت الحقوق فوضى ومن وجد حيلة في اختلاس المال سراً أو جهراً استخدمها وكثر العيارون والشطار في المدن وتعدد اللصوص في القرى وفيهم جماعة أصلهم من جنود الدولة طمع الوزراء أو القواد بأرزاقهم فخرجوا يتعرضون للمارة ويسلبونهم أموالهم وأمتعتهم وإذا عوتبوا أو حوكموا احتجوا بذلك. وكان قطاع الطرق يسطون على قوافل التجار ويأخذون أموالها باعتبار أنها حق لهم. وزد على ذلك ما نجم عن فساد الأحكام من الضيق المالي وغلاء الأسعار في المدن وما نشب من الفتن بين الأحزاب ولاسيما السنة والشيعة وراجت الدسائس وتكاثرت السعايات برجال الدولة وانتشرت الجاسوسية في قصور الخلفاء ودواوين الوزراء والكتّاب. وأصبح لكل منهم جواسيس على الآخرين ينقلون إليه أخبارهم فتسابق أسافل الناس إلى السعاية بأفاضلهم يرفعون إلى الخليفة أو إلى صاحب النفوذ في دولته كتباً يختلقون بها المطاعن على الأبرياء للانتفاع بأذاهم. فلما فسدت الأحكام في دار الخلافة واستبد الوزراء والقوّاد في شؤون الدولة رأى العمال في الولايات أن يجتزئوا من ذلك الاستبداد في ولاياتهم فأخذوا يستقلون فتشعّبت المملكة العباسية إلى ممالك يحكمها الأمراء من الفرس والأتراك والأكراد والعرب وغيرهم.

تشعّب المملكة العباسية

وأما استقلال العمال بذهاب هيبة الخلفاء أو اختلال شؤون الدولة فالأسبق إليه الفرس ثم الأتراك فالأكراد مثل تواليهم في التغلب على الخلفاء. وتدرج كل من هذه الأمم من العمالة إلى الإمارة إلى الملك أو السلطنة.

الدول الفارسية في ظل العباسيين

لما أعاد الفرس مقاليد الخلافة إلى المأمون ازدادوا دالة عليه واستخفافاً بالسلطة العباسية ثم استبد الأتراك في الخلفاء بعد المعتصم وغلّوا أيديهم وكسروا شوكتهم فكان للفرس على الإجمال حظ كبير من ذلك، فلما رأوا ذهاب نفوذهم في دار الخلافة استعاضوا عنه بالاستقلال بإماراتهم.

على أن الذين استقلوا من القواد أو الأمراء مازالوا يعترفون للعباسيين بالسلطة الدينية فيطلبون الاستقلال تحت رعايتهم، فتفرّعت المملكة العباسية إلى إمارات مستقلة هي خمسة دامت من ٣٠٥ إلى ٤٣٤هـ. فانظر كيف تفرّعت بلاد فارس إلى إمارات فارسية. فانتعشت الشيعة ونالوا بعض ما كانوا يأملون من مساعيهم في نصرة العلويين. حتى قامت دولة آل بويه وهي أكبر دولة فارسية شيعية ظهرت في الشرق في عهد ذلك التمدن بظل الدولة العباسية.

دولة آل بويه

رجال هذه الدولة وأنصارها الديلم من الجيلان وراء خراسان ولكن ملوكها آل بويه من الفرس ويرتفع نسبهم إلى ملوك الفرس القدماء وإنما سموا ديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم. وكان العلويون يسعون في نشر دعوتهم هناك من أيام الرشيد، وآخر من نجح في ذلك الحسن بن علي الأطروش من نسل الحسين (عليه السلام) فدعا الديلم إلى مذهبه في أواخر القرن الثالث فأجابوه.

وجدُّ آل بويه الأقرب الذي أسس هذه الدولة اسمه بويه ولقبه أبو شجاع كان له ثلاثة أولاد: علي ويلقّب عماد الدولة، وحسن ويلقّب ركن الدولة، وأحمد ويلقّب معز الدولة،

وكان بويه رقيق الحال فانتظم أولاده بالجندية لأنها كانت يومئذ باباً من أبواب الرزق الواسعة وكان عماد الدولة في خدمة مرداويج مؤسس الدولة الزيادية فارتقى عنده حتى ولاه الكرج ثم اتسعت أحواله فكتب إلى الخليفة العباسي وهو يومئذ الراضي بالله المتوفى سنة ٣٢٩هـ أن يقاطعه على أعمال فارس بمال يحمله إلى دار الخلافة على جاري عادتهم مع الدولة العباسية في ذلك العهد فأجابه الراضي وبعث إليه بالخلعة. وأخوه حسن ركن الدولة تملّك خوارزم وجاء الأخوان واتحدوا مع أخيهما الثالث معز الدولة في شيراز وساروا غرباً حتى أتوا بغداد في أيام المستكفي سنة ٣٣٤هـ فرحب بهم وخلع عليهم ولقّبهم الألقاب المذكورة وجعل معز الدولة أمير الأمراء واستبدوا في المملكة واستولوا على الخلافة وعزلوا الخلفاء وولوهم فرفعوا منار الشيعة وأحيوا معالمها وأضعفوا نفوذ الأتراك والخلافة العباسية لا تزال في بغداد، ولما أفضت إمارة الأمراء إلى عضد الدولة لقب بالملك وهو أول من خوطب بهذا اللقب في الإسلام، وحكم آل بويه من سنة ٣٢٠ ـ ٤٤٧هـ.

الدولة التركية في ظل العباسيين

لما قويت شوكة الأتراك في الدولة العباسية وهابهم الخلفاء كما تقدم طمع بعضهم في الولايات كما طمع الفرس فاستقلوا بها فنبت للدولة العباسية فروع تركية خارج بلاد فارس كما نبتت الفروع الفارسية في بلاد الفرس وهما أربعة فروع دامت من (٢٥٤) إلى (٥٨٢هـ).

الدولة السلجوقية وفروعها

على أن هذه الإمارات نشأت فروعاً للمملكة العباسية أي كان أُمراؤها أو سلاطينها من عمال الدولة العباسية أو قوادها أو قواد بعض الإمارات الأخرى واستقلوا كما نشأت الإمارات الفارسية قبلها والأُمّتان تتنافسان في النفوذ لاختلاف العصبية واختلاف المذهب بين السنة والشيعة.

ومؤسس الدولة السلجوقية سلجوق بن يكاك أمير تركي كان في خدمة بعض خانات تركستان فعلم باختلال المملكة العباسية فطمع فيها، وعلم أنه لا يبلغ ذلك وهو على غير دين الإسلام فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبيته دفعة واحدة ونهض بجميع هؤلاء

من تركستان وساروا غرباً فقطعوا نهر جيحون وتدرّجوا في الفتح ونشر السلطة حتى اكتسحوا المملكة العباسية وامتد سلطانهم من أفغانستان إلى البحر الأبيض. وأصبح العالم الإسلامي تتنازعه ثلاث دول إسلامية أكبرها دولة السلاجقة في المشرق ثم الدولة الفاطمية في مصر والمغرب والثالثة دولة بني أمية في الأندلس.

والسلاجقة دول تفرعت من أصل واحد وهم أصل سائر الفروع وأقوى منها جميعاً وهم خمسة حكموا من ٤٢٩ ـ ٧٠٠هـ. وكان السلاجقة في أيام سلطتهم يولون الأعمال أو الولايات قوّاداً من مماليكهم يسمونهم الأتابكة، وأخذ الأتابكة يستقلون بولاياتهم شيئاً فشيئاً حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم وهم عشرة وحكموا من سنة ٤٩٧ ـ ٧٠٣هـ.

الدولة الكردية في ظل العباسيين

الأكراد قوم أشداء وأكثرهم أهل بادية وخشونة يقيمون في الخيام وينقسمون إلى قبائل وعشائر وبطون وهم أقل قبولاً للحضارة من الفرس والترك وغيرهما من الأمم الشرقية التي دانت للإسلام إبان التمدن الإسلامي. وقد ظلوا أهل ظعن ورحلة في معظم ذلك التمدن. وكانت الدول تستعين بهم في الحروب البدوية الشبيهة بالغزو كما كانت تستعين بالأعراب، ومقامهم على الأكثر في كردستان وأرمينيا وجزيرة العراق كالموصل وديار بكر ولا يزال سوادهم هناك إلى الآن. وأول من أنشأ دولة كردية مستقلة في الإسلام حسنويه بن الحسين البرزكاني زعيم بعض قبائل الأكراد في كردستان في أواسط القرن الرابع للهجرة وامتدت سلطته على معظم تلك المملكة وفيها دیناور وهمذان ونهاوند وسرماج وغيرها. وقد اعترف خليفة بغداد بسلطانه ولقب ابنه بعده بناصر الدولة، ولم يطل عمرها كثيراً فحكمت من سنة ٣٤٨ ـ ٤٠٦هـ ثم استقل من الأكراد أبو علي بن مروان في ديار بكر سنة ٣٨٠هـ وامتدت سلطته على آمد وآرزان وميافرقين، وبايع خلفه للفاطميين حيناً من الزمن وذهبت دولته سنة ٤٨٩هـ.

والأكراد لم يكن لهم شأن يذكر في الإسلام إلا على عهد الدولة الأيوبية من سنة ٥٦٤ ـ ٦٤٨هـ ومؤسسها صلاح الدين الأيوبي، وارتفع شأن الأكراد في أيام دولته وتولوا

الإمارات والولايات في مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان ولما مات اقتسم مملكته أخوته وأولاده وأولاد أخوته ولذلك لم يطل حكمها، فغلبهم على معظمها مماليكهم الأتراك.

الخلافة والسلطة

لما ظهر الإسلام كان النبي (صلّى الله عليه وآله) رئيس المسلمين في أمور الدنيا والدين وهو حاكمهم وقاضيهم وصاحب شريعتهم وإمامهم وقائدهم. وكان إذا أولى أحد أصحابه بعض الأطراف خوّله السلطتين السياسية والدينية وأوصاه أن يحكم بالعدل وأن يعلّم الناس القرآن. ولكن الارتباط بين الدين والسياسة في الإسلام يختلف عما في النصرانية لأن النصرانية انتشرت أولاً في عامة الناس ثم انتقلت إلى رجال الدولة. وأما الإسلام فإنه ظهر أولاً في رجال الدولة وانتقل منهم إلى العامة لأن أقدم أهل الإسلام الصحابة وهم جند المسلمين وأمراؤهم وقد نشروا الإسلام في الأرض وجاهدوا في سبيل نصرته بأنفسهم، فلما تأيّد الدين وقامت دولة المسلمين ورغب الأمراء في السلطة الدنيوية كان منصب الخلافة من أكبر أسباب تغلبهم لتأثير الدين على أذهان الناس في تلك الأيام فقد كانوا لا يجتمعون إلا تحت رايته وخصوصاً في الشرق ولا يزالون على ذلك حتى الآن على أن أهل التقوى من المسلمين كانوا يجعلون حداً فاصلاً بين الخلافة والسلطة فلما طلب معاوية السيادة كما يطلبها أهل المطامع بالدهاء والقوة خالفوه وأبوا مبايعته فلما قُتل علي (عليه السلام) وتنازل الحسن (عليه السلام) عن الخلافة لمعاوية لم يرَ المسلون بداً من مبايعته على الطاعة كما يبايعون الملوك لكنهم استنكفوا من أن يسموه (خليفة) أو يعترفوا له بسلطة دينية فسموه (ملكاً) وهو يأبى أن لا يجمع الرئاستين لعلمه أن الرئاسة الدنيوية وحدها لا تفيده شيئاً. ذكروا أن سعد بن أبي وقاص دخل على معاوية بعد أن استقر له الأمر وقال: (السلام عليك أيها الملك) فضحك معاوية وقال: (ما عليك لو قلت يا أمير المؤمنين؟) فقال: (تقولها جذلان ضاحكاً؟ والله ما أحب إني وليتها بما وليتها به) . .

فيظهر من ذلك أنهم كانوا ينزّهون الخلافة عن السياسة والدهاء ويعتقدون أن بني أمية نقلوا الإسلام من الدين إلى العصبية بالمال والسيف ثم إلى الملك البحت.

وفي اعتقادنا أن الحكم المطلق لا يتأيّد ويتسع نطاقه ويطول مكثه إلا بالدين أو ما يقوم مقامه، فما من دولة مطلقة طال حكمها واتسعت مملكتها إلا وفي سلطتها صبغة دينية تحميها من طمع الطامعين بأن تجعل لملوكها مزية على سائر الناس. وإذا أريد فصل الدين عن السياسة فلابد من تقييد الحكومة بالشورى وهي أفضل الحكومات وأطولها عمراً وإلا فإنها تختل سريعاً ويكفي لانحلالها أن يتولى شؤونها ملك قليل التدبير ناقص الاختبار فيغتصب ملكه بعض وزرائه أو قواده. وإذا تدبرت تاريخ الدول الإسلامية رأيت للسلطة الدينية تأثيراً كبيراً في طول بقائها واتساع نطاقها ولذلك كان بين الخلفاء الأولين وعلماء الدين الإسلامي كالحفاظ والمحدثين والفقهاء علاقة متبادلة وكل منهم يتقوّى بالآخر، ومعنى ذلك أن الخليفة هو صاحب السيادة الدينية والسلطة الدنيوية فهو أمير الناس في السلم وقائدهم في الحرب وإمامهم في الصلاة وهو قاضيهم وفقيههم كما كان النبي (صلّى الله عليه وآله) في أول الإسلام. فلما اتسعت الفتوح ودعت الحاجة إلى تقسيم الأعمال بمقتضى سنّة العمران عمد الخليفة إلى إنابة مَن يتولى تلك الأعمال عنه. فالوالي إنما هو نائب الخليفة في العمل الذي يتولاه والقاضي نائبه في القضاء وقائد الجند يتولى قيادته بالنيابة عن الخليفة. وقس على ذلك سائر المناصب الإدارية والسياسية والقضائية وكذلك في المهن الدينية فالقراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء يتولون أعمالهم بالنيابة عن الخليفة. فكما يحتاج الخليفة إلى نصرة العمال والقوّاد والقضاة في تأييد سلطته الدنيوية فهو يفتقر أيضاً إلى نصرة الفقهاء والعلماء لتأييد سيادته الدينية، ولذلك ترى الخلفاء يقرّبون أهل العلم ولاسيما في أوائل الإسلام، فلما طمع بنو أمية بالخلافة والتمسوها عن طريق الدهاء والبطش كان في جملة ما أهملوه الأخذ بأقوال أهل العلم لأنهم لو أطاعوهم ما تيسّر لهم الملك، فقاسى العلماء في أوائل دولة الأمويين عذاباً شديداً من المقاومة والضغط فاضطر بعضهم للإفتاء بما يرضي أهل الدولة وأبى البعض الآخر إلا الحق فاضطهدوهم وضيّقوا عليهم، بدأوا بذلك من أيام عثمان والعمال يومئذ من بني أمية وقد أخذوا يمهّدون السبيل لسلطانهم بجمع الأموال والاستئثار بالنفوذ. وفي حكاية أبي ذر الغفاري مع معاوية بن أبي سفيان دليل ناطق على ما كان من جرأة أهل العلم على

الخلفاء وإنكار الأمويين ذلك، فلما استتب الأمر لبني أمية حبست الأفكار وتقيّدت الألسنة ولم يتقدم من العلماء في مناصب الدولة إلا المتملقون، فظل الأحرار من الفقهاء في زوايا الإهمال معظم أيام بني أمية. فلما تسلّط العباسيون وأظهروا أنهم يريدون إحياء السنّة وتقويم ما اعوجّ من سُبُل الدين في عهد الأمويين ظهر أهل الأفكار المستقلة من الفقهاء والعلماء والزهاد وقرّبهم الخلفاء وأكرموهم فعادوا إلى جرأتهم في خطاب من يأنسون منه إصغاءً. فالفقهاء واسطة السيادة الدينية بين الخليفة والعامة مثل توسط الأمراء والقواد في تأييد السيادة الدنيوية وقد يغني الفقهاء عن الواسطتين جميعاً لأن عامة المسلمين ينقادون إلى فقهائهم ويستسلمون إليهم كما ينقاد عامة النصارى إلى كهنتهم. فالخلفاء العباسيون كانوا يحتاجون إلى الفقهاء للاستعانة بهم على إخضاع العامة وامتلاك قلوبهم وكذلك كان يفعل السلاطين والأمراء لنفس هذا السبب أو لسبب آخر. والنفع متبادل بين الفئتين لأن الفقهاء كانوا يكتسبون بتقرّبهم من الخلفاء مالاً وجاهاً ولكن ما يكتسبه الخلفاء منهم أعظم وأبقى، فرسخ احترام الخلفاء في قلوب العامة وتمسّكوا بهم وعظّموهم باسم الدين.

وكان الخلفاء يذعنون للعامة باسم الدين أيضاً، ولم يكن للخلفاء بد من إظهار التقوى والقيام بالفروض الدينية لئلا تفسد عليهم العامة ويحتقروا سلطانهم ولو كان الخليفة لا يعتقد ذلك. ذكروا أن الوليد بن يزيد الأموي مع اشتهاره بالخلاعة والتهتك كان إذا حضرت الصلاة يطرح ما عليه من الثياب المصبّغة والمطيبة ثم يتوضّأ فيحسِن الوضوء ويؤتى بثياب بيضٍ نظيفة من ثياب الخلافة فيصلي فيها أحسن صلاة بأحسن قراءة وأحسن سكوت وسكون وركوع وسجود فإذا فرغ عاد إلى تلك الثياب.

فلهذا السبب كان الأمراء الذين يستقلون عن الدولة العباسية بالإدارة والسياسة لضعف الخليفة عن حربهم لا يستطيعون الاستقلال عنه بالدين إذ لا يستغنون عن بيعته لتثبيت سلطانهم فإذا أراد أحدهم الاستقلال بولاية أو فتح بلد أو إنشاء إمارة لنفسه بعث إلى الخليفة في بغداد يبايعه ويطلب منه أن يعطيه تقليداً أو عهداً بولاية ذلك البلد أو أن يلقبه ويخلع عليه وإذا أبى الخليفة أن يجيبه غضب وعدّ ذلك تحقيراً له وقد يجرّد عليه الجند

ليكرهه على تثبيته. وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يعرفون حاجة الأمراء المسلمين إلى رضاهم فإذا ساءهم أحد منهم هددوه بالخروج من بغداد فيضطر إلى استرضائهم لأن خروجهم يغضب العامة ويجرئهم على خلع الطاعة لتقديسهم شخص الخليفة وتنزيهه عن الخطأ، ولذلك فلم يكن من سبيل إلى نزع سلطته أو الاعتراض عليها إلا من وجه ديني فكان الذين يقومون على الخلفاء يجعلون سلاحهم الدين فيلبسون الصوف ويدعون إلى المعروف أو يعلقون في أعناقهم المصاحف أو نحو ذلك مما يحرّك عواطف العامة وإذا أراد أحد الخلفاء أن يصلح ما بينه وبين العامة أصلحه بالتقوى. فلما ضمن الفضل بن سهل الخلافة للمأمون أوصاه بإظهار الورع والدين ليستميل القواد ولما رأى أبو مسلم الخراساني أهل اليمن في مكة قال: (أي جند هؤلاء لو لقيهم رجل ظريف اللسان غزير الدمعة) يريد تحريك عواطفهم الدينية بالوعظ والبكاء. فلم يكن للممالك الإسلامية بد من خليفة تبايعه ليثبت ملكها. وقد يستاء بعض الأمراء المستقلين من خليفة بغداد فيكظم ولا يخلع بيعته إلا إذا رأى خليفة آخر يبايعه فلما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر خلعت كثير من البلاد بيعة خليفة بغداد وبايعت للفاطميين في القاهرة. فلما سطا التتر على بغداد وفتحوها سنة ٦٥٦هـ وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله توقّف شأن الخلافة فاضطربت أحوال مصر وبذل سلاطينها جهدهم في إيجاد خليفة يبايعونه ولو أعوزهم خليفة ولم يجدوه ربما اختلقوا واحداً ليحكموا العامة به على أنهم ما زالوا يبحثون عن بقية الخلفاء العباسيين الذين كانوا في بغداد حتى ظفروا بالهاربين منهم فاستقدموهم إلى القاهرة وفرضوا لهم الرواتب واحتفلوا بهم احتفالاً عظيماً وبالغوا في احترامهم وإكرامهم مع علمهم أن أولئك الخلفاء لا يغنون عنهم شيئاً ولكنهم خافوا اختلال دولتهم بدونهم. وظل ملوك الهند وغيرهم من ملوك الإسلام بالأطراف البعيدة يبايعون للخليفة العباسي بالقاهرة ويطلبون التقليد منه أو المنشور لإثبات سلطتهم على يد السلاطين المماليك، فما الذي بعث أولئك الملوك على طلب التقليد من خليفة طريد شريد لا ينفع ولا يشفع لولا ما يتوقعونه من أثر ذلك في أذهان العامة؟ ولا ننكر أن بعضهم كان يطلب بيعة الخليفة تديّناً ولكن الأكثرية كانوا يطلبونها لاستصلاح العامة بها.

أما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تنلها دولة إسلامية قبل العثمانيين فلما فتح السلطان سليم مصر وجد فيها آخر الخلفاء العباسيين الذين كان السلاطين المماليك قد استقدموهم فتنازل له عن الخلافة سنة ٩٢٣هـ.

العصر العربي الثاني

الإمارات العربية والعنصر العربي

نريد بالعصر العربي الثاني العصر الذي جدّد فيه العرب سطوتهم وأعادوا سلطانهم ونفوذهم في الدولة بعد أن غلب الفرس على أمورهم واستبدوا بهم. على أن بعض القبائل العربية تمكّنت بأسباب مختلفة من إنشاء إمارات صغيرة في ما بين النهرين والشام تحت رعاية العباسيين وقد ساعدهم على ذلك ما قام من الفتن والحروب بين الخلفاء العباسيين ووزرائهم الفرس وأجنادهم الأتراك في القرن الرابع للهجرة ورأوا الفرس والترك يستقلون بولاياتهم فقلّدوهم، فاستقلّ آل حمدان من بني تغلب بالموصل وحلب وغيرهما من سنة ٣١٧ ـ ٣٩٤هـ وكانت دولتهم عربية أحيوا بها معالم العرب وآدابهم وعُرفت بالدولة الحمدانية أشهر أُمرائها سيف الدولة وقد اشتهر بما نظّمه فيه أبو الطيّب المتنبي.

ونشأت في حلب في ذلك القرن أيضاً دولة عربية أخرى اسمها المرداسية نسبة إلى أسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بني كلاب من المضرية، فحكم في حلب هو وأولاده من سنة ٤١٤ ـ ٤٧٢هـ وخلف الحمدانية بالموصل دولة بني عقيل من كعب من المضرية فتولوها من سنة ٣٨٦ ـ ٤٨٩هـ وظهرت في أثناء ذلك دولة عربية رابعة عرفت بالمزيدية نسبة إلى مزيد الشيباني من قبيلة أسد وقد أنشأوا مدينة الحلة في العراق وحكموا من سنة ٤٠٣ ـ ٥٤٥هـ.

وهناك دولتان أنشأهما رجال من العرب في العصر العباسي الأول وفي بلاد غير عربية فالأَولى أن تُعدّا من الدول الأعجمية وهما: الدولة الدلفية التي أنشأها أبو دلف العجلي في كردستان، والعلوية التي أنشأها الحسن بن زيد في طبرستان. وإذا أضفنا إلى ما تقدم دولة الأغالبة التي استقلت بالمغرب قبل سائر فروع الدولة العباسية ودولة الأدارسة الآتي ذكرها بلغ

عدد الدول العربية الصغرى في النهضة العربية الثانية ثماني دول، غير الإمارات العربية الصغرى التي ظهرت في بلاد اليمن كالزيادية في زبيد واليعفورية في صنعاء وغيرها، على أن هذه الدول قلّما أثّرت في إحياء سطوة العنصر العربي أو إرجاع شوكة العرب لأنها كانت تعترف بخلافة العباسيين وتبايع لهم إلا العلوية والأدارسة. فالنهضة العربية في العصر العربي الثاني الذي نحن في صدده قلما أثّرت في إحياء العنصر العربي، وقد تقلبت على كل من الدولتين الأموية في الأندلس والفاطمية بمصر أحوال مختلفة في سياستها وشؤون حكومتها لا بأس من الإتيان على خلاصتها.

سياسة بني أمية في الأندلس

من سنة ١٣٨ . ٤٢٢هـ

اقتدت هذه الدولة في سياستها بالدولة العباسية مثل سائر الدول التي عاصرتها أو نشأت بعدها. فمؤسسها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان كان شديداً مثل جده عبد الملك نجا من مذبحة أهله في مجلس السفاح سنة ١٣٢هـ وهرب من العراق يطلب بلاد المغرب بمساعدة مولى له اسمه بدر لم يدخر وسعاً في إنقاذه وحمايته في أثناء ذلك الفرار حيث المسافة طويلة وأهل البلاد ناقمون على الأمويين. فلما وصل به إلى المغرب سعى له في جمع الأحزاب فقطع بوغاز جبل طارق إلى الأندلس وفيها من موالي بني أمية نحو خمسمائة رجل فأخبرهم بقدوم مولاه وحرّضهم على نصرته لاستبقاء هذه الدولة هناك فنصروه وجمعوا كلمة المضرية واليمنية . وجمعها صعب في ذلك العهد . فبعد حروب كثيرة مهّدوا له الدولة واستقدموه إليهم فدخل الأندلس وتولى أمورها سنة ١٣٨هـ ولذلك سموه (الداخل) حَكَمها أولاً باسم الدولة العباسية وخطب بها للمنصور نحو سنة ثم استقل لنفسه، واتفق في أثناء ذلك أن المنصور العباسي أهان مالك بن أنس إمام المدينة لما علم من إفتائه بخلع المنصور لأنه كان قد بايع للعلويين فاغتنم الأمويون نقمة مالك عليه وقرّبوه منهم وأكرموه فانتفع كل منهما بصاحبه. فالأمويون رأوا فيه إماماً كبيراً ينصر دعوتهم أو يؤيدها من حيث الدين ويطعن في خلافة بني العباس. ورأى مالك في الأمويين ملجأً كبيراً وتعزية لما

ذاقه من شدة بني العباس، فشاع مذهب مالك في الأندلس من ذلك الحين وكانوا قبلاً على مذهب الأوزاعي مثل أهل الشام، وقد نقلوا الفتوى إلى رأي مالك في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل.

ملوك الطوائف بالأندلس

وبلغت الأندلس إبان مجدها في أيام عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٥٠هـ ، وكان عاقلاً كريماً توفّرت الثروة في خلافته وكانت أيامه مثل أيام هارون الرشيد في بغداد من حيث الرغد والرخاء. وخلفه ابنه الحكم وكان محباً للعلم والعلماء مثل المأمون بن الرشيد وبلغت مملكة الأندلس في أيام هذين الخليفتين إلى أوج مجدها سطوة وأُبهة وثروة وأخذ شأن الخلافة بعدهما بالانحطاط فاستبد أهل الدولة وجندها في الأحكام وهم موالي الأمويين من البربر والصقالبة كما استبد الفرس والأتراك في الدولة العباسية، ومازالت الدولة هناك آخذة بالانحلال حتى اقتسمها الولاة البربر وغيرهم بأسرع مما حدث في الدولة العباسية لضعف اعتقاد المسلمين بصحة خلافة بني أمية ولأن العباسيين أرسخ قدماً في الخلافة لقرابتهم من النبي (صلّى الله عليه وآله)، فانقسمت مملكة الأندلس في أوائل القرن الخامس للهجرة إلى إمارات تولاها أصحاب الأطراف والرؤساء وفيهم العرب والبربر والموالي فتغلب كل إنسان على ما في يده فصاروا دولاً صغيرة متفرقة ولذلك سمّوا ملوك الطوائف أشهرهم سبعة حكموا من ٤٠٧ . ٥٣٦هـ.

ولم تطل سيادة هذه الدول فغلبت عليهم دولة المرابطين ثم الموحدين وظل الانقسام متتابعاً بين تلك الممالك والخصام متوالياً والإفرنج يغتنمون ضعفهم وانقسامهم ويسترجعون مملكتهم إمارة بعد إمارة وبلداً بعد بلد حتى غلبوا على المسلمين وأخرجوهم من الأندلس، وآخر مدينة افتتحها الإفرنج من تلك المملكة غرناطة وكانت في حوزة بني نصر نسبة إلى يوسف بن نصر من سنة ٦٢٩هـ توالى عليها منهم بضعة وعشرون ملكاً آخرهم أبو عبد الله محمد بن علي فاستخرجها الإفرنج من يده سنة ٨٩٧هـ وفرّ أبو عبد الله وكان ذلك آخر عهد المسلمين بالأندلس

الفصل الخامس

الدولة الفاطمية
من سنة ٢٩٧ . ٥٦٧هـ

الشيعة في المغرب

قد علمت حال الشيعة في أيام بني أمية في الشام وما قاسوه من القتل والصلب ثم ما كان من حالهم في الدولة العباسية وخصوصاً في أيام المنصور والرشيد والمتوكل من الاضطهاد والقتل فحملهم إلى الفرار إلى أطراف المملكة الإسلامية فهاموا على وجوههم شرقاً وغرباً، وكان في من جاء منهم نحو الغرب إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى أخو محمد بن عبد الله الذي بايعه المنصور ثم نكث بيعته، فأتى إدريس مصر وهي يومئذ في حوزة العباسيين فاستخفى في مكان أتاه إليه بعض الشيعة سراً ومنهم صاحب البريد فحمله إلى المغرب في أيام الرشيد فتلقّاه الشيعة هناك وبايعوه فأنشأ دولة في مراكش عرفت بالدولة الإدريسية من سنة ١٧٢ . ٣٧٥هـ على أن هؤلاء لم يسموا أنفسهم خلفاء.

أما ظهور الشيعة وتغلّبهم وارتفاع شأنهم حقيقة فالفضل فيه للدولة الفاطمية نسبة إلى فاطمة بنت النبي (صلّى الله عليه وآله) لأن أصحابها ينتسبون إليها وتسمى أيضاً الدولة العبيدية نسبة إلى مؤسسها عبيد الله المهدي، وكان شأن الشيعة قد بدأ بالظهور في المشرق على يد بني بويه في أواسط القرن الرابع للهجرة.

ولما تغلب البويهيون على بغداد كانت الدولة الفاطمية قد اشتد ساعدها في المغرب وهمّت بفتح مصر. وكان آل بويه يغالون في التشيع ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة من مستحقيها فأشار بعضهم على معز الدولة البويهي أن ينقل الخلافة إلى العبيديين أو لغيرهم من العلويين فاعترض عليه بعض خاصته قائلاً: (ليس هذا برأي فإنك اليوم مع

خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة لو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلّين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لقتلوك) فرجع معز الدولة عن عزمه.

على أن الشيعة اعتزت في الشرق بهذه الدولة وأحيي البويهيون كثيراً من الاحتفالات الدينية الشيعية ومنها عاشوراء ذكرى مقتل الحسين (عليه السلام) وحملوا الخليفة على أن يخطب لعضد الدولة في بغداد أي أن يذكر اسمه في الخطبة فخطب له وهو أول من خُطب له فيها، فوقع التحاسد بين الأتراك والديلم هناك ونشأت الفتن بين السنة والشيعة من ذلك الحين والترك يمثلون السنة والديلم أو الفرس يمثلون الشيعة، فحمل الأتراك أهل بغداد على الاحتفال ببعض الأعياد عكس احتفال الشيعة نكاية بهم.

الشيعة في مصر

على أن ظهور الشيعة في الشرق هوّن على الدولة العبيدية فتح مصر والانتقال إليها وكانت قصبتها قبلاً المهدية بأفريقية وخلفاؤها ينتسبون إلى الحسين بن علي (عليه السلام). والمصريون كانوا يحبون علياً (عليه السلام) من صدر الإسلام وكانوا من حزبه يوم مقتل عثمان ولكن قلما كان لهم شأن في الشيعة العلوية لأن العلويين استنصروا أولاً أهل العراق وفارس كما تقدم فلما قامت الدولة العباسية ولاحقهم المنصور بالقتل والحبس وقتل محمد بن عبد الله الحسني وبعض أهله من بني حسن وفرّ سائر العلويين من وجه الدولة العباسية كان في جملتهم علي بن محمد بن عبد الله فجاء مصر بعض رجال الشيعة بأمر دعوته لكنه ما لبث أن حمل إلى المنصور واختفى.

وكان حال الشيعة العلوية بمصر يتقلّب بين الشدة والرخاء بتقلّب أحوال الخلفاء في بغداد حتى إذا اختلفت أحوال الدولة العباسية في بغداد وتغلّب آل بويه عليها في القرن الرابع للهجرة أخذ حزب الشيعة ينتعش ويتقوّى فلما جاءهم جند المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٦هـ بقيادة جوهر الصقلي كانت الأذهان متأهّبة لقبول تلك الدعوة ففتح جوهر مصر على أهون سبيل وخطب فيها للعلويين وأقام شعارهم وأزال شعار العباسيين وبنى مدينة القاهرة وانتقل إليها مولاه المعز لدين الله وتوالى من دولة الفاطميين بمصر عشرة خلفاء وجملة

خلفائهم منذ أنشأوا دولتهم في أفريقيا إلى انقضائها بمصر ١٤ خليفة حكموا من سنة ٢٩٧ - ٥٦٧هـ وانتقلت مصر منهم إلى الأكراد الأيوبيين.

سياسة الدولة الفاطمية

إن الفاطميين أيّدوا كل ما يوافق مذهب الشيعة من إيثار العلويين وتقديمهم والعمل بأقوال أئمتهم. فألّف يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي كتاباً يتضمّن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله وبوّبه على أبواب الفقه وهو يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية. وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها في نشر هذا الفقه بين المسلمين حتى كان الوزير المشار إليه يجلس بنفسه لقراءة هذا الكتاب على الطلبة وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء، وجعله مرجع القضاة في الفتوى وأفتى الناس به ودرسوه في الجامع العتيق وعمل الخلفاء على ترغيب الناس في حفظه بالبذل والعطاء فأجرى العزيز بالله على ٣٥ رجلاً من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير ويلازمونه أرزاقاً تكفيهم فضلاً عما كان يصلهم من مال العزيز بالله في الصِلات السنوية وأمرهم ببناء دار إلى جانب الجامع الأزهر وكان يخلع عليهم في عيد الفطر ويحملهم على البغال ترغيباً لهم في نشر فقه الشيعة وتعاليمهم وأجلسوا أناساً في قصر الخلافة لقراءة علوم أهل البيت على الناس لأن بانتشار ذلك المذهب تتأيّد تلك الدولة لارتباط السياسة بالدين.

أدوار الدولة الفاطمية

مرت الدولة الفاطمية في ثلاثة أدوار تشبه الأدوار التي مرت بها الدولة العباسية، فقد رأيت أن نفوذ الكلمة في الدولة العباسية كان في أوائلها مشتركاً بين العرب والفرس ثم صار إلى الفرس ثم إلى الأتراك، والفاطميون عرب قامت دولتهم بالعرب والبربر فكان النفوذ في أولها مشتركاً بين هذين العنصرين ثم صار إلى البربر ثم إلى الأتراك. وللبربر فضل كبير في نشر الإسلام بأواسط أفريقيا مثل فضل الأتراك في نشره بأواسط آسيا إلى الهند والصين، لأن البربر لما ثبت الإسلام فيهم نهضوا لفتح ما وراء بلادهم في أفريقية الغربية فنشروا الإسلام هناك.

فلما كانت الدولة الفاطمية في المغرب كان البربر من أنصارها، فلما أفضت الخلافة إلى العزيز بالله بن المعز سنة ٣٦٥هـ، أراد التشبّه بالعباسيين فاصطنع الأتراك والديلم واستكثر منهم وقدّمهم وجعلهم خاصته كأنه خاف على حياته من البربر، فقامت المنافسة بين البربر والأتراك وعظم التحاسد حتى توفي العزيز بالله وخلّفه الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦هـ وكان يعتقد فضل البربر فقدمهم وقرّبهم فاشترطوا أن يتولى أمورهم ابن عمار الكتامي (من البربر) فولاه الوساطة وهي كالوزارة عندهم، فاستبد في أمور الدولة وقدّم البربر وأعطاهم وولاّهم وحطّ من قدر الغلمان الأتراك والديلم الذين اصطنعهم العزيز، فاجتمعوا إلى كبير منهم اسمه برجوان وكان صقلبياً وقد تاقت نفسه إلى الولاية فأغراهم بابن عمار حتى وضعوا منه فاعتزل الوساطة وتولاّها برجوان فقدّم الأتراك والديلم واستخدمهم في القصر، ثم بدا للحاكم أن يقتل ابن عمار فقتله وقتل كثيراً من رجال دولة أبيه وجدّه فتضعضع البربر وقوي الأتراك.

فلما ملك المستنصر سنة ٤٢٧هـ أصبح الجند طائفتين كبيرتين تتناقسان وتتسابقان إلى الاستئثار بالنفوذ فآل التنافس إلى حرب تعبت بها مصر واضطر الخليفة إلى استنصار الشام فأتاه أمير الجيوش بدر الجمالي من سوريا وهو أرمني الأصل فقتل أهل الدولة وأقام بمصر جنداً من الأرمن وصار من حينئذ معظم الجيش منهم وذهب نفوذ البربر وصاروا من جملة الرعية ولم يبق لهم شأن في الدولة بعد أن كانوا وجوهها وأكابر أهلها واستقل (نور الدين) من الأتابكة في الشام. وكانت خلافة مصر قد أفضت سنة ٥٥٥هـ إلى العاضد بن يوسف وكان ضعيف الرأي وقد غلب وزراؤه على دولته وتنافسوا على الاستئثار بالنفوذ وطال تنافسهم حتى أخربوا البلاد والخليفة لا يستطيع عملاً. وكان في جملة المتنافسين وزيراً اسمه شاور قد غُلب على أمره فذهب إلى نور الدين زنكي واستنجده على رجل آخر كان ينافسه في الوزارة فاغتنم نور الدين تلك الفرصة للقبض على مصر وأنجده بأسد الدين شركويه في جندٍ من المماليك. وكانت الحروب الصليبية في تلك الأثناء قد احتدمت فزاد تدخّل نور الدين في شؤون مصر ونائبه فيها شركويه ومعه ابن أخيه يوسف بن نجم الدين وهو صلاح الدين الأيوبي. ومات شركويه بمصر سنة ٥٦٤هـ فخلفه صلاح الدين في منصب النيابة وكان صلاح الدين من أهل المطامع الكبرى فلما قبض على أزمة النيابة وهي كالوزارة ورأى ضعف الخليفة أراد مصر لنفسه وليس لأميره نور الدين. فلما مات العاضد خطب صلاح الدين

بالقاهرة للخليفة العباسي ونقل حكومة مصر من الشيعة إلى السنّة وقبض على أزمة الأحكام، وعمد صلاح الدين ومَن خلّفه من أهله إلى الاستكثار من المماليك الأتراك والجراكسة للجندية على جاري العادة في تلك العصور حتى إذا كثروا استبدّوا في شؤون الحكومة وطمعوا بالسلطة، فلما ضعف أمر الدولة الأيوبية قبضوا هم على أزمة الحكومة وأنشأوا بمصر دولتين عرفتا بدولتي السلاطين المماليك وهما المماليك البحرية والمماليك البرجية حكمت الأولى من سنة ٦٤٨ ـ ٧٩٢هـ والثانية من سنة ٧٨٤ ـ ٩٢٣هـ وكانتا تبايعان للخليفة العباسي وهو مقيم في بغداد. فلما جاء التتر وفتحوا بغداد سنة ٦٥٦هـ وقتلوا الخليفة العباسي (المستعصم) فرّ من بقي من بني العباس والتجأوا إلى سلاطين مصر على عهد الملك الظاهر بيبرس وظلوا فيها والبيعة لهم حتى جاء السلطان سليم الفاتح العثماني وفتحها سنة ٩٢٣هـ والخليفة العباسي عامئذ المتوكل على الله آخر خلفائهم فبايع للسلطان سليم وسلّم إليه الآثار النبوية فانتقلت الخلافة من العباسيين إلى العثمانيين من ذلك الحين.

العصر المغولي أو التتري

انحلال المملكة الإسلامية

من قيام جنكيزخان سنة ٦٠٣هـ. إلى وفاة تيمورلنك سنة ٨٠٧هـ

قد رأيت في ما تقدم أن الدولة العباسية لما فسدت أحكامها وضعف شأن خلفائها واستبد بها جندها وخدمها ضعفت علاقة أطراف مملكتها بدار الخلافة فتفرّعت إلى فروع بعضها فارسي وبعضها تركي أو كردي والبعض الآخر عربي. فلما رأى أعداء الدولة الإسلامية المحيطون بها ضعفها وانقسامها عمدوا إلى الانتقام منها فأغاروا عليها من الشمال والغرب والشرق وكل منهم يريد اغتيالها. فهاجمها الكرج والأرمن واللان من الشمال هجوم الغُزاة للسلب والنهب حتى أنهم كثيراً ما كانوا يدخلونها بعشرات الألوف فيكتسحون آذربيجان وما جاورها يقتلون وينهبون ويعودون بالأسرى والسبايا والغنائم وكانت سبايا المسلمين تزيد أحياناً على عدة آلاف غير القتلى كما كان العرب يفعلون بهم في أوائل دولتهم، على أنهم لم يستطيعوا فتحاً ولا رسخت لهم قدم في مملكة الإسلام.

وهجم عليها من الغرب أمم الإفرنج الصليبيين هجوم الفتح وقد تكاتفوا لاكتساح المملكة الإسلامية بحجة الدين لأن القبر المقدس فيها ففتحوا فلسطين وبعض سوريا وملكوا بيت المقدس حيناً.

أما من الشرق فجاءها التتر أو المغول بقبائلهم وبطونهم وهم في خشونة البداوة وقوة الأبدان وقد توفّقوا إلى رجل شديد البطش هو جنكيزخان القائد الشهير فحمل بهم من أواسط آسيا على العالم المتمدن في أوائل القرن السابع للهجرة ففتح جنكيزخان مملكة الإسلام من أقصى أطرافها الشرقية إلى حدود العراق غير ما افتتحه من بلاد الهند والصين حتى بلغت مساحة مملكته ٤٠٠,٠٠٠ ميل مربع.

المغول

المغول أو المغل قبيلة من التتر كانت تقيم حوالي بحيرة بيقال في جنوبي سيبيريا ولم يكن لهم شأن بين الأمم حتى في أيام جنكيزخان لأنهم كانوا لا يزيدون على ٤٠,٠٠٠ خيمة فإذا حسبنا في الخيمة عشرة أنفس لم يزد عددهم على ٤٠٠,٠٠٠ نفس فحمل جنكيزخان بهذا العدد القليل من بدو المغول على ما يحيط ببلادهم من الممالك العامرة واكتسحوها في بضعة عشر عاماً.

جنكيزخان

كان والد جنكيزخان أميراً على ١٣ قبيلة من المغول تحت رعاية الخان الأكبر ملك التتر بعهود متبادلة بينهما. ولد جنكيزخان سنة ٥٤٨هـ فسمّوه تموجين وهو اسمه الذي كان يعرف به في نشأته الأولى. وبعد أربع عشرة سنة توفي أبوه فاستخفّ رؤساء القبائل بتموجين وتمرّدوا عليه وأصبح كل منهم يطلب السيادة لنفسه. وكان تموجين شديد البطش من حداثته فجمع رجاله وحارب الثائرين وتغلّب عليهم، وحارب تموجين بعد ذلك حروباً فاز فيها فازداد أمراؤه تعلّقاً به فاحتفلوا بتهنئته احتفالاً أعظم من ذاك في سهل على ضفاف سلنكا فاجتمع الأمراء والخانات فوقف فيهم وكان قوي العارضة فأبدع، ثم جلس على لبادة سوداء فرشوها له هناك وأصبحت تلك اللبادة أثراً مقدساً عندهم من ذلك الحين. ثم وقف بعض الحضور وكان من أهل التقوى والنفوذ فقال: (مهما بلغ من قوتك فإنها من الله وهو سيأخذ بيدك ويشد أزرك فإذا فرطت في سلطانك صرت أسود مثل هذه اللبادة ونبذك رجالك نبذ النواة). ثم تقدم سبعة أمراء أنهضوه باحترام وساروا بين يديه حتى أقعدوه على عرشه ونادوا باسمه ملكاً على المغول. وكان في جملة الحضور شيخ يعتقدون فيه الكرامة والقداسة فتقدّم وليس عليه كساء وقال: (يا أخوتي قد رأيت في منامي كأن رب السماء على عرشه الناري تحدق به الأرواح وقد أخذ بمحاكمة أهل الأرض فحكم أن يكون العالم كله لمولانا تموجين وأن يسمى جنكيزخان أي الملك العام) ثم التفت إلى تموجين وقال: (لبيك أيها الملك فإنك تدعى منذ الآن جنكيزخان بأمر الإله) ولم يعد يُعرف بعد ذلك إلا بهذا الاسم، فلما تهيأ له تأسيس دولته وتدريب جنده إلى فتح العالم فسار أولاً نحو الشرق إلى مملكة الصين وكان لإمبراطور

الصين جزية من المغول يؤدونها كل سنة فلما استفحل أمر جنكيزخان أبى الدفع ومعنى ذلك الإباء إشهار الحرب. فحمل جنكيزخان بجيشه على الصين واخترق سورها العظيم وأمعن فيها قتلاً ونهباً والصينيون يومئذ أسبق الأمم في الاختراعات الحربية فاستخدموا النار اليونانية التي استعان بها اليونان على دفع العرب وقذفوا على المغول كرات فيها البارود قبل أن يعرفه أهل الغرب بأزمان. على أن ذلك لم يكن ليرد غارات تلك القبائل فمازال جنكيزخان زاحفاً حتى احتل بكين عاصمة الصين وسائر بلادها الشمالية، فازداد ذلك الفاتح رغبة وقوة فتحوّل بجنده الجرّار نحو الغرب أي غربي بلاده وهي مملكة الإسلام. فحمل جنكيزخان نحو الغرب وجنده يزيد على (٧٠٠,٠٠٠) مقاتل واكتسح تركستان وما وراءها وأوغل فيها قتلاً ونهباً مما تقشعر له الأبدان. فلم يكن همّهم غير القتل والنهب كالوحوش الكاسرة وليس هنا محل الإفاضة في سيرة هذا الرجل وإنما يُقال بالإجمال أنه تمكن في حياته من إنشاء مملكة لم يوفّق لمثلها أحد من الفاتحين قبله ولا بعده لا الاسكندر المقدوني ولا يوليوس قيصر الروماني ولا نادر شاه الفارسي ولا نابليون بونابرت الفرنساوي، أنشأ مملكة تمتد من البحر المحيط إلى البحر الأسود ودخل في سلطانه ملايين من الصينيين والتنكوت والأفغان والهنود والفرس والأتراك وغيرهم.

أنشأ جنكيزخان هذه المملكة الواسعة وهو لا يعرف الكتابة ولا القراءة. توفي جنكيزخان سنة ٦٢٤هـ وهو في السادسة والسبعين من عمره وقد تولى الملك ٢٢ سنة، وبعد وفاته اقتسم أولاده مملكته.

هولاكو

وهو ابن طلوي بن جنكيزخان تولى بعض المقاطعات في مملكة أبيه واستقل بها وملك فارس سنة ٦٥٤هـ وعرفت دولته فيها بدولة ايلخان، ولما استقر له الملك في فارس حمل على بغداد.

هولاكو وسقوط بغداد

والسبب في ذلك أن المنافسات بين السنّة والشيعة ببغداد تكررت في أواخر الدولة فلا تمضي سنة لا يقع فيها بين الطائفتين قتال تتوسط الحكومة في إصلاحه وبما أن الحكومة سنّية فالضغط كان يقع غالباً على الشيعة وكانوا يقيمون معاً في الكرخ ببغداد وهم صابرون على ما يكابدونه من الاضطهاد، والحكومة مع ذلك تُوليهم مصالحها وتعهد إليهم بتدبير شؤونها. وكان الخليفة في أيام هولاكو المستعصم بالله تولى الخلافة سنة ٦٤٠هـ وكان ضعيف الرأي ووزيره رجل من الشيعة اسمه مؤيد الدين بن العلقمي ذو دهاء ومكر. فاتفق وقوع فتنة بين السنة والشيعة على جاري العادة وكان للخليفة ولد اسمه أبو بكر شديد العصبية على الشيعة فاستعان بقائد الجند (الدوادار) وأمر العسكر أن يفتكوا بالشيعة فهجموا على الكرخ وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي ولم يعد يستطع صبراً فكتب إلى هولاكو سراً وأطمعه في ملك بغداد سراً فجاء بجيشه وفتح بغداد(١)

تيمورلنك

ينسب هذا القائد إلى دولة جنكيزخان وليس هو من نسله ولكنه من عائلته وكان جدّه وزيراً عند جقطاي بن جنكيزخان. ولد تيمور سنة ٧٣٦هـ ولما ترعرع تولى بعض الأعمال في دولة اقطاي بما وراء النهر ثم ترقّى إلى رتبة الوزارة فطمع بالملك وحمل على العالم كما حمل جنكيزخان قبله ففتح بلاد فارس بعد حروب كثيرة سُفكت فيها دماء غزيرة ولم تمض سبع سنوات حتى دوّخ خراسان وجرجان ومازندران وسجستان وأفغانستان وفارس وآذربيجان وكردستان ثم جاء العراق فاستخرج بغداد من الجيلادية وكانوا قد تملّكوها بعد هولاكو ثم حوّل أعنة خيوله شرقاً نحو الهند فغزا كشمير ودلهي وتحوّل غرباً لفتح آسيا الصغرى وكانت في حوزة العثمانيين وسلطانهم يومئذ (بايزيد) فبلغ تيمورلنك في فتوحه إلى أنقرة وحارب بايزيد وأسّره سنة ٨٠٤هـ واكتسح سائر بلاد المشرق إلى آخر حدود الشام وبايعه سلاطين مصر على الطاعة فتحول لمحاربة الصين فمات في الطريق سنة ٨٠٧هـ قبل أن ينظّم حكومته فذهبت فتوحه هدراً فعادت البلاد التي فتحها إلى ملوكها الأولين وعادت الأحوال إلى ما كانت عليه قبله، على أن الدولة التيمورية طال حكمها في ما وراء النهر إلى

سنة ٩٠٦هـ وبوفاة تيمورلنك ينقضي العصر المغولي وبانقضائه ينقضي الدور الأول من تاريخ الإسلام.

١. يظهر من الدقة في التاريخ أن هذه أسطورة نسجها وهم الخيال، كأسطورة كون إنشاء الشيعة من ابن سبأ، فإنه لو كان ابن العلقمي هو الذي استقدم هولاكو، فلماذا لم يأخذ منه العهد للشيعة؟ ولماذا احترقت الشيعة والسنة بنار الحرب؟ لكن قاتل الله التعصب الأعمى. وهدى الله الكذابين والوضّاعين.

من ظهور الدولة العثمانية ولا يزال

قد رأيت أن المغول لم ينشئوا دولة ثابتة في بلاد الإسلام ولم يكن لهم شأن في التمدن الإسلامي وإنما علاقتهم بهذا التمدن أنهم جاءوه والدولة الإسلامية في آخر دورها الأول وفي منتهى التضعضع والضعف بمن حمل عليها من الإفرنج والكرج والأرمن واللان فزادوها ضعفاً وذهبوا ببقية الخلافة العباسية في بغداد وعادوا عنها وهي تكاد تكون في حال الاحتضار وقد تبدّد شملها وليس فيها دولة حية تجمع شتاتها على أن ذلك كان مقدوراً للدولة العثمانية في العصر التركي الثاني ولدولة شاهات الفرس في العصر الفارسي الثاني ويتألف منهما الدور الثاني من تاريخ الإسلام.

فعاد التتر عن المملكة الإسلامية في أوائل القرن التاسع للهجرة ومصر في حوزة السلاطين المماليك يتنازعون على السلطة ويتخاصمون على الكسب، والشام بعضها في أيدي أولئك المماليك وبعضها في أيدي بعض أعقاب الأيوبيين حتى يكاد يكون كل بلد مستقلاً بنفسه، والعراق وبلاد فارس وما بين النهرين يتنازع عليها الايلخانية والجيلارية والمظفرية والقراقيونلية والتيمورية وغيرهم، وما وراء النهر وأفغانستان في سلطة المغول التيمورية، وآسيا الصغرى يتنازعها العثمانيون وبقايا السلاجقة، وسائر بلاد المشرق يختصم عليها بقايا التتر أو بقايا الأتابكة، وشمالي أفريقيا كان منقسماً بين المدينية والحفصية، والأندلس لم يبق منها في سلطة المسلمين إلا الدولة النصرية في غرناطة، وجزيرة العرب تحكمها إمارات صغيرة تتحارب ويغزو بعضها بعضاً. وهذه الدول مع ضعفها واختلال أحوالها تجمعها خلافة أضعف منها هي بقية الخلافة العباسية في الديار المصرية.

تلك كانت حالة العالم الإسلامي من الاضطراب والتضعضع عند تغلب الدولة العثمانية فجاءت إبان الحاجة إليها فافتتحت القسطنطينية وقد يئس المسلمون من فتحها بعد أن حاولوا مراراً. وحارب العثمانيون أعظم ملوك أوربا وطاردوهم إلى بلاد المجر وحاصروا

فينَّا عاصمة النمسا وأخذوا الجزية من الأرشيدوق فرديناد واكتسحوا البحر الأبيض إلى شواطئ إسبانيا فارتعدت أوربا خوفاً منهم، وفتحوا المشرق إلى العراق ثم ساروا جنوباً غربياً حتى فتحوا الشام ومصر وفيها بقية الدولة العباسية فتنازل العباسيون لهم عن الخلافة، فامتدت مملكتهم في أيام السلطان سليمان سنة (٩٢٦ ـ ٩٧٤هـ) من بودابست على ضفاف الطونة إلى أسوان على ضفاف النيل ومن الفرات بالعراق إلى بوغاز جبل طارق فاجتمع العالم الإسلامي الغربي تحت جناح الدولة العثمانية ولا يزال، وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيها سبباً لطول بقائها أكثر مما تقدمها من الدول الإسلامية حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم لأن سلطتهم أصبحت بعد القرن الثالث من إنشاء دولتهم اسماً بلا رسم.

ونهض الصفويون من الجهة الأخرى في بلاد فارس وبين النهرين فأنشأوا دولة شيعية كبرى جمعت تلك البلاد الشيعية في حوزتها ثم انتقلت إلى الدولة القاجارية الباقية إلى الآن كما جمعت الدولة العثمانية البلاد السنية. فالعالم الإسلامي الآن في دوره الثاني تحكمه دولتان إسلاميتان كبيرتان الدولة العثمانية في الشمال والغرب وهي سنية والشاهات القاجارية في الشرق وهي شيعية وليس من شأننا النظر في سياستهما في هذا الكتاب.

موضوع هذا الباب النظر في حال الهيئة الاجتماعية إبان التمدن الإسلامي وبيان الجماعات التي كانت تتألف منها طبقاتهم وعلائقها بعضها ببعض.

نظام الاجتماع في عصر الخلفاء الأربعة

بيّنا في السابق ما أحدثه الإسلام من التغيير في العصبية العربية وما تولد به من الطبقات الجديدة التي لم تكن قبل الإسلام كالمهاجرين والأنصار وما اقتضاه النسب الهاشمي أو القرشي من العصبيات الجديدة ومنهم طبقات الأشراف من العلويين أو العباسيين وأبناء الأنصار والمهاجرين. أما البلاد المفتوحة فلما جاء المسلمون لفتحها فأول من لقيهم على حدودها العرب أبناء لغتهم وأهل عصبيتهم ولما أوغلوا في الشام والعراق استأنس أهلوها باللسان العربي لقربه من لسانهم الآرامي أو السرياني مع بُعد لسان حكامهم يومئذ الرومي أو الفارسي عنهم فكان ذلك من جملة ما مهّد لهم أسباب الفتح.

نظام الاجتماع في عصر الأمويين

كانت قصبة الإسلام على عهد الخلفاء الأربعة في المدينة بجوار قبر النبي (صلّى الله عليه وآله) فنقلها الأمويون إلى الشام قرب البلاد المفتوحة وعملوا على توسيع دائرة مملكتهم فجرّدوا الجيوش وفتحوا المدن حتى وطأت حوافر خيولهم ما وراء النهر في أقصى الشرق وركبوا بحر المجاز (بوغاز جبل طارق) إلى أسبانيا ففتحوها وما وراءها من بلاد الإفرنج إلى نهر تورس، ونصبوا أعلامهم على أعظم مدائن الفرس والترك والروم والأسبان والإفرنج حتى هددوا القسطنطينية، وحولوا الاحتلال الموقت إلى السيادة الدائمة، وجعلوا الإسلام دولة بعد أن كان ديناً. على أن شدة تعصبهم للعرب دعا إلى انقسام المسلمين إلى طبقتين العرب والموالي فضلاً عما فرقوا فيه بين العرب أنفسهم باعتبار النسب القحطاني والعدناني. وبالجملة فإن

الهيئة الاجتماعية في أيام الأمويين كانت في بدء انتقالها من حالتها القديمة في عصر الروم والفرس إلى العصر الإسلامي. ولم يتم ذلك الانتقال والتكيّف بشكلها الخاص بالإسلام والتمدن الإسلامي إلا في العصر العباسي لترفع الأمويين عن الاختلاط بغير العرب ورغبتهم في البقاء على البداوة، ومع إيغال جنودهم في بلاد فارس وخراسان وتركستان ومصر وأفريقيا والأندلس قلما اختلطوا بأهلها أو اقتبسوا منهم أو قلّدوهم في شيء من عاداتهم وأخلاقهم حتى الخليفة المقيم في دمشق، إلا ما اتخذوه من الحرس والبريد والسرير. أما العباسيون فنظراً لتغلّبهم بالموالي وأهل الذمة على الأمويين جعلوا مقامهم بين أشياعهم الفرس فبنوا بغداد على الحدود بين الفرس والسريان أو بين الآريين والساميين أو بين المجوس والنصارى وقرّبوا الفرس واتخذوا منهم الوزراء والعمال ورجال الدولة فنظّموا لهم الدواوين على نحو ما كانت عليه في الدولة الساسانية.

نظام الاجتماع في العصر العباسي

نضج التمدن الإسلامي وتكيّفت طبقاته على شكل خاص بهذا التمدن وكان على أتم أشكاله في مدينة بغداد قصبة العالم الإسلامي فهي أوضح نموذج يُمثّل به نظام الاجتماع في ذلك العصر.

كان الناس في العصر العباسي طبقتين الخاصة والعامة تحت كل منهما طبقات وأتباع وفروع.

طبقات الخاصة

كان الخاصة خمس طبقات (١) الخليفة. (٢) أهله. (٣) رجال دولته. (٤) أرباب البيوتات. (٥) توابع الخاصة.

فالخليفة صاحب السلطتين الدينية والسياسية فأحرى بمن كان هذا منصبه أن يعظّم الناس شأنه ويتقرّبوا إليه بالطاعة وبذل الخدمة ويتزلّفوا بالمدح والإطراء. وأهل الخليفة هم بنو هاشم وكانوا أرفع الناس قدراً بعده ويسمّونهم الأشراف وأبناء الملوك فإذا دخلوا على الخليفة جلسوا على الكراسي وسائر الناس دونهم على الوسائد أو البُسُط، وكانوا يرتزقون على الغالب برواتب يتقاضونها من بيت المال فضلاً عن النعم والهدايا على ما يتراءى للخليفة في أمرهم، فإذا خاف تطاول أحدهم للمُلك أغلَّ يديه بالهدايا وقطع لسانه بالعطاء. فمن أعجزهم كف أذاه بالمال عمدوا إلى الفتك به، باشر ذلك أبو جعفر المنصور وسار الخلفاء على خطته فكانوا يعطون أهلهم الرواتب الباهظة والهدايا الفاخرة يسهّلون عليهم أسباب القصف واللهو ليشتغلوا بذلك عن طلب الملك وتعجز هممهم عن النهوض.

فكان الهاشميون (أي العباسيون) في الغالب من أهل السعة والرخاء يتمتّعون بشرف الملك ولا يحملون أوزاره وأعباء تبعته فانغمس أكثرهم في الترف وانهمكوا بالشراب والغناء

وابتنوا القصور الشمّاء والحدائق الغنّاء واستكثروا من الجواري وجمعوا إليهم المغنيين والقيان وقرّبوا الشعراء والأدباء. وأكثر مقامهم في البصرة بعيدين عن دور الخلفاء ودسائسها إلا من ولاّه الخليفة عملاً أو جنداً، واشتهر بعضهم بالثروة الطائلة كمحمد بن سليمان فقد بلغت أمواله نيفاً وخمسين مليون درهم غير الضياع والدور وكانت غلّته ١٠٠,٠٠٠ درهم في اليوم، وبلغت ثروة خمنة بنت عبد الرحمن الهاشمي ما لا يسعه الديوان ومع ذلك فقد كانوا يؤخذون بغير ذنبهم ويخافون الدسائس على حياتهم.

وأما رجال الدولة فنريد بهم الوزراء والكتّاب والقوّاد ومن جرى مجراهم من أرباب المناصب العالية، وكان أكثرهم إبان الدولة العباسية من الموالي وخصوصاً الفرس كالبرامكة وآل الربيع وآل سهل وآل وهب وآل خاقان وآل الفرات وآل الخصيب وآل طاهر وغيرهم. وكانوا يختلفون نفوذاً وسطوة باختلاف الخلفاء وتفاوت أدوار التمدن، ولكن الوزارة كانت على الإجمال من أوسع أبواب الكسب.

أما أهل البيوتات فهم الأشراف من غير الهاشميين ومرجع شرفهم إلى اتصال حبل قرباهم بالنسب النبوي أو بقريش وكان الخلفاء يراعون جانبهم ويفرضون لهم الأعطية والرواتب ويقدّمونهم في مجالسهم، على أن هذه الأنساب كانت أكثر نفعاً لأصحابها في عهد بني أمية مما في أيام بني العباس ولاسيما بعد سقوط العنصر العربي بقتل الأمين فلما أفضى الأمر إلى المعتصم قطع رواتب الأشراف في جملة ما قطعه من أعطيات سائر العرب ولعلها أعيدت بعد ذلك على غير قياس.

أتباع الخاصة

وللخاصة أتباع أخرجوهم من طبقات العامة بما خصّوهم به من أسباب القربى أو الخدمة وهم أربع طبقات: (١) الجند. (٢) الأعوان. (٣) الموالي. (٤) الخدم. فالجند فرق كثيرة تختلف أصلاً ونظاماً. أما الأعوان فهم خاصة الرجل ورفاقه ولا يراد بهم ما يُراد بالرفاق أو الأصدقاء اليوم فقد كان للخلفاء وسائر الخاصة من رجال الدولة والأشراف رفاق يصطحبونهم ويجالسونهم ويعيشون في منازلهم ويكون لهم رواتب يتقاضونها. أما الموالي فقد

فصّلنا الكلام عنهم سابقاً في هذا الكتاب وبيّنا أحوالهم وشروطهم وتاريخهم ولا حاجة إلى المزيد.

أما الخدم فأكثرهم في ذلك العهد الأرقّاء السود والبيض من الذكور والإناث وقد اصطلحوا أن يسموا الأرقاء البيض مماليك، والسود عبيداً ويقسّم الكلام في الخدم إلى ثلاثة أقسام: الأرقاء والخصيان والجواري.

١ ـ الأرقاء

ونأتي في هذا المقام بما يختص من هذا الموضوع بنظام الاجتماع. لقد تكاثر الأسرى في أثناء الفتوح حتى كانوا يُعدون بالألوف ويباعون بالعشرات، اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الأول وما تبعه من الفتوح البعيدة في أيام بني أمية فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١هـ في أفريقية ٣٠٠,٠٠٠ رأس من السبي فبعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠,٠٠٠ رأس ولم يسمع بسبي أعظم من هذا. وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠,٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها.

وبلغت غنائم إبراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢هـ من قلعة في الهند ١٠٠,٠٠٠ نفس، وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠هـ بقيادة إبراهيم بن ينال سبى المسلمون ١٠٠,٠٠٠ رأس غير الدواب. وفي جملة غنائم الحرب فضلاً عن الأسرى من الرجال جماعات من النساء والغلمان مما يثقل نقله فكثيراً ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣هـ إذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة أو عشرة عشرة. وربما بلغ ثمن الإنسان بضعة دراهم، ذكروا أن غنائم المسلمين في واقعة الأرك بالأندلس سنة ٥٩١هـ بلغت من الكثرة بحيث كان يباع الأسير فيها بدرهم والسيف بنصف درهم والبعير بخمسة دراهم وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم.

تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض العمال إلى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفة كل سنة من تركستان وبلاد البربر وغيرهما. فهل يستغرب بعد ذلك إذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة أو مائة أو

ألف؟ فكيف بالأمراء والقواد حتى في صدر الإسلام فإن عثمان كان له ألف مملوك. فاعتبر كم يكون عددهم في أيام الثروة والترف فقد كان الأمير في الدولة الأموية إذا سار مشى في ركابه مائة عبد أو بضع مئات أو ألف عبد وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والي خراسان سنة ٢٧٩هـ ٤٠٠٠ عبد ولم يملك أحد من ولاة خراسان قبله مثله. على أن الغالب في الغلمان إذا كثروا عند أمير أن يتخذهم جنداً يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال. فقد كان عند الأخشيد صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك يحرسه في كل ليلة ألفان. ثم صار الاستكثار من الغلمان سنّة عند الخلفاء فكان عند المقتدر بالله ١١,٠٠٠ غلام أو مملوك وفيهم البيض والسود.

٢ . الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديماً بين الآشوريين والبابليين والمصريين القدماء وأخذها عنهم اليونانيون ثم انتقلت إلى الرومان فالإفرنج. ويقال أن أول من استنبطها سيراميس ملكة آشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد. وللخصاء أغراض أشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن. فلما ظهر الإسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان في دورهم وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية فاتخذ منهم حاجباً لديوانه اسمه فتح واقتدى به غيره فشاع استخدامهم عند المسلمين مع أن الشريعة الإسلامية أميل إلى تحريمه على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون.

فكان التجار من الإفرنج وغيرهم يبتاعون الأسرى من السلاف والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الراين والألب وغيرهما إلى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الأسود . ولا يزال أهل جورجيا والجركس إلى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع . فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الأرقاء أمامهم سوق الأغنام وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والإناث حتى يحطّوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم إلى إسبانيا (الأندلس) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة أو الحرب والإناث للتسري. ولما استخدموا الخصيان في دورهم عمد تجار الرقيق وأكثرهم من اليهود إلى خصاء بعض الأرقاء وبيعهم بأثمان غالية فراجت تلك البضاعة وكثر المشتغلون بها وأنشأوا (لاصطناع) الخصيان معامل عديدة أشهرها

(معمل) الخصيان في فردون بمقاطعة اللورين في فرنسا، وكانوا يخصون أولئك المساكين وهم أطفال فيموت كثير منهم على أثر العملية فمن بقي حياً أرسلوه إلى إسبانيا فيشتريه الكبراء بثمن كبير.

٣ . الجواري

للجواري شأن كبير في تاريخ التمدن الإسلامي لا يقل عن شأن العبيد والموالي. وأصل الجواري ما يسبيه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات فهنَّ ملك الفاتحين ولو كنَّ من بنات الملوك أو الدهاقين يستخدمونهن أو يستولدونهن أو يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه ولما أفضت أحوال المسلمين إلى الترف والقصف وتدفّقت الأموال من خزائن الخلفاء والأمراء جعلوا يتهادونهنّ كما يتهادون الحلي والجواهر، فمن أحب التقرب من كبير أهدى إليه جارية أتقنت صناعة يعلم أنه راغب فيها. ذكروا أن جارية اسمها دنانير صفراء صادقة الملاحة كانت أروى الناس للغناء القديم وقد خرّجها رجل من أهل المدينة فاشتراها جعفر البرمكي وسمع الرشيد صوتها فألفها وصار يسير إلى جعفر لسماع غنائها ووهب لها هبات سنية. وعلمت امرأته زبيدة بخبرها فشكته إلى عمومته فلم ينجحوا في إرجاعه فرأت أن تشغله عنها بالجواري فأهدت إليه عشر جوارٍ منهن مارية أم المعتصم ومراجل أم المأمون وفاردة أم صالح.

وكثيراً ما كان العمال والأمراء يتقرّبون إلى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا فأهدى ابن طاهر إلى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف. وليس الاستكثار منهن حادثاً في الإسلام وإنما هو من بقايا التمدن القديم فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهن وبلغت عدتهن عند بعض الأكاسرة ٦٠٠٠ جارية وكان لجماعة من بني العباس ألف جارية.

تعليم الجواري

وكان تعليم الجواري وتربيتهن من أبواب الكسب الواسعة في ذلك العصر فيذهب أحدهم إلى دار الرقيق يبتاع جارية يتوسّم فيها الذكاء فيثقفها ويرويها الأشعار أو يلقّنها الغناء أو يحفّظها القرآن أو يعلّمها الأدب أو النحو أو العروض أو فناً من فنون المنازل ثم

يبيعها، وقد ينبغن في حفظ القرآن حتى كان منهن عند أم جعفر مائة جارية لكل واحدة ورد عُشر القرآن وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة.

فتعددت الجواري في دور الكبراء وتسابق أهل الترف إلى التفنّن في تزيينهن. وأشهر من فعل ذلك أم جعفر المذكورة فإنها لما رأت ابنها يغالي في تخنيث الغلمان وإلباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجواري سمّتهن المقدودات عممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق كأنهن من الغلمان واقتدى بها وجيهات قومها فاتخذن الجواري الغلاميات أو المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق المذهبة.

نفوذ الجواري

وطبيعي في ربّات الحسن أن يكنّ نافذات الكلمة لأن الجمال قوة والحب سلاح وكثيراً ما كان الخلفاء والأمراء يشتغلون بالجواري عن رعاية الملك ولاسيما المغنيات ولذلك كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية أو نيل رتبة أو منصب وكان المأمون يدسّ الوصائف هدية ليطلعنه على أخبار مَن شاء.

طبقات العامة

فرغنا من طبقات الخاصة وأتباعهم ونحن متكلمون عن العامة وهم أكثر عدداً وأبعد عن الحصر لأنهم لفيف من أمم شتى ولاسيما في بغداد إبان عمارتها. على أننا تسهيلاً للبحث نقسّم العامة على الإجمال إلى طبقتين كبيرتين الأولى طبقة المقرّبين من الخاصة والثانية طبقة الباعة وأهل الحرف والرعاع وغيرهم.

الطبقة الأولى

المقربون من الخاصة

نريد بهذه الطبقة نخبة العامة الذين تسمو بهم نفوسهم أو عقولهم إلى التقرّب من الخاصة بما يعجبهم أو يطربهم فيستظلون بهم ويعيشون من عطاياهم أو رواتبهم أو يرتزقون من بيع سلعهم عليهم وهم أربع فئات أهل الفنون الجميلة والأدباء والتجار والصنّاع.

١ . أهل الفنون الجميلة

المصوّرون

الفنون الجميلة ويسمّيها العرب (الآداب الرفيعة) ثلاثة: التصوير والشعر والموسيقى. فالتصوير لم يكن له شأن كبير في التمدن الإسلامي لورود القول بتحريمه وإنما كانوا يصوّرون ما يصوّرونه في الدولة الأموية والعباسية يقلّدون به ما بين أيديهم من تصوير الروم والفرس أو ما جاء به السلاجقة من صناعة المغول من أواسط تركستان، على أن التصوير ازدهر وارتقى في بلاد فارس بعد اجتماع كلمة الفرس تحت سيطرة المغول على أثر دخول هولاكو بغداد سنة ٦٥٦هـ فإن تلك الصناعة أخذت بالارتقاء من ذلك الحين. وأما الشعر والموسيقى فقد راجا وتقرّب أصحابها من الخلفاء وسائر طبقات الخاصة واكتسبوا بهما الأموال الطائلة.

كان الغناء في صدر الإسلام مكروهاً إن لم نقل محرّماً ولما تولى الخلافة أصحاب اللهو والقصف أخذ الغناء في الانتشار وأول من أباحه ونشّط أهله يزيد بن معاوية ففي أيام يزيد هذا (سنة ٦٠ ـ ٦٤هـ) ظهر الغناء في مكة واستعملت الملاهي لأنه كان صاحب لهوٍ وطرب وتفشّى الغناء الجديد في الحجاز ولاسيما المدينة، ومازال محصوراً فيها تقريباً حتى أفضت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك (سنة ١٢٥ ـ ١٢٦هـ) وكان صاحب شراب ولهو مع تهتّك وخلاعة فبعث إلى المدينة في استقدام المغنين إليه في دمشق فأخذ الغناء بالانتشار في بلاد الإسلام من ذلك الحين. فالمسلمون لما تحضّروا وأخلدوا إلى السكينة والراحة عمدوا إلى الرخاء وفي جملتها الغناء والمرجع في ذلك إلى الخلفاء والأمراء لأن الناس على دين ملوكهم ولاسيما في الحكم المطلق فإذا أحب الخليفة الغناء أحبه رجال دولته، فراجت بضاعته وكثر المغنون والمغنيات حتى اشتغل الخلفاء وأهلهم به وتعلّموا الضرب على آلاته حتى كانوا يحملون المغنين وآلاتهم في أسفارهم ولو إلى القتال فقد وجدوا في معسكرهم لما ظفر به العباسيون بنواحي أصبهان سنة ١٣١هـ ما لا يحصى من البرابط والطنابير والمزامير.

٢ ـ العلماء والأدباء والفقهاء

هم طائفة من العامة تقرّبوا إلى الخلفاء بما يلذ لهم من سماع الأخبار والنوادر أو النظر في علوم تلك الأيام الدينية واللسانية أو الأدبية أو التاريخية، ويدخل في ذلك الفقهاء والمحدثون والنحاة والأدباء من أصحاب الأخبار كالأصمعي وأبي عبيدة والكسائي والفراء وغيرهم، وكان للخلفاء رغبة في مجالستهم وسماع أبحاثهم فكانوا يقرّبونهم ويعظّمون شأنهم ويجزونهم ويفرضون لهم الأعطية والرواتب. وقد تكلّمنا عن الفقهاء ومنزلتهم في أماكن كثيرة من هذا الكتاب.

واقتدى بالخلفاء وزراؤهم وأمراؤهم كالبرامكة وآل الفرات فإنهم أغدقوا الأموال على هؤلاء فنشّطوا العلم وأهله ريثما صار العلم صناعة يرتزق بها أصحابها من الناس.

٣ ـ التجار

نريد بالتجار باعة السلع الثمينة التي تقتضيها الحضارة كالمجوهرات والمصوغات والرياش والثياب الفاخرة والآنية والرقيق. وأكثر ارتزاقهم من الخليفة وأهله وأهل دولته وسائر الخاصة من جلسائه وأعوانه. وكانوا يقيمون في بغداد والبصرة وغيرهما من المدن الإسلامية وأكثرهم من جالية الفرس والروم وغيرهم من الأمم الراقية. كانوا يحملون إلى دار السلام أصناف التجارة للارتزاق مما يتدفق من خزائن الدولة في عصر الثروة. وكان لهذه التجارات قوافل أو سفن تنقلها من الشرق إلى الغرب والشمال والجنوب وتبيعها في أسواق بغداد وغيرها من المدن الإسلامية. وأكثر الناس اشتغالاً بنقلها في البر طائفة من التجار اليهود الراذانية كانوا يتقنون اللغات الرائجة في ذلك العصر وهي العربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية ويسافرون بين الأقاليم العامرة يحملون التجارات من إقليم إلى آخر كما كان الفينيقيون إبان دولتهم.

تجار المسلمين

فلما نضج التمدن الإسلامي واشتغل المسلمون أنفسهم بالتجارة لم يقصّروا في شيء من شروطها وأتقنوها علماً وعملاً حتى ألّفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي، وبين أيدينا نسخة من كتاب (الإشارة إلى محاسن التجارة) للشيخ أبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس للهجرة فيه فوائد اقتصادية لم يسبقه أحد إليها وأبحاث في معنى النقود والسلع والمال الصامت والأعراض وتحقيق أثمان الأشياء ما لا تقلُّ قيمته عما بلغ إليه علماء الاقتصاد في هذا العصر، يدل ذلك على ما بلغ إليه المسلمون من الرقي في علم التجارة ناهيك عن أهل الرحلة منهم إلى أطراف المعمورة في ذلك العصر فقد طافوا العالم براً وبحراً من القرن الرابع للهجرة ودوّنوا رحلاتهم تسهيلاً لأسباب التجارة واكتشفوا طرقاً تجارية في البحر المحيط والبحر الهندي والبحر الأحمر في أواسط أفريقيا وآسيا لم يسبقهم إليها أحد.

وكان لابن الجصّاص بيت كبير في بغداد لبيع المجوهرات فلما كانت النكبات والمصادرات على عهد المقتدر بالله العباسي في أوائل القرن الرابع للهجرة كان ابن الجصّاص في جملة الذين صودروا، فصادره المقتدر بالله على ١٦,٠٠٠,٠٠٠ دينار وبقي له شيء كثير

من الدور والقماش والأموال والضياع وغيرها. ويقال مع ذلك أنه كان أحمق أبله فاعتبر مقدار ما كان يصل إلى التجار أهل النباهة والدهاء وقس على ذلك ثروة تجار الفرش والأثاث ولاسيما في البصرة فقد اشتهر فيها جماعة من أهل اليسار وأكثر غناهم من تجارة البحر فقد كانت سفن بعضهم تُعد بالمئات وتحمل بها التجارة إلى أنحاء العالم، ذكروا واحداً منهم اسمه الشريف عمر كان دخله ٢,٥٠٠,٠٠٠ درهم في السنة وبلغت ثروة صاحب مراكب في البصرة ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار، ومنهم رجل اسمه أحمد بن عمار كان طحاناً بالبصرة فقصد بغداد في أيام المعتصم فاتسعت حاله حتى صار يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار، فإذا اعتبرتها عشر ماله كان دخله ألف دينار في اليوم واستوزره المعتصم لأمانته ولكنه كان جاهلاً.

٤ . الصنّاع

أما الصناعة فقد أخذ المسلمون منها بنصيب كبير لأنهم كما برعوا بالاتجار في السلع برعوا أيضاً باصطناعها وارتقت الصناعة عندهم بتوالي الأجيال حتى فاقوا في بعضها البلاد الأخرى وامتازوا بصناعات خاصة بهم. فهم الذين نشروا السكر في العالم حيث نقلوه من مواطنه في الهند إلى بلاد فارس وأنشأوا له المعامل واستخرجوا منه أصنافاً لم يكن لها مثيل وهم أتقنوا صناعة الورق ونشروها في العالم وعنهم أخذها أهل أوربا بطريق الأندلس وقد امتازت بعض مدن الأندلس بصناعات كانت تفاخر بها صنائع المشرق فكان لهم في الميكانيكيات صنائع حسنة كالساعة التي اشتهرت في جامع دمشق وذكرها ابن جبير في رحلته بالقرن السادس للهجرة.

وقس على ذلك كثيراً من الآلات المائية وغير المائية المركّبة من البكر والأكر والأنابيب والأمخال وغيرها للدفع والجر والنقل ولهم فيها مؤلفات طوى الزمان بعضها، فيدل هذا وغيره على ما بلغ إليه المسلمون من إتقان فن الميكانيكيات مما يحتاج وصفه إلى كتاب برأسه.

الطبقة الثانية من العامة

نريد بهذه الطبقة سائر من بقي من الأمة وهم السواد الأعظم وفيهم الزارع والصانع والعيار والشاطر واللص والمخنث والصعلوك وغيرهم مما لا يحصى، ولسهولة الإحاطة بهم نقسّمهم إلى قسمين: أهل القرى وهم المزارعون، وأهل المدن وهم الصناع والباعة والرعاع.

١ . المزارعون أهل القرى

فالمزارعون أو الأكرة يتألف منهم معظم سكان المملكة وهم أصل ثروتها وأكثرهم من أهل الذمة يقيمون في القرى إلا من أسلم منهم فينزل في المدن، وكانوا يتكلمون لغات البلاد الأصلية السريانية والآرامية واليونانية في العراق والشام، والقبطية بمصر، والفارسية في بلاد فارس، والتركية في تركستان ما وراء النهر، وأخذ العنصر العربي يتغلّب على عناصرهم واللغة العربية تتغلّب على ألسنتهم والإسلام يتغلّب على أديانهم حتى ساد الإسلام عليهم جميعاً وعمّت العربية البلاد الواقعة غربي دجلة وهي العراق والشام ومصر وأفريقية والسودان وصارت تعدّ بلاداً عربية وأكثر أهلها مسلمون. وانقرضت اللغات التي كانت منتشرة فيها إلا بقايا قليلة من السريانية في بعض القرى المتباعدة من الشام والعراق. أما شرقي دجلة بفارس وتركستان والهند فقد ساد الإسلام أيضاً وانتشرت اللغة العربية بين أهل العلم ولكن ألسنة أهل البلاد ظلت حية يتفاهمون بها إلى الآن.

٢ . العامة سكان المدن

هم نفيُ مَن يأمُّ المدن من أهل المطامع وطلاب المكاسب بالتجارة أو الجندية أو الأدب أو الشعر وتقعد بهم نفوسهم عن اللحاق بأهل الهمم وأصحاب القرائح فيضطرون إلى احتراف ما يتعيّشون به مما لا تعوزه همة أو رأي.

وعامة المدن طبقتان: الطبقة الأولى المرتزقون بالصناعة والتجارة وهم طائفتان:

(١) الصنّاع أصحاب الصناعات اليدوية كالحدادين والحياكين والخياطين والحلاقين والنجارين والصيادين والخبازين والطحانين ومن جرى مجراهم.

(٢) الباعة الذين يبيعون البقل واللحم وغيرهما من أصناف المأكولات على أنواعها وبعض المنسوجات والسلع الدنيئة، وهم طوائف كثيرة كالزياتين والبقالين والجزارين وباعة الأقمشة والطحين والخضر ونحوها.

والطبقة الثانية المرتزقون بالدعارة والنهب واللصوصية وهم أصناف كثيرة نشأت في بلاد الإسلام على أثر الفتن والانشقاق بين أهل الدولة لا يستطيع أهل هذا الجيل تصور أمثالهم لبُعد ذلك عن مألوفهم إلا الذين أدركوا متشرّدي بيروت المعروفين بالزعران وهم طائفة من أهل البطالة كانوا يحترفون السرقة والتحرش بأبناء السبيل. والزعران مثال صغير لرعاع ذلك العصر فقد كان في بغداد وغيرها من مدن الإسلام طوائف كثيرة تُعرف بالعيارين والشطار والصعاليك والزواقيل ونحوهم، وكثيراً ما استفحل أمر بعضهم حتى تعجز الحكومة عنهم وقد تستنجدهم في بعض حروبها.

العيارون

ظهر العيارون ببغداد في أواخر القرن الثاني للهجرة وكان لهم في الفتنة بين الأمين والمأمون شأن كبير لأن الأمين لما حوصر في تلك المدينة وعجز جنده عن الدفاع استنجد العيارين وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم الميازر وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص سمّوها الخود ودرقاً من الخوص والبواري قد قرنت وُحشيت بالحصى والرمل. ونظّموهم نظام الجند على كل عشرة عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، ولكل ذي مرتبة على مقدار ما تحت يده، ومعهم أناس عراة قد جعل في أعناقهم الجلاجل والصدف الأحمر والأصفر ومقاود ولجماً من مكانس ومذاب. وبلغ عددهم نحو خمسين ألف عيار وساروا للحرب يضربون الأعداء بالمقلاع والحصى وكانوا أهل مهارة بذلك فأبلوا بلاءً حسناً لكنهم لم يثبتوا أمام المجانيق والجنود المنظّمة فعادت العائدة عليهم وقتل منهم خلق كثير.

وحدث نحو ذلك من العيارين في حرب المستعين والمعتز سنة ٢٥١هـ إذ حُصِر المستعين بالله ببغداد . نحو حصار الأمين فيها . فاستعان بالعيارين وفرض لهم الأموال وجعل عليهم عريفاً اسمه بينونه وعمل لهم تراساً من البواري المقيّرة وأعطاهم المخالي ليجعلوا فيها

الأحجار. على أنهم كانوا كلما حدثت فتنة أهلية اغتنموا اشتغال الدولة بها وهمّوا بالمنازل والحوانيت وأخذوا الأموال. وكثيراً ما كانت تحدث أمثال هذه الفتن في بغداد من القرن الثالث للهجرة وما بعده. وكانوا يزدادون قوة كلما ازدادت الدولة ضعفاً وتكاثرت تعدياتهم على بغداد كلما تكاثرت الفتن فيها إما بين الحكام في التنازع على السلطة أو الأموال وإما بين العامة تعصّباً لبعض المذاهب ولاسيما بين السنة والشيعة أو الحنفية والشافعية. فلم ينقضِ النصف الأول من القرن الخامس للهجرة حتى تسلّط العيارون على بغداد وجَبوا الأسواق وأخذوا ما كان يأخذه رجال الدولة وانتظموا انتظام الشرطة أو الجند واشتهر من رؤسائهم في ذلك العصر رجل اسمه الطقطقي وآخر اسمه الزيبق بطل القصة المشهورة.

وظهر العيارون في سائر المدن الإسلامية وعظم شأنهم وكثيراً ما كان الوزراء وغيرهم من أرباب الحل والعقد يقاسمونهم ويسكتون عنهم.

الشطّار

هم طائفة أخرى من أهل الدعارة كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم مئزر يأتزرون به على صدورهم يعرف بأزرة الشطار وكانوا أكثر انتشاراً في المملكة الإسلامية من العيارين وأطول بقاء منهم وظهروا في الأندلس ولهم فيها نوادر ونكات وتركيبات وأخبار مضحكة تملأ الصحف الكبار لكثرتها وتضحك الثكلى على أن اسمهم كان يختلف باختلاف البلاد فهم يُعرفون في العراق بالشطار وفي خراسان يسمّونهم سر بداران وفي المغرب الصقورة وسماهم ابن بطوطة (الفُتاك) وذكر تفشيهم في أيامه (القرن الثامن للهجرة) وأشار إلى اجتماعهم على الفساد وقطع الطرق وتكاثرهم في نواحي سبزوار حتى هجموا على مدينة بيهق وملكوها وملكوا غيرها وجنّدوا الجنود وركبوا الخيل وولوا أحدهم سلطاناً عليهم وانحاز إليه العبيد يفرّون من مواليهم فكل من جاء من هؤلاء أعطاه ذلك السلطان مالاً وفرساً إذا ظهرت منه شجاعة أمّره إلى آخر ما ذكر.

ولم يكن الشطار وغيرهم من أهل الشرور يعدون اللصوصية جريمة وإنما كانوا يعدونها شطارة وصناعة. وكان أولئك اللصوص إذا شاخ أحدهم ربما تاب فتستخدمه الحكومة في

مساعدتها على كشف السرقات. وكان في خدمة الدولة العباسية جماعة من هؤلاء الشيوخ يقال لهم (التوابون) على أنهم كثيراً ما كانوا يقاسمون اللصوص ما يسرقونه ويكتمون أمرهم.

طوائف أخرى من الرعاع

وهناك طوائف أخرى من رعاع العامة أو من في معناهم تكاثروا في عصر الانحطاط بالمملكة العباسية كالصعاليك والزواقيل والحرافيش وغيرهم، كان طلاب السلطة يستعينون بهم في حروبهم بعضهم على بعض ويعدون بالآلاف فقد كان مع أبي دلف عشرون ألفاً من الصعاليك ويدخل في معنى هذه الطوائف ممن تجمهروا للارتزاق بالتعدي على أصحاب الأموال (العبيد) وكانوا كثيرين لا يخلو منهم منزل كما رأيت. فلما اختلت الأحوال وضعف أسيادهم ذهبت الهيبة من قلوبهم حتى إذا سنحت لهم فرصة نهضوا مع الناهضين. وربما انتحلوا لنهوضهم دعوة دينية يقومون بها كما فعل صاحب الزنج في أواسط القرن الثالث للهجرة فإنه قام قرب البصرة باسم الشيعة العلوية وكان في ضواحيها جماعة من العبيد يكسحون السباخ فدعاهم إلى النهوض معه على أن يحررهم من الرق ويريحهم من التعب وكانوا قد شاهدوا رفاقهم الأرقاء البيض (المماليك الأتراك) يتمرّدون على الخلفاء فاقتدوا بهم. فكل عبد سمع بهذه الدعوة تبعها حتى استفحل أمرهم وضربوا أسيادهم بالسياط واجتمع منهم مئات الألوف وحاربوا الدولة العباسية بضع عشرة سنة قتلوا في أثنائها ٢,٥٠٠,٠٠٠ نفس من الرجال والنساء والأطفال مما تقشعر له الأبدان. وانتهت تلك الدعوة بقتل زعيمها وتفرّق أصحابه. وأراد البجة بمصر أن يفعلوا مثل الزنج بالعراق فلم يفلحوا، وقد يُعد من هذا القبيل أيضاً الحشاشون وهم طائفة من الفوضويين ظهروا في القرن الخامس للهجرة وجعلوا دأبهم الفتك بأهل السلطة غدراً وكان لهم شأن كبير في تاريخ الإسلام.

ومن طبقات العامة (المخنّثون) وكانوا في الحجاز قبل الإسلام وهم جماعة من أهل الخلاعة انتشروا بالمدينة بعد الإسلام على أثر ظهور اللهو والقصف وكثرة الأموال وكثيراً ما كانوا يفسدون النساء يتوسطون بينهن وبين الرجال، ولما انتشر الغناء في المملكة الإسلامية انتشر المخنثون معه وتكاثروا في بغداد والشام ومصر والأندلس وسائر المغرب. وفي ما خلا ذلك فقد كان في المدن من طبقات العامة ما لا يحصيه عَدّ من أهل الاحتيال للمعايش

بأساليب الخداع والشعوذة أو نحوهما ولكل صنف من هذه الأصناف اسم خاص، وربما زاد عددها جميعاً على عشرين نوعاً كقولهم المخطراني والكاغاني والبانوان والقرسي والعواء والمشعبذ والفلور والاسطيل والمزبدي وغيرهم.

أخلاط العامة

العامة في المدن أخلاط من غوغاء ولفيف من أمم شتى وصناعات شتى وهم جهال أتباع من سبق إليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول، ومع ذلك فطلاب السلطة كانوا يراعون جانبهم ويقرّبونهم بما يرضيهم. ذكروا من دهاء معاوية أن رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق في حال منصرفهم عن واقعة صفين فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال: هذه ناقتي أخذت مني في صفين فارتفع أمرهما إلى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينه يشهدون أنها ناقته فقضى معاوية على الكوفي وأمره بتسليم البعير إليه فقال الكوفي: (أصلحك الله إنه جمل وليس بناقة) فقال معاوية: (هذا حكم قد أمضي) ودس إلى الكوفي بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره ودفع إليه ضعفيه وبرّه وأحسن إليه وقال له: (ابلغ علياً أني أقابله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل).

وبلغ من أمرهم في طاعته أنه صلّى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة في يوم الأربعاء وأعادوه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها وركنوا إلى قول عمرو بن العاص أن علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته، ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعن علي سُنّة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير.

وذكروا عن عامة بغداد إبان التمدن الإسلامي أن رجلاً منهم رفع إلى بعض الولاة وشاية برجل من علماء الكلام زعم أنه يتزندق، فسأله الوالي عن مذهب الرجل فقال: (إنه مرجئ قدري أباضي رافضي يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص) فقال له الوالي: (ما أدري على أي شيء أحسدك على علمك بالمقالات أو على بصرك بالأنساب؟).

وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون في بغداد للمناظرة في أبي بكر وعمر وعلي (عليه السلام) ومعاوية وكان بعض العامة يأتون فيستمعون فتصدّى أكبرهم لحية ذات يوم لبعض المباحثين وقال له: كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان؟

فقال له الرجل: فما تقول أنت في علي؟

قال: أليس هو أبا فاطمة؟

قال: ومن هي فاطمة؟

قال: امرأة النبي (صلّى الله عليه وآله) بنت عائشة أخت معاوية.

قال: فما كانت قصة علي؟

قال قتل في غزاة حنين مع النبي. وقد كان عبد الله بن علي حين خرج في طلب مروان إلى الشام وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر ونزل عبد الله بن علي الشام ووجه إلى أبي العباس السفاح أشياخاً من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة فحلفوا لأبي العباس السفاح أنهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة.

الآداب الاجتماعية في المملكة الإسلامية

نريد بالآداب الاجتماعية ما يدور بين الناس من المعاملات الأدبية والأمور الاعتبارية في هيأتهم الاجتماعية وما يتبادلونه من العلائق العائلية على ما تقتضيه عاداتهم وأخلاقهم وطبائع إقليمهم وكان للعرب قبل الإسلام صفات أشهرها:

١ . العصبية.

٢ . الشجاعة.

٣ . الكرم.

٤ . الوفاء.

٥ . الاستقلال.

٦ . النجدة.

٧ . الأريحية.

٨ . الثأر.

٩ . الشيخوخة.

١٠ . الغيرة.

وبلغ من غيرة بعضهم في الجاهلية أن يقتلوا بناتهم أو يئدوهن لئلا يرتكبن ما يجرّ عليهم العار.

وكان للمرأة في الجاهلية شأن وإرادة وكانت صاحبة أنفة ورأي وحزم فنبغت غير واحدة منهن في السياسة والحرب والأدب والشعر والتجارة والصناعة ولاسيما في أوائل الإسلام على أثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول فاشتهرت جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الأمثال وأكثرها في المدينة مقر الخلافة الإسلامية في ذلك العهد، ناهيك بمن اشتهرت منهنَّ بالبسالة في أثناء الغزوات ففي معركة أحد وقع لواء قريش في ساحة القتال فلم يزل مطروحاً حتى أخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا بها، وفعلت هند

بنت عتبة امرأة أبي سفيان في تلك المعركة ما لم يفعله الرجال فجمعت إليها نسوة أخذن في أيديهنّ الدفوف يضربن خلف الرجال وهي تنشد في تحريضهم على الثبات. ولما انتهت الواقعة خرجت مع النسوة تمتاز جثث القتلى فوجدت بينها جثة حمزة عم النبي (صلّى الله عليه وآله) فبقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها من غيظها فلم تستطع أن تستسيغها فلفظتها ثم علت صخرة وأنشدت أشعاراً تفخر بالفوز على المسلمين.

ونساء الجاهلية كن يصحبن الرجال إلى ساحة القتال فيداوين الجرحى ويحملن قرب الماء وممن اشتهرن بالشجاعة أم عمارة بنت كعب الأنصارية وأم حكيم بنت الحارث والخنساء الشاعرة أخت صخر وغيرهن.

ونبغ بالرأي والحزم غير واحدة أشهرهن خديجة بنت خويلد وكانت عاقلة حازمة لبيبة ذات شرف ومال، تنتقي مَن اشتهر من الرجال بالأمانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، ولما سمعت بشهرة النبي (صلّى الله عليه وآله) قبل الدعوة بالأمانة وكرم الأخلاق بعثت إليه أن يخرج في مالها تاجراً إلى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من الرجال فلما أفلح في تجارته عرضت عليه أن يتزوج بها فأجابها، وهي أول من أسلم وقد آزرته للقيام بالدعوة فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه مِن ردٍّ عليه أو تكذيب له فيحزنه ويخبرها به إلا ثبّتته وخفّفت عنه وهوّنت عليه ومازالت على ذلك حتى ماتت.

الآداب الاجتماعية في العصر الإسلامي الأول

ويقسم العصر الإسلامي الأول إلى أيام الخلفاء الأربعة وأيام الأمويين فنذكر الآداب الاجتماعية في كل منهما على حدة.

١ . الآداب الاجتماعية في عصر الخلفاء الأربعة

قلما أصاب المناقب البدوية تغيير في عصر الخلفاء الأربعة إلا ما اقتضاه الدين من جمع كلمة العرب تحت لوائه فضعفت بذلك العصبية بين القبائل والبطون واجتمع العرب من قحطان وعدنان في ظل الإسلام.

أما ما بقي من مناقب العرب فظلت على نحو ما كانت عليه وبعضها زاد تمكّناً في نفوسهم كالوفاء والنجدة والعفة والأنفة لأن الإسلام زادها رونقاً وقوة بالعدل والتقوى فكان الخليفة أو أميره إذا وعد وفى وإذا عاهد أنجز لا يثنيه عن ذلك طمع أو خوف، اعتبر ما كان من وفائهم لأهل الذمة إذ عاهدوهم على أن يحموهم ما أدوا الجزية فكانوا إذا شغلهم عن حمايتهم شاغل ردّوا الجزية إلى أصحابها واعتذروا ولو لم يردّوها ما طالبهم بها أحد وإنما كانوا يفعلون ذلك من عند أنفسهم، والشجاعة كانت سائدة في ذلك العصر لما تتطلبه الحاجة إليها في الفتح والجهاد، وقس على ذلك سائر المناقب ولاسيما الاستقلال والحرية فإنهما زادا قوة في صدر الإسلام لما توخّاه الخلفاء الأربعة من التسوية بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم حتى أصبحوا يخاطبون الخليفة أو الأمير بجسارة وأنفة كما يخاطبون بعض أقرانهم وإذا رأوا فيه اعوجاجاً هدّدوه أو عنّفوه وأصلحوه فإذا لم يطعهم قتلوه كما فعلوا بعثمان وكثيراً ما كان المسلمون يحصبون أميرهم وهو يخطب فيهم إذا أنكروا شيئاً من أقواله أو أعماله.

أما المرأة فاتجهت قواها في صدر الإسلام إلى سداد الرأي ومزاولة الأدب والشعر مع بقاء العفة والأنفة فاشتهر منهن غير واحدة جرت بذكرهن الأمثال، ولما نضج التمدن الإسلامي اشتهرت نساء عديدات بالسياسة والصلاح والدهاء وغير ذلك.

٢ ـ الآداب الاجتماعية في عصر الأمويين

أصاب المناقب العربية في الدولة الأموية تغيير يختلف عما أصابها في عصر الخلفاء الأربعة باختلاف أحوال الدولتين. فالأمويون لما جعلوا همّهم الرجوع إلى ما كان لهم من السيادة في الجاهلية أغفلوا كل ما كانوا يخافون حيلولته بينهم وبين ذلك المرمى واستبقوا ما يتوسّمون منه نفعاً لغرضهم.

والشجاعة لم يكن لهم بد منها فقرّبوا أصحابها، والعصبية كانت ملجأهم الأكبر في مناوأة أعدائهم من شيعة علي (عليه السلام) وغيرهم، فبعد أن ضعفت في عصر الخلفاء الأربعة وقامت جامعة الدين مكانها أعادها الأمويون إلى نحو ما كانت عليه قبل الإسلام.

أما الوفاء فكان عثرة في طريق أغراضهم لما كانوا يعلمونه من حق مناظريهم في الخلافة وقوتهم فلجأوا إلى الغدر والفتك، وكان معاوية زعيمهم ومؤسس دولتهم يفعل ذلك سراً ويموّه

غدره بالحلم والكرم والدهاء وحسن الأسلوب. فتدرّج الخلفاء بعده من بني مروان إلى الغدر جهاراً وأول من فعل ذلك عبد الملك وجرى عمالهم على هذه الخطة وأفرطوا فيها فاشتهر بها منهم زياد بن أبيه وابنه عبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وغيرهم.

تقييد الأفكار في أيام بني أمية

أما الاستقلال وحرية القول فجاهد الأمويون في مقاومتهما وقيّدوا الألسنة بإرادتهم تقييداً شديداً فكان ذلك عظيماً على الذين تعوّدوا الحق والحرية فعاقبهم الأمويون جزاء حريتهم واستقلال أفكارهم بالعذاب الشديد، ومن لم يستطيعوا مقاومته جهاراً قتلوه سراً، بدأوا بذلك من أيام عثمان قبل قبضهم على مقاليد الدولة في الشام وقد جرّأهم عليه ضعف هذا الخليفة ورغبته في إرضاء أهله ونصرتهم ولولا ذلك ما استطاع معاوية اضطهاد أبي ذر الغفاري ونفيه لأنه جاهر باستبداد أهل الدولة بأموال المسلمين.

فلما أفضت الخلافة إلى معاوية لم يرَ بدّاً من الضغط على أفكار أهل الاستقلال والحرية واستعمل الشدة في ذلك فقتل حجر بن عدي وعمرو بن الحمق وأصحابهما لأنهم قالوا بصدق: (إن علياً لا يجوز لعنه على المنابر) فأصبح الناس يخافون على أرواحهم وأخذوا يتعوّدون السكوت عن الحق ثم لجأوا إلى التمويه والرياء حتى في المشهور الثابت كما فعل ذلك الرجل لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد فأطرى عمل معاوية حتى قال له: (إنك لو لم تولّ هذا أمور المسلمين لأضعتها) ولكن الحرية كانت لا تزال حية في نفوس أهل الرئاسة ممن لم يكن يهمّهم التزلف إلى أهل الدولة وربما كانت الدولة أحوج إلى نصرتهم كالأحنف بن قيس التميمي فإنه كان يقول الحق ولا يبالي وكان ممن شهد الاحتفال بتولية يزيد وسمع ما قاله ذلك المنافق فاكتفى بالسكوت عن المدح، وأدرك معاوية فكره فاستفهمه عن سبب سكوته فلم يبال أن قال: (أخاف الله إذا كذبت وأخافكم إذا صدقت).

واقتدى بمعاوية من عاصره من الأمراء أو جاء بعده من الخلفاء فنشأ جيل من العرب يهون عليهم السكوت عن الحق وكثر أهل التزلّف والرياء وذهبت حرية القول بتوالي الأعوام.

أما النجدة والأريحية في العصر الإسلامي الأول فكانتا متأصّلتين في نفوس العرب وإن اضطر الأمويون إلى الإغضاء عنهما في بعض الأحيان فلما ضعف العنصر العربي في الدولة

العباسية بعد تسلّط الأجناد الأتراك وتحولت الأغراض في أهل الدولة إلى كسب الأموال بأية وسيلة كانت، ذهبت الأريحية والنجدة.

المرأة في عصر الأمويين

بدأت المرأة بتبديل طباعها في أيام الأمويين لأن العفة والغيرة أصابتها في ذلك العصر صدمة قوية بتكاثر الجواري والغلمان وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار الغناء والمسكر فتجرّأ الشعراء على التشبيب والتغزّل وتكاثر المخنّثون في المدن وتوسّطوا بين الرجال والنساء بالباطل، فأخذ الفساد يتفشّى بين الناس وضعفت غيرة الرجال وقلّت عفة الناس حتى كان الشعراء يتشبّبون ببنات الخلفاء كما فعل عبد الرحمن ببنت معاوية فالشعراء لم يكونوا يكفون عن التشبيب مع تعرّضهم للخطر وقلما كان يجسر على ذلك غير القرشيين، وأكثرهم جسارة عمر بن أبي ربيعة فإنه كان يصطحب ابن سريج المغني فيركبان على نجيبين ويلقيان الحاج فيتعرّضان للنساء وينشدان الأشعار لا يباليان أن تكون فيهن بنت الخليفة أو امرأته، والظاهر أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لما يرون من ارتياح النساء إليه لأن المرأة تفتخر بأن يثني الشعراء على جمالها وإن لم يرض أهلها، فقد كان لعبد الملك بن مروان بنت أرادت الحج فخاف أن يشبّب بها ابن أبي ربيعة فاستكتب الحجاج إليه إن هو فعل ذلك أصابه بكل مكروه، فلما قضت حجها خرجت فمر بها رجل فقالت له: (من أنت؟) فقال: (من أهل مكة) قالت: (عليك وعلى بلدك لعنة الله) قال: (ولم ذاك؟) قالت: (حججت فدخلت مكة ومعي من الجواري ما لم تر الأعين مثلهن فلم يستطع الفاسق ابن أبي ربيعة أن يزودنا من شعره أبياتاً نلهو بها في الطريق من سفرنا) قال: (إني لا أراه إلا قد فعل) قالت: (فآتنا بشيء إن كان قاله ولك بكل بيت عشرة دنانير) فمضى إليه فأخبره فقال: (لقد فعلت ولكن أحب أن تكتم عليّ) وأنشده قصيدة قالها فيها.

فكانت أيام بني أمية من حيث العفة والغيرة عصر انتقال من البداوة إلى الحضارة، فلما انقضى عصر الأمويين ذهب ما بقي من سذاجة البداوة في طبائع العرب واستسلم الناس للترف والرخاء وضعفت الغيرة وأبيح التشبيب وشاع على ألسنة الشعراء حتى صاروا يصدّرون به قصائد المدح والفخر، وكان الخلفاء الأولون من بني العباس لا يزالون على مقربة من

البداوة (١) فأنكروا ذلك ونهوا عنه. ومن أشدهم غيرة المهدي بن المنصور فإن بشاراً أنشده مديحاً فيه تشبيب فنهاه عن التشبيب البتة فصار إذا مدحه بدأ بالمدح فظل التشبيب مستقبحاً حتى أباحه الرشيد وألحَّ في نظمه فآل ذلك طبعاً إلى ضعف الغيرة.

الآداب الاجتماعية في العصر العباسي

قد رأيت ما أصاب المناقب العربية الفطرية من التغيير بعد الإسلام بما طرأ عليها من عوامل الحضارة والانغماس في الرخاء والقصف والاختلاط بأهل المدن فغلبت عليهم الضعة وركنوا إلى بسطة العيش والتنعّم بمطالب الحياة الحيوانية.

المرأة في العصر العباسي

وآل تكاثر الجواري وشيوع التسري إلى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال حتى صاروا يتهادون الجواري الروميات والتركيات والفارسيات وهنّ أجمل صورة وأشرق وجهاً من نساء العرب. فبعد أن كان الرجل لا يعرف غير امرأته والمرأة لا تفكر في غير زوجها وهي واثقة بأمانته فإذا هو قد تشتّتت عواطفه بين عدة نساء فقلّت غيرته عليها، ولما رأته مشغولاً عنها قلَّت ثقتها به إلا من عصمها عقلها وشرفها، فلم ينضج التمدن في العصر العباسي حتى تنوسيت المرأة العربية في المدن وذهبت حريتها وغيرتها وصارت هي نفسها تهدي زوجها الجارية وتحبّب إليه التقرب منها لا يهمّها ذلك ولا تغار عليه. وبعد أن كان العرب في الجاهلية وصدر الإسلام إذا علموا بحب رجل لفتاة منعوه من زواجها، صاروا يساعدونه في الحصول عليها.

فأفضى ذلك إلى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستقلال فكرها، فاحتقرها الرجل، فلم يبق من المناقب العربية في العصر العباسي إلا السخاء لأنه كان لازماً لقوام الدولة وسلامتها وتأييدها بل هو كان من أهم قواعد الارتزاق في ذلك العصر.

الارتزاق بالسخاء

إن الارتزاق في التمدن الحديث مبني على قواعد اقتصادية عمرانية تحفظ توازن القوى ونتائجها فينال الإنسان من رزقه على مقدار كدّه وجدّه مع اعتبار درجة عقله وذكائه سواء كان ذلك بالتجارة أو الزراعة أو الصناعة أو غيرها. وقد وضعوا لكل من أبواب الرزق قواعد في تقدير الأرباح لا تتعداها إلا في أحوال خصوصية ترتفع فيها الأسعار فجأة، وفي كل حال فالصانع تقدّر أجرته بمقدار عمله والتاجر يقدر ربحه بنسبة رأس ماله.

أما في التمدن الإسلامي فقد كان الارتزاق يقرب من ذلك في طبقة العامة من المزارعين والباعة وأهل الصناعات. وأما في الخاصة وأتباعهم فكان على أسلوب آخر لا مثيل له بين المتمدنين في هذا العصر ومداره (السخاء) المتسلسل من الخلفاء فالوزراء فما بعدهم ممن يعيشون حول البلاط ويرتزقون من رجال الدولة، ومصدر هذه الأرزاق بيت المال وهو في قبضة الخليفة أو من يقوم مقامه من الوزراء أو القوّاد أو الأمراء على حسب أطوار النفوذ. والأموال تأتي بيت المال من جباية الخراج والجزية.

سُنّة الخلفاء في الارتزاق

والأموال التي تبقى في خزانة الدولة يعطى بعضها رواتب لموظفيها ويفرق سائرها في من بقي من الخاصة بين جوائز ورواتب فتتسع أحوالهم بالجاه أكثر مما بالمال فيضطرون إلى الإنفاق لحفظ مقامهم، فينفقون على من يتعلق بهم فينتقل المال على هذه الصورة من الخليفة ووزرائه وعماله إلى حواشيهم وأتباعهم ومن هؤلاء إلى الباعة وأهل الأسواق فيعود إلى العامة كأنه لم يؤخذ منهم، وهي سنّة في الارتزاق تظهر لأول وهلة أنها من خصائص التمدن الإسلامي ولكنها كانت على نحو ذلك في التمدن القديم. والسبب في بقاء هذه السنّة مع ذهاب غيرها من المناقب أنها لازمة لبقاء الدول في تلك العصور وخصوصاً في الإسلام منذ طمع بنو أمية بالخلافة واستخدموا الأموال في ابتياع الأحزاب واسترضاء كبار الرجال فعوّدوا الناس العطاء فلما قام العباسيون لم يستطيعوا الرجوع عنه بل تجاوزوه من بعض الوجوه فصار السخاء ضرورياً لقيام الدولة وإلا فسد عليها حماتها وتمرّد أهلها، أما بالنسبة إلى العامة فكانوا يسترضونهم بأبسط أساليب السخاء وهي الضيافة فكانوا ينصبون لهم الموائد يدعونهم إلى الطعام فيجتمع على مائدة الأمير ألوف من العامة يأكلون معاً صباحاً ومساء. كان ذلك

دأبهم في عصر الخلفاء الأربعة جروا به على سنّة العرب ثم احتاجوا إليه بعد الإسلام في استرضاء القبائل المختلفة فبالغوا فيه حتى نصبوا الموائد على الطرق وأول من فعل ذلك عبيد الله بن عباس.

وجرى الدهاة من عمال الأمويين على هذه السنّة فنصبوا الموائد على الطرق فكان الحجاج يضع في كل يوم من أيام رمضان ألف خوان وفي سائر الأيام خمسمائة خوان على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرز بسكر وكان يدور هو بنفسه على الموائد يتفقّدها يحملونه إليها في محفة وينتقلون به من خوان إلى خوان فإذا رأى أرز ليس عليها سكر أمر الخباز أن يجيء بسكرها فإذا أبطأ حتى أكلت الأرز بلا سكر أمر به فضرب ٢٠٠ سوط، وكذلك كان يفعل عمال الحجاج في سائر المدن فكان بعضهم ينصب الموائد مرتين في اليوم للغداء والعشاء وكان يوسف بن عمر عامل هشام بن عبد الملك ينصب خمسمائة خوان وكان يزيد بن هبيرة يضع ألف خوان يطعم الناس، وقس على ذلك سائر العمال وغيرهم كابن طولون بمصر فقد كانت له موائد يحضرها الخاص والعام وربما فرّقوا الطعام بلا موائد كما كان يفعل لؤلؤ الحاجب في أيام الفاطميين بمصر فإنه كان يفرّق ١٢,٠٠٠ رغيف مع قدر الطعام كل يوم وإذا دخل رمضان ضاعف ذلك ويقف هو بنفسه ليفرّقه. غير ما كانوا يبذلونه في استرضاء العامة من الأموال على سبيل الصدقة فكان لكل من الخلفاء والأمراء والوزراء مال ينفقه صدقة، وإطعام العامة على هذه الصورة لم يكن خاصاً بالمسلمين وإنما هو أيضاً من سنن العصور الغابرة فقد كان العامة في رومية يعيشون من أطعمة يفرّقها فيهم أهل الدولة من الدقيق واللحم، وكان بعض ملوك الفرس ينصب ٥٠٠ مائدة يجعل على كل واحدة نصف شاة وعلبة حلوى أو عسل وعشرة أرغفة وآنية شراب أو لبن وسمكة مشوية والمسلمون جروا على هذا الترتيب اقتداءً بالفرس مثل اقتدائهم بهم في كثير من آدابهم الاجتماعية، وكان الخلفاء يستحلّون مكافأة الشعراء وغيرهم من بيت المال لأنهم يعدون ذلك في سبيل مصلحة الدولة وإن لم يصرحوا به دفاعاً عن أنفسهم بل كانوا إذا سمعوا الانتقاد عليهم من أهل النفوذ الديني سكتوا واسترضوهم، ودافعوا عن أنفسهم كما فعل الرشيد والمهدي بسفيان الثوري.

ارتزاق الكبير من الصغير

ذلك ما يقال في ارتزاق الصغير من الكبير في التمدن الإسلامي. أما ارتزاق الكبير من الصغير فقد كان بعضه بالسخاء أيضاً ولكن على سبيل الهدية فيعدّون عطية الأمير إلى الصغير جائزة أو صلة ويسمون ما يقدمه الأصاغر إلى الأمير أو الوزير هدية، وكانت الهدايا شائعة على الخصوص في العصر العباسي فإذا تولى الأمير على بلدٍ فأول ما يدخلها يبعث أهلها إليه بالهدايا من الأموال والجواري والدواب والثياب وهو يبعث إلى الوزير الذي ولاّه أو الخليفة بالأموال على سبيل الهدية أيضاً وإذا طال مقامه أصبحت تلك الهدايا فرضاً واجباً يبعث بها كل سنة فإذا أمسكها سنة عدّوا إمساكه تمرّداً.

المجاملة في المعاملة

المجاملة من الطباع الراسخة في نفوس المسلمين وغيرهم من مولدي العرب اليوم، وذهب بعض الباحثين أنها فطرية في أصل أرومتهم وما هي كذلك وإنما تولدت فيهم بتوالي الأجيال وتقلب الأحوال.

وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يداهنون الناس ويجاملونهم رغبةً في نصرتهم أو قطع ألسنتهم ويعدُّون ذلك (حلماً). وكان معاوية إذا أعجزه اصطناع الأحزاب بالعطاء أو بالحلم أو بالسيف جهاراً عمد إلى قتلهم غيلة وكان أنصاره يعرفون ذلك فيه وأنه يصانعهم ليغلب بهم فكانوا يصانعونه طمعاً بمال أو منصب فكانت المصانعة والمداهنة أساس سياسة معاوية. فلما قام الفرس لمناهضة الأمويين ونصرة العباسيين تراجع أبو مسلم عن الوفاء والأريحية وقتل على التهمة فأصبح الناس يخافون على حياتهم وإن لم يقترفوا ذنباً، فزادت حاجتهم إلى المصانعة، ولما فاز أبو مسلم بحربه وسلم مقاليد الدولة إلى العباسيين كانت فوضى بينهم وبين العلويين فلما تقلدها المنصور وطمع باستخلاصها للعباسيين فتك بأبي مسلم ثم قتل من قتله من العلويين وغيرهم فتضاغنت القلوب بين العباسيين والفرس وبينهم وبين العلويين وهم لا يستغنون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم فاستخدموهم على غلٍّ ولجأوا إلى الاحتراس منهم واتقاء أذاهم إلى الجاسوسية فبثوا الأرصاد على وزرائهم وعمالهم يستطلعون أخبارهم ويبعثون بها إليهم سراً. والأرصاد نوعان: الأول: أصحاب البريد في الأطراف،

والعمال يعلمون أنهم رقباء على أعمالهم، والثاني: العيون الخفية يتخذونهم من الجواري والغلمان مما يقدمه الخليفة هدية إلى وزيره أو عامله فيوليهم الوزير بعض شؤون منزله فيدخلون في جملة الندماء أو المغنين أو القيان أو أصحاب الشراب ويكونون رقباء عليه ينقلون أخباره سراً إلى الخليفة. وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء. فشيوع الجاسوسية على هذه الصورة مع التضاغن والتحاسد بعث على المصانعة والمجاملة.

المعيشة العائلية

١ . الطعام

كان طعام العرب قبل الإسلام قاصراً على الألبان وما يستخرج منها كالسمن والزبد والجبن ومن التمر والحبوب واللحوم يأكلونها على أبسط ما يكون من أحوالها كما يفعل أهل البادية اليوم وأكثر ألبانهم ولحومهم من الإبل، وقد يصنعون منها أطعمة تتركّب على نسب معينة كالثريد فإنه يصنع من اللحم واللبن والخبز، ذلك هو طعام أهل اليسار منهم وأصحاب الضيافة، وأما الفقراء فقلّما يأكلون لحم الإبل أو الضأن وإنما كانوا يقتاتون بلحم الضبّ أو بالجراد أو الخنافس أو العقارب وإذا جاعوا أكلوا العلهز وهو وبر الإبل يخلطونه مع الدم فيطبخونه، وكان حال القرشيين قريباً من ذلك وربما أكلوا القرامة ونحاتة القرن والأظلاف والمناسب من برادتها أو القرة وهي الدقيق المختلط بالشعر، وكانوا إذا عطشوا ولم يجدوا ماءً شربوا الفظ وهو عصارة الفرث أو المجدوح وهو مصل دم الإبل.

فلما جاء الإسلام وافتتحوا العراق وفارس ومصر دُهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس ووقعوا على ألوان من الأطعمة لم يعرفوها فأشكل عليهم أمرها وظفر بعضهم بجراب فيه كافور فأحضره إلى أصحابه فظنوه ملحاً فطبخوا طعاماً ووضعوه فيه فلم يجدوا له طعماً ولم يعلموا ما هو فرآه رجل عرف ما فيه فاشتراه منهم بقميص خلق يساوي درهمين، ورأى بعضهم الخبز الرقاق فظنه رقاعاً يكتب عليها وشاهدوا الأرز فظنوه طعاماً مسموماً ثم ما لبثوا أن أقاموا بين أولئك الأقوام حتى تعرفوا مأكلهم ولاسيما الفرس فأخذوها عنهم كما أخذوا

أكثر مبادئ الحضارة وكثيراً من العادات والآداب وليس في الشرع الإسلامي ما يمنع تمتعهم بالطيبات من الأطعمة إلا ما جاء النص بتحريمه.

٢ . اللباس

ولباس العرب كان بسيطاً مثل طعامهم وسائر طرق معايشهم ولا يزال حتى الآن في عرب البادية نحو ما كان عليه قبل الإسلام وهو عبارة عن القميص والحلة والإزار والشملة والعباءة والعمامة ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الأقبية وإنما هي فارسية وكذلك النعال والخفاف ولكن بعض الخاصة كان يلبسها، وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم وثيابهم على الإجمال قصيرة إلى أسفل الركب.

وأفضل مثال لألبسة العرب لباس النبي (صلّى الله عليه وآله) فقد ذكروا أن أحب الألبسة إليه البرود والبياض والحبرة وهي ضروب من البرود فيه حمرة وكان كمه قصيراً إلى الرسغ يلبس أحياناً حلة.

وأول من أقدم على تقليد الأعاجم بأسباب البذخ معاوية وعماله. فزياد بن أبيه أمير العراق أول من قلد الفرس بلبس القباء والديباج وهو أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة.

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه وتفننوا بأنواع الأنسجة وأحبوا الوشي وأكثروا من لبسه فقلدهم الناس في ذلك فراجت المنسوجات الموشاة في أيامهم، واتخذوا كثيراً من ألبسة الروم ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق وكان الأحنف يقول: (لا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلّدت السيوف).

اللباس في عهد الحضارة

فلما أفضت الخلافة إلى العباسيين واستسلموا للفرس وأخذوا نظامهم وآدابهم قلّدوهم بالألبسة وجعلوا ذلك بأمر رسمي من أوائل دولتهم، فأمر المنصور رجاله سنة ١٥٣هـ أن يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها بدل العمائم أو يعتَمّوا فوقها

بعمامة صغيرة، وأن يعلّقوا السيوف في أوساطهم وأن يكون اللباس الأسود عاماً فيهم وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الأمويين، فلابد للداخل على الخليفة العباسي من لبس جبة سوداء يسمونها (السواد) تغطي سائر الثياب، وألبسهم المنصور دراريع كتب على ظهورها: (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) وبعث إلى عماله في سائر الأقطار أن يأمروا رجالهم بمثل ذلك.

على أن رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم ألبسة لمجالس الأنس والشراب يسمونها (ثياب المنادمة) وهي أثواب مصبغة بالألوان الزاهية الأحمر أو الأصفر أو الأخضر يصقلونها حتى تلمع وتشرق ويتضمخون بالخلوق ويتطيبون ولهم ألبسة يتخففون بها في منازلهم وأخرى يلبسونها في الأسفار وغير ذلك.

والخضاب كان مستحسناً عندهم وأصله هندي أخذه الفرس عن الهنود ومنه انتقل إلى بلاد العرب قبل الإسلام. ويقال أن أول من خضب بالسواد من أهل مكة عبد المطلب. ولما ظهر الإسلام وانتشر العرب في الأرض تعلموا فنون الخضاب فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة وبالزعفران للصفرة فضلاً عن الخضاب الأسود وكانوا يبيضون شعورهم بالكبريت.

٣ . المأوى

كان العرب قبل الإسلام أهل خيام وأنعام يحملون منازلهم على ظهورهم إلا من أقام منهم في مكة أو المدينة أو الطائف أو غيرها من مدن الجاهلية ولما نهضوا للفتح كانت البداوة من جملة أسباب تغلبهم، فلما فتحوا الأمصار تحاشوا سكنى المدن ونصبوا مضاربهم في ضواحيها أو بنوا بيوتاً من القصب معسكراً لهم، فما لبثوا أن تحضروا حتى تحولت تلك المعسكرات إلى مدن عامرة ونزلوا المدن القديمة التي فتحوها وبنوا المنازل والقصور يقلدون بها أبنية الدول السالفة.

وكانت أساليب البناء يومئذ تختلف باختلاف الأمم ولكل منها نمط تولّد عندها بتوالي الأجيال أما رأساً أو اقتباساً، وأهمها النمط البيزنطي في الشام ومصر والفارسي في فارس وخراسان والقوطي في الأندلس وما يليها، فلما تحضّر المسلمون وعمدوا إلى تشييد المباني استخدموا في بنائها مهندسين من الروم والفرس فكانوا يخططونها على ما عرفوه من الأساليب

ثم أخذ المسلمون تلك الصناعة وأدخلوا فيها تغييراً يوافق الذوق الشرقي ويلائم الإسلام، فتولد نمط إسلامي خاص يعرف بالنمط العربي أو الشرقي يختلف باختلاف الأصقاع واختلاف العصور والدول وأقسامه ترجع إلى اثني عشر.

١. ليست البداوة هي التي توحي بالعفة، وإنما هي الفطرة، والفساد طارئ، فكما لا يصح أن يقال أن السرقة من تراجع الحضارة، كذلك لا يصح بالنسبة إلى الفساد.

حضارة المملكة الإسلامية

نريد بالحضارة ما تبلغ إليه الدولة من الثروة وبسطة العيش والتوسع بأسباب الترف والرغد في أرقى درجات عمرانها، والدولة الإسلامية أدركت تلك الدرجات أولاً في العصر العباسي ببغداد من أواسط القرن الثاني للهجرة إلى أواسط الرابع وفي العصر الأموي بالأندلس في القرن الرابع، وفي العصر الفاطمي بمصر من أواسط القرن الرابع إلى أواسط السادس.

وأسباب الحضارة في ما نحن فيه تقسم إلى قسمين كبيرين:

الأول: العمارة، أي إنشاء المدن وبناء المصانع والقصور.

والثاني: الثروة وبها يتم ما يقتضيه الترف من الانغماس في النعيم والرخاء وبسطة العيش.

فنتكلم أولاً عن المدن، فالمباني. ثم نبين ما بلغت إليه الأمة من الثروة وأسباب الترف والرفاه.

عمارة المدن

إن المدن التي سكنها المسلمون وحواها التمدن الإسلامي تعد بالمئات وهي منتشرة في آسيا وأفريقيا وأوروبا ومنها ما كان عامراً قبل الإسلام ومنها ما بناه المسلمون لأنفسهم، ولنبدأ بالقطر المصري فهو اليوم في نهضة مالية تضاعفت فيها الثروة إلى حد استغربه الناس وخافوا رد الفعل لأنهم رأوا غلاء في الأسعار فجأةً لم يعهدوا مثله وزادت مساحة الأرض الزراعية ستة أضعافها في قرن واحد، فبعد أن كانت مساحتها في أيام المماليك نحو المليون فدان وبعض المليون صارت ثمانية ملايين فدان، وبعد أن كان الفدان يباع ببضعة عشر جنيهاً

بيع بمائة جنيه أو مائة وخمسين جنيهاً أو أكثر، فكيف لو علموا أن مساحة الأرض الزراعية إبان التمدن الإسلامي زادت على ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ فدان؟

عدد السكان

ويقال نحو ذلك في عدد السكان فلو قيل في أواسط القرن الماضي أن القطر المصري سيبلغ عدد سكانه إلى عشرة ملايين أو ١٢ مليوناً لعدّوا قولنا من الخرافات أو كما قال الدكتور كلوت بك: (من عادات الشرقيين المبالغة) لأن عددهم في أيامه لم يكن يزيد على ٣,٠٠٠,٠٠٠ نفس فكيف يصدق زيادته إلى أربعة أضعافه؟ وقياساً على ما تقدم لا نرى مانعاً من بلوغ سكان القطر المصري إلى ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ نفس، فلا غرابة إذا بلغوا هذا العدد إبان التمدن الإسلامي.

مدينة القاهرة

وأشهر مدن القطر المصري في الإسلام الفسطاط والقاهرة وقد ذكرنا عمارة الفسطاط، وأما القاهرة فقد بناها القائد جوهر في أواسط القرن الرابع للهجرة معقلاً لمولاه المعز لدين الله الفاطمي وجنده، فظلت في أثناء دولة الفاطميين لم تتسع عمارتها وإنما كانت العمارة للفسطاط والقطائع. وذكر المقريزي أنه كان في هاتين المدينتين غير القاهرة ١٠٠,٠٠٠ بيت في بعضها مائة إنسان ومائتان إذ يكون البيت مؤلفاً من خمس طبقات أو ست أو سبع ومع ذلك فهي في تقديره لا تزيد على ثلث بغداد فكم تكون عمارة هذه؟ ولما أفضت الدولة إلى صلاح الدين أذن للناس بسكنى القاهرة فاتصلت بمدينة الفسطاط تسمى (مصر) فلما صارتا مدينة واحدة أطلقوا عليهما اسم (مصر والقاهرة) ثم قالوا: (مصر القاهرة) ولما خربت الفسطاط ظل هذا الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور.

قرطبة

وكانت عامرة قبل الإسلام وكان محيط المدينة الأصلية ٣٣,٠٠٠ ذراع عليها سبعة أبواب فأنشأ المسلمون حولها ٢١ ربضاً وفي كل ربض عدد من المساجد والأسواق

والحمامات، فصار طولها ٢٤ ميلاً وعرضها ستة أميال أو ١٤٤ ميلاً مربعاً (ومساحة لندن ١١٧ ميلاً) وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين على طول ضفة الوادي المذكور وقد أحصوا مباني هذه المدينة وأرباضها إبان عمرانها إحصاءات مختلفة خلاصتها أن عدد الأبنية فيها كما يأتي:

عدد:

١١٣,٠٠٠ دور الرعايا.

٤٣٠ دور القصر الكبير.

٦٣٠٠ دور أهل الدولة.

٣٨٧٣ المساجد.

٩٠٠ الحمامات.

المجموع: ١٢٤,٥٠٣

وذكروا أن عدد الأبنية بلغ في أيام ابن أبي عامر ٢٠٠,٠٠٠ دار للرعية و٦٠,٣٠٠ دار لأهل الدولة و٨٠,٤٥٥ حانوتاً غير الحمامات والخانات.

غرناطة

وأما غرناطة فكانوا يسمونها دمشق الأندلس لكثرة ثمارها وأعنابها وفاكهتها وتمتاز عن سائر مدائن الأندلس بنهر يتوزع على دورها وأسواقها وحماماتها وأرجائها الداخلة والخارجة وبساتينها كما يتوزع نهر بردى في دمشق، وبلغت غرناطة قمة مجدها في الدولة النصرية وأشهر ملوكها ابن الأحمر في أواسط القرن الثامن للهجرة وهو الذي بنى قصر الحمراء فيها كما بنى عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء في قرطبة، ونتقدم إلى ذكر القصور والمباني.

١ . مباني الأمويين في الشام

لم يصلنا من أخبار مباني الأمويين في الشام ما يستحق الذكر إلا الجامع الأموي الذي جدد بناءه الوليد بن عبد الملك بدمشق وكان قبل الإسلام كنيسة على اسم القديس يوحنا فلما فتح المسلمون دمشق صالحوا أهلها على أن تقسم الكنيسة مناصفة المسيحيون يصلون

في نصفها الغربي والمسلمون في النصف الشرقي. فلما أفضت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك أخذ النصفين جميعاً وجدد بناء الجامع فاستقدم نحو ١٢,٠٠٠ صانع من بلاد الروم تأنقوا في بنائه فأنزلوا جدرانه كلها بفصوص من الفسيفساء خلطت بأنواع الأصبغة الغريبة فمثلت أشجاراً وفرعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببدائع الصنعة الأنيقة، فأنفق في ذلك نحو ١١,٢٠٠,٠٠٠ دينار، وكان طول الجامع من الشرق إلى الغرب ٣٠٠ ذراع وعرضه ٢٠٠ ذراع قائم على ٦٨ عموداً، وأعظم ما فيه قبة مصنوعة من الرصاص متصلة بالمحراب عظيمة الاستدارة والارتفاع.

٢ . مباني العباسيين وغيرهم

أول من شيّد الأبنية منهم المنصور فبنى القبة الخضراء ليحوّل أذهان الناس عن الكعبة إليها وبنى الجوامع والحصون والقصور في بغداد كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرهما وأخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع واقتدى بهم وزراؤهم وأمراؤهم فأقاموا قصوراً فخمة تعرف غالباً بأسماء بانيها، والمتوكل كان مغرماً بالعمارة بنى ثلاثة أبنية تعرف بالهاروني والجوسق والجعفري بذل في بنائها جميعاً أكثر من ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم. ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء فضلاً عن المنتزهات فبنى إسماعيل بن علي منتزهاً أنفق فيه ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وكان المعتضد بالله محباً للعمارة أيضاً فبنى قصراً في الجانب الشرقي من بغداد سماه (قصر التاج) لم يتم في أيامه فأتمه ابنه المكتفي، ولما كان المعتضد مشغولاً في بناء قصر التاج اتفق خروجه إلى آمد فلما عاد رأى الدخان يرتفع إلى الدار فكرهه وابتنى على ميلين منه قصراً سماه (قصر الثريا) طوله ثلاثة فراسخ أنفق فيه ٤٠٠,٠٠٠ دينار. وبنى المقتدر بالله في أول القرن الرابع داراً فسيحة ذات بساتين مونقة عرفت بدار الشجرة لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام إيوانها وبين بساتينها شجر له ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجوهر على شكل الثمار، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة إذا مرّ الهواءِ عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير، وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً، ومثله عن يسار البركة قد أُلبسوا أنواع الحرير المدبج مقلدين

بالسيوف وفي أيديهم المطارد يتحركون على خط واحد فيظن الناظر إليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه.

وفي دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف بالدار المعزية أنفق في بنائه ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار وموّه سقفه بالذهب. ذكروا أنهم لما أرادوا هدمه بذلوا في حك الذهب من سقفه ٨٠٠٠ دينار. ولم يبق لهذه القصور أو الدور أثر الآن.

أما الأندلس فقد بنى بها آل مروان قصوراً سارت بذكرها الركبان ولا يزال بعض آثارها باقياً إلى اليوم وأكثرها في قرطبة وغرناطة فمنها في قرطبة القصر الكبير.

وهو آية من آيات الزمان شرع ببنائه عبد الرحمن الداخل في أواسط القرن الثاني للهجرة وأتمه من جاء بعده وبنوا القصور في داخله، وهذا القصر مؤلف من ٣٤٠ داراً بينها قصور فخمة لكل منها اسم خاص كالكامل والمجدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرستق وقصر السرور والبديع، وقد غالوا في زخرفها وإتقانها وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض وجلبوا إليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه إليها ووزعوه فيها وفي ساحاتها ونواحيها في تلك القنوات تؤديها إلى المصانع صوراً مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخاصة والنحاس المموّه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة ينصبُّ فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة أو الطيور الجميلة على أشكال بديعة.

مسجد قرطبة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ذكروا أنه لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منه ولا أعجب بناءً ووصل اتساعه عرضاً بـ(٢٨٥) ذراعاً وطولاً بـ(٣٣٠) ذراعاً. وتحول الجامع المذكور بعد دخول قرطبة في حوزة الإفرنج إلى كنيسة ولا يزال على بنائه الإسلامي وعليه النقوش الشرقية والكتابة العربية.

قصر الزهراء

ومن قصورهم في قرطبة (الزهراء) بدأ بإنشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥هـ على أربعة أميال من المدينة وأتمها ابنه الحكم فاستغرق البناء أربعين سنة، وهي عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق إلى الغرب ٢,٧٠٠ ذراع وعرضه ١,٥٠٠ ذراع وعدد أعمدته أو سواريه ٤,٣٠٠ سارية بعضها حمل إلى قرطبة من رومية وأفريقية وتونس وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردي والمجزع، وكان في الزهراء مسجد فخم وعدة قصور وحدائق على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير إلى آخر ما ذكروا في وصفها وكان الناصر ينفق كل سنة لأجل القصر مليونين من الدنانير.

الزاهرة

واقتدى بالخليفة الناصر المنصور بن أبي عامر فابتنى سنة ٣٦٨هـ قصراً لإقامته سماه (الزاهرة) ليكون معقلاً له يحميه من أعدائه فأقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الأعظم وحشد له الصناع والعمال وبالغ في رفع أسواره وجعل فيه أبنية كثيرة من جملتها اهراء ودواوين وأقطع ما حولها لوزرائه وكتّابه وقواده فابتنوا الدور والقصور وغرسوا الحدائق فقامت الأسواق وتنافس الناس بالنزول في أكنافها تقرّباً من صاحب الدولة حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة واتصلت بهما الزهراء من الجهة الأخرى فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء السراج.

قنطرة قرطبة

ويجدر بنا في هذا المقام الإشارة إلى القنطرة الفخمة التي أقامها المسلمون على نهر قرطبة وكانت مبنية قبل الإسلام ثم سقطت فأعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقي وطولها ٨٠٠ ذراع وعرضها عشرون ذراعاً وارتفاعها ٦٠ ذراعاً وعدد حناياها ١٨ حنية وأبراجها ١٩ برجاً.

قصر الحمراء وأمثاله

الحمراء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظاً إلى الآن يقصده السياح من كل مكان بناه ابن الأحمر في أواسط القرن الثامن للهجرة في أرض مساحتها ٣٥ فداناً على

مرتفع فسيح ويُقال أنها سُميت (الحمراء) نسبة إلى لون قرميدها. وفي هذا القصر كانت بركة السباع وفي وسطها تماثيل أُسود تقذف المياه من أفواهها على شكلٍ جميل إلى غيرها من القصور الكثيرة الفخمة لهم ولغيرهم.

٣ . مباني آل طولون بمصر

أنشأ بنو طولون في مصر أبنية فخمة أشهرها الجامع الذي بناه أحمد بن طولون ولا تزال آثاره إلى الآن بالقاهرة، والقصر الذي بناه في القطائع وجعله ميداناً كبيراً، ولما توفي أحمد زاد فيه ابنه خمارويه وجعل الميدان كله بستاناً زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ونقل إليه الودى اللطيف الذي ينال ثمره القائم ومنه ما يتناوله الجالس من أصناف خيار النخل، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعّم العجيب وأنواع الورد وزرع فيه الزعفران وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر إلى فساق معمولة ويفيض منها الماء إلى مجارٍ تسقي سائر البستان وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات يتعهّدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة إلى آخر الأوصاف العجيبة.

وعمل في داره مجلساً برواقه سماه بيت الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد المعمول في أحسن نقش وأظرف تفصيل وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمول إلى آخر الأوصاف العجيبة فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا، وجعل بين يدي هذا البناء آنية ملأها زئبقاً، وذلك أنه شكا إلى طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتدليك فأنف من ذلك فقال: (لا أقدر على وضع يد أحد عليَّ) فقال له: (تأمر بعمل بركة من زئبق) فعمل بركة يقال أنها خمسون ذراعاً طولاً في خمسين ذراعاً عرضاً وملأها بالزئبق فأنفق في ذلك أموالاً عظيمة. وجعل في أركان البركة سككاً من الفضة الخالصة وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة وعمل فرشاً من أدم يُملأ بالهواء حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه ويلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التي في حلقة الفضة بسكك الفضة وينام على هذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج

ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه، وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية يرى لها في الليالي المقمرة منظر بهيج إذا تألق نور القمر بنور الزئبق.

٤ . مباني الفاطميين

ولما أفضى الأمر إلى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الأزهر وهو عامر إلى اليوم وقصوراً أشهرها القصران الشرقي والغربي وأنفقوا على الأخير منهما ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار فقس على ذلك ما أنفقوه في سائر القصور والدور كدار الفطرة ودار الديباج وغيرهما.

٥ . مباني الأيوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة إلى الأكراد كان أعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة بناها صلاح الدين ليعتصم بها من الشيعة ولا تزال قائمة إلى اليوم.

الثروة والرخاء

إن اشتغال الخلفاء والأمراء بإنشاء المدن وبناء القصور والمنتزهات إنما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الأموال.

ولما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بأيديهم كانوا أكثر الناس ثروة فلما عهدوا بها إلى الوزراء تحولت الثروة إليهم وأصبح الخلفاء أحياناً مثل سائر الفقراء. ونأتي هنا ببعض التفصيل على سبيل المثال ذكروا أن المكتفي خلّف ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار.

وأول من أثرى من الوزراء البرامكة في عهد الرشيد فكثرت ضياعهم (الأبعديات والجفالك) حتى بلغت غلة يحيى وابنه جعفر فقط ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار في السنة، ولما نكبوا وقبضت أموالهم بلغ مقدار ما قبض منها ٣,٠٧٦,٠٠٠ دينار غير الضياع والدور والرياش، ويشبه الوزراء ببغداد الكتّاب بمصر وقد أثرى منهم جماعة كبيرة كآل الماردايي في أواسط القرن الثالث للهجرة فملك أحدهم وهو محمد بن علي الماردايي ما قيمته ٣,٠٠٠,٠٠٠ دينار من الضياع بالشام ومصر والأمتعة مع كثرة ما كانوا ينفقونه على الناس من الرواتب. وكانت غلته ٤٠٠,٠٠٠ دينار في السنة وهو مع ذلك لا يعد شيئاً بالنظر إلى

البرامكة، ومثلهم آل المغربي وآل الكتامي بمصر أيضاً. وخلف يعقوب بن الليث الصغار في بيت ماله ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم و٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار وقس على ذلك أموال السلاطين المماليك بمصر ورجالهم، وكانت مخالفاتهم من الجواهر والحلي تقدر بالأرطال والقناطير والصناديق، مثال ذلك ما خلفه الأمير سيف الدين تنكز التستري منها ١٩ رطلاً من الزمرد والياقوت وستة صناديق جواهر وفصوص ألماس و١٢٥٠ حبة لؤلؤ كبار مدورة مما زنته درهم إلى مثقال و٢٤٠,٠٠٠ مثقال ذهب و١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم فضة وأربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالحلق والأساور وستة قناطير فضة و١٢٠٠,٠٠٠ دينار، فقس عليه ثروة الخلفاء الفاطميين والسلاطين المماليك وغيرهم من سلاطين المسلمين وملوكهم، وإبراهيم الموصلي مغني الرشيد توفي عن ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم.

نتائج الثروة

١ . التأنّق في الطعام

قد رأيت في كلامنا عن أطعمة العرب أنها كانت ساذجة قليلة فبعد أن كانوا يحسبون الكافور ملحاً والرز طعاماً مسموماً والخبز المرقق رقاعاً وبعد أن أكلوا العلهز والخنافس والعقارب وعجنوا الحنطة بنخالها، فاقوا الفرس والروم في التأنّق والتنعّم فتفنّنوا في معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التماساً للمزيد من اللذة، فكان الخلفاء والملوك . من بني هاشم (العباسيون) . إذا جلسوا إلى الطعام يقف الأطباء بين أيديهم ومعهم البراني والأدوية الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء على اصطلاحهم في ذلك العصر، ويقفون في الصيف ومعهم الأشربة الباردة والجوارشنات الموافقة لذلك الفصل.

وكانوا يربّون الطيور الداجنة على أطعمة مغذية يتوهمون أنها تزيد في لذة طعمها أو نفعها أو تسهل هضمها، فكانوا يعلفون الفراريج الجوز المقشر ويسقونها اللبن الحليب، وبلغت علوفة البط وحدها على أيام المقتدر العباسي ٣٠ قفيزاً من الشعير كل شهر، فاعتبر كم يحتاج إليه أحدهم إذا أراد نقل مطبخه من الدواب لحمله؟ ذكروا أن عمرو بن الليث الصغار كان مطبخه يُحمل على ٦٠٠ جمل وكان للخليفة المقتفي العباسي ثمانون جملاً تحمل الماء من دجلة لشرب عياله وأما مقدار المطبوخ من كل طعام فلا قياس له على أنهم كانوا

يجعلونه أضعاف ما يحتاجون إليه مخافة أن يطرقهم الأضياف فكانت الأطعمة تفيض بمقادير كبيرة يحملها الخدم ويبيعونها ويرتفقون بأثمانها فنتج من الانغماس في الأكل والتفنن في التشويق إليه كثير من علل القناة الهضمية توالت على أهل الترف في ذلك العهد كالقولنج وتلبك المعدة والدوزنطاريا وغيرها من عواقب النهم في اللحوم كالنقرس والروماتزم ونحوهما، وتسلطت السويداء على أمزجتهم وتولتهم حدة المزاج فجرهم الغضب إلى سرعة الفتك والقتل من تغلب السويداء كما يتضح من مراجعة أخبارهم وعلّة ذلك في الغالب فساد الهضم، واشتهر من الخلفاء والأمراء غير واحد من الأكلة منهم (في أيام بني أمية) معاوية بن أبي سفيان وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وسليمان بن عبد الملك واشتهر من بني العباس محمد الأمين.

٢ . البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الإسلام يتوخّون الخشونة في العيش والتعفّف بالمطعم والملبس، وأول من اتخذ زي الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام، وأحب الأمويون الوشي كما تقدم وأكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك فاجتمع عنده ١٢,٠٠٠ قميص وشي و١٠,٠٠٠ تكة حرير. وكانت كسوته إذا حج تحمل على ٧٠٠ جمل، وكان الصناع يتبارون في إتقان هذه الصنائع ويغالون في زيادة ثمنها لما يلاقونه من البذل في ابتياعها لتوفر الثروة بين أيدي الناس ولاسيما الخليفة وأهل دولته فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الألبسة لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الريبقي خمسمائة دينار وهم مع ذلك يكثرون من اقتنائها، وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البذخ، وقد تزيد على أضعاف حاجتهم إليها فيجتمع عند أحدهم عشرات أو مئات أو ألوف من القطعة الواحدة ولاسيما الخلفاء مثاله ما خلفه المكتفي بالله من الألبسة وهو:

٤,٠٠٠,٠٠٠ من الثياب المقصورة سوى الخامات.

٦٣,٠٠٠ من الأثواب الخراسانية المروية.

٨٠٠٠ من الملاءات.

١٣,٠٠٠ من العمائم المروية.

١,٨٠٠ من الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب.

١٨,٠٠٠ من البطائن التي تحمل من كرمان في أنابيب القصب.

١٨,٠٠٠ من الألبسة الأرمنية.

وتوفي ذو اليمينين وفي خزانته ١٣٠٠ سروال لم يستعملها ووجدوا في كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سروال ديبقي ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته ألف سروال ديبقي بألف تكة حرير. ولما جهّز خمارويه ابنته قطر الندى إلى الخليفة المعتضد العباسي كان من جملة الجهاز ألف تكة ثمن الواحدة عشرة دنانير، وقس عليه سائر الملابس.

٣ . الأثاث والرياش والمجوهرات

كان الخلفاء الأربعة يجلسون على الأرض مثل سائر الناس وكذلك عمالهم، وأول من اتخذ السرير في الإسلام معاوية بن أبي سفيان، ويريدون بالسرير المقعد أو الكرسي الكبير، ولم يقدم معاوية على ذلك إلا بعد استئذان المسلمين واعتذر بثقل جسمه فزعم أنه بدين فأذنوا له فاتخذه واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء.

ولما خرج المسلمون للفتح في زمن الخلفاء الأربعة كان أكثر ما رأوه من الفرش الفاخر والمجوهرات الثمينة في فارس عند فتح المدائن فدهشوا منه ولم يعرفوا قيمته، مثلاً وقع لهم بساط يسمونه القطيف طوله ٦٠ ذراعاً في ٦٠ مطرزاً بالصور وعليه فصوص كالأنهار أرضها مذهبة وخلال ذلك فصوص كالدر وفي حافاته كالأرض المزروعة والأرض المقبلة بالنبات في الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهرة الذهب وثمرة الجوهر، وحُمل هذا البساط إلى عمر في المدينة فقطّعه وفرّقه في أصحابه مثل سائر الغنائم. ولما انتقلت الخلافة إلى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها فلما تأيّد سلطانهم مالوا إلى الترفّه فأخذوا بتقليد الدول السابقة حتى غالوا في الأثاث والرياش كل مغالاة، كالبساط الذي كان لأم المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب وأعينها يواقيت وجواهر أنفقت في صنعه ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم. وغالى الخلفاء العباسيون في اقتناء المجوهرات وأكثر ما تناقله المسلمون من الحجارة الكريمة في أوائل دولتهم مأخوذة من غنائم الفرس لأنهم غنموا ما يفوق الحصر من الجواهر التي قضى الفرس أجيالاً وهم يجمعونها

ويتوارثونها فقبضها المسلمون صفقة واحدة ولم يعرفوا قيمتها كما بيّناه آنفاً، وأصابوا نحو ذلك لما حاربوا الأكراد فإنهم غنموا سفطاً فيه جواهر حملوه إلى عمر في جملة الغنائم فأمر ببيعه وقسمة ثمنه في المسلمين فباعه وقسّمه وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفاً، ولما تحضّروا صاروا يشترون الجواهر بالأثمان الغالية فاشترى الرشيد فص ياقوت أحمر بأربعين ألف دينار، واشترى فصاً آخر بمائة وعشرين ألف درهم وعرض أحد تجار المصوغات ببغداد على يحيى بن خالد سفط جوهر فساومه على ثمنه بسبعة ملايين درهم، وإن المأمون أعطى بوران في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت وقد أوقد الشموع العنبر في كل واحدة مائة منّ وثلثان وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت، وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها أدوات الترف والبذخ يسمونها (خزائن) بعضها للفرش والبعض الآخر للجوهر وآخر للطيب وهكذا، فمما أخرجوه من خزانة الجوهر في أيام الشدة على عهد المستنصر بالله (توفي سنة ٤٨٧هـ) صندوق فيه سبعة أمداد زمرد سألوا الصيّاغ عن قيمتها فقالوا إنما نعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجوداً.

واستخرجوا خريطة فيها جوهرة قال الصاغة أنه لا قيمة لها وأصل ثمنها ٧٠٠,٠٠٠ دينار بيعت يومئذ بعشرين ألف دينار، ووجدوا ما لا يحصى من أقداح البلور المنقوش والمجرود وصحوناً من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير وفي مكان آخر ١٨,٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح أثمانها بين عشرة دنانير وألف دينار لكل قطعة، وصوانٍ من الذهب المجراة بالميناء وغير المجراة المنقوشة بأنواع النقوش و١٧,٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب، ومما خلّفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١,٧٠٠,٠٠٠ دينار، ووجدوا في خزائن الفرش من أصناف الأثاث والرياش ما يعدُّ بالألوف، من ذلك ١٠٠,٠٠٠ قطعة خسرواني أكثرها مذهب ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة ٣٥٠٠ دينار وأجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الأحمر المذهب و٣٠٠٠ قطعة خسرواني أحمر مطرز بأبيض من هدبها لم يفصل من كساء البيوت، وكان في خزانة السلاح للفاطميين سيف الحسين بن علي (عليه السلام) ودرقة حمزة بن عبد المطلب (عليه السلام) وسيف جعفر الصادق (عليه السلام). وقس على ذلك سائر ملوك الإسلام في عصر الترف فقد كان عند سنجر بن ملكشاه ١٠٣٠ رطلاً من الجوهر ولم يسمع بمثله عند الملوك.

٤ . التسري

هو اقتناء الجواري للتمتع بهن أو استيلادهن، وكانت العرب في كل حال تحتقر أبناء الجواري حتى نبغ منهم ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من بنات يزدجرد فرغب الناس في التسري، وزادت رغبة المسلمين في التسري إبان الحضارة حتى أصبح أكثر أبناء الخلفاء من أولاد الجواري وأكثر نساء أهل الدولة منهنّ واقتدى بهم سائر الوجهاء والأغنياء، فعمدوا إلى اقتناء السراري ومن ولدت له تزوجها أو أعتقها، فبلغ عددهنّ عند بعض الخلفاء عدة آلاف، ذكروا أنه كان للمتوكل العباسي ٤٠٠٠ جارية وطأهن جميعاً وعلم الأمراء برغبته فيهنّ فتقرّبوا إليه بالهدايا منهنّ فأهداه عبد الله بن طاهر ٤٠٠ وصيفة وكان لنصر الدولة صاحب ميافرقين ٣٦٠ سرية على عدد أيام السنة غير ما كانوا يقتنونه من الجواري للغناء فقد كان عند الرشيد ٢٠٠٠ جارية منهن ٣٠٠ قينة للغناء والضرب على آلات الطرب.

وأصبح الاستكثار من الجواري عادة مألوفة حتى صار النساء يقتنينهنّ للزينة، فكان عند أم جعفر البرمكي ٤٠٠ وصيفة يخدمنها، وقس على ذلك سائر دول المسلمين في المشرق والمغرب وقد فاق الفاطميون سواهم في الإكثار من الجواري أيضاً فكان في قصر الحاكم بأمر الله ١٠,٠٠٠ جارية وخادم وكان عند أخته السيدة الشريفة ست الملك ٨٠٠٠ جارية منها ١٥٠٠ من البنات الأبكار، ولما قبض صلاح الدين على قصورهم وجد في القصر الكبير ١٢٠٠٠ نسمة ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأهله وأولاده، غير الخدم والغلمان والأمتعة والتحف وأطلق صلاح الدين البيع فيهم فاستمروا يبيعون عشر سنين، ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات إلى بضعة آلاف أو مائة ألف دينار، وأول من بذل في هذا السبيل إلى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك فابتاع الزلفاء الجارية الشهيرة بمليون درهم، وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار وجارية أخرى اشتراها من إبراهيم الموصلي بمبلغ ٣٦,٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم أرسلها إلى الفضل، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها بذل فأبى فأمر فأوقروا قاربه ذهباً فبلغت قيمة ذلك ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الأموال في اقتنائهن.

٥ ـ السخاء

وتدرّج المسلمون فيه بتدرّجهم في الحضارة والمدنية وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق فكان الأمويون يعطون بالألف درهم أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية أو الكسوة أو الخيل وإذا توسّموا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف أو عشرات الألوف أو مائة ألف أو مئات الألوف، أما العباسيون فكانت الثروة في أيامهم أوفر فبلغت أعطياتهم عشرات الملايين والغالب أن يكون سخاؤهم لغرض سياسي يعود نفعه على الدولة كما فعل المنصور إذ أعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم فرّقها في أعمامه ووجوه قواده ليقطع ألسنتهم عن مقاومته، ولما تولى ابنه المهدي استكتب أسماء أولاد المهاجرين والأنصار وجلس مجلساً عاماً فرّق فيه ٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم وقرر لكل واحد من أهل بيته ٦٠٠٠ درهم كل سنة، وأعطى المغيرة بن حبيب ألف فريضة يضعها حيث يشاء، وفرّق الرشيد في يوم واحد ١٣,٥٠٠,٠٠٠ دينار وطرب يوماً فنثر على الناس ٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم، وأعطى الهادي لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالاً أرسله إليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم، وأعطى الأمين إلى سليمان بن أبي جعفر مليون درهم، واختص الأمين في أساليب السخاء بأنه كان يأمر بإيقار زورق الطالب ذهباً أو فضة وكان قصره على شاطئ دجلة فإذا جاء شاعر أو طالب في زورق وأخذته الأريحية أو استخفّه الطرب قال: (أوقروا زورق هذا ذهباً أو فضة). وأجاز المأمون طبيبه بمليون درهم وألف كر حنطة وفرّق المأمون في ساعة ٢٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم.

ومدحه أعرابي فأجازه بثلاثين ألف دينار وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح.

سخاء البرامكة

على أن العصر العباسي الأول إنما زها بالبرامكة وهم الذين رغّبوا الخلفاء بالسخاء وأولهم خالد بن برمك وزير المنصور والثروة لم تنضج في أيامه ومع ذلك فالوافدون على الخلفاء للاستجداء كانوا يسمونهم السُؤّال فقال خالد: (هذا والله اسم استقِلّه لطلاب الخير وأرفع قدر الكريم على أن يسمى به أمثال هؤلاء المؤملين لأن فيهم الأشراف والأحرار وأبناء

النعيم ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدباً ولكننا نسمّيهم الدوار) وكان ابنه يحيى بن خالد إذا ركب أعطى كل من تعرّض له ٢٠٠ درهم ويروون من أخبار سخائه ما هو أشبه بالخرافات منه بالحقائق، فقد ذكرنا في ما تقدم أن غلتهم بلغت ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار في السنة فلما قُتل جعفر وقُبضت أموالهم وجدوا ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار في بدر مختومة وعليها صكوك لأناس على سبيل الرواتب أو الصلات أو نحو ذلك، ومن فنون سخائهم أن الفضل بن يحيى كان يكتب رقاعاً بخطه فحواها: (أمعن إلى فلان الصيرفي وخذ منه كذا وكذا ديناراً) حسبما يجريه الله على يده ويركب في الليل أو في القائلة ويخترق شوارع البلد وينثرها فيها. وسُئل عن ذلك فقال: (أردت أن يصل برّي إلى من لا يصل إليَّ ولا أعرفه ولا يعرفني) فإذا وجد أحد رُقعة من هذه الرقاع مضى بها إلى الصيرفي فيأخذها منه ويعطيه ما فيها وعند الصيرفي أمين جالس لئلا يصالحه على بعضها، ولا يعطي لأحد غير رقعةٍ واحدة ولا يسأل عنه ولا يثبت اسمه وربما جاءت بيد الصبي والمرأة والذمي فيأخذ ما فيها واعتبر ذلك في سخائهم على الشعراء فقد أعطوا على القصيدة في مدحهم ١٠٠,٠٠٠ درهم وأول من نال هذه الصلة منهم مروان بن أبي حفصة وصلةُ بها المهدي على قصيدة مدحه بها مطلعها:

(طرقتك زائرة فحيّ خيالها)

ومدحه سالم الخامس بقصيدة مطلعها:

(حضر الرحيل وشدت الأحراج)

فأراد أن ينقص له من جائزة مروان فحلف أنه لا يأخذ إلاّ ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم ويقال أنه أعطاه إياها. أما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه المهدي أي مائة ألف درهم وأعطاه مرة ٥٠٠٠ درهم وعشرة من الرقيق وكان يعطي أبا العتاهية راتباً سنوياً مقداره ٥٠,٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعونات وفاقهم المتوكل في ذلك لأنه أعطى حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها وهو أول من أعطى ذلك وكان المعتصم إذا أعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهراً وقد سبقه إلى ذلك يزيد بن عبد الملك.

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين فقد أعطى المهدي دحمان المغني في ليلة واحدة ٥٠,٠٠٠ دينار لأنه أطربه. وأعطى الأمين إسحاق الموصلي ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم لأنه غنّاه شعراً في مدحه فحملها إلى داره مائة فراش.

أما الرشيد فكان إذا طرب وهب وجاد حتى ولّى إسماعيل بن صالح مصر لأنه أطربه بغنائه.

٦ . المسكر

كان المسكر شائعاً قبل الإسلام فلما جاء الإسلام ورد النصُّ بتحريمه وأقيمت الحدود في منعه ومع ذلك فاختلاط المسلمين بأهل البلاد المفتوحة عوّدهم إياها حتى شربها جماعة من الصحابة وأبنائهم فوقعوا تحت طائلة العقاب. وأول من عوقب على شربها وحشي بن حرب قاتل حمزة (عليه السلام). ومما ساعد على نشر الخمر بين المسلمين أن بعض الخلفاء الأمويين كانوا يشربونها كيزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد، والوليد هذا أول من وصف الخمر وتغزّل بها فسرق الشعراء معانيه وأدخلوها في أشعارهم. وتهتّك الوليد في المسكر حتى حدّثته نفسه أن يسكر فوق الكعبة فخوّفه أصحابه من الناس فأمسك، وقد يطول مجلس الشراب فيسكر الشاربون ويعربدون. وربما أتوا في سكرهم بما لا يأتيه غير المجانين وأفظع ما يروى من هذا القبيل أن الملك الناصر بن الملك المعظم الأيوبي كان إذا سكر يقول: (أشتهي أن أرى غلامي فلاناً طائراً في الهواء) فيرمى ذلك المسكين بالمنجنيق ويراه في الهواء فيضحك ويشرب ويقول: (أشتهي أن أشم رائحة فلان وهو يشوى) فيحضر ذلك الرجل ويقطع لحمه ويشوى. أما العامة فانغمسوا في المسكر وشربوه على أنواعه شأنهم في كل زمان وإن لم يشربه حكامهم، فكيف إذا كانوا يشربون؟

٧ . التهتّك

وطبيعي في ما قدّمناه من الحضارة والترف أن يعتريها شيء من التهتّك والفحشاء وإن كان ذلك لا يخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالباً في المتحضّرين لسكون خواطرهم وتوفّر أسباب الرغد والتنعّم عندهم، كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا لهنّ رايات ينتحيها الفتيان وكان بعض الناس يُكرهون إماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم إليه البغّاؤون عند الحاجة وتفنّنوا في ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات، وأقبح ما ظهر من التهتّك في أثناء هذا

التمدن مغازلة الغلمان وتسريهم وظهر ذلك على الخصوص في أيام الأمين وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من أيام المعتصم وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء. وتسابق الناس إلى اقتنائهم ـ كما تسابقوا إلى اقتناء الجواري ـ وغالوا في تزيينهم وتطييبهم. وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعدّيهم على نسائهم وجواريهم. وفشا حب الغلمان في أهل الدولة بمصر وتغزّل بهم الشعراء حتى غارت النساء من ذلك فعمدن إلى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال.

وكثرة الجواري في بعض القصور جرّهن إلى التفنّن بأساليب الفحشاء وربما اتخذت كل جارية خصّياً لنفسها كالزوج كما فعلت جواري خمارويه صاحب مصر حتى النساء الشريفات فإن قعودهن عن الزواج لعدم وجود الأكفاء أو لأسباب أخرى كان يجرهنّ إلى مثل ذلك فتكاثر الفساد فيهن لقلة التزويج. ذكروا أن ابنة الإخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك وكان لا يزال في الغرب يتحفّز للوثوب على مصر ويخاف الفشل فلما بلغه ما فعلته ابنة الإخشيد استبشر وقال: (هذا دليل السقوط) وجنّد على مصر وفتحها ـ والعفاف سياج العمران ـ .

١ ـ مجالس الخلفاء

تدرّج الخلفاء والأمراء في مظاهر الأُبهة واتخاذ الحُجّاب، بدأ بذلك معاوية بن أبي سفيان وأعانه عليه أمراؤه في العراق ومصر وعملوا مثل عمله وأشاروا عليه بضروب من الفخامة كان عليها ملوك تلك البلاد قبلهم واقتدى بهم سائر خلفاء بني أمية. وزاد العباسيون أسباب الأبهة بمن قرّبوهم من الفرس فأدخلوا في الدولة كثيراً مما كان عليه الأكاسرة في مجالسهم وسائر أحوالهم وبعد أن كانت مصالح الدولة تجتمع في بناء واحد اختصت كل منها بدائرة. وأصبح لبعض كبار الرجال دوائر خاصة بأعماله تشبه ما للخلفاء من دوائر الكتّاب والحسّاب والأطباء وغيرهم، وكان لمجلس الحكم في العصر العباسي داران دار خاصة ودار عامة يجلس الخليفة في الأولى مع رجال الدولة أو من يفد عليه من كبار الأمراء أو الملوك، وينظر في الثانية في سائر الشؤون ويعقد بها المجالس الاعتيادية. وفي وسط القاعة سدّة أو سرير يجلس عليه الخليفة يصنع من العاج أو الأبنوس أو الصندل ينزل بالذهب. وقد غالى

الفاطميون في النفقة على الأسرة حتى يدخل في الواحد منها ١١٠,٠٠٠ مثقال من الذهب الإبريز الخالص. ولما كان الخلفاء يحتجبون عن الناس كانوا يعلقون في وسط القاعة ستراً بينهم وبين الجلساء.

مجالسة الخلفاء

الاستئذان في الدخول

كان الاستئذان على الخليفة في عصر الخلفاء الأربعة أن يقف الرجل بالباب ويقول: (السلام عليكم أأدخل؟) فلما انقضى ذلك العصر أقيم الآذنون والحجّاب يتوسّطون للناس بدخولهم على الخليفة بحسب طبقاتهم وفي أوقات معينة. وأول من رتّب المراتب في الدخول على الخليفة زياد بن أبيه في العراق. وكانوا في أيام بني أمية وفي أوائل الدولة العباسية إذا وفد الناس على الخليفة أو الأمير وقفوا ببابه يلتمسون الإذن فإما أن يأذن لهم أو يصرفهم فإذا صرفهم عادوا ثانية وإذا لم يؤذن لهم هذه المرة عادوا ثالثة حتى يؤذن لهم أو يملّوا. ويعبرون عن ذلك بقولهم الإذن الأول والثاني والثالث إلخ ثم جعلوا للوافدين على الخليفة منازل بجوار دار العامة يقيمون فيها ريثما يؤذن لهم. وربما قبّلوا يد الخليفة عند التحية وكانوا في أوائل الإسلام يقبلونها عند البيعة أو تجديد العطاء وعند العفو أو الوداع، وكان الصحابة يفعلون ذلك مع النبي (صلّى الله عليه وآله) وظل متبعاً مع أكثر الخلفاء، ثم ترفّع هؤلاء عن أن يلمس الناس أكفّهم فصار التقبيل للأكمام والعتبات على حسب الاقتدار، والداخلون على الخليفة يجلسون في المواضع اللائقة بمراتبهم ويتولى إجلاسهم الحاجب أو الآذن.

٣ . الآداب في مجالسة الخلفاء

كانت مجالسة الخلفاء في صدر الإسلام مثل مجالسة سائر الناس، ثم منعوا الكلام في حضرة الخلفاء على الإطلاق وأول من منعه عبد الملك بن مروان. وتجبّر الخلفاء بعد ذلك حتى منعوا الناس من مخاطبتهم كما كانوا يخاطبون أسلافهم. وأول من تجبّر الوليد بن عبد الملك فكلّف الناس أن لا يكلّموه كما كانوا يكلّمون أسلافه. وقال له رجل من بني مرة يوماً: (اتق الله يا وليد فإن الكبرياء لله) فأمر به فوطئ حتى مات فاتّعظ الناس وهابوه. ولما

استولى القواد على الأمور ضعفت هيبة الخلفاء وذهبت تلك الرسوم حتى أبيح اللعب والضحك والهزل في مجالسهم، وأول من أباحها المتوكل على الله في أواسط القرن الثالث للهجرة، وقد قالوا في الاحتراس من مخاطبة الملوك: (من أراد مصاحبة الملك فليدخل كالأعمى وليخرج كالأخرس).

٤ . احتجاب الخلفاء عن جلسائهم

وأول من احتجب معاوية، والحجاب كان شائعاً عند الفرس من عهد أردشير فكانوا ينصبون في مجلس الملك ستارة بينها وبينه عشرة أذرع وبينها وبين الجلساء عشرة أذرع فقلدهم العباسيون. ثم ضاعفوا الحجاب في بعض الأحوال فاتخذوا عدة أستار الواحد وراء الآخر إلى ثلاثة أو أربعة وفعل ذلك وزراؤهم البرامكة أيضاً وجعلوا لقصورهم عدة أبواب الواحد وراء الآخر. ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقرى ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى، وكانوا يجلّون أهل الأدب والعلم ويقرّبونهم ويبذلون لهم الأموال ويدافعون عنهم ولاسيما الرشيد والمأمون. ومن أدلة إجلالهم للعلم أنهم كانوا يحرّضون أبناءهم على تلقّيه وحفظ الأشعار والأخبار ويعيّنون لهم المعلمين من نخبة العلماء المعاصرين، وعهد المأمون إلى الفرّاء بتعليم ولديه النحو واتفق أن الفراء أراد أن ينهض ذات يوم إلى حوائجه فابتدرا إلى نعله ليقدماها له فتنازعا أيهما يقدمها ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما واحدة.

٥ . مجالس المناظرة والعلم

كانت مجالس الأدب في أيام بني أمية وأوائل بني العباس يقتصر البحث فيها على المسائل الأدبية والعلوم اللسانية فلما ترجمت علوم القدماء في العصر العباسي ونشأ علم الكلام شاعت المناظرة بين العلماء والفقهاء. وقد سبق الناس إلى العناية في ذلك البرامكة فكان ليحيي بن خالد مجلس يجتمع فيه المتكلمون وغيرهم من أهل النحل يتباحثون في الكون والظهور والقدم والحدوث والإثبات والنفي وغيرها من الأبحاث الفلسفية المبنية على علم الكلام. ثم اهتم الخلفاء أنفسهم في ذلك، ولما استقرت الدولة الفاطمية بمصر فعل وزيرها يعقوب بن كلس مثل فعل يحيي وزير العباسيين فأنشأ مجالس للمناظرة في الفقه والأدب

والشعر وعلم الكلام وغيره، وغرض هذه الدولة إثبات مذهب الشيعة لأن عليه قامت دولتهم، فأخذ الحاكم بأمر الله يفاوض العلماء ويجيزهم ويسهّل عليهم البحث والمناظرة في دار الحكمة التي أنشأها في القاهرة وربما عقدوا حلق المناظرة في الجوامع أو غيرها.

٦ . مجالس الغناء والأنس

تقدم الكلام في تاريخ الغناء وأصله وانتشاره وقد رغب الخلفاء فيه على الخصوص إبان الحضارة وعصر الرخاء والترف وجعلوا للمغنين نوبات يدخلون فيها مجالسهم، ومن أكثر الخلفاء الأمويين رغبة في الغناء وبذلاً للمغنين يزيد بن عبد الملك، وكذلك كان ابنه الوليد بن يزيد. ومن الخلفاء العباسيين المهدي والرشيد والأمين والمأمون والواثق والمتوكل ومن نبغ في أيامهم من الوجهاء والعظماء.

ومن توابع مجالس الغناء المضحكون والمجّانون أشهرهم أشعب في دولة بني أمية، وأبو الحسن الخليع الدمشقي في أيام الرشيد، وأبو العبر في أيام المتوكل وكثيرون غيرهم، فكانوا إذا عقدت مجالس الأنس ودارت الأقداح وطرب الخليفة لبسوا ملابس مضحكة يقلّدون بها الدب أو القرد ويعلّقون في أعناقهم الجلاجل والأجراس مما يضحك الثكلى. وكان بعض الخلفاء إذا استخفّهم الطرب كلّفوا هؤلاء المجانين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتلذّذون بعذابهم، فالمتوكل كان إذا طرب أمر بأبي العبر المجان أن يرمى به في المنجنيق إلى الماء وعليه قميص حرير فإذا علا في الهواء صاح: (الطريق الطريق) ثم يقع في الماء فيخرجه السبّاح. وكان الأمين إذا طرب صاح في ندمائه وجلاّسه: (من يكون منكم حماري؟) فكل واحد يقول: (أنا) فيركب الواحد ويصله وكان يقع في مجالس الوليد بن يزيد من السكر والفحش في القول والفعل ما نتحاشى ذكره.

٧ . مواكب الخلفاء

كان الخلفاء الأولون كسائر الناس يمشون وحدهم راجلين أو راكبين ثم تدرّج بنو أمية وبنو العباس في الأُبهة بتدرّجهم في أسباب المدنية واتساع السلطة حتى اصطنعوا المحامل أو القباب أو المحفات يحملون بها بدل الركوب على الخيل ثم صاروا يركبون والناس يمشون بين

أيديهم. ثم صار الناس يمشون بين أيدي الخلفاء بالسلاح وأول من فعل ذلك الهادي العباسي فكان إذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والأعمدة المشهورة والقسي الموتورة فلما خلّفه الرشيد تجاوزه فاتخذ خدماً صغاراً يسمّونهم النمل يتقدّمونه وبأيديهم قسي البندق يرمون بها من يعارضه من الناس. وكان السلاجقة يركبون الطبل والبوق والعلم على رؤوسهم. وأول من صفّت له الجنود يزيد بن الوليد الأموي فكان يخرج يوم العيد بين صفّين عليهم السلاح، وكان الخلفاء الفاطميون يركبون يوم الجمعة إلى الجامع الأزهر بالمظلّة المذهّبة وبين أيديهم نحو ٥٠٠٠ ماشٍ وعلى الخليفة الطيلسان والسيف وبيده قضيب الخلافة حتى يأتي الجامع ويصلي.

٨ . احتفالاتهم

والاحتفالات في التمدن الإسلامي بعضها ديني كالمواليد والأعياد والكسوة، وبعضها وطني كالنيروز والمهرجان، ولهم في كل من هذه الأعياد رسوم وقواعد يبذلون فيها الأموال ويفرّقون الصدقات ويهدون الهدايا من النقود والثياب والحلي وغيرها مما يطول شرحه. فمثلاً في زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران إلى الخليفة المأمون احتفلوا به احتفالاً لم يسبق له مثيل، ذكروا أنه خدم في ذلك الاحتفال ٣٦,٠٠٠ ملاح ونفذ الحطب يوماً فأوقدوا تحت القدور الخيش مغموساً في الزيت، ولما كانت ليلة البناء وجليت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب وجيء بمكتل مرصّع بالجواهر فيه دُرر كبار نثرت على النساء وكانت في المجلس شمعة عنبر فيها مائة رطل فضج المأمون من دخانها فعملت له مثلها من الشمع فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار. وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وأقطعه فم الصلح فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة. وجاء المأمون إلى عروسه في الليلة التالية فنثرت عليه جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب.

٩ . استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان فخيماً يظهرون به عز الإسلام ولاسيما إذا كان القادمون من وفود الدول غير الإسلامية من الروم أو الهند أو الإفرنج. والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الأحوال نذكر من أمثلته احتفال المقتدر العباسي برسل جاءوه من ملك الروم سنة٣٠٥هـ فإنه استقبلهم في دار الشجرة التي تقدم ذكرها وعبّأ لهم الجيوش وُصفّت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠,٠٠٠ رجل بين راكب وواقف. ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق المحلاة وكانوا اثنين وعشرين ألفاً. ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف منهم ٤٠٠٠ خادم أبيض و٣٠٠٠ خادم أسود. ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب وزُيِّنت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة. وزيِّنت دار الخلافة وكانت جملة الستور المعلّقة عليها ٣٨,٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢,٥٠٠ ستر وكانت جملة البُسط ٢٢,٠٠٠ بساط واستعرضوا مائة من السباع.

ألعاب الخلفاء وملاهيهم

١ . الصيد والقنص

كان الصيد معروفاً في الجاهلية ولكنه كان قاصراً على صيد غزال أو طائر بالنبل أو الفخ فلما تمدّن العرب بعد الإسلام وخالطوا الفرس والروم توسّعوا في طرائق الصيد. وأول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية وكان صاحب طرب وجوارح وقرود وفهود وله وَلَهٌ بالصيد فاتخذه للهو، حتى إذا أفضى الأمر إلى بني العباس ورسخت أقدامهم في الدولة اهتموا بالصيد وتفنّنوا في تربية الجوارح والكلاب والفهود وغالوا في انتقائها. وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير فضلاً عن الغزلان والطيور وحمر الوحش، وقس على ذلك سائر ملوك المسلمين فقد عدّوا ما اصطاده السلطان ملك شاه السلجوقي من الحيوانات فبلغ عشرة آلاف رأس حتى بنى من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها منارة.

٢ . الحلبة أو السباق

لم تبق أمة من الأمم القديمة أو الحديثة إلا لهجت بالسباق وبعد الإسلام بالغوا في اتخاذ الميادين واستكثروا من الخيول وتفنّنوا في تضميرها. ومن غريب ما ذكروه أن يزيد بن معاوية كان له قرد يكنّى أبا قيس يُحضره مجلس منادمته ويطرح له متكأ وكان نبيهاً خبيثاً يحمله على أتان وحشية قد رُيغت وذُلِّلت لذلك بسرج ولجام وكان يسابق بها الخيل يوم الحلبة. وكان لهشام بن عبد الملك رغبة في الحلبة يختار الخيل الجيدة للسباق ويبذل في اقتنائها الأموال فاجتمع عنده ٤٠٠٠. أما العباسيون فلم يكونوا أقل رغبة في السباق وكانت لهم ميادين كبيرة في الرقة والشماسية.

٣ . ارتباط السباع

وكان من ملاهي الخلفاء والملوك ارتباط الأسود والفيلة والنمور لإثبات الهيبة في قلوب الرعية وأول من اهتم بذلك بنو العباس فكان المنصور كثير العناية في جمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة إياها وكان للرشيد أقفاص فيها الأسود والنمور وغيرها وغالى الذين جاءوا بعده باقتنائها واقتناء الكلاب والقردة ونحوها، ذكروا أنه كان عند أم جعفر زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلاً وكانوا يلبسونه لباس الناس ويقلّدونه السيف وإذا ركب ركبوا في خدمته وإذا دخلوا عليه قبّلوا يده، فجاء يزيد بن مرثد يوماً إلى أم جعفر ليودّعها قبل سفره فأتوا إليه بالقرد وأمروه أن يقبّل يده فشقّ عليه ذلك وجرّد السيف وقطعه نصفين وانصرف فبعث إليه الرشيد وعاتبه فقال: (يا أمير المؤمنين أبعد أن أخدم الخلفاء أخدم القرود؟ لا والله أبداً) فعفا عنه.

واتخذ الخليفة الناصر الأموي في مدينة الزهراء محلات للوحوش والسباع واسعة الأرجاء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظلّلة بالشباك كالأقفاص الكبيرة.

سبحان ربك رب العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين

والعاقبة للمتقين

كربلاء المقدسة

محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي